المكتبة الصوفية

الفتح الربانى

والفيض الرحمانى

تأليف

سيدى عبد القادر الجيلانى

(من ٤٧٠ - ٥٦١ هـ)

تحقيق وضبط

الأستاذ الدكتور

أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار

توفيق على وهبة



الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

قال تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ
يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ
﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾

صدق الله العظيم

(سورة يونس الآيتان ٦٢-٦٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، نحمده -سبحانه وتعالى- حمدًا كثيرًا طيبًا.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، والمبعوث رحمة وهداية للناس أجمعين.

وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد ،،،

فإن كتاب: «الفتح الرباني والفيض الرحماني» للإمام الجليل العارف بالله سيدي عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة ٥٦١هـ من الكتب الفاتحة لكل مسلم سالك.

وقد يكون واضحًا أن التصوف الإسلامي يقوم على مجموعة قيم راقية. وحين يتحقق التطابق بين القيم والمتصوف. لا تصبح الصوفية ادعاء مجردًا. بل تتجسد في عقية وقيم، تملأ العقل، وتسيطر على المشاعر، والأحاسيس إلا أن الصوفية تظل تجريدًا وعمومًا. ما لم يكن بين أيدي الناس في المجتمعات المختلفة تشخيص محسوس يمثلها تمثيلاً واقعيًا وسليمًا وتحديدًا ملموسًا كذلك سهل التناول، يسير التطبيق. يمكن للإنسان أن يسلك سبل الحياة بموجبه. سواء في مستوى الإيمان والمعتقد، أو في مجال التطبيق والامتثال.

ومما ينبغي أن يدرك أن التصوف الإسلامي، هو منطلق عباد الرحمن الذين ليسوا في المنهجية الإسلامية سوى سلوكية هادفة وواعية. سلوكية ليست وهمية. بل إنسانية وعملية. تبلغ أقصى درجات الدقة في التحقيق حينما تتمخض عبودية خالصة لله تعالى.

فإذا نال المؤمن المنتسب إلى التصوف الإسلامي مرتبة العبودية، وصار من عباد الرحمن. فقد بلغ قمة السمو الإنساني، وحقق مرتبة القرب الإلهي، وعاش أوج الشوق الروحي. نحو السلام القدوس.

والقرآن الكريم عندما يتحدث عن عباد الرحمن، يعرضهم نموذجًا حركيًا للإنسان، تجللهم صفة العُباد، وتميزهم صبغة الإيمان. وقد أحاطهم الله عز وجل بالعناية والنسبة إلى الرحمن، فهم عباد مصطفون، ومختارون للانتماء إلى هذا المجد العظيم عباد الرحمن. وهم ما استحقوا هذا الإنضواء إلا بعد أن أشرقت في نفوسهم

أنوار الرحمة، وامتدت في آفاقهم ظلال الهدى، فصاروا عبادًا للرحمن، يتعاملون في المجتمع بأسلوب الرحمة، وينسابون على الأرض بخطى الود والسلام.

عرفوا أنفسهم، وأدركوا خالقهم، فتواضعوا بين يدي الله، فلا عالم الأشياء المتلاطم بصوره وأحداثه يملأ قلوبهم، ولا ضجيج الحياة وزخرف الدنيا يزرع الكبرياء في نفوسهم. كيف وقد انفتحت آفاقهم على ذلك العالم القدسي فأطلت أرواحهم عليه. لذا استحقوا أن يكونوا قدوة رائدة في طريق الحياة، متصفين بأخلاق الرحمن، يعفون ويصفحون، فيشعيون في ربوع الأرض السلام.

ولعل المتأمل أعماقًا وأبعادًا يدرك أن الإسلام الحنيف. قد حرص على إحاطة الإنسان بمناعات عقدية وخلقية وتربوية. تحول أن يتأثر الإنسان بالمغريات أو التيارات التي تحط من مكانته. كما زود الإسلام الإنسان بمضادات ذات قيم فعالة تعالج ما قد يبتلى به من إصابات سلوكية، تنجم عنها أعراض اجتماعية ضارة. ومما هو واضح أن في الإنسان «قابلية التأثر» وهو يملك أيضًا القدرة على التأثير.

فكان لابد في التصوف الإسلامي وشيوخ الطريق من صيانة قابلية التأثر لدى الصوفي.

ولما كان التصوف يملك القدرة على التأثير فيما حوله. أصبح من الضروري أن يظل الصوفي سليمًا لتظل تأثيراته سليمة وصحيحة.

فالنظرة الشمولية التي يرتكز عليها التصوف الإسلامي في تقويم السلوك تقرر أن هذا السلوك ينعكس لا على حياة الإنسان من الأمن والاستقرار فحسب. بل على الموجودات كافة بشكل مباشر أو غير مباشر إذ ما من طاقة إلا ولها تأثير. لذلك اهتم المنهج الصوفي بالسلوك الذي يهيئ المجتمع إلى اكتشاف دوره، ومعرفة أهميته وقيمته.

والصوفية الذين عاش الإيمان في نفوسهم أملاً وحقيقة، وتجسد في حياتهم سلوكًا ووقائع. هم أفضل من يؤثر في المجتمع، وأفضل من يصنع السلام والأمن. ولقد ترك الأسلاف زخائر من التراث الصوفي. تساهم في إعطاء المجتمعات ما تحتاج إليه من الاستقرار والسلوك السليم.

ونحن ندرك: أن التصوف الإسلامي، يرفض التحجر والجمود، ولا يرضى للسالكين أن يعيشوا غائبي الوعي، مشلولي الإدراك..

ومن يتأمل زخائر التصوف الإسلامي.. يجد أنها معالم تضيء في طريق المجتمع،

وتؤثر تأثيرًا كبيرًا في ثقافة الناس..

والباحث في ثقافة الأمم والمجتمعات، يجد أن التصوف الإسلامي أكثر تأثيرًا في تلك الثقافات، لما يقوم عليه من قيم وضوابط ومعايير.

وكتاب «الفتح الرباني والفيض الرحماني» يحتاج إليه كل عالم وواعظ وداعية. لما تميز به من التوجيهات العظيمة، والإرشادات المفيدة، والنصائح الغالية.

وقد يكون واضحًا أن نشر هذه المؤلفات العظيمة في المجتمعات الإنسانية. يزيد من فرص استقرار المجتمعات واطمئنانها..

لذا نعمل نحن على نشر كتب التصوف الإسلامي وعلم الكلام والفلسفة. لأن هذه الكتب تنطلق من الإسلام، تساهم في ثقافة السلام التي تنشرها المجتمعات الإنسانية.

ولا شك أن كتب التصوف الإسلامي في مقدمة الكتب التي تستمد منها قلوب المؤمنين كل ما يؤهلها للعطاء.

أسأل الله أن ينفع به أنه سميع مجيب

تحقيق وضبط

المستشار توفيق علي وهبه — أ.د أحمد عبد الرحيم السايح

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[1]

(قرآن كريم)

اللهم يا من علم عجزي عن حمده، أسألك بأكمل حامديك الذي كشف له عن حقائق أسمائك وصفاتك، ودقائق تجلياتك.

فعرفك معرفة تليق بكمالاتك، وألهمته إذ ذاك من محامدك مالم تلهمه غيره، كما ستلهمه ذلك كضاعفاً في يوم ظهور فردانيته يكمل فيها ظهور مظهريته.

أن تصلي وتسلم عليه صلاة وسلاما لائقين بكمالك الأقدس، على وجود الأنفس.

وأن تعم بما تورده من شرائف صلواتك وسلامك دوائر وجوده الحسي ووجوده المعنوي، وما يتعلق بهما من عالمي الخلق والأمر.

حتى لا تدع ياربنا أحدا من أنبيائك ورسلك وملائكتك وصالحي عبادك، إلا وقد شمله التعميم بذلك الفضل العظيم.

---

(1) سورة فاطر، الآية ٢.

المجلس الأول

علم الاعتراض على الله

قال سيدنا الشيخ محيي الدين أبو محمد عبد القادر رضي الله عنه بكرة يوم الأحد بالرباط ثالث شوال سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

الاعتراض على الحق عز وجل عند نزول الأقدار موت الدين، موت التوحيد، موت التوكل والإخلاص. والقلب المؤمن لا يعرف لم وكيف: بل يقول: بلى النفس كلها مخالفة منازعة، فمن أراد صلاحها فليجاهدها حتى يأمن شرها، كلها شر في شر، فإذا جوبهت واطمأنت صارت كلها خيراً في خير، تصير موافقة في جميع الطاعات وفي ترك جميع المعاصي، فحينئذ يقال لها:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾(1)

يصح لها توفان، ويزول عنها شرها ولا تتعلق بشيء من المخلوقات، يصح نسبها من أبيها إبراهيم عليه السلام، فإنه خرج عن نفسه وبقي بلا هوى، يجري وقلبه ساكن، جاءه أنواع من المخلوقات وعرضوا نفوسهم عليه في معاونته وهو يقول: لا أريد مغونتكم، علمه بحالي يغنيني عن سؤالي، لما صح تسليمه وتوكله، قيل للنار: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾(2) معونة الله عز وجل للصابر معه في الدنيا بغير حساب، ونعيمه في الآخرة بغير حساب. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ ﴾(3).

لا يخفى على الله شيء، بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، اصبروا معه ساعة وقد رأيتم لطفه وإنعامه سنين، الشجاعة صبر ساعة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ﴾(4).

بالنصر والظفر. اصبروا معه، وانتبهوا له، ولا تغفلوا عنه، ولا تتركوا انتباهكم بعد الموت، فإنه لا ينفعكم الانتباه في ذلك الوقت، انتبهوا له قبل لقائه.

---

(1) سورة الفجر: الآيتان ٢٧، ٢٨.
(2) سورة الأنبياء: الآية ٦٩.
(3) سورة الزمر: الآية ١٠.
(4) سورة البقرة: الآية ١٥٣.

انتبهوا قبل أن تنتبهوا بلا أمركم فتندموا وقت لا ينفع الندم، وأصلحوا قلوبكم فإنها إذا صلحت صلح لكم سائر أحوالكم، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(فِي ابْنِ آدمَ مُضغَةٌ إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ لَهَا سَائِرُ جَسَدِهِ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ جَسَدِهِ، ألا وَهِيَ القَلْبُ).

صلاح القلب بالتقوى والتوكل على الله عزّ وجل، والتوحيد له والإخلاص في الأعمال، وفساده بعدم ذلك.

القلب طائر في قفص البنية كدرة في حقة، كمال في خزانة، فالاعتبار بالطائر، لا بالقفص، بالدرة لا بالحقة، بالمال لا بالخزانة.

(اللهم) اشغل جوارحنا بطاعتك، وقلوبنا بمعرفتك، واشغلنا طول حياتنا في ليلنا ونهارنا، والحقنا بالذين تقدموا من الصالحين، وارزقنا مارزقتهم، وكن لنا كما كنت لهم آمين.

(ياقوم) كونوا لله عز وجل كما كان الصالحون له، حتى يكون لكم كما كان لهم، ان أردتم أن يكون الحق عزّ وجلّ لكم فاشتغلوا بطاعته والصبر معه، والرضا بأفعاله فيكم وفي غيركم. القوم زهدوا في الدنيا، وأخذوا أقسامهم منها بيد التقوى والورع، ثم طلبوا الآخرة وعملوا أعمالها، عصوا نفوسهم وأطاعوا ربهم عزّ وجلّ، وعظوا نفوسهم ثم وعظوا نفوس غيرهم.

(يا غلام) عظ نفسك أولاً ثم عظ نفس غيرك، عليك بخويصة نفسك، لا تتعدّ إلى غيرك وقد بقي عندك بقية تحتاج إلى إصلاحها، ويحك أنت تعرف كيف تخلص غيرك؟ أنت أعمى كيف تقود غيرك، إنما يقود الناس البصير، إنما يخلصهم من البحر السابح المحمود.

إنما يرد الناس إلى الله عزّ وجل من عرفه، أما من جهله كيف يدل عليه، لا كلام لك في تصرف الله عزّ وجلّ، وتحبه وتعمل له لا لغيره، وتخاف منه لا من غيره، هذا بالقلب يكون لا بقلقلة اللسان، هذا في الخلوة يكون لا في الجلوة.

إذا كان التوحيد بباب الدار والشرك داخل دار فهو النفاق بعينه، ويحك أنت لسانك يتقى وقلبك يفجر، لسانك يشكر وقلبك يعترض. قال الله عزّ وجلّ:

(يا ابنَ آدم: خيري إليك نازلٌ وشرك إليّ صاعدٌ).

ويحك تدعي أنك عبده وتطيع سواه، لو أنك عبده على الحقيقة لعاديت فيه وواليت فيه، والمؤمن الموقن لا يطيع نفسه وشيطانه وهواه، لا يعرف الشيطان حتى يطيعه، لا يبالي بالدنيا حتى يذلّ لها، بل يهينها ويطلب الآخرة، فإذا حصلت له تركها واتصل بمولاه عزّ وجلّ، يخلص عبادته له في جميع أوقاته، سمع قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾(١).

دع عنك الشرك بالخلق ووحد الحق عزّ وجلّ، هو خالق الأشياء جميعها، وبيده الأشياء جميعها. يا طالب الأشياء من غيره ما أنت عاقل، هل شيء ليس هو في خزائن الله عزّ وجلّ؟ قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾(٢).

(يا غلام) نم تحت ميزاب القدر متوسداً بالصبر متقداً بالموافقة عابداً بانتظار الفرج، فإذا كنت هكذا صب عليك القَدَر من فضله ومننه مالا تحسن تطلبه وتتمناه.

(يا قوم) وافقوا القدر، واقبلوا من عبد القادر المجتهد في موافقة القدر. موافقتي للقدر تقدمني إلى القادر.

(يا قوم) تعالوا نذلّ لله عزّ وجلّ ولقدره وفعله، ونطاطيء رؤوس ظواهرنا وبواطننا، نوافق القدر ونمشي في ركابه، لأنه رسول الملك، نكرمه لأجل مرسله، فإذا فعلنا ذلك معه في صحبته إلى القادر:

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾(٣).

يهنأ لك الشرب من بحر علمه، والأكل من سماط فضله، والاستئناس بأنسه والتغمد برحمته، هذا لآحاد أفراد من كل ألف ألف واحد من جميع العشائر والقبائل.

(يا غلام) عليك بالتقوى، عليك بحدود الشرع والمخالفة للنفس والهوى والشيطان وأقران السوء. المؤمن في جهاد هؤلاء لا ينكشف رأسه عن الخود، لا ينغمد

---

(١) سورة البينة، الآية ٥.
(٢) سورة الحجر، الآية ٢١.
(٣) سورة الكهف، الآية ٤٤.

سيفه، لا يعرو ظهر فرسه عن قربوس سرجه، ينام نوم القوم غلبة أكلهم فاقة كلامهم ضرورة الخرس دأبهم.

وإنما قدر ربهم ينطقهم فعل الله ينطقهم، ويحرك منطقهم في الدنيا، كما ينطق الجوارح غداً يوم القيامة ينطقهم الله عزّ وجلّ الذي ينطق كلّ ناطق، ينطقهم كما ينطق الجماد، يهيئ لهم أسباب النطق فينطقون.

إذا أرادهم لأمر هيأهم له، أراد أن يبلغ الخلق بالنذارة والبشارة لارتكاب الحجة عليهم فأنطق الأنبياء والمرسلين، فلما قبضهم إليه أقام العلماء العمال بعلمهم فينطقهم بما يصلح الخلق نيابة عنهم. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(العلماء ورثة الأنبياء).

(يا قوم) اشكروا الله عزّ وجلّ على نعمه وانظروها منه، فإنه قال:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ (١).

أين الشكر منكم يامتقلبين في نعمه، يا من يرى نعمه من غيره، تارة ترون نعمه من غيره، وتارة تستقلونها وتنظرون إلى ما ليس عندكم، وتارة تستعينون بها على معاصيه.

(يا غلام) تحتاج في خلوتك إلى ورع يخرجك عن المعاصي والزلات، ومراقبة تذكرك نظر الحقّ عزّ وجلّ إليك، أنت محتاج مضطر إلى أن يكون هذا معك في خلوتك ثم تحتاج إلى محاربة النفس والهوى والشيطان.

خراب معظم الناس مع الزلات، وخراب الزهاد مع الشهوات، وخراب الأبدال مع الفكر والخواطر في الخلوات، وخراب الصديقين في اللحظات، شغلهم حفظ قلوبهم لأنهم نيام على باب الملك، هم قيام في مقام الدعوة. يدعون الخلق إلى معرفة الحق عزّ وجل، لا يزالون يدعون القلوب، يقولون: يا أيتها القلوب يا أيتها الأرواح يا إنس ويا جن يا مريدي الملك، هلموا إلى باب الملك، اسعوا إليه بأقدام قلوبكم، بأقدام تقواكم وتوحيدكم ومعرفتكم وورعكم السامي والزهد في الدنيا والآخرة.

وفيما سوى المولى هذا شغل القوم، همهم إصلاح الخلق، همهم تعم السماء والأرض

---

(١) سورة النحل: الآية ٥٣.

من العرش إلى الثرى.

(يا غلام) دع عنك النفس والهوى، كن أرضاً تحت أقدام هؤلاء القوم، تراباً بين أيديهم، الحق عزّ وجل ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾[1] أخرج إبراهيم عليه السلام من أبويه الموتى بالكفر، المؤمن حيّ، والكافر ميت. الموحد حيّ، والمشرك ميت.

ولهذا قال الله عز وجلّ في بعض كلامه (أول من مات من خلقي إبليس) يعني عصاني فمات بالمعصية. هذا آخر الزمان، قد ظهر سوق النفاق، سوق الكذب، لا تقعدوا مع المنافقين الكاذبين الدجالين، ويحك نفسك منافقة كاذبة كافرة فاجرة مشركة: كيف تقعد معها؟ خالفها ولا توافقها، قيدها ولا تطلقها، أسجنها وأجر عليها حقها الذي لابد لها منه، اقمعها بالمجاهدات.

وأما الهوى فاركبه ولا تخله يركبك، والطبع فلا تصحبه، فإنه طفل صغير لا عقل له، كيف تتعلم من طفل صغير وتقبل منه؟ والشيطان فهو عدوك وعدوّ أبيك آدم عليه السلام، كيف تسكن إليه وتقبل منه وبينك وبينه دم وعداوة قديمة؟ لا تأمن منه فإنه قاتل أبيك وأمك.

فإذا تمكن منك قتلك كما قتلهما. اجعل التقوى سلاحك، والتوحيد لله عزّ وجل والمراقبة له والورع في الخلوات والصدق والاستعانة بالله عزّ وجل جندك، فهذا السلاح وهذا الجند هم الذين يهزمونه ويهدمونه ويكسرون جيشه، كيف لا تهزمه والحق معك؟

(يا غلام) اقرن بين الدنيا والآخرة واجعلهما في موضع واحد، وانفرد بمولاك عزّ وجلّ عرياناً من حيث قلبك بلا دنيا ولا آخرة، لا تقبل عليه إلا مجرّداً مما سواه، ولا تتقيد بالخلق عن الخلق، اقطع هذه الأسباب واخلع هذه الأرباب، فإذا تمكنت فاجعل الدنيا لنفسك، والآخرة لقلبك، والمولى لسرك.

(يا غلام) لا تكن مع النفس، ولا مع الهوى، ولا مع الدنيا، ولا مع الآخرة، ولا تتابع سوى الحق عزّ وجل، وقد وقعت بالكنز الذي لا يفنى أبداً، حينئذ تجيئك الهداية من الحق عزّ وجلّ التي لا ضلال بعدها. تب عن ذنوبك وهرول عنها إلى مولاك عزّ

---

(١) سورة يونس، الآية ٣١.

وجل. إذا تبت فليتب ظاهرك وباطنك، والتوبة قلب دولة.

اخلع ثياب المعاصي بالتوبة الخالصة، والحياء من الله عزّ وجلّ حقيقة لا مجازاً، هذا من أعمال القلوب بعد طهارة الجوارح بأعمال الشرع. القالب له عمل، والقلب له عمل. القلب إذا خرج في فيافي الأسباب والتعلق بالخلائق ركب بحر التوكل والمعرفة بالله عزّ وجلّ والعلم به، وترك السبب وطلب المسبب. فإذا توسط في هذا البحر فهنالك يقول:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾(١).

فيهدي من ساحل إلى ساحل، من موضع إلى موضع، حتى يقف على الجادة المستقيمة، فكلما ذكر ربه تجلت جادته، وانكشف الدغل عنها. قلب الطالب للحق عزّ وجلّ يقطع المسافات، ويخلف الكل وراءه.

فإذا خاف في بعض الطريق من الهلاك برز إيمانه فشجعه، فتخمد نيران الوحشة والخوف، ويأتي بدلها نور الأنس والفرح بالقرب.

(يا غلام) إذا جاءك الداء فاستقبله بيد الصبر، واسكن حتى يجيء الدواء، فإذا جاء الدواء فاستقبله بيد الشكر، فإذا كنت على هذا الحال كنت في العيش العاجل، الخوف من النار يقطع أكباد المؤمنين، ويصفر وجوههم، ويحزن قلوبهم.

فإذا تمكن هذا منهم، صب الله عزّ وجلّ على قلوبهم ماء رحمته ولطفه، وفتح لها باب الآخرة فيرون مأمنها، فإذا سكنوا واطمأنوا وارتاحوا قليلاً فتح لهم باب الجلال، فقطع قلوبهم وأسرارهم، وكثر خوفهم أشد من الأول، فإذا تم لهم فتح لهم باب الجمال، فسكنوا واطمأنوا وتنبهوا وتبوءوا درجات هي طبقات، شيء بعد شيء.

(يا غلام) لا يكن همك ما تأكل وما تشرب وما تلبس وما تنكح وما تسكن وما تجمع، كل هذا هم النفس والطبع، فأين هم القلب والسرّ وهو طلب الحق عزّ وجلّ. همك ما همك، فليكن همك ربك عزّ وجلّ وما عنده.

الدنيا لها بدل وهو الآخرة، والخلق لهم بدل وهو الخالق عزّ وجلّ. كلما تركت شيئاً من هذا العاجل أحدث عوضه وخيراً منه في الآجل. قدّر أن قد بقي من عمرك

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٧٨.

هذا اليوم فحسب، تهيأ للآخرة تهدف لمجيء ملك الموت. الدنيا طباخة للقوم والآخرة معمرة لهم، فإذا جاءت الغيرة من الله عزّ وجلّ حالت بينهم وبينها.

ويقام التكوين مقام الآخرة، فلا يحتاجون لا إلى الدنيا ولا إلى الآخرة. يا كذاب أنت تحب الله عزّ وجلّ في حالة النعمة، فإذا جاء البلاء هربت كأن لم يكن الله عزّ وجلّ محبوبك. إنما يتبين العبد عند الاختبار إذا جاءت البلايا من الله عزّ وجلّ وأنت ثابت فأنت محب، وإن تغيرت بان الكذب وانتقض الأول وذهب.

جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أحبك، فقال:

(استعد للفقر جلبابا).

وجاء رجل آخر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني أحب الله عزّ وجلّ، فقال:

(اتخذ للبلاء جلبابا).

محبة الله ورسوله مقرونان بالفقر والبلاء.

ولهذا قال بعض الصالحين: وكّل البلاء بالولاء، كي لا يدعي لو لم يكن كذلك، وإلا كان كل أحد يدعي محبة الله عزّ وجلّ. فجعل الثبات على البلاء والفقر تنبيها على هذه المحبة:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠١.

المجلس الثاني

[في الفقر]

وقال رضي الله عنه بالمدرسة خامس شوال سنة خمس وأربعين وخمسمائة: غرتك بالله تنحيك وغيبتك عنه، ارجع عن غرتك قبل أن تضرب وتهان وتسلط عليك حيات البلايا وعقاربها، ما ذقت طعم البلاء، فلا جرم تغتر، لا تفرح بجميع ما أنت فيه فهو شيء زائل عن قريب، قال عزّ وجل:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [1].

إنما يظفر بما عند الله عزّ وجلّ بالصبر، ولهذا أكد الله عزّ وجلّ أمر الصبر. الفقر والصبر لا يجتمعان إلا في حق المؤمن، المحبون يبتلون فيصبرون ويلهمون فعل الخيرات مع بلائهم ويصبرون على ما يتجدد عليهم من عند ربهم عزّ وجلّ.

لولا الصبر لما رأيتموني بينكم، قد جعلت شباكاً تصطاد الطيور، من ليل إلى ليل، يفتح عن عيني ويخلي عن رجلي بالنهار، مغمض العينين ورجلي مشدودة في الشبكة فعل ذلك لمصلحتكم وأنتم لا تعرفون، لولا موافقة الحق عزّ وجلّ، وإلا فهل عاقل يقعد في هذه البلدة ويعاشر أهلها قد عم فيها الرياء والنفاق والظلم وكثرة الشبهة والحرام.

قد كثر كفران نعم الحق عزّ وجلّ والاستعانة بها على الفسق والفجور، وقد كثر العاجز في بيته المتبقي في دكانه، الزنديق في شرابه، الصديق على كرسيه. لولا الحكم لتكلمت بما في بيوتكم، ولكن لي أساس يحتاج إلى بناء، لي أطفال يحتاجون إلى تربية، لو كشف بعض ما عندي كان ذلك سبب الفراق بيني وبينكم أحتاج في هذه الحالة التي أنا فيها إلى قوة النبيين والمرسلين، أحتاج إلى صبر من تقدم من آدم إلى زماني، أحتاج إلى القوة الربانية. اللهم لطفاً وعوناً ورضاً آمين.

(يا غلام) ما خلقت للبقاء في الدنيا والتمتع فيها، فغير ما أنت فيه من مكاره الحق عزّ وجلّ، قد قنعت من طاعة الله عزّ وجلّ بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذا لا ينفعك حتى تضيف إليه شيئاً آخر: الإيمان قول وعمل، لا يقبل منك ولا ينفعك. إذا أتيت بالمعاصي والزلات ومخالفة الحق عزّ وجلّ، وأصررت على ذلك وتركت

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٤٤.

الصلاة والصوم والصدقة وافعال الخير، أيّ شيء ينفعك؟ الشهادتان.

إذا قلت لا إله إلا الله فقد ادعيت، يقال أيها القائل: ألك بينة؟ ما البينة؟ امتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات والتسليم إلى القدر، هذه بينة هذه الدعوى، وإذا عملت هذه الأعمال ما تقبل منك إلا بالإخلاص للحق عزّ وجلّ، ولا يقبل قول بلا عمل، ولا عمل بلا إخلاص، وإصابة السنة. واسوا الفقراء بشيء من أموالكم، لا تردوا سائلاً وأنتم تقدرون أن تعطوه شيئاً قليلاً كان أو كثيراً.

وافقوا الحق عزّ وجلّ في حبه العطاء، واشكروه كيف أهلكم وأقدركم على العطاء. ويحك إذا كان السائل هدية الله عزّ وجلّ وأنت قادر على إعطائه فكيف ترد الهدية على مهديها؟ عندها تستمع وتبكي. وإذا جاء الفقير يقسو قلبك فدل على أن بكاءك وسماعك ما كان خالصاً لله عزّ وجلّ. السماع عندي أولاً بالسرّ، ثم بالقلب، ثم بالجوار في الخير.

إذا دخلت عليّ فادخل وقد عزلت علمك وعملك ولسانك ونسبك وحسبك مع نسيان مالك وأهلك، قف بين يديّ عريان القلب عمّا سوى الحق عزّ وجلّ حتى يكسوه بقربه وفضله ومننه، إذا فعلت هذا عند دخولك عليّ صرت كالطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً، نور القلب من نور الحق عزّ وجلّ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عزّ وجلّ).

أيها الفاسق: اتق المؤمن ولا تدخل عليه وأنت ملوّث بنجاسة معاصيك فإنه يرى بنور الله عزّ وجلّ ما أنت فيه، يرى شركك ونفاقك، يرى عملتك مخبأة تحت ثيابك، يرى فضائحك وهتائكك، من لا يرى مفلحاً لا يفلح، انت هوس ومخالطتك لأهل الهوس.

سأل سائل هذا العمى إلى متى؟ فقال: إلى أن تقع بالطبيب وتتوسد بعتبته، وتحسن ظنك فيه، وتزيل من قلبك التهمة له، وتأخذ أولادك وتقعد على بابه، وتصبر على مرارة دوائه، فحينئذ يزول العمى من عينيك. ذلّ لله عزّ وجلّ وأنزل حوائجك به، ولا تعدّ لنفسك عملاً، ألقه على قدم الإفلاس. أغلق أبواب الخلق وافتح الباب بينك وبينه، واعترف بذنوبك، واعتذر إليه من تقصيرك، وتيقن أن لا ضارّ ولا نافع ولا معطي ولا مانع إلا هو، فحينئذ يزول عمى عين قلبك ويحرك البصر والبصيرة.

(يا غلام) ليس الشأن في خشونة ثيابك ومأكولك، الشأن في زهد قلبك. أول ما

يلبس الصادق في لبسه الصوف على باطنه، ثم يتعدى إلى ظاهره فيلبس سره ثم قلبه، ثم نفسه ثم جوارحه.

حتى إذا صار كله متخشناً جاءت يد الرأفة والرحمة والمنة غيرت عليه تغييراً على هذا المصاب يخلع عنه ثياب السواد وينقله إلى ثياب الفرح، تبدل النقمة إلى النعمة، والبغضة إلى الفرحة، والخوف إلى الأمن، والبعد إلى القرب، والفقر إلى الغنى.

(يا غلام) تناول الأقسام بيد الزهد لا بيد الرغبة، ليس من يأكل ويبكي كمن يأكل ويضحك، كل الأقسام وقلبك مع الحق عزّ وجلّ، فإنك تسلم من شرّها. إذا أكلت من يد الطبيب كان خيراً من أن تأكل وحدك مالا تعلم أصله. ما أقسى قلوبكم.

الأمانة قد ذهبت من بينكم، الرحمة قد ذهبت فيما بينكم، أحكام الشرع أمانة عندكم وقد تركتموها وخنتم فيها. ويحك إن لم تلزم الأمانة وإلا عن قريب ينزل الماء إلى عينيك. والسلك في يديك ورجليك، ويغلق الحق عزّ وجلّ باب رحمته عنك، ويلقي في قلوب خلقه القساوة عليك، ويمنعهم عن عطائك. احفظوا رؤوسكم مع ربكم عزّ وجلّ، احذروا منه فإن أخذه أليم شديد يأخذكم من مأمنكم من عافيتكم من أشركم من بطركم، خافوا منه فهو إله السماء وإله الأرض.

احفظوا نعمه بالشكر، قابلوا أمره ونهيه بالسمع والطاعة. قابلوا العسر بالصبر واليسر بالشكر، هكذا كان من تقدمكم من النبيين والمرسلين والصالحين، يشكرون على النعم ويصبرون على النقم. قوموا من موائد معاصيه، وكلوا من موائد طاعته، واحفظوا حدوده، إذا جاءكم اليسر فاشكروه.

وإذا جاءكم العسر فتوبوا من ذنوبكم، وناقشوا أنفسكم، فإن الحق عزّ وجلّ ليس بظلام للعبيد، اذكروا الموت وما وراءه، واذكروا الرب عزّ وجلّ وحسابه ونظراته إليكم. تنبهوا، إلى متى هذا النوم، إلى متى هذا الجهل والتردد في الباطل، والقيام مع النفس والهوى والعادة، لم لم تتأدبوا بعبادة الحق عزّ وجلّ ومتابعة شرعه. العبادة ترك العادة، لم لم تتأدبوا بآداب القرآن وكلام النبوّة.

(يا غلام) لا تخالط الناس مع العمى مع الجهل مع الغفلة والنوم، خالطهم بالبصيرة والعلم واليقظة، فإذا رأيت منهم ما تحمده فاتبعه، وإذا رأيت منهم ما يسوءك فاجتنبه وردهم عنه. أنتم في غفلة كلية عن الحق سبحانه وتعالى، عليكم

بلزوم المساجد وكثرة الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم فإنه قال:

(لو نزلَ من السماء نارٌ لما نجا منها إلاّ أهلُ المساجد).

إذا توانيتم في الصلاة انقطعت صلاتكم بالحق عزّ وجل، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

(أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه إذا كانَ ساجداً).

ويحك كم تتأول وتترخص، المتأول غادر، ليتنا إذا ركبنا العزيمة وتعلقنا بالإجماع وأخلصنا في أعمالنا تخلصنا من الحق عزّ وجل، فكيف إذا تأولنا وترخصنا العزيمة ذهب أهلها، هذا زمان الرخص لا زمان العزائم، هذا زمان الرياء والنفاق وأخذ الأموال بغير حق.

قد كثر من يصلي ويصوم ويحج ويزكي ويفعل أفعال الخير للخلق لا للخالق، فقد صار معظم هذا العالم خلقاً في خلق بلا خالق. كلكم موتى القلوب أحياء النفوس والأهوية طالبون الدنيا. حياة القلب بالخروج من الخلق والقيام مع الحق عزّ وجلّ من حيث المعنى، لأن الصورة لا اعتبار بها في هذا المقام. حياة القلب بامتثال أمر الحق عزّ وجل، والانتهاء عن نهيه، والصبر معه على بلاياه وأقضيته وأقداره.

(يا غلام) سلم إليه في مقدوره ثم قم معه بعد ذلك، الأمر يحتاج إلى أساس ثم بناء، وداوم على ذلك في كل الأوقات، في ليلك ونهارك. ويحك تفكر في أمرك، التفكر من أمر القلب، فإذا رأيت لك حسنة فاشكر الله تعالى، وإذا رأيت لك سيئة فتب منها، بهذا التفكر يحيا دينك ويموت شيطانك.

ولهذا قيل: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. يا أمة محمد اشكروا الله عزّ وجلّ، فإنه قد قنع منكم بالقليل من العمل بالإضافة إلى عمل من تقدمكم، أنتم الآخرون وأنتم الأولون يوم القيامة، من كان منكم صحيحاً فلا صحيح مثله، أنتم الأمراء وغيركم من الأمم الرعية. ما دمت قاعداً في بيت نفسك وهواك وطبعك لا تصح، ما دمت منازعاً للخلق فيما في أيديهم مستجلباً له بريائك ونفاقك لاصحة لك، ما دمت راغباً في الدنيا فلا صحة لك، ما دمت واثقاً بقلبك مع ما سوى الحق عزّ وجلّ فلا صحة لك، اللهم ارزقنا الصحة معك.

و﴿ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

المجلس الثالث

في عدم تمني الغنى

قال رضي الله عنه: يوم الجمعة بكرة بالمدرسة المعمورة ثامن شوال سنة خمس وأربعين وخمسمائة: أيها الفقير لا تتمن الغنى، فلعله سبب هلاكك، وأنت أيها المريض لا تتمن العافية فلعلها سبب هلاكك. كن عاقلاً، احفظ ثمرك يحمد أمرك، اقنع بهذا القدر الذي معك ولا تطلب زيادة عليه.

كلّ ما يعطيك الحق عزّ وجلّ بسؤالك فيكون كدراً وبغضة، قد جربت هذا إلا أن يؤمر العبد من حيث قلبه بالسؤال. فإذا أمر بالسؤال بورك فيما سأل وأزيلت الأقذار عنه. وليكن أكثر سؤالك العفو والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، اقنع بهذا فحسب.

لا تتخير على الله عزّ وجلّ، ولا تتجبر فإنه يقصمك، لا تتجبر على الله عزّ وجلّ وعن خلقه بشبابك وقوتك ومالك فإنه يبطش بك، ويأخذك أخذ من أخذه فإن أخذه أليم شديد. ويحك لسانك مسلم أما قلبك فلا قولك مسلم، أما فعلك فلا أنت في جلوتك مسلم، أما في خلوتك فلا. أما تعلم أنك إذا صليت وصمت وفعلت جميع أفعال الخير إن لم ترد بهذه الأعمال وجه الله عزّ وجلّ فأنت منافق بعيد من الله عزّ وجلّ. تب الآن إلى الله عزّ وجلّ من جميع أفعالك وأقوالك ومقاصدك الدنية.

القوم ليس في أعمالهم ملق، هم الفائزون هم الموقنون الموحدون المخلصون الصابرون على بلاء الله عزّ وجلّ وآفاته الشاكرون على نعمائه وكراماته، يذكرونه بألسنتهم ثم بقلوبهم ثم بأسرارهم، إذا جاءتهم الأذايا من الخلق تبسموا في وجوههم، ملوك الدنيا عندهم معزولون، جميع من في الأرض عندهم موتى عجزى مرضى فقراء.

الجنة بالإضافة إليهم كأنها خراب. النار بالإضافة إليهم مخمودة، لا أرض ولا سماء ولا ساكن فيها، تتحد جهاتهم فتصير جهة واحدة، كانوا مع الدنيا وأهلها ثم صاروا مع الأخرى وأهلها، ثم صارو مع ربّ الدنيا والآخرة، التحقوا به وبالمحبين له، ساروا معه بقلوبهم حتى وصلوا إليه، وحصلوا الرفيق قبل الطريق، فتحوا الباب بينهم وبينه، يذكرهم ما زالوا يذكرونه حتى حط الذكر عنهم أوزارهم، فقدهم مع غيره ووجودهم به، سمعوا قوله عزّ وجلّ :

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[1].

فلازموا الذكر له طمعاً في ذكره لهم، سمعوا قوله عزّ وجلّ في بعض ما تكلم به:

(أنا جليس من ذكرني).

فهجروا مجالس الخلق وقنعوا بالذكر حتى تحصل لهم المجالسة له.

(يا قوم): لا تهتسوا، أنتم هوس، هذا العلم لا ينفعكم بلا عمل، تحتاجون أن تعملوا بهذا السواد على البياض، وهو حكم الله عزّ وجلّ تعلمون به يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة حتى تقع في أيديكم ثمرته.

(يا غلام) علمك يناديك، أنا حجة عليك إن لم تعمل بي، وحجة لك إن عملت بي، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(يهتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل).

ترحل بركته وتبقى محنته، ترحل شفاعته لك من مولاه، وينقطع دخوله عليك في حوائجك، ارتحل لكونه بقي قشوراً، فإن لب العلم العمل، لا تصح متابعتك للرسول صلى الله عليه وسلم حتى تعمل بما قال.

إذا عملت بما أمرك به استقبل قلبك وسرك، وأدخلهما على ربهما عزّ وجلّ، علمك يناديك ولكنك لا تسمعه لأنه لا قلب لك، اسمعه بأذن قلبك وسرك، واقبل قوله فإنك تنفع به، العلم بالعمل يقربك إلى العالم المنزل للعلم. إذا عملت بهذا الحكم الذي هو العلم الأول نبعت عليك عين العلم الثاني، يصير عندك عينان تجريان، يحشى قلبك الحكم والعلم الظاهر والباطن.

حينئذ يجب عليك زكاة ذلك، تواسي به الإخوان والمريدين. زكاة العلم نشره ودعوة الخلق إلى الحق عزّ وجلّ.

(يا غلام) من صبر قدر، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٢.

(٢) سورة الزمر، الآية ١٠.

كل بكسبك ولا تأكل بدينك، اكتسب وكل، وواس منه غيرك. اكتساب المؤمنين أطباق الصديقين. لاحظ لحرفهم إلا بالإضافة إلى الفقراء والمساكين. يتمنون إيصال الرحمة إلى الخلق يطلبون بذلك رضا الحق عزّ وجلّ ومحبته لهم، سمعوا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم :

(الناسُ عيالُ اللهِ عزّ وجلّ ، وأحبُّ الناسِ إلى اللهِ عزّ وجلّ أنفعهم لعيالِه).

أولياء الله بالإضافة إلى الخلق صمّ بكم عمي، إذا قربت قلوبهم من الحق عزّ وجلّ لا يسمعون من غيره، ولا يبصرون غيره، يبيحهم القرب، وتغشاهم الهيبة، وتفيدهم المحبة عند محبوبهم، فهم بين الجلال والجمال لا يميلون يميناً ولا شمالاً، لهم أمام بلا وراء، يخدمهم الإنس والجن والملك وأنواع المخلوقات، يخدمهم الحكم والعلم، يغذيهم الفضل ويرويهم الأنس، من طعام فضله يأكلون، ومن شراب أنسه يشربون.

عندهم شغل من سماع كلام الخلق، فهم في واد والخلق في واد، يأمرون الخلق بأمر الله عزّ وجلّ، وينهون بنهيه نيابة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، هم الوراث على الحقيقة. شغلهم رد الخلق إلى باب الحق عزّ وجلّ، يركبون حجته عليهم، يوقعون الأشياء في مواقعها، يعطون كل ذي فضل فضله، لا يأخذون حقوقهم، ولا يستوفون لنفوسهم وطباعهم. يحبون في الله عزّ وجلّ، ويبغضون في الله عزّ وجلّ، كلهم له لا لغيره فيهم نصيب.

من تم له هذا فقد تمت له الصحبة وحصلت له النجاة والفلاح، ويحبه الإنس والجن والملك والأرض والسماء. يا منافق، يا عابد الخلق والأسباب ناسياً للحق عزّ وجلّ، تريد أن يقع بيديك هذا مع ما أنت فيه، لا كرامة لك ولا عزازة. أسلم ثم تب ثم تعلم، وأعمل وأخلص وإلا فلا تهدى. ويحك ما بيني وبينك عداوة، غير أني أقول الحق ولا أحابيك في دين الله عزّ وجلّ، قد تربيت على خشونة كلام المشايخ وخشونة الغربة والفقر، إذا ظهر مني إليك كلام فخذه من الله عزّ وجلّ فإنه هو الذي أنطقني به، إذا دخلت عليّ فادخل عرياناً عنك، عرياناً عن نفسك وهواك.

لو كان لك بصيرة لرأيتني أيضاً عرياناً، ولكن آفتك فهمك السقيم. يا مريد صحبتي والانتفاع بي، حالتي ليس فيها خلق ولا دنيا ولا آخرة، فمن يتوب على يدي ويصحبني ويحسن ظنه فيّ ويعمل بما أقول، هكذا يكون إن شاء الله عزّ وجلّ. الأنبياء

يربيهم الحق عزّ وجلّ بكلامه، والأولياء يربيهم بحديثه. الحديث هو الإلهام في قلوبهم لأنهم أوصياء الأنبياء وخلفاؤهم وغلمانهم. الله عزّ وجلّ تكلم، كلم موسى عليه السلام، هو كلمة لا مخلوق، كلمة علام الغيوب، كلمة بكلام فهمه وبلغ إلى عقله بلا واسطة، وكلم نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم بلا واسطة.

هذا القرآن حبل الله المتين، هو بينكم وبين ربكم جلّ وعلا، أنزله جبريل عليه السلام عليه من السماء من عند الله عزّ وجلّ، أنزله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم كما قال واخبر، لا يجوز إنكار ذلك وجحوده. اللهم اهد الكل وتب على الكل وارحم الكل.

(حكى) عن أمير المؤمنين المعتصم بالله رحمه الله تعالى أنه قال وقت حضور وفاته: والله إني تائب إلى الله عزّ وجلّ مما فعلت في حق أحمد بن حنبل مع كوني ما تقلدت من أمره شيئاً وغيري كان المتقلد لذلك.

(يا مسكين) دع عنك الكلام فيما لا ينفعك، اترك التعصب في المذهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة، سترى عن قريب خبرك وتذكر كلامي، سوف ترى عند الطعان وليس على رأسك خوذة، ايش يتم عليه من الجراحات. فرّغ قلبك من الهموم الدنيا فإنك مأخوذ منها عن قريب، لا تطلب طيب العيش فيها فما يقع بيدك. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(العيش عيش الآخرة).

قصر أملك وقد جاءك الزهد في الدنيا، لأن الزهد كله قصر الأمل.

اهجر أقران السوء واقطع المودة بينك وبينهم وواصلها بينك وبين الصالحين. اهجر القريب منك إذا كان من أقران السوء، وواصل البعيد منك إذا كان من أقران الخير. كل من واددته صار بينك وبينه قرابة فانظر لمن تواد.

وقيل لبعضهم: ما القرابة؟ قال: المودة. دع عنك طلب ما قسم وما لم يقسم، فإن طلبك لما قد قسم تعب، وطلبك لما لم يقسم مقت وخذلان، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(من جملة عقوبات الله تعالى لعبده طلب ما لم يقسم له).

(يا غلام) استبدل بصنعة الله عزّ وجلّ عليه، تفكر في الصنعة وقد وصلت إلى

الصانع، المؤمن الموقن العرف له عينان ظاهرتان وعينان باطنتان، فيرى بالعينين الظاهرتين ما خلق الله عزّ وجلّ في الأرض، ويرى بالعينين الباطنيتين ما خلق الله عزّ وجلّ في السموات، ثم يرفع الحجب عن قلبه فيراه بلا تشبيه ولا تكييف، فيصير مقرباً محبوباً.

والمحبوب لا يكتم عنه شيء، إنما يرفع الحجب عن قلب تعرى عن الخلق وعن النفس والطبع والهوى والشيطان، ألقى مفاتيح كنوز الأرض من يده، واستوى عنده الحجر والمدر. كن عاقلاً، تدبر ما أقول وتفهم، فإني بلب الكلام أتكلم، بجوهره بباطنه نصيحة معاينة.

(يا غلام) لا تشك من الخالق إلى الخلق، بل اشك إليه، هو الذي يقدر، وأما غيره فلا. من كنوز البرّ كتمان السرّ والمصائب والأمراض والصدقة، تصدق بيمينك، واجتهد أن لا تعلم به شمالك، احذر من بحر الدنيا فقد غرق فيه خلق كثير ما ينجو منه إلا آحاد الخلق، هو بحر عميق يغرق الكل.

غير أن الله عزّ وجلّ ينجي منه من يشاء من عباده كما ينجي المؤمنين يوم القيامة من النار، لأن الكل يعبرون عليها وينجي الله من يشاء من عباده، قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[1].

يقول الله عزّ وجلّ للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾[2] حتى يجوز عبادي المؤمنون بي المخلصون لي الراغبون في الزاهدون في غيري، يقول لها ذلك كما قال لنار نمرود التي أوقدها حتى يحرق فيها عليه السلام. يقول الله عزّ وجلّ: يا بحر الدنيا، يا ماء لا تغرق هذا العبد المراد المحبوب، فينجو منه ويصير على السرّ كما نجى موسى عليه السلام وقومه من ذلك البحر. يؤتي فضله من يشاء.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

الخير كله بيده، والعطاء والمنع بيده، والغنى والفقر بيده، والعزّ والذل بيده،ما

---

(١) سورة مريم، الآية ٧١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٦٩.
(٣) سورة البقرة، الآية ٢١٢.

لأحد معه شيء. فالعاقل من يلزم بابه، ويعرض عن باب غيره. يا مدبر أراك ترضى الخلق وتسخط الخالق، تخرب آخرتك بعمارة دنياك، عن قريب أنت مأخوذ، يأخذك الذي أخذه أليم شديد، أخذه ألوان كثيرة:

يأخذك بالعزل عن ولايتك، يأخذك بالمرض والذل والفقر، يأخذك بتسليط الشدائد والغموم والهموم، يأخذك بتسليط ألسنة الخلق وأيديهم عليك، كل مخلوقاته يسلطها عليك، تنبه يا نائم. اللهم أيقظنا بك ولك آمين.

(يا غلام) لا تكن في أخذك للدنيا كحطاب الليل مايدري ما يقع بيده، إني أراك في تصرفاتك كحطاب ليل في ليلة ظلماء لا قمر فيها ولا ضوء معه، وهو في رملة كثيرة الدغل والحشرات القاتلة.

فيوشك أن يقتله شيء منها، عليك بالاحتطاب نهاراً فإن ضوء الشمس يمنعك أن تأخذ ما يضرك. كن في تصرفاتك مع شمس التوحيد والشرع والتقوى، فإن هذه الشمس تمنعك عن الوقوع في شبكة الهوى والنفس والشيطان والشرك بالخلق، وتمنعك عن العجلة في السير.

(ويحك) لا تعجل، فإن من استعجل أخطأ أو كاد، ومن تأنى أصاب أو كاد: أي قارب أن يصيب، العجلة من الشيطان، والتؤدة من الرحمن. أكثر ما يحملك على العجلة الحرص على جمع الدنيا. اقنع فإن القناعة كنز لا ينفد، كيف تطلب مالاً يقسم لك ولا يقع بيدك قط، امنع نفسك وارض به، وازهد في غيره.

الزم حتى تصير عارفاً بالله عزّ وجل، فحينئذ تصير غنياً عن كل شيء. يشق قلبك ويصفو سرك ويعلمك ربك عزّ وجلّ فتهون الدنيا في رأسك، والآخرة في عيني قلبك، وما سوى الحق عزّ وجلّ في عيني سرك، لا يتعاظم عندك شيء من الأشياء سوى الحق عزّ وجل، فحينئذ تعظم عند كل الخلق.

(يا غلام) إن أردت أن لا يبقى بين يديك باب مغلق فاتق الله عزّ وجل، فإنها مفتاح لكل باب، قال الله تعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1].

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان ٢، ٣.

لا تعارض الحق عزّ وجلّ في نفسك، ولا في أهلك ولا في مالك وأهل زمانك، ما تستحي أن تأمره أن يغير ويبدل، أنت أحكم منه وأعلم منه وأرحم منه!؟ أنت والخلق كلهم عباده، هو مدبرك ومدبرهم.

إن أردت صحبته في الدنيا والآخرة فعليك بالسكون والسكوت والخرس. أولياء الله عزّ وجلّ متأدبون بين يديه، لا يتحركون حركة ولا يخطون خطوة إلا بإذن صريح منه لقلوبهم، لا يأكلون من الأشياء المباحة ولا يلبسون ولا ينكحون ولا يتصرفون في جميع أسبابهم إلا بإذن صريح لقلوبهم. هم قيام مع الحق عزّ وجلّ، قيام مع القلوب والأبصار، لا قرار لهم مع ربهم عزّ وجلّ حتى يلقوه في الدنيا وبأجسادهم في الآخرة.

اللهم ارزقنا لقاءك في الدنيا والآخرة، لذذنا بالقرب منك والرؤية لك، اجعلنا ممن يرضى بك عما سواك.

و﴿ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠١.

المجلس الرابع

[في التوبة]

قال بكرة الأحد بالرباط عاشر شوال من سنة خمس وأربعين وخمسمائة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(مَن فتح له باب من الخير فلينتهزه، فإنّه لا يَدري متى يُغلق عنه).

(يا قوم) انتهزوا واغتنموا باب الحياة مادام مفتوحاً، عن قريب يغلق عنكم، اغتنموا أفعال الخير ما دمتم قادرين عليها، اغتنموا باب التوبة وادخلوا فيه مادام مفتوحاً لكم، اغتنموا باب الدعاء فهو مفتوح لكم، اغتنموا باب مزاحمة إخوانكم الصالحين فهو مفتوح لكم.

(يا قوم) ابنوا ما نقضتم، اغسلوا ما نجستم، أصلحوا ما أفسدتم، صفّوا ما كدرتم، ردوا ما أخذتم، ارجعوا إلى مولاكم عزّ وجلّ من إباقكم وهربكم.

(يا غلام) ما ههنا إلا الخالق عزّ وجلّ، فإن كنت مع الخالق فأنت عبده، وإن كنت مع الخلق فأنت عبدهم، لا كلام لك حتى تقطع الفيافي والقفار من حيث قلبك، وتفارق الكل من حيث سرك. أما تعلم أن طالب الحقّ عزّ وجلّ مفارق الكل قد تيقن أن كل شيء من المخلوقات حجاب بينه وبينه عزّ وجلّ، مع أيّ شيء وقف انحجب به.

(يا غلام) لا تكسل، فإن الكسلان يكون أبداً محروماً والندامة في ربقه. جوّد أعمالك وقد جاد الحق عزّ وجلّ عليك بالدنيا والآخرة.

كان أبو محمد العجمي رحمة الله تعالى يقول: اللهم اجعلنا جيدين، كان يريد أن يقول: اللهم اجعلنا جياداً فلا يطاوعه لسانه، من ذاق فقد عرف. حسن العشرة مع الخلق والموافقة لهم مع حدود الشرع ورضاه حسن مبارك، وأما إذا كان ذلك مع خرق حدّ من حدوده وعدم رضاه فلا، ولا كرامة لهم. القبول للطاعة وردها: علامات عند أهل الصفاء والاجتباء.

(يا غلام) انصب شبكة الدعاء وارجع إلى الرضا، لا تدع بلسانك وقلبك معترض. يوم القيامة يتذكر الإنسان ما فعل في الدنيا من خير وشرّ، فالندامة هناك لا تنفع، والذكر ثم لا ينفع. الشأن في تذكر اليوم قبل الموت، ذكر الحرث والبذر وقت حصاد الناس لا ينفع.

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(الدُّنيا مَزرَعةُ الآخرةِ فمَن زرَعَ خيراً حصَدَ غِبطةً، ومَن زرَعَ شرّاً حصَدَ ندامةً).

إذا جاءك الموت انتبهت وقت لا ينفعك الانتباه. اللهم نبهنا من نوم الغافلين عنك الجاهلين بك آمين.

(يا غلام) صحبتك للأشرار توقعك في الظن بالأخيار، امش تحت ظل كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد أفلحت.

(يا قوم) استحيوا من الله عزّ وجلّ حق الحياء، لا تغفلوا زمانكم يضيع، قد اشتغلتم بجمع مالا تأكلون، وتأملون مالا تدركون، وتبنون مالا تسكنون، كل هذا يحجبكم عن مقام ربكم عزّ وجلّ. يخيم ذكر الله عزّ وجلّ في القلوب العارفين ويحيط بها وينسيها ذكر كل مذكور.

فإذا تم هذا فالجنة هي المأوى، الجنة المنقودة، والجنة الموعودة. المنقودة في الدنيا: هي الرضا بالقضاء وقرب القلب من الله عزّ وجلّ، ومناجاته له، ورفع الحجاب بينه وبينه، فيصير هذا القلب في خلوته مع الحق عزّ وجلّ في جميع أحواله من غير تكييف ولا تشبيه.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (١).

والموعودة: هي التي وعدها الله عزّ وجلّ للمؤمنين والنظر إلى وجهه الكريم من غير حجاب، ولا شك الخير كله عند الله والشرّ عند غيره، الخير في الإقبال عليه والشرّ في الإدبار عنه. كل عمل تريد عنه عوضاً فهو لك، وكل عمل تريده لله عزّ وجلّ فهو له، إذا عملت وطلبت العوض كان جزاؤك بمخلوق.

وإذا عملت لوجه الله تعالى كان جزاؤك قربك منه والنظر إليه. ثم لا تطلب العوض على أعمالك في الجملة، إيش الدنيا وإيش الآخرة؟ وما سوى الله تعالى بالإضافة إليه؟ اطلب المنعم لا تطلب النعمة، اطلب الجار قبل الدار، هو الكائن قبل كل شيء، والمكون لكل شيء، والكائن بعد كل شيء. عليك بذكر الموت والصبر على الآفات، والتوكل على الله عزّ وجلّ في جميع الحالات.

---

(١) سورة الشورة الآية: ١١.

إذا تمت لك هذه الثلاث خصال جاءك الملك الموت يصح زهدك، وبالصبر تظفر بما تريد من ربك عزّ وجلّ، وبالتوكل تخرج الأشياء من قلبك وتتعلق بربك عزّ وجلّ، وتتنحى عنك الدنيا والآخرة وما سوى المولى، تأتيك الراحة من كل جانب، والكلاء والحماية من كل جانب، يحفظك مولاك عزّ وجلّ من جهاتك الست.

لا يبقى لأحد من الخلق عليك سبيل، يسد عنك الجهات ويغلق عنك الأبواب، تصير من جملة الذين قال الله عزّ وجلّ في حقهم:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [1].

كيف يكون له سلطان على الموحدين المخلصين الذين لا يراءون الخلق في أعمالهم النطق في النهاية يكون لا في البداية، البداية كلها خرس والنهاية كلّها نطق، المخلص ملكه في قلبه، سلطانه في سرّه لا اعتبار بالظاهر، النادر منهم من يجمع بين ملك الظاهر والباطن كن أبداً مخفياً بحالك لا تزل كذلك حتى تكمل، ويصل قلبك إلى ربك عزّ وجلّ.

فإذا كملت وبلغت لا تبال حينئذ، كيف تبالي وقد تحققت حالك، وأقمت في مقامك وأحدق بك حراسك، وصار الخلق عندك كالسواري والأشجار، واستوى عندك حمدهم وذمهم وإقبالهم وإدبارهم؟ تصير بانيهم وناقضهم، تتصرّف فيهم بإذن خالقهم، يعطيك الحل والربط ويريد التوقيع إلى يد قلبك، والعلامة إلى يد سرك، لا كلام حتى يصح هذا، وإلا فكن عاقلاً لا تتهوّس.

أنت أعمى اطلب من يقودك، أنت جاهل اطلب من يعلمك، فإذا وقعت به فتمسك به واقبل قوله ورأيه، واستدل به على الجادة، فإذا وصلت إليها فاقعد هناك حتى تحقق معرفتك لها، فحينئذ يأوي إليك كل ضالّ وتصير طبقاً للفقراء والمساكين. من حملة الفتوّة حفظ سرّ الله عزّ وجلّ والتخلق مع الناس بخلق حسن، أين أنت من طلب الحق والرضا به عما سواه؟ أما سمعت قوله عزّ وجلّ :

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [2].

وقال في موضع آخر:

---

(١) سورة الحجر الآية: ٤٢.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٢.

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [1].

إن سعد بختك جاءتك يد الغيرة خلصتك من يد كل من سوى الحق عزّ وجلّ، وأخذت إلى باب قرب الحق عزّ وجلّ.

ﻫ ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾ [2].

إذا تم لك هذا جاءت إليك الدنيا والآخرة خادمتين من غير ضرر من غير تعب، اطرق باب الحق عزّ وجلّ واثبت على بابه، فإنك إذا ثبت هناك بانت لك الخواطر فتعرف خاطر النفس، وخاطر الهوى، وخاطر القلب، وخاطر إبليس، وخاطر الملك.

يقال هذا خاطر حق، وهذا خاطر باطل، تعلم كل واحد بعلامة تعرفها، إذا وصلت إلى هذا المقام أتاك خاطر من الحق عزّ وجلّ يؤيد بك ويثبتك ويقيمك ويقعدك ويحركك ويسكنك ويأمرك وينهاك.

(يا قوم) لا تطلبوا الزيادة ولا النقصان، ولا التقدم ولا التأخر، فإن القدر قد أحاط بكل واحد منكم على حدة، ما منكم إلا من له كتاب وتاريخ يخصه، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(فرغَ ربُّكُم منَ الخَلقِ والرِّزقِ والأجلِ، جَفَّ القلمُ بما هوَ كائنٌ).

قد فرغ الله من كل شيء قضاؤه سابق، ولكن جاء الحكم وستر عليه الأمر والنهي والإلزام، فلا يحل لأحد أن يحتج على الحكم بما سبق بل يقول:

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [3].

(يا قوم) اعملوا بهذا الظاهر، بهذا السواد على البياض حتى يحملكم على العمل بباطن هذا الأمر، إذا عملت بهذا الظاهر أداك إلى فهم الباطن.

أول ما يفهم سرك ثم يملي قلبك على نفسك، وتملي نفسك على لسانك، ويملي لسانك على الخلق، يتعدى ذلك إليهم لمصالحهم ومنافعهم، ياطوبى لك إن وافقت الحق عزّ وجلّ وأحببته، ويحك قد ادعيت محبة الله عزّ وجلّ. أما علمت أن لها شرائط؟ من

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٥٢.
(٢) سورة الكهف: ٤٤.
(٣) سورة الأنبياء الآية: ٢٣.

شرائط محبته موافقته فيك وفي غيرك، ومن شرائطها أن لاتسكن إلى غيره، وأن تستأنس به، ولا تستوحش معه.

إذا سكن حبّ الله قلب عبد أنس به وأبغض كل ما يشغل عنه، تب من دعواك الكاذبة هذا شيء لا يجيء بالتخلي والتمني والكذب والنفاق والتصنع، تب واثبت على توبتك فليس الشأن في توبتك الشأن في ثبوت عليها، ليس الشأن في غرسك الشأن في ثبوته وتغصينه وثمرته.

وقال رضي الله عنه: إلزموا موافقة الحق عزّ وجلّ في البأساء والضّراء، والفقر والغنى والشدة والرخاء، في السقم والعافية في الخير والشرّ في العطاء والمنع، ما أرى لكم دواء إلا التسليم إلى الحق عزّ وجلّ.

إذا قضى عليكم بشيء لا تستوحشوا منه، ولا تنازعوه فيه ولا تشكوا منه إلى غيره، فإن ذلك مما يزيدكم بلاء بل سكوناً وسكوتاً وخمولاً، اثبتوا بين يديه وانظروا ماذا يعمل فيكم وبكم تفرحوا على تغييره وتبديله إذا كنتم معه هكذا لا جرم يغير الوحشة بالأنس والتوحيد بالفرحة به. اللهم اجعلنا في جنابك ومعك.

و﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس الخامس

[في سبب حب الله للعبيد]

وقال رضي الله عنه يوم الثلاثاء عشية بالمدرسة ثاني عشر شوّال سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

(يا غلام) أين عبودية الحق عزّ وجلّ، هات حقيقة العبودية وخذ الكفايا في جميع أمورك، أنت عبد آبق من مولاك، ارجع إليه وذلّ له وتواضع لأمره بالامتثال، ولنهيه بالانتهاء، ولقضائه بالصبر والموافقة. إذا تمّ لك هذا تمت عبوديتك لسيدك وجاءتك منه الكفاية، قال عزّ وجلّ:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ (١).

إذا صحت عبوديتك له أحبك وقوى حبه في قلبك وآنسك به وقربك منه من غير تعب ولا طلب لك صحبة غيره فتكون راضياً عنه في جميع الأحوال، فلو ضيق عليك الأرض برحبها، وسدّ عليك الأبواب بسعتها لم تسخط عليه، ولم تقرب باب غيره، ولم تأكل من طعام غيره، تلتحق بموسى عليه السلام حيث قال الله عزّ وجلّ في حقه:

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ (٢).

ربنا عزّ وجلّ لكل شيء شاهد، في كل شيء حاضر، على كل شيء رقيب، ومن كل شيء قريب، لا غنية لكم عنه — كا أمرّ الإنكار بعد المعرفة.

(ويحك) تعرف الله عزّ وجلّ وترجع تنكره، لا ترجع عنه فإنك تحرم الخير كله، اصبر معه ولا تصبر عنه، أما علمت أن من صبر قدر، وإيش هذا العقل؟ إيش هذه العجلة؟ قال الله عزّ وجلّ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣).

وفي الصبر آيات كثيرة في القرآن تدل على ما فيه من الخير والنعم، وحسن الجزاء

---

(١) سورة الزمر الآية: ٣٦.
(٢) سورة القصص الآية: ١٢.
(٣) سورة آل عمران: ٢٠٠.

والعطاء والراحة دنيا وأخرى، عليكم به.

وقد رأيتم الخير عاجلاً وآجلاً، عليكم بزيارة القبور والقصد إلى الصالحين وفعل الخير وقد استقام أمركم، لا تكونوا من الذين إذا وعظوا لم يتعظوا، وإذا سمعوا لم يعملوا. ذهاب دينكم بأربعة أشياء:

الأول: أنكم لا تعملون بما تعلمون.

الثاني: أنكم تعلمون بما لا تعملون.

الثالث: أنكم لا تتعلمون مالا تعلمون فتبقون جهالاً.

الرابع: أنكم تمنعون الناس من تعلم مالا يعملون.

(يا قوم) إذا حضرتم مجالس الذكر تحضرونها للفرجة لا للمداواة، تعرضون عن وعظ الواعظ وتحفظون عليه الخطأ والزلل وتستهزئون وتضحكون وتلعبون، وأنتم مخاطرون، أنتم برؤوسكم مع الله عزّ وجل، توبوا من هذا، لا تتشبهوا بأعداء الله عزّ وجل، وانتفعوا بما تسمعون.

(يا غلام) قد تقيدت بالعادة وقد تقيد الله بطلب الأقسام، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب والتوكل عليه، عليك باستئناف العمل والإخلاص فيه، قال الله عزّ وجل:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

وما خلقهم للهوس، ما خلقهم للعب، ما خلقهم للأكل والشرب والنوم والنكاح. تنبهو يا غفل من غفلاتكم، يخطو قلبك إليه خطوة ويخطو حبه إليك خطوات، هو إلى لقاء المحبين أشوق منهم.

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢).

إذا أراد عبد الأمر هيأه له، هذا شيء يتعلق بالمعاني لا بالصور، إذا تمّ لعبد ما ذكرت صح زهده في الدنيا والآخرة وما سوى المولى، تجيئه الصحة، يجيئه الملك والسلطة والإمارة، تجيئه تصير ذرته جبلاً، قطرته بحراً، كوكبه قمراً، قمره شمساً،

---

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٦.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٣٧.

قليلة كثيراً، محوه وجوداً، فناءه بقاء، تحركه ثباتاً، تعلو شجرته وتشمخ إلى العرش وأصلها إلى الثرى ويظل أغصانها في الدنيا والآخرة، ما هذه الأغصان؟

الحكم والعلم، تصير الدنيا عنده كحلقة الخاتم، لا دنيا تملكه، ولا أخرى تقيده، لا يملكه ملك ولا مملوك. لا يحجبه حاجب، لا يأخذه أحد، لا يكدره كدر. فإذا تمّ هذا صلح هذا العبد للوقوف مع الخلق، والأخذ بأيديهم وتخلصهم من بحر الدنيا.

فإن أراد الحق بالعبد خيراً جعله دليلهم وطبيبهم، ومؤدبهم ومدربهم وترجمانهم وسانحهم، ومنحتهم وسراجهم وشمسهم، فإن أراد منه ذلك كان، وإلا حجبه عنده وغيبه عن غيره. آحاد أفراد من هذا الجنس يردهم إلى الخلق مع الحفظ الكلي والسلامة الكلية، يوفقهم لمصالح الخلق وهدايتهم. الزاهد في الدنيا يبتلى بالآخرة، والزاهد في الدنيا والآخرة يبتلى بربّ الدنيا والآخرة. قد غفلتم كأنكم لا تموتون، وكأنكم يوم القيامة لا تحشرون، وبين يدي الحق لا تحاسبون، وعلى الصراط لا تجوزون، هذه صفاتكم وأنتم تدعون الإسلام والإيمان.

هذا القرآن والعلم حجة عليكم إذا لم تعملوا بهما، إذا حضرتم عند العلماء ولم تقبلوا ما يقولون لكم كان حضوركم عدهم حجة عليكم، يكون عليكم إثم ذلك، كما لقيتم الرسول صلى الله عليه وسلم ولم تقبلوا منه. يوم القيامة يعم الخلق كلهم الخوف من جلال الله عزّ وجلّ وعظمته وكبريائه وعدله، تذهب ملوك الدنيا ويبقى ملكه، يرجع الكل إليه يوم القيامة، ويظهر ملك القوم، يظهر عزّهم وغناهم، وإكرام الحق عزّ وجلّ لهم اليوم، شحنوا العباد والبلاد وأوتاد الأرض.

قوام الأرض بهم، هم أمراء الخلق ورؤساؤهم، ونواب الحق عزّ وجلّ، فهم من حيث المعنى لا من حيث الصورة، اليوم معنى وغداً صورة. شجاعة المخاصمين للكفار في لقائهم والثبات معهم، وشجاعة الصالحين في لقاء نفوسهم والأهوية والطباع والشياطين وأقران السوء الذين هم شياطين الإنس، وشجاعة الخواصّ في الزهد في الدنيا والآخرة وما سوى الحق عزّ وجلّ في الجملة.

(يا غلام) تنبه قبل أن تنبه بلا أمرك، تدين وخالط أهل الدين فإنهم هم الناس. أعقل الناس من أطاع الله عزّ وجلّ، وأجهل الناس من عصاه.

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: (تربَتْ يَداك). يعني: افتقرت. وأترب: إذا استغنى. إذا

خالطت أهل الدين وأحببتهم استغنت يداك وقلبك يهرب من النفاق وأهله. المنافق المرائي لا عمل له، ما يقبل منك إلا ما أردت به وجهه، ما يقبل منك صورة عملك، وإنما يقبل منك معناه. إذا خالفت نفسك وهواك وشيطانك ودنياك في عملك قبله منك. اعمل وأخلص ولا تنظر إلى عملك في الجملة، لا يقبل إلا ما أردت به وجهه لا وجه الخلق.

(ويحك) تعمل للخلق وتريد أن يقبله الحق عزّ وجلّ هذا هوس منك. دع عنك الشره والبطر والفرح، قلل فرحك وكثر حزنك، فإنك في دار الحزن، في دار السجن.

كان نبينا صلى الله عليه وسلم دائم التفكر. قليل الفرح كثير الأحزان، قليل الضحك إلا تبسماً تطييباً لقلب غيره، كان في قلبه أحزان وأشغال، لولا الصحابة وأمور الدنيا، وإلا لما كان يخرج من بيته ولا يقعد مع أحد.

(يا غلام) إذا صحت خلوتك مع الله عزّ وجلّ دهش سرك وصفا قلبك، يصير نظرك عبراً، وقلبك فكراً، وروحك ومعناك إلى الحق عزّ وجلّ واصلاً. التفكر في الدنيا عقوبة وحجاب، والتفكر في الآخرة علم وحياة للقلب، ما أعطى عبد التفكر إلا أعطي العلم بأحوال الدنيا والآخرة.

(ويحك) تضيع قلبك في الدنيا وقد فرغ الله عزّ وجلّ من أقسامك منها، وقد قدر لها، أوقاتها معروفة عنده، كل يوم يتجدد لك رزق جديد طلبته أم لم تطلبه، حرصك يفضحك عند الله عزّ وجلّ وعند الخلق بنقصان الإيمان تطلب الرزق وبزيادته تقعد عن الطلب، وبكماله وتمامه تنام عنه.

(يا غلام) لا تخلط الجد بالهزل، فإنك ما تمكن قلبك مع الخلق كيف يجتمع مع الخالق وأنت مشرك بالسبب؟ كيف تكون مع المسبب؟

كيف يجتمع ظاهر وباطن، ما تعقل وما لا تعقل؟ ما عند الخلق وما عند الخالق، ما أجهل من نسي المسبب واشتغل بالسبب، وقف مع الثاني وترك الأول، نسي الباقي وفرح بالفاني.

(يا غلام) تصحب الجهال فيتعدى إليك من جهلهم. صحبة الأحمق صحبة غبن. اصحب المؤمنين الموقنين العاملين بعلمهم، ما أحسن أحوال المؤمنين في جميع تصرفاتهم، ما أقواهم على مجاهداتهم وقهرهم لنفوسهم وأهويتهم، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(بشرُ المؤمنِ في وَجهِهِ، وَحزنُهُ في قلبهِ).

هذا من قوته قدر أن البشر في وجوه الخلق ويكتم الحزن فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ، همه دائم، كثير التفكير، كثير البكاء، قليل الضحك، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(لا راحة لمؤمنٍ غيرُ لقاءِ ربِّهِ عزّ وَجلّ).

المؤمن يستر حزنه ببشره، ظاهره يتحرك في الكسب، وباطنه ساكن إلى ربه عزّ وجلّ، ظاهره لعياله، وباطنه لربه عزّ وجلّ، لا يفشي سرّه إلى أهله وولده وجاره وجارته، ولا إلى من خلق ربه عزّ وجلّ، يسمع قول النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(استعينوا على أموركم بالكتمان).

لا يزال يكتم ما عنده، فإن جاءته غلبة أو تمت من لسانه كلمة فيتدارك الأمر ويغير العبارة، ويستر ما ظهر منه، ويعتذر مما بدا منه.

(يا غلام) اجعلني مرآتك، اجعلني مرآة قلبك وسرك، مرآة أعمالك، ادن مني فإنك ترى في نفسك ما لا تراه مع البعد عني، إن كان لك حاجة في دينك فعليك بي، فإني لا أحابيك في دين الله عزّ وجلّ، عندي وقاحة ترجع إلى دين الله عزّ وجلّ قد ربيت بيد خشنة غير محصلة منافقة، دع دنياك في بيتك وادن مني، فإني واقف على باب الآخرة، وقف عندي واسمع قولي، واعمل به قبل أن تموت عن قريب.

الدائرة على الخوف من الله عزّ وجلّ والخشية له، إذا لم يكن لك خوف منه فلا أمن لك في الدنيا والآخرة، الخشية من الله عزّ وجلّ هي: العلم بعينه، ولذلك قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (١).

ما يخشى الله عزّ وجلّ إلا العلماء العمال بالعلم، الذين يعملون ويعلمون، ولا يطلبون من الحق عزّ وجلّ جزاء على أعمالهم، بل يريدون وجهه وقربه، يريدون محبته والخلاص من بعده وحجابه، يريدون أن لا يغلق باب في وجوههم دنيا وآخرة لا يرغبون في الدنيا ولا في الآخرة ولا فيما سواه، الدنيا لقوم والآخرة لقوم، والحق عزّ

---

(١) سورة فاطر الآية: ٢٨.

وجلّ لقوم، وهم المؤمنون الموقنون العارفون المحبون له، المتقون الخاشعون له، المحزونون المنكسرون لأجله. قوم يخشون الله عزّ وجلّ بالغيب، وهو غائب عن عيون ظواهرهم، حاضر نصب عيون قلوبهم، كيف لا يخافونه وهو كل يوم في شأن، يغير ويبدل – ينصر هذا ويخذل هذا، يحي هذا ويميت هذا، يقبل هذا ويرد هذا، يقرب هذا ويبعد هذا.

﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [1].

اللهم قربنا إليك ولا تباعدنا عنك.

و ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [2].

(١) سورة الأنبياء الآية: ٢٣.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس السادس

[في نصيحة المؤمن لأخيه]

وقال رضي الله تعالى عنه: يوم الجمعة بالمدرسة منتصف شوال سنة خمس وأربعين وخمسمائة: قلوب القوم صافية طاهرة ناسية للخلق، ذاكرة لله عزّ وجلّ، ناسية للدنيا ذاكرة للآخرة، ناسية لما عندكم ذاكرة لما عنده، أنتم محجوبون عنهم وعن جميع ما هم فيه، مشغولون بدنياكم عن أخراكم، تاركون للحياء من ربكم عزّ وجلّ، متواقحون عليه. اقبل نصح أخيك المؤمن ولا تخالفه، فإنه يرى لك مالا ترى أنت لنفسك، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(المؤمن مرآة المؤمن).

المؤمن صادق في نصحه لأخيه المؤمن، يبين له أشياء تخفى عليه، تفرق له بين الحسنات والسيئات، يعرفه ما له وما عليه، سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي، إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء، آخرتي قد حصلت لي عند ربي عزّ وجلّ، ما أنا طالب دنيا، ما أنا عبد الدنيا ولا الآخرة ولا ما سوى الحق عزّ وجلّ، ما أعبد إلا الخالق الواحد الأحد القديم. فرحي بفلاحكم، وغمي لهلاككم.

إذا رأيت وجه مريد صادق قد أفلح على يدي شبعت وارتويت واكتسيت وفرحت كيف خرج مثله من تحت يدي.

(يا غلام) مرادي أنت لا أنا، أن تتغير أنت لا أنا -- أنا عبرت، وإنما وددتني لأجلك تعلق بي حتى تعبر بالعجلة.

(يا قوم) دعوا التكبر على الله عزّ وجلّ وعلى خلقه، اعرفوا قدركم وتواضعوا في نفوسكم، أو لكم نطفة قذرة من ماء مهين، وآخركم جيفة ملقاة. لا تكونوا ممن يقود الطمع، ويصيده الهوى، ويحمله الهوى إلى أبواب السلاطين في تطلب شيء منهم لم يقسم له، أو يطلب منهم ما قد قسم له بالذل والمهانة.

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(أشدُّ عقوباتِ اللهِ عزّ وَجلّ لعبْدِهِ طلبُهُ ما لم يُقْسَمْ لهُ).

(ويحك) يا جاهلاً بالقدر والمقدر، أتظن أن أبناء الدنيا يقدرون أن يعطوك ما لم

يقسم لك؟ ولكن هذه وسوسة الشيطان الذي قد تمكن من قلبك ورأسك، لست عبد الله عزّ وجلّ وإنما أنت عبد نفسك وهواك وشيطانك وطبعك ودرهمك ودينارك، اجهد أن ترى مفلحاً حتى تفلح بطريقه.

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال: من لم يـر المفلح لا يفلـح، أنـت تـرى المفلـح ولكن تراه بعيني رأسك، لا بعيني قلبك وسرك، وإيمانـك إيمان لـيس لـك، فلا جـرم لا يكون لك بصيرة تبصر بها غيرك، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (١).

الطامع في أخذ الدنيا من أيدي الخلق يبيع الدين بالتين، يبيع ما يبقى بما يفنى، فلا جرم لا يقع بيده، لا هذا ولا هذا. ما دمت ناقص الإيمان فدونك وإصلاح معيشتك حتى لا تحتاج إلى الناس فتبذل لهم دينك وتأكل أموالهم به.

فإذا قوي إيمانك وكمل فدونك والتوكل على الله عزّ وجلّ، والخروج من الأسباب، وقطع الأرباب والمسافرة عن جميع الأشياء بقلبك، تخرج قلبك عن بلدك وأهلك ودكانك ومعارفك وتسلم ما في يدك إلى أهلك وإخوانك وأقرانك، فتصير كأن ملك الموت قد أخذ روحك، كأن خطاف الموت اختطفك، كأن الأرض انشقت وابتلعتك، كأن أمواج القدر والقدرة السابقة أخذتك في بحر العلم وغرقتك. من وصل إلى هذا المقام لا تضره الأسباب، لأنها تكون على ظاهره لا على باطنه، تكون الأسباب لغيره لا له.

(يا قوم) إن لم تقدروا على ما ذكرت من إخراج الأسباب والتعلق بها من حيث قلوبكم من كل وجه فيكون من وجه دون وجه، إذا لم تقدروا على الكل فلا أقل من البعض، كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول:

(تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم).

(يا غلام) إن قدرت أن تتفرغ من هموم الدنيا فافعل، وإلا فهرول بقلبك إلى الحق عزّ وجلّ، وتعلق بذيل رحمته حتى يخرج هم الدنيا من قلبك، هو القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، بيده كل شيء. الزم بابه وسله أن يطهر قلبك من غيره ويملأه بالإيمان والمعرفة له والعلم به والغنى به عن خلقه، سله أن يعطيك اليقين ويؤنس

---

(١) سورة الحج الآية: ٤٦.

قلبك به، ويشغل جوارحك بطاعته، اطلب الكل منه لا من غيره، لا تذلّ لمخلوق مثلك، بل يكون له لا لغيره، ومعاملتك معه وله لا لغيره.

(يا غلام) فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة، السير سير القلب، القرب قرب الأسرار، العمل عمل المعاني مع حفظ حدود الشرع بالجوارح والتواضع لله عزّ وجلّ لعباده، من جعل لنفسه وزناً فلا وزن له، من أظهر أعماله للخلق فلا عمل له.

الأعمال تكون في الخلوات، لا تظهر في الجلوات سوى الفرائض التي لا بد من إظهارها، قد سبق تفريطك في إحكامك للأساس، ما ينفعك إحكامك للبناء الذي فوقه، إذا تغير البناء والأساس محكم قدرت أن تجبر البناء. أساس الأعمال التوحيد والإخلاص، فمن لا توحيد له ولا إخلاص له لا عمل له، أحكم أساس عملك بالتوحيد والإخلاص، ثم ابن الأعمال بحول لله عزّ وجلّ وقوته لا بحولك وقوتك.

يد التوحيد هي البانية، لا يد الشرك والنفاق، الموحّد هو الذي يرتفع قدر عمله، أما المنافق فلا. اللهم باعد بيننا وبين النفاق في جميع أحوالنا.

و ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس السابع

[في الصبر]

قال رضي الله عنه في يوم الأحد في الرباط سابع عشر شوال خمس وأربعين وخمسمائة: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد:

و﴿ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ (١).

وكثر عطاءك لنا وارزقنا الشكر عليه...إلى آخر الدعاء، ثم قال:

(يا قوم) اصبروا فإن الدنيا كلها آفات ومصائب، والنادر منها غير ذلك، ما من نعمة إلا وفي جنبها نقمة، ما من فرحة إلا ومعها ترحة، ما من سعة إلا ومعها ضيق، أعطوا الدنيا حياتكم، وتناولوا أقسامكم منها بيد الشرع، فإنه هو الدواء في تناول ما يؤخذ من الدنيا.

(يا غلام) خذ الأقسام بيد الشرع إذا كنت مريداً، وبيد الأمر إذا كنت خاصاً صديقاً، وبيد فعل الله عزّ وجلّ، إذا كنت واصلاً مقرباً يساق إليك والأمر بأمرك وينهاك، والفعل يتحرك فيك.

الخلق على ثلاثة أضرب: عامي، وخاصي، وخاص الخاص.

فالعامي هو المسلم المتقي، يأخذ الشرع بيده، يلتزم الشريعة ولا يفارقها، يعمل بقول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (٢).

فإذا تمّ هذا في حقه وعمل به ظاهراً وباطناً صار قلبا منوراً يبصر به، فإذا أخذ شيئاً من يد الشرع استغنى قلبه، وطلب إلهام الحق عزّ وجلّ، لأنه إلهامه عام في كل شيء، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (٣).

فيتبقى قلبه وينظر إلهام الحق عزّ وجلّ، وعلامته بأخذ ظاهر الأمر، وهو أن ما

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٥٠.
(٢) سورة الحشر الآية: ٧.
(٣) سورة الشمس الآية: ٨.

في دكان هذا المتعيش ملك له وبيده، ثم يرجع ويستضيء نور قلبه وينظر ما عنده في ذلك، وهذا بعد فراغه من العمل بالشرع عند قوّة إيمانه وتوحيده، بعد خروج قلبه من الدنيا والخلق، وقطع فيافيها وعبور بحورها،

حينئذ يأتيه الصبح، يأتيه نور الإيمان، نور القرب من ربه عزّ وجلّ، نور العمل، نور الصبر، نور التؤدة والطمأنينة، كل هذه الثمرة بعد أداء حقوق الشرع، وبركة متابعته.

وأما الأبدال وهم خواص فيستفتون الشرع، ثم ينظرون أمر الله عزّ وجلّ وفعله وتحركه وإلهامه، فما وراء هذه الثلاثة هلاك في هلاك، سقم في سقم، حرام في حرام، صداع في رأس الدين، دبيلة في قلبه، سلّ في جسده.

(يا قوم) يكون تصاريفه فيكم لينظر كيف تعلمون؟ هل تثبتون أو تنهزمون؟ هل تصدقون أو تكذبون؟ من لا يوافق القدر لا يرافق ولا يوافق، من لم يرض بالأقضية لا يرضى عنه، من لم يعط لا يعطى، من لم يزر لا يركب. يا جاهل تريد تغير وتبدل ما تريد؟ أنت إله ثان؟ تريد أن الله عزّ وجلّ يوافقك؟ هذا بالعكس، اعكس تصب.

لولا الأقدار لما عرفت الدعاوى الكاذبة، عند التجارب تتبين الجواهر. أنكر على نفسك إنكارها على الحق عزّ وجلّ. إذا كنت منكراً على نفسك قدرت على الإنكار على غيرك. على قدر قوّة إيمانك تزيل المنكرات، وعلى قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن إزالتها. أقدام الإيمان هي التي تثبت عند لقاء شياطين الإنس والجن، هي التي تثبت عند نزول البلايا والآفات.

أقدام إيمانك لا ثبات لها، فلا تدع الإيمان. أبغض الكل وأحبّ خالق الكل، فإن شاء هو أن يحبب إليك شيئاً مما أبغضت كنت محفوظاً فيه، لأنه هو المحبب لا أنت، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(حُبِّبَ إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة).

حبب إليه بعد البغض، والترك والزهد والإعراض، فرغ أنت قلبك مما سواه حتى يحبب هو إليك ما يشاء من ذلك.

المجلس الثامن

[عدم المراءاة]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الثلاثاء عشية بالمدرسة تاسع عشر شوال سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

المرائي ثوبه نظيف وقلبه نجس، يزهد في المباحات ويكسل عن الإكتساب، ويأكل بدينه ولا يتورع جملة، يأكل الحرام الصريح، يخفى أمره على العوام ولا يخفي على الخواص كل زهده وطاعته على ظاهره، ظاهره عامر وباطنه خراب، ويلك: طاعة الله عزّ وجلّ بالقلب لا بالقالب، كل هذه الأشياء تتعلق بالقلوب والأسرار والمعاني، تعرَ مما أنت فيه حتى آخذ لك من الحق عزّ وجلّ كسوة لا تبلى، عوَض.

اخلع أنت حتى يكسوك هو، اخلع ثياب توانيك في حقوق الله عزّ وجلّ، اخلع ثياب وقوفك مع الخلق وشركك بهم، اخلع ثياب الشهوات والرعونات والعجب والنفاق، وحبك للقبول عند الخلق، وإقبالهم عليك، وعطاياهم لك، اخلع ثياب الدنيا والبس ثياب الآخرة، انخلع من حولك وقوتك وجودك، واستطرح بين يدي الحق عزّ وجلّ بلا حول ولا قوة ولا وقوف مع سبب، ولا شرك بشيء من المخلوقات.

فإذا فعلت هذا رأيت ألطافه حواليك تأتيك، رحمته تجمعك ونعمته ومننه تكسوك وتضمك إليها، اهرب إليه، انقطع إليه عريانا بلا أنت ولا غيرك، سر إليه منقطعاً منفصلاً عن غيره، سر إليه متفرّقاً مفارقاً حتى يجمعك ويوصلك بقوى ظاهرك وباطنك، حتى لو أغلق الأكوان عليك وحملك جميع الأثقال لا يضرك ذلك بل يحفظك فيه.

من أفنى الخلق بيد توحيده، وأفنى الدنيا بيد زهده، وأفنى ما سوى ربه عزّ وجلّ بيد الرغبة فقد استكمل الصلاح والنجاح، وحظي بخير الدنيا والآخرة عليكم بإماتة نفوسكم وأهويتكم وشياطينكم قبل أن تموتوا. عليكم بالموت الخاص قبل الموت العام.

(يا قوم) أجيبوني فإني داعي الله عزّ وجل: أدعوكم إلى بابه وطاعته، لا أدعوكم إلى نفسي. المنافق ليس يدعو الخلق إلى الله عزّ وجلّ. هو داع إلى نفسه، طالب الحظوظ

والقبول، طالب الدنيا. ياجاهل تترك سماع هذا الكلام وتقعد في صومعتك مع نفسك وهواك؟

تحتاج أولاً إلى صحبة الشيوخ وقتل النفس والطبع وما سوى المولى عزّ وجلّ، تلزم باب دورهم، أعني الشيوخ، ثم بعد ذلك تنفرد عنهم وتقعد في صومعتك وحدك مع الحق عزّ وجلّ، فإذا تمّ هذا لك صرت دواء للخلق هادياً مهادياً بإذن الحق عزّ وجلّ، أنت لسانك ورع وقلبك فاجر، لسانك يحمد الله عزّ وجلّ وقلبك يعترض عليه، ظاهرك مسلم وباطنك كافر، ظاهرك موحد وباطنك مشرك، زهدك على ظاهرك، دينك على ظاهرك، وباطنك خراب كبياض على بيت الماء -أي الخلاء- قفل على مزبلة.

إذا كنت هكذا خيم الشيطان على قلبك وجعله مسكناً له، المؤمن يبتدئ بعمارة باطنه، ثم بعمارة ظاهره كالذي يعمل داراً ينفق على الداخل منها مبالغ من المال وبابها خراب، فإذا كمل عمارتها بعد ذلك يعمل بابها، هكذا البداية بالله عزّ وجلّ ورضاه ثم الإلتفات إلى الخلق بإذنه، البداية بتحصيل الآخرة ثم تتناول الأقسام من الدنيا.

المجلس التاسع

[ابتلاء المؤمن]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة الكمعة بالمدرسة ثاني عشر شوال خمس وأربعين وخمسمائة:

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(إنّ الله لا يعتب حبيبه ولكن قد يبتليه).

المؤمن يثبت عنده أن الله عزّ وجلّ ما يبتليه بشيء إلا لمصلحة تعقب ذلك، إما دنيا أوآخرة، فهو راض بالبلاء وصابر عليه، غير متهم ربه عزّ وجلّ، شغله ربه عزّ وجلّ عن البلاء. يا مشغولين بالدنيا عنكم الكلام في هذه المقامات، فإنكم تتكلمون بألسنتكم لا بقلوبكم.

أنتم معرضون عن الله عزّ وجلّ وعن كلامه وعن أنبيائه وأتباعهم على الحقيقة الذين هم خلفاؤهم وأوصياؤهم، أنتم منازعون المقدر والقدرة، قد قنعتم بعطايا الخلق عن عطايا الحق عزّ وجلّ ومنته، لا كلام لكم مسموع عند الله عزّ وجلّ وعنده عباده الصالحين حتى تتوبوا وتخلصوا بالتوبة وتثبتوا عليها وتوفقوا القدر والقضاء فيما لكم وعليكم فيما يعزّ ويذلّ، في الغنى، والفقر في العافية والمرض، فيما تحبون وفيما تكرهون.

(يا قوم) تابعوا حتى تتابعوا، اخدموا حتى تخدموا، تابعوا الأفضلية والأقدار واخدموها حتى يتابعوكم ويخدموكم، ذلوا لها حتى تذل لكم، أما سمعتم:

(كما تدين تدان — كما تكونوا يولّ عليكم).

أعمالكم عمالكم — الحق عزّ وجلّ ليس بظلام للعبيد، يجازي على القليل بالكثير، الصحيح لا يسميه فاسداً، والصادق لا يسميه كاذباً.

(يا غلام) إذا خدمت، إذا وقف وقفت، اخدم الحق عزّ وجلّ ولا تشتغل عنه بخدمة هؤلاء السلاطين الذين لا يضرّون ولا ينفعون، أيش يعطونك؟ أيعطونك ما لم يقسم لك؟ أو يقدرون يقسمون لك شيئاً لم يقسمه الحق عزّ وجلّ ؟

لا شيء مستأنف من عندهم. إن قلت إن عطاءهم مستأنف من عندهم كفرت، أما تعلم أنه لا معطي ولا مانع، ولا ضار ولا نافع، ولا مقدم ولا مؤخر إلا الله عزّ وجلّ ؟ فإن قلت: إني أعلم ذلك، قلت ذلك: كيف تعلم هذا وتقدم غيره عليه؟.

(ويحك) كيف تفسد آخرتك بدنياك ؟ كيف تفسد طاعة مولاك عزّ وجلّ بطاعة نفسك وهواك وشيطانك والخلق ؟ كيف تفسد تقواك بشكواك إلى غيره؟

أما تعلم أن الله عزّ وجلّ حافظ للمتقين وناصر لهم، وراد عنهم ومعلم لهم، ومعرّفهم بنفسه، وآخذ بأيديهم وينجيهم من المكاره، وناظر إلى قلوبهم، ورازقهم من حيث لا يحتسبون؟

قال الله عزّ وجلّ في بعض كتبه:

(يابن آدم استحي مني كما تستحي من جارك الصالح) قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(إذا أغلقَ العبدُ أبوابَهُ، وأرخى أستارَهُ، واختفى منَ الخلقِ، وخلا بمعاصي اللهِ عزّ وجلّ يقولُ اللهُ عزّ وجلّ: يا ابنَ آدم جعلتني أهونَ الناظرينَ إليكَ).

المجلس العاشر

[عدم التكلف]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة الأحد رابع عشر شوال سنة خمس وأربعين وخمسمائة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(أنا والأتقياء من أمتي برآء من التكلّف).

التقي لا يتكلف عبادة الحق عزّ وجلّ لأنها صارت طبعه فهو يعبد الله بظاهره وباطنه من غير تكلف منه.

وأما المنافق فهو في كل أحواله فيتكلف، ولا سيما في عبادة الحق عزّ وجلّ، يتكلفها ظاهرا ويتركها باطنا، لايقدر أن يدخل مدخل المتقين، لكل مكان مقال، ولكل عمل رجال، للحرب رجال، للحرب رجال خلقت. يا منافقون توبوا من نفاقكم، وارجعوا من إباقكم، كيف تتركون الشيطان يضحك عليكم، ويشتفى بكم؟

إن صليتم وإن صمتم فعلتم ذلك للخلق لا للحق عزّ وجلّ، وهكذا إن تصدقتم وزكيتم وحججتم. أنتم: (عاملة ناصبة) عن قريب تصلون ناراً حامية.

إن لم تتداركوا وتتوبوا وتعذروا. عليكم بالإتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح. امشوا في الجادة المستقيمة، لا تشبيه ولا تعطيل، بل اتباعاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تكلف ولا تطبع ولا تشدد ولا تمشدق ولا تمعقل، يسعكم ما وسع من كان قبلكم.

(ويحك) تحفظ القرآن ولا تعمل به، تحفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تعمل بها فلأيّ شيء تفعل ذلك؟ تأمر الناس وأنت لا تفعل، وتنهاهم وأنت لا تنتهي. قال عزّ وجلّ:

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ (١).

لم تقولون وتخالفون ما تستحون؟ لم تدعون الإيمان ولا تؤمنون؟ الإيمان هو المقاوم للآفات، هو الصابر تحت ثقلنا، هو المصارع، هو المقاتل. الإيمان هو المتكرم بما

---

(١) سورة الصف الآية: ٣.

عنده من الدنيا، الإيمان يتكرّم لوجه الله عزّ وجلّ، والهوى يتكرّم لوجه الشيطان ولأغراض النفس. من فاته باب الحق عزّ وجلّ قعد على أبواب الخلق، من ضيع طريق الحق عزّ وجلّ وضلّ عنها قعد على طريق الخلق، من أراد الله به خيراً.

أغلق أبواب الخلق في وجهه وقطع عطاءهم عنه حتى يرده بذلك إليه، يقيمه من الغدر إلى الشط، يقيمه من لا شيء إلى شيء.

(ويحك) تفرح بقعودك عند الغدوّ في الشتاء، عن قريب يجيء الصيف وينشف الماء الذي عندك فتموت مكانك. الذي عند الشط فإنه في الصيف ينقطع ماؤه، وفي الشتاء يزيد ويكثر، كن مع الله عزّ وجلّ تكن غنياً عزيزاً أميراً مؤمراً دليلاً. من استغنى بالله عزّ وجلّ إحتاج إليه كل شيء، وهذا شيء لا يجيء بالتحلي والتمني ولكن بشيء وقر في الصدور صدقه العمل.

(يا غلام) ليكن الخرس دأبك والخمول لباسك والهرب من الخلق كل مقصودك، وإن قدرت أن تنقب في الأرض سرباً تختفي فيه فافعل، يكون هذا دأبك إلى أن يترعرع إيمانك ويقوى قدم إيقانك ويتريش جناح صدقك وتنفتح عينا قلبك، فترفع أرض بيتك وتطير إلى جوّ علم الله، تطوف الشرق والغرب، البرّ والبحر والسهل والجبل، تطوف السموات والأرضين وأنت مع الدليل الخفير الرفيق.

فحينئذ أطلق لسانك في الكلام، واخلع لباس الخمول، واترك الهرب من الخلق، واخرج من سربك إليهم فإنك دواء لهم غير مستضر في نفسك، لا تبال بقلتهم وكثرتهم وإقبالهم وإدبارهم وحدهم وذمهم، لا تبال أين سقطت لقطت وأنت مع ربك عزّ وجلّ.

(يا قوم) اعرفوا هذا الخالق وتأدبوا بين يديه، ما دامت قلوبكم بعيدة عنه فأنتم سيئوا الأدب عليه، وإذا قربت حسن أدبها. هذيان الغلمان على الباب قبل ركوب الملك، فإذا ركب جاء خرسهم وحسن أدبهم لأنهم قريبون منه، كل منهم يهرب إلى زاوية. الإقبال على الخلق هو عين الإدبار عن الحق عزّ وجلّ لا فلاح لك حتى تخلع الأرباب وتقطع الأسباب وتترك رؤية الخلق في النفع والضرّ.

أنتم أصحاب مرضى، أغنياء فقراء، أحياء موتى، موجودون معدومون. إلى متى هذا الإباق عن الحق عزّ وجلّ والإعراض عنه؟ إلى متى عمارة الدنيا وتخريب الآخرة؟ إنما لكل واحد منكم قلب واحد فكيف يحب به الدنيا والآخرة، كيف يكون فيه الخالق

والخلق؟ كيف يحصل هذا في حالة واحدة، في قلب واحد؟ هذا كذب والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقول:

(الكذب مُجانب الإيمان).

كل إناء ينضح بما فيه، أعمالك دلائل على اعتقادك، ظاهرك دليل على باطنك، ولهذا قال بعضهم: الظاهر عنوان الباطن. باطنك ظاهر عند الحق عزّ وجلّ وعند خواصه من عباده، إذا وقع بيدك واحد منهم فتأدب بين يديه.

وتب من ذنوبك قبل لقائه، تصاغر عنده وتواضع. إذا تواضعت للصالحين فقد تواضعت لله عزّ وجلّ، تواضع فإن من تواضع رفعه الله عزّ وجلّ، أحسن الأدب بين يدي من هو أكبر منك، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال:

(البَرَكَةُ في أكابركم).

قال: ما أراد النبيّ صلى الله عليه تعالى وسلم ذكر السن فحسب، بل حتى يضاف إلى كبر السن. التقوى في امتثال الأمر والانتهاء عن النهي وملازمة الكتاب والسنة، وإلا فكم من شيخ لا يجوز احترامه ولا السلام عليه وليس في رؤيته بركة.

الأكابر المتقون الصالحون المتورعون العاملون بالعلم المخلصون في العمل. الأكابر القلوب الصافية المعرضة عما سوى الله عزّ وجلّ. الأكابر القلوب العارفة بالله عزّ وجلّ العاملة القريبة منه، كلما كثر علم القلوب قربت من مولاها عزّ وجلّ. كل قلب فيه حب الدنيا فهو عن الله محجوب، وكل قلب فيه حب الآخرة فهو عن قرب الله محجوب. بقدر رغبتك في الدنيا تنقص رغبتك في الآخرة، وبقدر رغبتك في الآخرة تنقص محبتك للحق عزّ وجلّ. اعرفوا أقداركم ولا تنزلوا أنفسكم منزلاً لم ينزلها الله عزّ وجلّ فيه.

ولهذا قال بعضهم: (من لم يعرف قدره عرّفته الأقدار قدره) لا تقعد في موضع تقام منه، إذا دخلت داراً فلا تقعد موضعاً لم يقعدك فيه صاحب الدار، فإنك تقام منه بلا أمرك، وإن امتنعت أقمت وأهنت وأخرجت.

(يا غلام) قد ضيعت العمل في كتب العلم وحفظه من غير عمل، إيش ينفعك؟

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة للأنبياء والعلماء: أنتم كنتم رعاة الخلق فما صنعتم في رعاياكم؟ ويقول للملوك والأغنياء: أنتم كنتم خزان كنوزي هل واسيتم الفقراء الأيتام وأخرجتم منها حقي الذي كتبته عليكم؟).

(يا قوم) اتعظوا بمواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم واقبلوا قوله، ما أقسى قلوبكم؟ سبحان من أقدرني على مقاساة الخلق، كلما رمت الطيران جاء مقص القدر وقص جناحي، غير أني أتسلى، كيف وأنا مقيم في براح الملك. ويلك يا منافق تتمنى خروجي من هذه البلدة، لو تحركت تبدّل الأمر وانفصلت الأعضاء وتغير الحديث.

ولكن أخاف من عقوبة الله عزّ وجلّ العجلة. ما أنا مشمر بل على مثاقف من القدر، فأنا موافق له مسلم إليه، اللهم سلاماً وتسليماً.

(ويحك) تستهزئ بي وأنا واقف على باب الحق عزّ وجل، أدعوا الخلق إليه، سوف ترى جوابك. ابن إلى فوق ذراعاً وإلى تحت آلافاً. سوف ترون يا منافقون عذاب الله عزّ وجلّ وعقابه دنيا وآخرة. الزمان حبلي سوف ترون ما يكون منه.

أنا في يد تقليب الحق عزّ وجلّ، تارة يصيرني جبلاً وتارة يصيرني ذرة، وتارة يصيرني بحراً وتارة يصيرني قطرة، وتارة يصيرني شمساً وتارة يصيرني لمعة وبرقة، يقلبني كما الليل والنهار.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (1).

بل كل لحظة، اليوم لكم واللحظة لغيركم.

(يا غلام) إن أردت سعة الصدر وطيب القلب فلا تسمع ما يقول الخلق، ولا تلتفت إلى حديثهم، أما تعلم أنهم ما يرضون عن خالقهم فكيف يرضون عنك؟ أما تعلم أن كثيراً منهم لايعقلون ولا يبصرون ولا يؤمنون؟ بل يكذبون ولا يصدقون.

اتبع القوم الذين لا يعقلون غير الحق عزّ وجلّ، ولا يسمعون من غيره ولا يبصرون غيره. اصبر على ما يبتليك به بأنوع البلايا، هذا دأب الله عزّ وجلّ مع عباده المصطفين المخبتين، يقطعهم عن الكل، ويبتليهم بأنواع البلايا والآفات والمحن، يضيق عليهم الدنيا والآخرة وما تحت العرش إلى الثرى، يفني بذلك وجودهم.

---

(1) سورة الرحمن الآية: ٢٩.

حتى إذا أفنى وجودهم أوجدهم له لا لغيره، أقامهم معه لا مع غيره، ينشئهم خلقاً آخر، كما قال عزّ وجلّ:

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾[1].

الخلق الأول مشترك وهذا الخلق مفرد، يفرده عن إخوانه وأبناء جنسه من بني آدم، يغير معناه الأول ويبدله، يصير عاليه سالفة، يصير ربانيا روحانياً، يضيق قلبه عن رؤية الخلق، وينسد باب سرّه عن الخلق.

يصوّر له الدنيا والآخرة والجنة والنار وجميع المخلوقات والأكوان شيئاً واحداً، ثم يسلم ذلك الشيء إلى يد سرّه فيبتلعه ولا يتبين فيه، يظهر فيه القدرة كما أظهرها في عصا موسى عليه السلام، سبحان من يظهر قدرته فيما يريد على يد من يريد. بلعت عصا موسى أحمالاً كثيرة من الحبال وغيرها من الأشياء ولم تتغير بطنها، أراد الحق عزّ وجلّ أن يعلمهم أن ذلك قدرة لا حكمة، لأن ما فعله السحرة في ذلك اليوم كان حكمة وهندسة.

وما ظهر في عصا موسى عليه السلام كان قدرة من الحق عزّ وجلّ خرق عادة ومعجزة، ولهذا قال أمير السحرة لواحد من أصحابه: انظر إلى موسى في أيّ حالة هو؟ فقال له: قد تغير لونه والعصا تعمل عملها، فقال: هذا من فعل الله عزّ وجلّ لا من فعله، فإن الساحر لا يخاف من سحره والصانع لا يخاف من صنعته، ثم آمن به وتبعه أصحابه.

(يا غلام) متى تقوم من الحكمة إلى القدرة، متى يوصلك عملك بالحكمة إلى قدرة الله عزّ وجلّ، متى يوصلك لخلاصك في أعمالك إلى باب قربك من ربك عزّ وجلّ، متى تريك شمس المعرفة وجوه قلوب العوام والخواص. لا تهرب من الحق لأجل بلائه، إنما يبتليك ليعلم هل ترجع إلى السبب وتترك بابه أم لا؟ هل ترجع إلى الظاهر أو إلى الباطن؟ ما يدريك أو إلى ما لا يدريك؟

إلى ما يرى أو إلى مالا يرى. اللهم لا تبتلينا، اللهم ارزقنا القرب منك بلا بلاء، اللهم قرباً ولطفاً، اللهم قرباً بلا بعد، لا طاقة لنا عن البعد منك ولا على مقاساة البلاء، فارزقنا القرب منك مع عدم نار الآفات، فإن كان ولا بد من نار الآفات فاجعلنا فيها

(١) سورة المؤمنون الآية: ١٤.

كالسمندل الذي يبيض ويفرخ في النار وهي لا تضره ولا تحرقه، اجعلها علينا كنار إبراهيم خليلك، أنت حوالينا عشباً كما أنبت حواليه، وأغننا عن جميع الأشياء كما أغنيته، وآنسنا وتولنا كما توليته واحفظنا كما حفظته آمين.

إبراهيم عليه السلام حصل الرفيق قبل الطريق، والجار قبل الدار، والأنيس قبل الوحشة، والحمية قبل المرض، والصبر قبل البلية، والرضا قبل القضاء، تعلموا من أبيكم إبراهيم عليه السلام، اقتدوا به في أقواله وأفعاله.

سبحان من لطف به في بحر بلائه وكلفه السباحة في بحر البلاء وأيده معه، كلفه الحمل على العدوّ وهو مع رأس الفرس، كلفه الصعود إلى موضع عال ويده في ظهره، كلفه دعوة الخلق إلى طعامه والنفقة من عنده، هذا هو اللطف الباطن الخفي.

(يا غلام) كن مع الله صامتاً عند مجيء قدره وفعله حتى ترى منه ألطافاً كثيرة، أما سمعت بغلام جالينوس الحكيم؟ كيف تخارس وتباله وتساكت حتى حفظ كل علم عنده؟ حكمة الله عزّ وجلّ لا تجيء إلى قلبك من كثرة هذيانك ومنازعتك له واعتراضك عليه.

اللهم ارزقنا الموافقة وترك المنازعة.

و ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس الحادي عشر

[معرفة الله عز وجل]

قال رضي الله تعالى عنه يوم الجمعة بكرة بالمدرسة، تاسع عشر شوّال سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

(يا قوم) اعرفوا الله ولا تجهلوه، وأطيعوا الله ولا تعصوه، ووافقوه ولا تخالفوه، وارضوا بقضائه ولا تنازعوه، واعرفوا الحق عزّ وجلّ بصنعته، هو الخالق الرزّاق، الأول الآخر، والظاهر والباطن، هو القديم الأول، الدائم الأبدي، الفعال لما يريد.

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1].

هو المغني هو المفقر، هو النافع المحيي المميت، المعاقب المخوف المرجو، خافوه ولا تخافوا غيره، وارجوه ولا ترجوا غيره، دوروا مع قدرته وحكمته إلى أن تغلب القدرة الحكمة، تأدبوا مع السواد على البياض، إلى أن يأتي ما يحول بينكم وبينه، تكونوا محفوظين من خرق حدود الشرع الذي أشير إليه معنى لا صورة، لا يصل إلى هذا الأمر إلا آحاد الصالحين، ما لنا حاجة خارجة عن دائرة الشرع.

ما يعرف هذا الأمر إلا من دخل فيه، فإما بمجرد الصفة فلا تعرفه. كونوا في جميع أموركم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مشدودي الأوساط تحت أمره ونهيه واتباعه، إلى أن يدعوكم الملك إليه فحينئذ استأذنوا الرسول صلى الله عليه وسلم وادخلوا عليه. إنما سمي الأبدال إبدالاً لأنهم لا يريدون مع الله عزّ وجلّ إرادة، ولا يختارون مع اختياره اختياراً، يحكمون الحكم الظاهر، ويعملون الأعمال الظاهرة ثم يتفردون إلى أعمال تخصهم، كلما ترقت درجاتهم ومنازلهم أمراً ونهياً، إلى أن يبلغوا إلى منزل لا أمر فيه ولا نهي، بل أوامر الشرع تنفعل فيهم وتضاف إليهم وهم في معزل، لا يزالون في غيبة مع الحق عزّ وجلّ.

وإنما يحضرون في وقت مجيء الأمر والنهي يحفظون فيهما حتى لا يخربون حداً من حدود الشرع، لأن ترك العبادات المفروضات زندقة وارتكاب المحظورات معصية. لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال.

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٢٣

(يا غلام) اعمل بحكمة وعلمه، ولا تخرج عن الخطة، لا تنس العهد، جاهد نفسك وهواك وشيطانك وطبعك ودنياك، ولا تيأس من نصرة الله عزّ وجلّ فإنها تأتيك مع ثباتك، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1].

وقال: ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[2]. وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[3].

أمسك لسان نفسك عند شكواها إلى الخلق. كن خصماً لله عزّ وجلّ عليها وعلى جميع الخلق تأمرهم بطاعته وتنهاهم عن معصيته، تنهاهم عن الضلال والابتداع واتباع الهوى وموافقة النفس، وتأمرهم باتباع كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

(يا قوم) احترموا كتاب الله عزّ وجلّ وتأدبوا معه، هو الوصلة بينكم وبين الله عزّ وجلّ، لا تجعلوه مخلوقاً، يقول الله عزّ وجلّ هذا كلامي تقولون أنتم لا. من ردّ على الله عزّ وجلّ وجعل القرآن مخلوقاً فقد كفر بالله عزّ وجلّ، وبرئ منه هذا القرآن. هذا القرآن المتلو، هذا المقروء، هذا المسموع، هذا المنظور، هذا المكتوب في المصاحف كلامه عزّ وجلّ. كان الإمام الشافعي والإمام أحمد رضي الله عنهما يقولان: القلم مخلوق والمكتوب به غير مخلوق، والقلب مخلوق والمحفوظ فيه غير مخلوق.

(يا قوم) انصحوا القرآن بالعمل به لا بالمجادلة فيه، الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة. عليكم بالإيمان به. صدقوا بقلوبكم، واعملوا بجوارحكم. اشتغلوا بما ينفعكم، لا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية.

(يا قوم) المنقول لا يستنتج بالعقل، والنص لا يترك بالقياس. لا تترك البينة وتقف مع مجرد الدعوى. أموال الناس لا تؤخذ بالدعوى من غير بينة، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(لو أُعْطِيَ النَّاسُ بِدَعَاوِيهِمْ لادَّعَى قَوْمٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ، لَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ).

---

(١) سورة البقرة آية: ١٥٣
(٢) سورة المائدة آية: ٥٦
(٣) سورة العنكبوت آية: ٦٩

لا ينفع لسان عليم وقلب جاهل. عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(أخوف ما أخاف على أمتي من منافق عليم اللّسان).

يا علماء ياجهال يا حاضرون وياغائبون استحيوا من الله عزّ وجل، وانظروا بقلوبكم إليه، ذلوا له، صيروا أنفسكم تحت مطارق قدره، وألزموها بالشكر على نعمه، واصلوا الضياء بالظلام في طاعته. فإذا تحقق ذلك منكم جاءتكم كرامة الله عزّ وجلّ وعزّه وجنته في الدنيا والآخرة.

(يا غلام) اجتهد أن لا يبقى شيء في الدنيا تحبه، إذا تمّ هذا في حقك لا تترك مع نفسك لحظة، إن نسيت ذكرت، وإن غفلت أوقظت، لا يدعك تنظر إلى غيره في الجملة. من ذاق هذا فقد عرفه، هذا الجنس آحاد أفراد الخلق لا يقبلون السكون إلى الخلق. يا منافقون الآفات والبلايا على رءوس قلوبكم. القوم كلما نظروا بأعين قلوبهم إلى غير الحق عزّ وجلّ انفقوا سلامتهم في السكون إليه والاستطراح بين يديه والتعامي عن خلقه، قطع ألسنتهم عن الإعتراض عليه، فتنقلب الأيام والليالي والأشهر والسنون عليهم وهم على حالة واحدة لا يتغيرون مع الحق عزّ وجلّ، هم أعقل خلق الله عزّ وجلّ، لو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولو رأوكم لقالوا ما آمن هؤلاء بيوم الدين، قلوبهم حزينة منكسرة بين يدي الحق عزّ وجلّ لا يزالون خائفين وجلين، كلما كشف قناع جلاله وعظمته لقلوبهم إزداد خوفهم تكاد قلوبهم تتقطع وأوصالهم تنفصل، فإذا رأى منهم ذلك فتح أبواب رحمته وجماله ولطفه والرجاء لهم فيسكن ما بهم. ما أحب أنظر إلا لطالبي الآخرة وطالبي الحق عزّ وجلّ. وأما طالب الدنيا والخلق والنفس والهوى إيش أعمل به؟ غير أني أحبّ مداواته لأنه مريض، لا يصبر على المريض إلا الطبيب.

(ويحك) تخفي أمرك عليّ وهو لا يخفى، تظهر لي أنك طالب الآخرة وأنت طالب الدنيا، هذا الهوس الذي في قلبك مكتوب على جبينك، سرك في علانيتك، الدينار الذي في يدك بهرج فيه دانق ذهب والباقي فضة، لا تبهرج عليّ فإني رأيت كثيراً مثله، سلمه إليّ وكني منه حتى أسبكه وأخلص ما فيه من الذهب وأرمي بالباقي. جيد قليل خير من رديّ كثير، مكني من دينارك فأنا ضراب وعند آلة ذلك. تب من الرياء والنفاق ولا تستحي من الإقرار به على نفسك فالغالب من المخلصين كانوا منافقين ولهذا قال بعضهم رحمة الله تعالى عليه [لا يعرف الإخلاص إلا المرائي] النادر من كل نادر-من يخلص من أول أمره إلى آخره. الصبيان في أول أمرهم يكذبون ويلعبون بالتراب والنجاسات، ويوقعون أنفسهم في

المهالك ويسرقون من آبائهم وأمهاتهم، ويمشون بالنميمة، وكلما دبّ العقل فيهم تركوا شيئاً فشيئاً، يتأدبون بالآباء والأمهات والمعلمين. من يرد الله خيراً يتأدب ويترك ما كان عليه، ومن يرد الله به شراً يعش على ما هو عليه فيهلك دنيا وآخرة، الله عزّ وجلّ خلق الدواء والداء، المعاصي داء الطاعة دواء، الظلم داء والعدل دواء، والخطأ داء والصواب دواء، ومخالفة الحق عزّ وجلّ داء والتوبة من سكر الذنوب دواء.

إنما يتم لك الدواء إذا فارقت الخلق بقلبك وأوصلته بربك عزّ وجلّ ورفعته إليه، يصير في السماء وروحك وبيتك في الأرض، تنفرد بقلبك مع الحق عزّ وجلّ بما يعلم وتشارك الخلق في العمل بالحكم، لا تخالفهم في خصلة منه حتى لا يكون له ولهم عليك حجة، تنفرد مع ربك عزّ وجلّ بباطنك وتكون مع الخلق بظاهرك، لا تخل لنفسك رأساً مشالاً إن ركبتها وإلا ركبتك، وإن صرعتها وإلا صرعتك. إنه لم تطعك فيما تريد من طاعة الله عزّ وجلّ وإلا عاقبها بسياط الجوع والعطش والذلّ والعرى والخلوة في موضع لا أنيس فيه من الخلق، لا تنح هذه السياط عنها حتى تطمئن وتطيع الله عزّ وجلّ في كل حال، فإذا اطمأنت لا تخل المعاقبة بينك وبينها، أليس فعلت كذا وكذا؟

وافقها حتى لا تزال منكسرة، إنما تستعين على هذا جميعه بطلب مراد الله عزّ وجلّ وبموافقته وترك معاصيه، وأن يكون ظاهرك وباطنك واحداً، تصير موافقة بلا مخالفة، طاعة بلا معصية، شكراً بلا كفر، ذكراً بلا نسيان، خيراً بلا شرّ. لا فلاح لقلبك وفيه أحد غير الله عزّ وجلّ، لو سجدت له ألف عام على الجمر وأنت تقبل بقلبك على غيره لما نفعك ذلك، لا عاقبة له وهو يحبّ غير مولاه عزّ وجلّ، لا تسعد بحبه حتى تعدم الكل، إيش ينفعك إظهار الزهد في الأشياء مع إقبالك عليها بقلبك؟ أما تعلم أن الله عزّ وجلّ يعلم ما في صدور العالمين؟ ما تساحي تقول بلسانك توكلت على الله وفي قلبك غيره؟

(يا غلام) لا تغترّ بحلم الله عزّ وجلّ عنك فإن بطشه شديد، لا تغترّ بهؤلاء العلماء الجهال بالله عزّ وجلّ، كل علمهم عليهم لا لهم، هم علماء بحكم الله عزّ وجلّ، جهال بالله عزّ وجلّ، يأمرون الناس بأمر ولا يمتثلونه، وينهونهم عن شيء ولا ينتهون عنه، يدعون إلى الحق عزّ وجلّ وهم يفرّون منه، يبارزونه بمعاصيه وزلاته، أسماؤهم عندي مؤرخة مكتوبة معدودة.

اللهم تب عليّ وعليهم، وهبنا كلنا لنبيك محمد صلى الله عليه وسلم، ولأبينا إبراهيم عليه السلام. اللهم لا تسلط بعضنا على بعض، وانفع بعضنا ببعض، وأدخلنا كلنا في رحمتك آمين.

المجلس الثاني عشر

[النهي عن الطلب من غير الله]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم بكرة بالرباط ثاني ذي القعدة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

(يا غلام) ما صحت إرادتك للحق عزّ وجلّ ولا أنت مريد له، لأن كل من يدعي إرادة الحق جل وعلا ويطلب غيره فقد بطلت دعواه. مريدوا الدنيا فيهم كثرة، ومريدوا الآخرة فيهم قلة، ومريدوا الحق عزّ وجلّ الصادقون في إرادته اقل من كل قليل، هم في القلة والعدم كالكبريت الأحمر، هم آحاد أفراد في الشذوذ والندور، حتى يوجد منهم واحد، هم نزاع العشائر، هم معادن في الأرض ملوك فيها، هم شحن البلاد والعباد.

بهم يدفع البلاء عن الخلق، وبهم يمطرون، وبهم يمطر الله السماء، وبهم تنبت الأرض. في بداية أمرهم يفرّون من شاهق إلى شاهق، من بلد إلى بلد، من خراب إلى خراب، كلما عرفوا في موضع تحوّلوا منه، يرمون الكل وراء ظهورهم، ويسلمون مفاتيح الدنيا إلى أهلها، لا يزالون كذلك إلى أن تبنى القلاع حواليهم، وتجري الأنهار إلى قلوبهم، ويحاط بهم جنود من قبل الحق عزّ وجلّ.

كل منهم ينفرد إليه بالحراسة فيكرمون ويحفظون، ويولون على الخلق، كل هذا من وراء عقولهم، فحينئذ يصير إقبالهم على الخلق فريضة، يصيرون كالأطباء وبقية الخلق مرضى.

(ويحك) تدعي أنك منهم؟ ما علامتهم عندك؟ ما علامة قرب الحق عزّ وجلّ ولطفه؟ في أيّ منزله أنت عند الحق عزّ وجلّ وفي اي مقام؟ ما اسمك وما لقبك في الملكوت الأعلى؟ علام يغلق بابك كل ليلة؟ طعامك وشرابك مباح، هو حلال طلق، تضاجع الدنيا أو الآخرة أو قرب الحق عزّ وجلّ. من أنيسك في الوحدة؟

من جليسك في الخلوة؟ يا كذاب أنيسك في الوحدة نفسك وشيطانك وهواك والتفكر في دنياك، وفي الجلوة شياطين الإنس الذين هم أقران السوء وأصحاب القيل والقال، هذا شيء لا يجيء بالهذيان ومجرد الدعوى، كلامك في هذا هوس لا ينفعك.

عليك بالسكون والخمول بين يدي الحق عزّ وجلّ وترك إساءة الأدب.

إن كان ولا بد من الكلام في هذا فيكون كلامك فيه على سبيل التبرك به والتبرك بذكر اهله، لا أنك تدعيه بظاهرك مع خلوّ قلبك منه، كل ظاهر لا يوافقه الباطن فهو هذيان، أما سمعت قول النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(ما صام من ظلّ يأكلُ لحوم الناس).

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن ليس الصيام ترك الطعام والشراب والمفطرات فحسب، بل حتى يضاف إليه ترك الآثام. احذروا من الغيبة فإنها تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ما تعوّدها من أفلح قط، ومن عرف بها قلّت حرمته عند الناس.

واحذروا من النظر بشهوة فإنه يزرع المعصية في قلوبكم، وعاقبته غير محمودة في الدنيا والآخرة، واحذروا من اليمين الكاذبة فإنها تترك الديار بلاقع، تذهب بركة الأموال والأديان.

(ويحك) تنفق مالك باليمين الكاذبة وتخسر دينك، لو كان لك عقل لعلمت أن هذه هي الخسارة بعينها، تقول: والله عزّ وجلّ ما في هذه البلدة مثل هذا المتاع ولا عند أحد مثله، والله إنه يسوي كذا وكذا، وإنه عليّ بكذا وكذا.

وأنت كاذب في كل ما قلته، ثم تشهد بالزور وتحلف بالله عزّ وجلّ إنك صادق، عن قريب يجيئك العمى والزمن. تأدبوا رحمكم الله تعالي بين يدي الحق عزّ وجلّ، من لم يتأدب بآداب الشرع أدبته النار يوم القيامة، سأله سائل فقال: من فيه هذه الخمس خصال أوبعضها تحكم ببطلان صومه ووضوئه؟ فقال: صومه ووضوئه لا يبطل، ولكن هذا جاء علىسبيل الوعظ والتحذير والتخوف.

(يا غلام) لعل غداً يأتي وأنت مفقود من ظهر الأرض موجود، أو لعل هذا يكون ساعة أخري، إيش هذه الغفلة ما اقسي قلوبكم! صخور أنتم؟

أقول لكم وغيري يقول لكم وأنتم علي حالة واحدة. القرآن يتلي عليكم، وأخبار الرسول وسير الأولين تقرأ عليكم، وأنتم لا تعتبرون، ولا تتجنبون، ولاتتغير أعمالكم، كل من يحضر ببقعة فيها ولم يتعظ فهو فى شر الأهل.

(يا غلام) استهانتك بأولياء الله عزّ وجلّ من قلة معرفتك بالله عزّ وجلّ، تقول

هؤلاء متهمون لم لا يتعيشون معنا؟ لم لا يقعدون معنا؟ تقول هذا لجهلك بنفسك. لما قلت معرفتك بنفسك قلت معرفتك بأقدار الناس، على قدر قلة معرفتك بالدنيا وعاقبتها تجهل قدر اللآخرة، وعلى قدر قلة معرفتك بالآخرة تجهل الحق عزّ وجلّ.

يا مشتغلا بالدنيا عن قريب الخسران والندامات عندك ظاهرة عليك في الدنيا واللآخرة تظهر نداماتك يوم القيامة، يوم التغابن يوم الفضيحة يوم الندامات والخسران، حاسب نفسك قبل مجيء الآخرة ولا تغتر بحكم الله عزّ وجلّ عنك وكرمه عليك، أنت قائم على أسوأ اللأحوال من المعاصي والزلات وظلم الناس. المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت. عليك بالتوبة قبل الموت، قبل مجيء الملك الموكل بأخذ الأرواح.

(يا شباب) توبوا. أما ترون الحق عزّ وجلّ يبتليكم بالبلاء حتى تتوبوا وأنتم لاتعقلون وتصرّون على معاصيه؟ ما يبتلي أحد في هذا الزمان إلا آحاد أفراد. الكذب نقمة لا نعمة، عقوبة للذنوب لا زيادة في الدرجات والكرامات. القوم يبتلون لترفع درجتهم عند ملكهم، يصبرون معه لأنهم يريدون وجهه، إذا تم لهم هذا فقد تم لهم الملك، وإذا لم يتم لهم هذا اعتقدوا أنهم في هلك، اللهم لا هلك، نسألك القرب منك، والنظر إليك في الدنيا والآخرة، في الدنيا بقلوبنا، وفي الآخرة بأعيننا.

(يا قوم) لا تيأسوا من روح الله عزّ وجلّ وفرجه فإنه قريب، لا تيأسوا فإن الصانع الله.

﴿ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾[1].

لا تهرب من البلاء، فإن البلاء مع الصبر أساس لكل خير. أساس النبوة والرسالة والولاية والمعرفة والمحبة البلاء، فإذا لم تصبر على البلاء فلا أساس لك. لا بقاء لبناء إلا بأساس، أرأيت بيتاً ثابتاً على مزبلة ربوة، إنما تفرّ من البلاء والآفات لكونك لا حاجة لك في الولاية والمعرفة والقرب من الله عزّ وجلّ.

اصبر واعمل حتى تسري بقلبك وسرك وروحك إلى باب القرب من ربك عزّ وجلّ. العلماء والأولياء والأبدال وراث الأنبياء. الأنبياء السماسرة، وهؤلاء المنادون بين

---

(١) سورة الطلاق آية: ١

أيديهم. المؤمن لا يخاف غير الله عزّ وجلّ، ولا يرجو غيره، قد أعطى القوّة في قلبه وسرّه، كيف لا تكون قلوب المؤمنين قوية بالله عزّ وجلّ وقد أسرى بها إليه؟ لا تزال عنده القلوب، عنده والقالب في الأرض، قال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾(١).

يصطفون على أهاليهم وأهل زمانهم، تتميز معانيهم متتنوّر مبانيهم، ولهذا فارقوا الخلق وزهدوا في المألوفات، ساروا إلى قدام ونبت العشب وراءهم، ما بقي لهم رجوع، استأنسوا بالوحدة. اختاروا الخراب وسواحل البحار والبراري والقفار، لا العمران.

يأكلون من بقول الصحاري ويشربون من غدرانها، يصيرون كالوحش، هنالك يقرب قلوبهم ويؤنسها به. توقف مبانيهم مع مباني المرسلين والصديقين والشهداء، ويوقف معانيهم معه، لا يزالون وقوفاً في الخدمة ليلهم ونهارهم خلوة وراحة المشتاقين وطيبة المتأنسين بالله عزّ وجلّ.

(يا غلام) لابدّ من الحلاوة والمرارة والصلاح والفساد والكدر والصفاء، فإن أردت الصفاء الكلي ففارق بقلبك الخلق وواصله بالحق عزّ وجلّ. فارق الدنيا، ودع أهلك وسلمهم إلى ربك عزّ وجلّ وأخرج قلبك عرياناً عن الكل، واقرب من باب الآخرة ثم ادخلها.

فإن لم تجد ربك عزّ وجلّ فيها فاخرج منها هارباً طالباً للقرب منه، إذا وجدته وجدت كل الصفاء عنده، ما يفعل المحب لله عزّ وجلّ بغيره. الجنة دار طالبي الدرجات، دار التجار باعوا الدنيا بها، ولهذا قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾(٢).

ما ذكر القلب، ما ذكر السر، ما ذكر المعنى. الجنة للصوام القوام التاركين الزاهدين في الشهوات واللذات، باعوا صوماً بصوم، بستاناً ببستان، داراً بدار، أريد منكم أعمالاً بلا كلام. العارف العامل لوجه الله عزّ وجلّ سندان يدقّ عليه وهو لا ينشق، أرض يمشي عليه وتغير وتبدل وهو أخرس. القوم لا يبصرون غير الله عزّ وجلّ، لا

---

(١) سورة ص آية: ٤٧

(٢) سورة الزخرف آية: ٧١

يسمعون من غيره، لهم جنان بلا لسان، هم قانون عنهم وعن غيرهم لا يزالون كذلك.

وإذا شاء الله أنشرهم، جعل الجنان لساناً كأنهم مبنجون، يأخذهم الملك إليه بيد رأفته ورحمته، يصوغهم له وينشئهم له لا لغيره، يصنعهم لنفسه كما صنع موسى عليه السلام حيث قال له:

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾(١) ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(٢)

جعل راحة بلا تعب، أنساً بلا وحشة، نعمة بلا نقمة، فرحة بلا بغضة، حلاوة بلا مرارة، ملكاً بلا هلك.

(هنالك الولاية لله الحق).

من وصل إلى هذه الحالة تعجلت له الراحة، وأما مع ما أنت عليه لا تجد راحة في الدنيا، لأنها دار الكدر دار الآفات، لابد لك من الخروج منها، فعليك بإخراجها من قلبك ومن يدك، فإن لم تقدر فاتركها في يدك، وأخرجها من قلبك، فإذا قويت فأخرجها من يدك وأعطها للفقراء والمساكين عيال الحق عزّ وجلّ، ومع ذلك مالك منها لا يفوتك لابدّ من إتيانه، سواء كنت غنياً أو فقيراً، زاهداً أو راغباً.

الدائرة على صحة قلبك وسرك وصفائهما، إنهما يصفوان بتعلم العلم والعمل به والإخلاص في العمل والصدق في طلب الحق عزّ وجلّ.

(يا غلام) أما سمعت، تفقه ثم اعتزل، تفقه بالفقه الظاهر ثم اعتزل إلى الفقه الباطن، اعمل بهذا الظاهر حتى يقربك العمل إلى علم لم تكن تفعله، هذا العلم الظاهر ضياء الظاهر، والباطن ضياء الباطن. هو ضياء بينك وبين ربك عزّ وجلّ، كلما عملت بعلمك قربت طريقك إلى الحق عزّ وجلّ واتسع الباب بينك وبينه ورفع مصراع الباب الذي يخصك.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(٣).

---

(١) سورة طه آية: ٤١

(٢) سورة الشورى آية: ١١

(٣) سورة البقرة آية: ٢٠١

المجلس الثالث عشر

[تقديم الآخرة على الدنيا]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الثلاثاء عشية بالمدرسة رابع ذي القعدة في سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

(يا غلام) قدم الآخرة على الدنيا فإنك تربحهما جميعاً، وإذا قدمت الدنيا على الآخرة خسرتهما جميعاً عقوبة لك. كيف اشتغلت بما لم تؤمر به. إذا لم تشتغل بالدنيا أمدك الله عزّ وجلّ بالمعونة عليها، ورزقك التوفيق وقت الأخذ منها.

وإذا أخذت منها شيئاً وضعت فيه البركة. المؤمن يعمل لدنياه وآخرته، يعمل لدنيا بلغته بقدر ما يحتاج إليه، يقنعه منها كزاب الراكب، لا يحصل منها الكثير. الجاهل كل همه الدنيا، والعارف كل همه الآخرة، ثم المولى إذا حصل بين يديك رغيف من الدنيا ونازعتك نفسك وطلبت الشهوات فانظر حينئذ إلى من يقدر على كسرة، فإنه لا فلاح لك حتى تبغض نفسك وتعاديها في جانب الحق عزّ وجلّ. الصديقون يعرف بعضهم بعضاً، يشم كل منهم رائحة القبول والصدق من الآخر.

يا معرضاً عن الحق عزّ وجلّ وعن الصديقين من عباده مقبلاً على الخلق مشتركاً بهم، إلى متى إقبالك عليهم؟ إيش ينفعونك؟ ليس بأيديهم ضرر ولا نفع، ولا عطاء ولا منع، لا فرق بينهم وبين سائر الجمادات فيما يرجع إلى الضرر والنفع، الملك واحد، الضارّ واحد، النافع واحد، المحرك والمسكن واحد، المسلط واحد، المسخر واحد، المعطي والمانع واحد، الخالق والرازق هو الله عزّ وجلّ، هو القديم الأزليّ الأبدي، هو موجود قبل الخلق، قبل آبائكم وأمهاتكم وأغنيائكم، هو خالق السموات والأرض وما فيهن وما بينهما.

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1].

وا أسفا عليكم يا خلق الله، ما تعرفون خالقكم حق معرفته؟ إن كان لي في القيامة شيء عند الله عزّ وجلّ لأحملن أثقالكم من أولكم إلى آخركم، يا مقرى اقرأ عليّ وحدي من دون أهل السموات والأرض، كل من يعمل بعمله صار بينه وبين الله عزّ

---

(١) سورة الشورى آية: ١١

وجلّ باب يدخل قلبه منه عليه.

وأما أنت يا عالم فمشتغل بالقال والقيل، وجمع المال عن العمل بعلمك، فلا جرم يقع بيدك من الصورة دون المعنى. إذا أراد الله تعالى بعبد من عبيده خيراً علمه، ثم ألهمه العمل والإخلاص، ومنه أدناه وإليه قربه وعرفه وعلمه علم القلوب، والأسرار مختارة له دون غيره، يجتبيه كما اجتبى موسى عليه السلام وقال له:

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾[1].

لا لغيري، لا للشهوات والذات والنزهات، لا للأرض ولا للسماء، لا للجنة ولا للنار، لا للهلك، لا يقيدك شيء مني، ولا يشغلك شاغل غيري، ولا تقيدك عني صورة ولا تحجبك عني خليقة، ولا تغنيك عني شهوة.

(يا غلام) لا تيأس من رحمة الله عزّ وجلّ بمعصية ارتكبتها، بل اغسل نجاسة ثوب دينك بماء التوبة والثبات عليها والإخلاص فيها، وطيبه وبخره بطيب المعرفة. احذر من هذا المنزل الذي أنت فيه، كيفما التفت فالسباع حولك، والأذايا تقصدك، تحوّل عنه وارجع إلى الحق عزّ وجلّ بقلبك.

لا تأكل بطبعك وشهوتك وهواك، لا تأكل إلا بشاهدين عدلين وهما الكتاب والسنة، ثم اطلب شاهدين آخرين وهما قلبك وفعل الله عزّ وجلّ. إذا أذن الكتاب والسنة وقلبك انتظر الرابع، وهو فعل الله عزّ وجلّ، لا تكن كحطاب الليل يحطب ولا يدري ما يقع بيده، ويكون الخالق والخلق، هذا شيء لا يجيء بالتحلي والتمني والتكلف والتصنع، ولكن هو شيء وقر في الصدر وصدقه العمل، أي عمل العمل الذي أريد به وجه الله تعالى.

(يا غلام) العافية في ترك طلب العافية، والغنى في ترك طلب الغنى، والدواء في ترك طلب الدواء، كل في التسليم إلى الحق عزّ وجلّ وقطع الأسباب وخلع الأرباب من حيث قلبك. الدواء في توحيد الله عزّ وجلّ بالقلب لا باللسان فحسب. التوحيد والزهد لا يكونان على الجسد واللسان. التوحيد في القلب، والزهد في القلب، والتقوى في القلب، والمعرفة في القلب، والعلم بالحق عزّ وجلّ في القلب، ومحبة الله عزّ وجلّ في القلب، والقرب منه في القلب.

---

(١) سورة طه آية: ٤١

كن عاقلاً لا تتهوّس ولا تتصنع ولا تتكلف، أنت في هوس وتصنع وتكلف وكذب ورياء ونفاق، كل همك استجلاب الخلق إليك. أما تعلم أنك كلما خطوت بقلبك خطوة إلى الخلق بعدتمن الحق عزّ وجلّ؟ تدّعي أنك طالب الحق عزّ وجلّ وأنت طالب الخلق،

مثلك مثل من قال أريد أن أمضي إلى مكة وتوجه إلى خراسان فبعد من مكة. تدّعي أن قلبك قد خرج وأنت تخافهم وترجوهم، ظاهرك الزهد وباطنك الرغبة، ظاهرك الحق وباطنك الخلق، هذا أمر لا يجيء بلقلقة اللسان، هذه الحالة ليس فيها خلق ولا دنيا ولا آخرة ولا ما سوى الله عزّ وجلّ. في الجملة هو واحد ولا يقبل إلا واحداً، واحد لا يقبل الشريك فإنه يدبر أمرك، واقبل ما يقال لك. الخلق عجزة لا يضرّونك ولا نفعونك، إنما الحق عزّ وجلّ يجري ذلك على أيديهم.

فعله يتصرّف فيك وفيهم، جرى القلم في علم الله عزّ وجلّ بما هو لك وعليك. الموحدون الصالحون حجة الله على بقية الخلق، منهم من يتعرى عن الدنيا من حيث ظاهره وباطنه، ومنهم من يتعرى عنها من حيث باطنه فحسب، لا يرى الحق عزّ وجلّ على بواطنهم منها شيئاً تلك القلوب الصافية. من قدر على هذا فقد أعطى الملك من الخلق، هو الشجاعة البطل، الشجاع من طهر قلبه مما سوى الله عزّ وجلّ.

ووقف على بابه بسيف التوحيد وصمصامة الشرع، لا يخلى شيئاً من المخلوقات يدخل إليه يجمع قلبه بمقلب القلوب. الشرع يهذب الظاهر، والتوحرد والمعرفة يهذبان الباطن، ياهذا بين قالوا وقلنا ما يجيء شيء، تقول هذا حرام وأنت مرتكبه، وهذا حلال وأنت لا تفعله ولا تستعمله، أنت هوس في هوس. عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(وَيلٌ للجاهلِ مرّةً وللعالم سبعَ مرّاتٍ).

ويل واحد للجاهل كيف لم يعلم، وويل لهذا العالم سبع مرات لأنه علم وما عمل، ارتفعت عنه بركة العلم، وبقيت عليه حجته. تعلم ثم اعمل، ثم انفرد في خلوتك عن الخلق واشتغل بمحبة الحق عزّ وجلّ، فإذا صح لك الإنفراد والمحبة قربك إليه وأدناك منه وأفناك فيه.

ثم إن شاء يشهرك ويظهرك للخلق ويردك إلى استيفاء الأقسام. أمر ريح سابقته وعلمه فيك فهبت على حيطان خلوتك فأرمت بها وأظهر أمرك للخلق فتكون بينهما

به لا بك. تستوفي أقسامك مع عدم شؤم النفس والطبع والهوى، يردك إلى أقسامك لئلا يبطل قانون علمه فيك، تستوفي الأقسام وقلبك مع الحق عزّ وجلّ. اسمعوا واعملوا يا جهالاً بالحق عزّ وجلّ وأوليائه، يا طاعنين في الحق عزّ وجلّ وفي أوليائه.

الحق هو الحق عزّ وجلّ، والباطل أنتم يا خلق. الحق هو في القلوب والأسرار والمعاني، والباطل في النفوس والأهوية والطباع والعادات والدنيا وما سوى الحق عزّ وجلّ. هذا القلب لا يفلح حتى يتصل بقرب الحق عزّ وجلّ القديم الأزلي الدائم الأبدي.

لا تزاحم يا منافق فما عندك خير من هذا، أنت عبد خبزك وأدمك وحلاوتك وثيابك وفرسك وسلطانك. القلب الصادق يسافر عن الخلق إلى الخالق، يرى في الطريق الأشياء يسلم عليها ويجوز. العلماء العمال بعلمهم نواب السلف، هم ورثة الأنبياء، وبقية الخلف، هم مقدمون بين أيديهم يأمرونهم بالعمران في مدينة الشرع، وينهونهم عن خرابها، يجتمعون يوم القيامة هم والأنبياء عليهم السلام فيستوفون لهم الأجرة من ربهم عزّ وجلّ، وقد مثل الله عزّ وجلّ العالم الذي لا يعمل بعلمه بالحمار فقال:

﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾[1].

اسفاراً هي كتب العلم، هل ينتفع الحمار بكتب العلم؟ ما يقع بيده منها سوى التعب والنصب. من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربه عزّ وجلّ وطواعيته له.

يا مدعي العلم أين بكاؤك من خوف الله عزّ وجلّ؟ أين حذرك وخوفك؟ أين اعترافك بذنوبك؟ أين مواصلتك للضياء بالظلام في طاعة الله عزّ وجلّ؟ أين تأديبك لنفسك ومجاهدتها في جانب الحق وعداوتها فيه؟

أنت همتك القميص والعمامة والأكل والنكاح والدور والدكاكين والقعود مع الخلق والأنس بهم، نح همتك عن هذه الأشياء كلها، فإن كان لك فيها قسم فإنه يجيئك في وقته وقلبك مستريح من تعب الإنتظار وثقل الحرص قائم مع الحق عزّ وجلّ، فمالك وهذا التعب في الشيء مفروغ منه.

(يا غلام) خلوتك فاسدة ما صحت نجسة ما طهرت، إيش أعمل بك قلبك ما صح فيه التوحيد والإخلاص. يانياماً لا ينام عنهم، يا معرضين لا يعرض عنهم، يا ناسين

---

(١) سورة الجمعة آية: ٥

لا ينسون، يا تاركين لا يتركون، يا جهالاً بالله عزّ وجلّ ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن تقدم ومن تأخر، أنتم كخشب ممدود نجر لا يصلح لشيء.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [1].

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس الرابع عشر

[النهي عن النفاق]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الجمعة بكرة بالمدرسة سابع ذي القعدة من سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

يا منافق طهر الله عزّ وجلّ الأرض منك، ما يكفيك نفاقك حتى تغتاب العلماء والأولياء والصالحين بأكل لحومهم؟ أنت وإخوانك المنافقون مثلك، عن قريب يأكل الديدان ألسنتكم ولحومكم وتقطعكم وتمزّقكم، والأرض تضمكم فتسحقكم وتقلبكم.

لا فلاح لمن لا يحسن ظنه بالله عزّ وجلّ وبعباده الصالحين ويتواضع لهم، لم لا تتواضع لهم وهم الرؤساء والأمراء، من أنت بالإضافة إليهم؟ الحق عزّ وجلّ قد سلم الحلّ والربط إليهم، بهم تمطر السماء وتنبت الأرض، كل الخلق رعيتهم، كل واحد كالجبل لا تزعزعه ولا تحركه رياح الآفات والمصائب، لا يتزعزعون من أمكنة توحيدهم ورضاهم عن مولاهم عزّ وجلّ، طالبين لأنفسهم ولغيرهم، توبوا إلى الله عزّ وجلّ واعتذروا إليه، واعترفوا بذنوبكم بينكم وبينه وتضرّعوا بين يديه، إيش بين أيديكم؟

لو عرفتم لكنتم على غير ما أنتم عليه، تأدبوا بين يدي الحق عزّ وجلّ كما كان يتأدب من سبقكم، أنتم مخانيث ونساء بالإضافة إليهم، شجاعتكم عن ما تأمركم به نفوسكم وأهويتكم وطباعكم. الشجاعة في الدين تكون في قضاء حقوق الحق عزّ وجلّ، لا تستهينوا بكلمات الحكماء والعلماء، فإن كلامهم دواء وكلماتهم ثمرة، وحي الله عزّ وجلّ، ليس بينكم نبيّ موجود بصورة حتى تتبعوه، فإذا تبعتم المتبعين للنبيّ صلى الله عليه وسلم المحققين في اتباعه فكأنكما قد اتبعتموه.

وإذا رأيتموهم فكأنكم قد رأيتموه. اصحبوا العلماء المتقين فإن صحبتكم لهم بركة عليكم، ولا تصحبوا العلماء الذين لا يعلمون بعلمهم فإن صحبتكم لهم شؤم عليكم، إذا صحبت من هو أكبر منك في التقوى والعلم كانت صحبتك له بركة عليك.

وإذا صحبت من هو أكبر منك في السن ولا تقوى له ولا علم له كانت صحبتك له شؤماً عليك. اعمل لله عزّ وجلّ ولا تعمل لغيره، اترك له ولا تترك لغيره، العمل لغيره

كفر، والترك لغيره رياء، من لا يعرف هذا ويعمل غير هذا فهو في هوس، عن قريب يأتي الموت يقطع هوسك.

(ويحك) واصل ربك عزّ وجلّ وقاطع غيره من حيث قلبك. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(صفّوا الذي بينكم وبين ربكم تسعدوا).

صفوا ما بينكم وبين ربكم عزّ وجلّ بحفظ قلوب الصالحين.

(يا غلام) إن وجدت عندك تفرقة بين الغني والفقير عند إقبالهم عليك فلا فلاح لك، أكرم الفقراء الصبر وتبرك بهم وبلقائهم والجلوس معه. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(الفقراء الصُبُرُ جلساء الرحمن يوم القيامة).

جلساء اليوم بقلوبهم وغداً بأجسادهم، هم الذين زهدت قلوبهم في الدنيا وأعرضت عن زينتها واختاروا فقرهم على غناهم وصبروا عليه.

فلما تمّ لهم هذا خطبتهم الآخرة وعرضت نفسها عليهم فاتصلوا بها، فلما حصلت لهم رأوا أنها غير ربهم عزّ وجلّ فاستقالوا منا وداروا ظهور قلوبهم إليها وهربوا منها حياء من الحق عزّ وجلّ. كيف وقفوا مع غيره وسكنوا إلى المحدث واستأنسوا به، سلموا إليها الأعمال والحسنات وجميع ما عملوا من الطاعات ثم طاروا إليه بأجنحة صدقهم في طلب مولاهم عزّ وجلّ.

تركوا عندها القفص، خرجوا من أقفاص وجودهم وطاروا إلى موجدهم، طلبوا الرفيق الأعلى، طلبوا الأول والآخر والظاهر والباطن صاروا إلى برج قربه، صاروا من الذين قال الله فيهم عزّ وجلّ في حقهم:

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

قلوبهم عندنا وهممهم عندنا ومعانيهم عندنا، ألبابهم عندنا دنيا وآخرة. إذا تمّ هذا للقوم لا يغلي عندهم دنيا ولا آخرة، تنطوي السموات والأرض ما بينهما

---

(١) سورة ص آية: ٤٧.

بالإضافة إلى قلوبهم وأسرارهم، يغنيهم عن غيره ويوجدهم به، فإن كان لهم أقسام في الدنيا ردهم إلى آدميتهم وبشريتهم لإستيفاء أقسامهم كيلا يبدل العلم والسابقة والقضاء، فيحسنون الأدب مع الله وقضائه وقدره، ويتناولون ما يعطون على قدم الزهد والترك لا بنفس وهوى وإرادة، والحكم الظاهر محفوظ عندهم في جميع الأحوال.

لا يبخلون على الخلق بالدنيا ولو قدروا، قربهم كلهم إلى الحق عزّ وجلّ لا يبقى من المخلوقات والمحدثات في قلوبهم وزن ذرة، ما دمت مع الدنيا فلا اتصال لك بالآخرة، وما دمت مع الأخرى فلا اتصال لك بالمولى. كن عاملاً لا تتجاهل، انت ممن أضله الله على علم. من جملة مواصلة الحق عزّ وجلّ أن تواصل الفقراء بشيء من مالك.

أما علمت أن الصدقة معاملة مع الحق عزّ وجلّ الذي هو غنيّ كريم؟ وهل يعامل الغنيّ الكريم من يخسر؟ تنفق لوجه الله عزّ وجلّ ذرة يعطيك جبلاً، تنفق قطرة يعطيك بحراً في الدنيا، وفي الآخرة يوفيك أجرك وثوابك.

(يا قوم) إذا عاملتم الحق عزّ وجلّ يزكو زرعكم، وتجري أنهاركم، ويورق ويغصن ويثمر اشجاركم. مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، وانصروا دين الله عزّ وجلّ، وعادوا فيه. الصديق من صادق في الخير، تدوم صداقته في الآخرة والجلوة، في السراء والضراء، في الشدة والرخاء.

اطلبوا حوائجكم من الحق عزّ وجلّ لا من خلقه، وإن كان ولابد من الخلق فادخلوا على الحق عزّ وجلّ بقلوبكم، فإنه يلهمكم الطلب من جهة من الجهات، فإن منعتم أو اعطيتم كان ذلك منه لا منهم. القوم أخرجوا همّ أرزاقهم من قلوبهم، علموا أنها مقدرة في أوقات معلومة فتركوا الطلب لها واستوطنوا على باب ملكهم، استغنوا عن كل شيء بفضل الله عزّ وجلّ وقربه وعلمه.

فلما تم لهم هذا صاروا قبلة الخلق وخطباء لهم في الدخول على ملكهم، يأخذون بأيدي قلوبهم إليه، يكدون لهم منه خلع القبول والرضا عنهم.

(عن بعضهم) رحمة الله تعالى عليه أنه قال: عباد الله عزّ وجلّ الذين تحققت عبوديتهم له لا يطلبون منه دنيا وآخرة، وإنما يطلبون منه هو لا غيره.

اللهم اهد جميع الخلق إلى بابك، هذا قبدأ سؤالي والأمر إليك، هذا دعاء عام أثاب عليه. والله عزّ وجلّ يفعل في خلقه ما يشاء، إذ صح القلب امتلأ رحمة وشفقه على الخلق.

(عن بعضهم) رحمة الله تعالى عليه أنه قال: من يفعل الخير كثيراً ولا يترك الذنوب إلا الصديقون؟ الصديق يترك الكبائر والصغائر، ثم يدقق ورعه بترك الشهوات، ثم المباح المشترك ويطلب الحلال المطلق. الصديق لا يزال معظم نهاره وليله في عبادة ربه عزّ وجلّ، يخرق عوائد الخلق فلا جرم تخرق له العادة، يرزق من حيث لا يحتسب، يعطى ويؤمر بالتنازل، تخلص له الأشياء وتصفو.

لأنه طالما منع وكسرت حوائجه في صدره، وصبر على كسر أغراضه، ورد في جميع أحواله، كان يدعو فلا يستجاب له، يسأل فلا يعطى سؤله، يشكو فيزداد مما شكا منه، يطلب الفرج فلا يجده، يتقي ولا يرى مخرجاً، يوحد ويخلص في أعماله فلا يرى قرباً من العامل له، كأنه ليس بمؤمن ولا موحد.

ومع هذا كله كأن مدارياً صابراً على مداراة هذه الأشياء، علم أن صبره دواء لقلبه وسبب لصفائه وتقريبه، وأن الخير يأتيه بعد هذا الإختبار، على أن هذا الإختبار ليتبين المؤمن من المنافق، والود من المشرك، والمخلص من الرائي، والشجاع من الجبان، والثابت من المتحرك والصابر من الجازع، والمحق من المبطل، والصادق من الكاذب، والمحب من المبغض، والمتبع من المبتدع.

أسمع قول بعضهم رحمة الله عليه: كن في الدنيا كمن يداري جرحة ويصبر على مرارة الدواء رجاء لزوال البلاء. كل البلايا والأمراض شركك بالخلق ورؤيتهم في الضرّ والنفع والعطاء والمنع، وكل الدواء وزوال البلاء في الخروج، الخلق من قلبك وعزمك عند نزول الأقضية والأقدار.

وأن لا تطلب الرياسة على الخلق والعوّ عليه، وأن يتجرد قلبك لربك عزّ وجلّ ويصفو سرك له وتعلو همتك إليه، إذا تحقق لك هذا ارتفع قلبك وزاحم صفوف النبييت والمرسلين والشهداء والصالحين والملا ئكة المقربين، وكلما دام لك كبرت وعظمت ورفعت وقدت ووليت وأمرت، ترد إليك ما ترد، تولى ما تولى، تعطي ما تعطي، المحروم من حرم سماع هذا الكلام والإيمان به والاحترام لأهله.

يا مشغولين بمعايشهم غنى المعيشة عندى، والأرباح عندى، ومتاع الأخرى عندي وأنا مناد تارة وسمسار أخرى ومالك المتاع أخرى، أعطى كل شيء حقه، اذا حصل شيء من الآخرة عندى لا آكله وحدي.

لأن الكريم لا يأكل وحده، كل من اطلع على كرم الله عزّ وجلّ لا تجد عنده بخلا، كل من عرف الله عزّ وجلّ هان عنده ما سواه، البخل من النفس ونفس العارف ميتة بالإضافة إلى نفوس الخلق، هي مطمئنة ساكنة إلى وعد الله عزّ وجلّ، خائفة من وعيده.

اللهم ارزقنا ما رزقت القوم.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [1].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس الخامس عشر

[في إيثار المؤمن على نفسه]

وقال رضي الله عنه يوم الأحد بالرباط تاسع ذى القعدة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

المؤمن يتزوّد والكافر يتمتع، المؤمن يتزوّد لأنه على طريق يقنع باليسير من ماله ويقدم الكثير إلى الآخرة، يترك لنفسه بقدر زاد الراكب بقدر ما يحمله، كل ماله فى الآخرة، كل قلبه وهمته هناك، هو منقطع القلب هناك من الدنيا، يبعث جميع طاعاته إلى الآخرة لا إلى الدنيا وأهلها، إن كان عنده طعام طيب يؤثر به الفقراء، يعلم أنه فى الآخرة يطعم خير منه.

غاية همة المؤمن العارف العالم باب قربه من الحق عزّ وجلّ ، وأن يصل قلبه إليه فى الدنيا قبل الآخرة، القرب من الحق عزّ وجلّ غاية خطوات القلب ومسارة السرّ، إنى أراك فى قيام وقعود وركوع وسجود وسهر وتعب وقلبك لا يبرح من مكانه ولا يخرج من بيت وجوده ولا يتحول عن عادته.

اصدق فى طلب مولاك عزّ وجلّ وقد أغناك صدقك عن كثير من التعب. انقر بيضة وجودك بمنقار صدقك، وانقض حيطان رؤيتك للخلق والتقيد بهم بمعاول الإخلاص وتوحيدك، اكسر قفص طلبك للأشياء بيد زهدك فيها، وطر بقلبك حتى تقع على ساحل بحر قربك من ربك عزّ وجلّ، فحينئذ يأتيك ملاح السابقة ومعه سفينة العناية فيأخذك ويعبرك إلى ربك عزّ وجلّ، هذه الدنيا بحر وإيمانك سفينتها.

ولهذا قال لقمان الحكيم رحمه الله : يابنيّ، الدنيا بحر والإيمان سفينة، والملاح الطاعات، والساحل الآخرة. يا مصرّين على المعاصي عن قريب يأتيكم العمى والصمم والزمن والفقر، وقساوة قلوب الخلق عليكم تذهب أموالكم بالخسارات والمصادرات والسرقات. كونوا عقلاء، توبوا الى ربكم عزّ وجلّ، لا تشركوا بأموالكم وتتكلوا عليها، لا تقفوا معها، أخرجوها من قلوبكم واجعلوها فى بيوتكم وجيوبكم ومع غلمانكم ووكلائكم، وارتقبوا الموت. قللوا حرصكم وقصروا آمالكم.

(عن أبي يزيد البسطامى) رحمة الله عليه أنه قال: المؤمن العارف لا يطلب من

الله عزّ وجلّ لا دنيا ولا آخرة، وإنما يطلب من مولاه.

(يا غلام) ارجع بقلبك إلى الله عزّ وجلّ، التائب إلى الله هو الراجع اليه، وقوله عزّ وجلّ :

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾(١).

أى ارجعوا إلى ربكم، يعنى ارجعوا سلموا الكل إليه، سلموا نفوسكم إليه واطرحوها بين يدى قضائه وقدره وأمره ونهيه وتقليباته، واطرحوا قلوبكم بين يديه بلا السنة، بلا أيد، بلا أرجل، بلا أعين، بلا كيف ولا لمَ ولا منازعة، بلا مخالفة، بل بموافقة وتصديق.

قولوا: صدق الأمر، صدق القدر، صدقت السابقة، إذا كنتم هكذا لا جرم تكون قلوبكم منيبة إليه مشاهدة له، لا تستأنس بشيء بل تستوحش من كل شيء مما تحت العرش إلى الثرى، تهرب من جميع المخلوقات، تبقى منخلعة منقطعة منسائر المحدثات. لا يحسن الأدب مع الشيوخ إلا من قد خدمهم واطلع على بعض أحوالهم مع الله عزّ وجلّ. القوم قد جعلوا الحمد والذم كالصيف والشتاء والليل والنهار، وكلاهما يرونهما من الله عزّ وجلّ لأنه لا يقدر يأتى بهما إلا الله عزّ وجلّ .

فلما تحقق عندهم ذلك لم يعتدوا بالحامدين، ولم يحاربوا الذامين، ولم يشتغلوا بهم، خرج من قلوبهم حب الخلق وبغضهم، لايحبون ولايبغضون بل يرحمون، إيش ينفعك علم بلا صدق؟ قد أضلك الله على علم، تتعلم وتصلي وتصوم للخلق حتى يقرّوا إليك ويبذلوا لك اموالهم ويمدحوك في بيوتهم ومجالسهم، قدّر أنه يحصل لك هذا منهم، فإذا جاءك الموت والعذاب والضيق والأهوال يحال بينك وبينهم، ولا يغنون عنك شيئا.

وما حصلته من أموالهم يأكله غيرك، والعقوبة والحساب عليك. يا مدبر يا محروم، أنت من العاملة الناصبة فى الدنيا ناصبة غدا فى النار. العبادة صنعة وأهلها الأولياء، والأبدال المخلصون المقربون مع الحق عزّ وجلّ. العلماء العمال بالعلم نوّاب الله فى ارضه ورسله، ورثوا الأنبياء والمرسلين، لا انتم يا مهووسين يا مشغولين بلقلقة اللسان وفقه الظاهر مع جهل الباطن.

---

(١) سورة الزمر آية: ٥٤

(يا غلام) ما انت على شيء، الإسلام ما صح لك، الإسلام هو الأساس الذى يبنى عليه الشهادة ما تمت لك، تقول لا إله إلا الله وتكذب، فى قلبك جماعة من الآلهة، خوفك من سلطانك ووالى محلتك آلهة، اعتمادك على كسبك وربحك وحولك وقوتك وسمعك وبصرك وبطشك آلهة، رؤيتك للضر والنفع والعطاء والمنع من الخلق آلهة.

كثير من الخلق متكلون على هذه الأشياء بقلوبهم ويظهرون أنهم متكلون على الحق عزّ وجلّ، قد صار ذكرهم للحق عزّ وجلّ عادة بألسنتهم لا بقلوبهم، فإذا حوققوا فى ذلك حردوا وقالوا: كيف يقال لنا هكذا ألسنا مسلمين؟ غدا تبين الفضائح وتظهر المخبآت.

(ويحك) تؤيد في قولك إذا قلت: لا إله نفيٌ كلي، وإلا الله إثبات كلي له لا لغيره. فأي وقت اعتمد قلبك على شيء غير الحق عزّ وجلّ فقد كذبت في إثباتك وصار إلهك الذي اعتمدت عليه لا اعتبار بالظاهي. القلب هو المؤمن، هو الموحد، هو المخلص، هو المتقي، هو الورع، هو الزاهد، هو الموقن، هو العارف، هو العامل، هو الأمير ومن سواه جنوده وأتباعه.

إذا قلت لا إله إلا الله فقل أولاً بقلبك ثم بلسانك، واتكل عليه واعتمد عليه دون غيره، اشغل ظاهرك بالحكم وباطنك بالحق عزّ وجلّ، اترك الخير والشرّ على ظاهرك، واشغل بباطنك مع خالق الخير والشرّ، من عرفه ذلّ له وكل لسانه بين يديه وتواضع له ولعباده الصالحين، وتضاعف همه وغمه وبكاؤه، وكثر خوفه ووجله، وكثر حياؤه، وكثر ندمه على ما تقدم من تفرطه وتشدد حذره وخوفه من زوال ما عنده من المعرفة والعلم والقرب، لأن الحق عزّ وجلّ:

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾(١) ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾(٢).

يتردد بين نظرين إلى ما تقدم من تفريطه ووقاحته وجهالته وطربه، فيذوب من الحياء ويخاف من المؤاخذة وينظر إلى مستقبل الحال، هل يقبل أو يرد؟ هل يسلب ما أعطى أو يخلى له على حاله؟ هل يكون يوم القيامة في صحبة المؤمنين أو الكافرين؟ ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

---

(١) سورة البروج آية: ١٦
(٢) سورة الأنبياء آية: ٢٣

(أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خوفا).

من جملة العرفين في الشذوذ والندور من يأتيه، إلا من يتلى عليه ما سبق له، يعلم بموئله وما يكون مصيره إليه، يقرأ سرّه ماله في اللوح المحفوظ، ثم يطلع القلب على ذلك ويأمره بكتمه، وأن لا تطلع النفس على ذلك ابتداء، هذا الأمر الإسلام، وامتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات، وانتهاؤه الزهد فيما سوى الحق عزّ وجلّ.

وأن يستوي عنده الذهب والتراب، والحمد والذم، والعطاء والمنع والجنة والنار، والنعمة والنقمة، والغنى والفقر، ووجود الخلق وعدمهم، فإذا تمّ هذا كان الله عزّ وجلّ من وراء ذلك كله، ثم يأتي التوقيع منه بالإمارة والولاية على الخلق، كل من رآه ينتفع به لهيبة الله عزّ وجلّ ونوره المتلبس به.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [1].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس السادس عشر

[في العمل بالقرآن]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الثلاثاء عشية بالمدرسة حادي عشر ذي القعدة سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: أهينوا الدنيا فإنها والله لا تطيب إلا بعد إهانتها.

(يا غلام) العمل بالقرآن يوقفك على منزله، والعمل بالسنة يوقفك على الرسول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، لا يبرح بقلبه وهمته من حوله قلوب القوم، هو المطيب والمبخر لها، المخصفي لأسرارهم والمزين لها، هو المستفتح باب القرب لها، هو الماشطة، هو السفير بين القلوب والأسرار وبين ربها عزّ وجلّ.

كلما تقدمت إليه خطوة إزداد فرحاً، من رزق هذا الحال كان حقاً عليه أن يشكر وتزداد طواعيته، أما الفرح بغير هذا هوس. الجاهل يفرح في الدنيا، والعالم يغتم فيها. الجاهل يناظر القدر وينازعه، والعالم يوافقه ويرضى. يا مسكين لا تناظر القدر وتشاققه فتهلك، الدائرة على أن ترضى بأفعال الله عزّ وجلّ، وأن تخرج قلبك من الخلق وتلقى ربه ربّ الخلق، تلقاه بقلبك وسرك ومعناك.

إذا دمت على متابعة الحق عزّ وجلّ ورسله وعباده الصالحين، إن قدرت أن تخدم الصالحين فافعل، فإنه خير لك في الدنيا والآخرة، لو ملكت الدنيا كلها ولم يكن قلبك كقلوبهم كنت لا تملك ذرة، كل من يصلح قلبه لله عزّ وجلّ ويكون معه الدنيا والآخرة يحكم بين العوام والخواص بحكم الله عزّ وجلّ.

(ويحك) اعرف قدرك إيش أنت بالإضافة إليهم؟ أنت كل همك الأكل والشرب واللبس والنكاح وجمع الدنيا والحرص عليها، عمال في أمور الدنيا بطال في أمور الآخرة، تعبي لحمك وتهديه للدود وحشرات الأرض. عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

- (إنّ لله عزّ وجلّ ملكاً ينادي كلّ يوم غدوة وعشيّة يا بني آدم لدوا للموت وابنوا للخراب واجمعوا للأعداء).

المؤمن له نية صالحة في جميع تصاريفه، لا يعمل في الدنيا للدنيا، يبني في الدنيا للآخرة، يعمر المساجد والقناطر والمدارس والربط، ويهذب طرق المسلمين، وإن بني غير هذا فللعيال والأرامل والفقراء وما لابد منه، يفعل ذلك حتى يبني له في الآخرة بدله، لا يبني لطبعه وهواه ونفسه.

إذا صح ابن آدم كان مع الحق عزّ وجلّ في جميع أحواله، يصير فقده بالله، ووجوده بالله، يلتحق قلبه بالنبيين والمرسلين، يقبل ما جاءوا به قولاً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، لا جرم يلتحق بهم دنيا وآخرة.

الذاكرة لله عزّ وجلّ أبداً حيّ ينتقل من حياة إلى حياة، فلا موت له سوى لحظة، إذا تمكن الذكر في القلب دام ذكر العبد عزّ وجلّ وإن لم يذكره بلسانه، كلما دام العبد في ذكر الله عزّ وجلّ دامت موافقته له ورضاه بأفعاله.

إن لم توافق الحق عزّ وجلّ في مجيء الصيف وإلا أكلنا الصيف، وإن لم نوافقه في مجيء الشتاء وإلا أبردنا الشتاء، الموافقة فيهما تزيل أذيتهما وذدة فعلهما، وهكذا الموافقة في البلايا والآفات تزيل الكرب والضيق والحرج والضجر والإنزعاج وقت نزولها ما أعجب أمور القوم؟

وما أحسن أموالهم؟ كل ما يأتيهم من الحق عزّ وجلّ عندهم طيب، قد سقاهم بنج معرفته، ونومهم في حجر لطفه، وآنسهم بأنسه، فلا جرم يطيب لهم المقام معه والغيبة عن كل شيء سواه، لا يزالون موتى بين يديه وقد ملكتهم الهيبة، فإذا شاء أنشرهم وأقامهم وأحياهم وشبههم، هم بين يديه كأصحاب الكهف في كهفهم، الذين قال في حقهم:

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾[1].

هم أعقل الناس، يؤملون من ربهم عزّ وجلّ المغفرة، وللنجاة في جميع الأحوال هذا همتهم. ويحك تعمل عمل أهل النار وترجو الجنان، فأنت طامع في غير موضع الطمع، لا تغترّ بالعارية لك، عن قريب تؤخذ منك. الحق عزّ وجلّ قد أعارك الحياة حتى تطيعه فيها، حسبتها لك وعملت فيها ما أردت.

وكذلك العافية عارية عندك، وكذلك الغنى عارية عنك، وكذلك الأمن والجاه

---

(١) سورة الكهف آية: ١٨

وجميع ما عندك من النعم عارية عندك، لا تفرّط في هذه العواري فإنك تطالب بها وتسأل عنها وعن كل شيء منها، جميع ما عندكم من النعم من الله عزّ وجلّ فاستعينوا بها على الطاعة، جميع ما ترغبون فيه أنتم عند القوم شغل شاغل، لا يريدون غير السلامة مع الحق عزّ وجلّ دنيا وآخرة.

عن بعضهم أنه قال: وافق الحق عزّ وجلّ في الخلق ولا توافق الخلق في الحق، انكسر ما انكسر، وانجبر من انجبر، تعلموا موافقة الحق عزّ وجلّ من عباده الصالحين الموافقين.

المجلس السابع عشر

[في عدم الاهتمام بالرزق]

وقال رضى الله تعالى عنه يوم الجمعة بكرة بالمدرسة رابع عشر ذى القعدة سنة خمس واربعين وخمسمائة.

لا تهتم برزقك فإن طلبه لك أشد من طلبك له. إذا حصل لك رزق اليوم فدع عنك الاهتمام برزق غد، كما تركت امس مضى، وغد لا تدرى هل يصل اليك أم لا.

اشتغل بيومك، لو عرفت الحق عزّ وجلّ لاشتغلت به عن طلب الرزق، كانت هيبته تمنعك عن الطلب منه، لأن من عرف الله عزّ وجلّ كلّ لسانه. لا يزال العارف اخرس اللسان بين يدى الحق عزّ وجلّ حتى يرده إلى مصالح الخلق، فإذا رده إليهم رفع الكلام عن لسانه والعجمة عنه.

موسى عليه السلام لما كان يرعى الغنم كان فى لسانه لكنة وعجلة وعجمة ووهفة، فلما أراد الحق عزّ وجلّ أن يرده ألهمه حتى قال:

﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾[1].

كأنه يقول: لما كنت فى البرية فى رعى الغنم لم أحتج إلى هذا.

والآن قد جاء شغلي مع الخلق والكلام لهم، فأعنى بذهاب الكلال من لساني، فرفع العقدة من لسانه، فكان يتكلم بتسعين كلمة فصيحة مفهومة بقدر ما يتكلم غيره كلمات يسيرة فى حال صغره، رام أن يتكلم فى غير حينه بين يدي فرعون وآسية فلقمه الله عزّ وجلّ الجمرة.

(يا غلام) أراك قليل المعرفة بالله عزّ وجلّ وبرسوله، قليل المعرفة بأولياء الله عزّ وجلّ وأبدال أنبيائه و خلفائه فى خلقه، أنت خال من معنى، أنت قفص بلا طائر، بيت فارغ خراب، شجرة قد يبست وتناثر ورقها، عمارة قلب العبد بالإسلام ثم بالتحقيق فى حقيقته وهى الاستسلام.

سلم كلك إلى الحق عزّ وجلّ يسلم إليك نفسك وغيرك، تخرج بقلبك منك ومن الخلق، تقف بين يديه عريانا عنك وعنهم، فإذا شاء الحق عزّ وجلّ ألبسك وكساك

---

(١) سورة طه آية ٢٧، ٢٨

وردك إلى الخلق فتمتثل أمره فيك وفيهم برضا الرسول صلى الله عليه وسلم والمرسل، ثم تقف منتظرا لما يأمر به موافقاً لكل ما يحكم عليك به. كل من تجّرد عما سوى الحق عزّ وجلّ ووقف بين يديه على أقدام قلبه وسرّه فقد قال بلسان الحال كما قال موسى عليه السلام:

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1].

عزلت دنياى وآخرتى وجميع الخلق، قطعت الأسباب، وخلعت الأرباب، وجئت إليك مستعجلا لترضى عنى وتغفر لى وقوفى معهم من قبل. يا جاهل ما لك ولهذا؟ أنت عبد نفسك ودنياك وهواك، أنت عبد الخلق مشرك بهم لأنك تراهم فى الضرّ والنفع، وأنت عند الجنة ترجو دخولها، وأنت عند النار تخاف من دخولها، أين أنتم كلكم من مقلب القلوب والأبصار القائل للشيء (كن فيكون)؟

(يا غلام) لا تغترّ بطاعتك وتعجب بها، اسأل الحق سبحانه وتعالى قبولها، واحذر وخف أن ينقلك إلى غيرها، إيش منك أن يقال لطاعتك كوني معصية، ولصفائك كن كدرا، من عرف الله عزّ وجلّ لا يقف مع شيء ولا يغترّ بشيء، لا يأمن حتى يخرج من الدنيا على سلامة دينه وحفظ ما بينه وبين الله عزّ وجلّ.

(يا قوم) عليكم بأعمال القلوب وإخلاصها، الإخلاص الكامل هو مما سوى الله عزّ وجلّ. ومعرفة الله عزّ وجلّ هى الأصل، ما أرى أكثركم إلا كذابين فى الأقوال والأفعال، فى الخلوات والجلوات، ما لكم ثبات، لكم أقوال بلا أفعال، وأفعال بلا إخلاص ولا توحيد، إن تخبث المحك الذى بيدى ورضيك إيش ينفعك؟ تبغى أن يقبلك ويرضاك الحق عزّ وجلّ ؟ عن قريب تفتضح قراضتك عند السبك وإيقاد النار، يقال هذه بيضاء هذه سوداء هذه شبهة، فيخرج الكل مدبرا يوم القيامة.

يقال لجميع أعمالك التى نافقت فيها هكذا، كل عمل لغير الله عزّ وجلّ باطلا، اعملوا وحبوا واصحبوا واطلبوا ممن:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾[2].

انفوا ثم أثبتوا، انفوا عنه ما لا يليق به، وأثبتوا له ما يليق به وهو ما رضيه

---

(١) سورة طه آية: ٨٤

(٢) سورة الشورى آية: ١١

لنفسه ورضيه له رسوله صلى الله عليه وسلم، اذا فعلتم هذا زال التشبيه والتعطيل من قلوبكم، اصحبوا الله عزّ وجلّ ورسوله والصالحين من عباده بالإجلال والإعظام والإحترام.

إذا أردتم الفلاح فلا يحضر أحد منكم عندى إلا يحسن الأدب إلا فلا يحضر، ما تزالون فى فضول، فاتركوا الفضول هذه الساعة التى تكونون عندى فيها، ربما كان في الجمع من يحترم ويحسن الأدب معه من وراء عقولكم وأفهامكم. الطباخ يعرف طبيخه، والخباز يعرف خبزه، والصانع يعرف صنعته، وصاحب الدعوة يعرف المدعوين اليها الحاضرين فيها. دنياكم قد أعمت قلوبكم فما تبصرون بها شيئا، احذروا منها فهى تمكنكم من نفسها تارة بعد أخرى حتى تدرجكم وفى الأخيرة تذبحكم، تسقيكم من شرابها وبنجها ثم تقطع أيديكم وأرجلكم وتسمل أعينكم.

فإذا ذهب البنج وجاءت الإفاقة رأيتم ما صنعت بكم، هذا عاقبة حب الدنيا والعدو خلفها والحرص عليها وعلى جمعها، هذا فعلها فاحذروا منها.

(يا غلام) لا فلاح لك وأنت تحبها، وأنت يا مدعى محبة الحق عزّ وجلّ لا فلاح لك ولا صحة وأنت تحب الآخرة أو شيئا مما سواه فى الجملة. العارف المحب لا يحب هذه ولا هذه ولا سوى الحق عزّ وجلّ، إذا تم حبه له وتحقق أتته أقسامه من الدنيا مهنأة مكفأة، وكذلك إذا وصل إلى الآخرة فجميع ما تركه وراء ظهره يراه عند باب الحق عزّ وجلّ، قد سبقه إلى هناك.

لأنه تركه لوجه الله عزّ وجلّ، يعطى أولياءه أقسامهم من الأشياء وهم فى معزل عنها. حظوظ القلب باطنة، وحظوظ النفس ظاهرة، فحظوظ القلب لا تأتى إلا بعد منع النفس حظوظها، فإذا امتنعت أبواب حظوظ القلب، حتى إذا استغنى القلب بحظوظه من الحق عزّ وجلّ جاءت الرحمة للنفس، يقال لهذا العبد لا تقتل نفسك فيأتيها حينئذ حظوظها فتتناولها وهى مطمئنة.

دع مجالسة من يرغبك فى الدنيا واطلب مجالسة من يزهدك فيها، الجنس يميل الى الجنس، يطوف بعضهم على بعض المحبّ على المحبين حتى يجد محبوبه عندهم. المحبون لله يتحابون فيه، فلا جرم يحبهم ويؤيدهم ويشدّ بعضهم ببعض، يتعاونون على دعوة الخلق، يدعونهم إلى الإيمان والتوحيد والإخلاص فى الأعمال، يأخذون

بأيديهم ويوقفونهم على طريق الحق عزّ وجلّ من خدم خدم.

ومن أحسن يحسن إليه، ومن يعطى يعطى، إذا عملت للنار كانت النار لك غدا.

(كما تدين تدان- كما تكونوا يُولّ عليكم).

أعمالكم عمالكم، تعمل عمل أهل النار وترجوا من الله عزّ وجلّ الجنان، كيف تتمنى الجنة من غير عمل أصحاب الجنة. أرباب القلوب فى الدنيا الذين عملوا بقلوبهم لا بجوارحهم فحسب. العمل بغير مواطأة القلب إيش يعمل؟

المرائي يعمل بجوارحه والمخلص يعمل بقلبه وجوارحه. يعمل بقلبه قبل جوارحه. المؤمن حيّ والمنافق ميت، والمؤمن يعمل لله عزّ وجلّ، والمنافق يعمل للخلق ويطلب منهم المدح والعطاء على عمله، عمل المؤمن فى ظاهره وباطنه، فى خلوته وجلوته، فى السراء والضراء، وعمل المنافق فى جلوته فحسب، عمله عند السراء.

فإذا جاءت الضراء لا عمل له، لا صحبة له لله عزّ وجلّ، لا إيمان له بالله عزّ وجلّ وبرسله وكتبه، لا يذكر الحشر والنشر والحساب. إسلامه ليسلم رأسه وماله فى الدنيا، لا ليسلم فى الآخرة من النار التى هى عذاب الحق عزّ وجلّ. يصوم ويصلى ويقرأ العلم بحذاء الناس، فإذا خلا عنهم رجع إلى شغله وكفره.

اللهم إنا نعوذ بك من هذه الحالة، نسألك إخلاصا فى الدنيا وإخلاصا غدا آمين.

(يا غلام) عليك بالإخلاص فى الأعمال، وارفع بصرك عن عملك وطلب العوض عليه من الخلق والخالق، اعمل لوجه الله عزّ وجلّ لا لنعمه، كن من الذين يريدون وجهه، اطلب وجهه حتى يعطيك، فإذا أعطاك ذلك حصل لك الجنة فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا القرب منه وفى الآخرة النظر إليه، والجزاء الموعود بيع وضمان.

(يا غلام) سلم نفسك ومالك إلى يد قدره وحكمه وقضائه، سلم المشترى إلى المشترى وغدا يعطيك الثمن.

عباد الله: سلموا نفوسكم إليه، الثمن والمثمن، قولوا: النفس والمال والجنة لك، وما سواك لك، ما نريد شيئا سواك. الجار قبل الدار. الرفيق قبل الطريق.

يا من يريد الجنة شراؤها وعمارتها اليوم لا غدا، أكثر أنهارك وأجر الماء فيها اليوم لا غدا.

(يا قوم) يوم القيامة تتقلب القلوب والأبصار، يوم تزل فيه الأقدام، كل واحد من المؤلفين يقوم على قدم إيمانه وتقواه، ثبات الأقدام على قدر الإيمان، في ذلك اليوم:

﴿ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾[1].

كيف ظلم؟ ويعض المفسد على يديه كيف أفسد ولم يصلح؟ كيف أبق من مولاه؟

(يا غلام) لا تغتر بعمل، فإن الأعمال بخواتيمها. عليك بسؤال الحق عزّ وجلّ أن يصلح خاتمتك ويقبضك على أحب الأعمال إليه. إياك ثم إياك إذا تبت أن تنقض ثم ترجع إلى المعصية، لا ترجع عن توبتك بقول قائل، لا توافق نفسك وهواك وطبعك وتخالف مولاك عزّ وجلّ، المعصية بذلك اليوم وغداً.

إذا عصيت الحق عزّ وجلّ يخذلك ولا ينصرك.

اللهم انصرنا بطاعتك ولا تخذلنا بمعصيتك.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[2].

(١) سورة الفرقان آية: ٢٧

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس الثامن عشر

[في جهاد النفس والهوى والشيطان]

وقال رضي الله عنه بكرة الأحد بالرباط سادس عشر ذى القعدة سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

قد أخبرك الله عزّ وجلّ بجهادين: ظاهر، وباطن:

فالباطن: جهاد النفس والهوى والطبع والشيطان، والتوبة عن المعاصي والزلات والثبات عليها، وترك الشهوات المحرمات.

والظاهر: جهاد الكفار المعاندين له ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ومقاساة سيوفهم ورماحهم وسهامهم، يقتلون ويُقتلون. فالجهاد الباطن أصعب من الجهاد الظاهر، لأنه شيء ملازم متكرر.

وكيف لا يكون أصعب من الجهاد الظاهر وهو قطع مألوفات النفس من المحرمات وهجرانها وامتثال أوامر الشرع والانتهاء عن نهيه؟ فمن امتثل أمر الله عزّ وجلّ فى الجهادين حصلت له المجازاة دنيا وآخرة.

الجراحات فى جسد الشهيد كالفصد فى يد أحدكم لا ألم لها عنده، والموت فى حق المجاهد لنفسه التائب من ذنوبه كشرب العطشان للماء البارد.

(ياقوم) ما نكلفكم بشيء إلا ونعطيكم خيرا منه، المراد كل لحظة له أمر ونهى يخصه من حيث قلبه، بخلاف بقية الخلق، بخلاف المنافقين أعداء الله عزّ وجلّ ورسوله بجهلهم بالحق عزّ وجلّ وعداوتهم له يدخلون النار، وكيف لا يدخلون وقد كانوا فى الدنيا يخالفون الحق عزّ وجلّ، ويوافقون نفوسهم وأهويتهم وطباعهم وعاداتهم وشياطينهم، ويؤثرون دنياهم على أخراهم؟

كيف لا يدخلون النار وقد سمعوا هذا القرآن ولم يؤمنوا به ولم يعملوا بأوامره وينتهوا عن نواهيه؟

(يا قوم) آمنوا بهذا القرآن واعملوا به وأخلصوا فى أعمالكم، لاتراءوا ولا تنافقوا فى أعمالكم، ولا تطلبوا الحمد من الخلق والأعواض عليها منهم، آحاد أفراد من الخلق يؤمنون بهذا القرآن يعملون به لوجه الله عزّ وجلّ.

ولهذا قلَّ المخلصون وكثر المنافقون. ما أكسلكم فى طاعة الله عزّ وجلّ وأقواكم فى طاعة عدوه وعدوكم الشيطان الرجيم. القوم يتمنون أن لا يخلوا من تكاليف الحق عزّ وجلّ.

قد علموا أن فى الصبر على تكاليفه وأقضيته وأقداره خيرا كثيراً دنيا وآخره، يوافقونه فى تصاريفه وتقاليبه، تارة فى الصبر وتارة فى الشكر، تارة فى القرب وتارة فى البعد، تارة فى التعب وتارة فى الراحة، تارة فى الغنى وتارة فى الفقر، تارة فى العافية وتارة فى المرض.

كل أمنيتهم حفظ قلوبهم مع الحق عزّ وجلّ، هذا هو أهم الأشياء إليهم، يتمنون سلامتهم وسلامة الخلق مع الخالق عزّ وجلّ، ما يزالون يسألون الحق عزّ وجلّ فى مصالح الخلق.

(يا غلام) كن صحيحا تكن فصيحا، كن صحيحا فى الحكم تكن فصيحا فى العلم، كن صحيحا فى السرّ تكن فصيحا فى العلانية، كل السلامة فى طاعة الحق عزّ وجلّ وهى امتثال جميع ما أمر به والانتهاء عن جميع ما نهى عنه.

والصبر على جميع ما قضى به، من استجاب لله عزّ وجلّ أجابه، ومن أطاعه طوّع له جميع خلقة.

(ياقوم) اقبلوا مني فإنى ناصح لكم، أنا ناحية عنى وعنكم فى جميع ما أنا فيه، أنا ناحية عنه أتفرّج على فعل الله عزّ وجل فىّ وفيكم، لا تتهموني فإني أريد لكم ما أريد لنفسي، قال النبى صلى الله عليه وسلم :

(لا يكمل للمؤمن إيمانه حتى يريد لأخيه المسلم ما يريده لنفسه).

هذا قول أميرنا ورئيسنا وكبيرنا وقائدنا وسفيرنا وشفيعنا، مقدم النبيين والمرسلين والصديقين من زمان آدم عليه السلام إلى يوم القيامه، قد نفى كمال الإيمان عمن لا يحب لأخيه المسلم مثل ما يحب لنفسه.

إذا أحببت لنفسك أطايب الأطعمه وحسن الكسوة وأطيب المنازل وأحسن الوجوه وكثرة الأموال وأحببت لأخيك المسلم بالضدّ من ذلك فقد كذبت فى دعواك كمال الإيمان. يا قليل التدبير لك جار فقير، ولك أهل فقراء، ولك مال عليه زكاة، ولك ربح

كل يوم ربح فوق ربح، ومعك قدر يزيد على قدر حاجتك إليه، فمنعك لهم عن العطاء هو الرضا بما هم فيه من الفقر.

ولكن إذا كان نفسك وهواك وشيطانك وراءك فلاجرم لا يسهل عليك فعل الخير، معك قوة حرص وكثرة أمل وحب للدنيا وقلة تقوى وإيمان، أنت مشرك بك و بمالك وبالخلق وما عندك خير، من كثرت رغبته في الدنيا واشتد حرصه عليها ونسى الموت ولقاء الحق عز وجل ولم يفرق بين الحلال والحرام فقد تشبه بالكفار الذين قالوا: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾(١).

كأنك واحد منهم ولكن قد تحليت بالإسلام، وقد حقنت دمك بالشهادتين، ووافقت المسلمين في الصلاة والصيام عادة لا عبادة، تظهر للناس أنك تقيّ وقلبك فاجر، وما ينفعك ذلك.

(ياقوم) إيش ينفعكم الجوع والعطش بالنهار والإفطار على الحرام بالليل؟ تصومون بالنهار وتعصون بالليل، يا أكله الحرام أنتم تمنعون نفوسكم شرب الماء بالنهار ثم تفطرون على دماء المسلمين، ومنكم من يصوم بالنهار ويفسق بالليل، عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال:

(لا تخذل أمتي ما عظموا شهر رمضان).

تعظيمه التقوى فيه، وأن تصومه لوجه الله مع حفظ حدود الشرع.

(يا غلام) صم وإذ أفطرت واس الفقراء بشيء من إفطارك، لا تأكل وحدك، فإن من أكل وحده ولم يطعم يخاف عليه من الفقر والكديه.

(يا قوم) تشبعون وجيرانكم جياع، وتدعون أنكم مؤمنون؟ ما صح إيمانكم يكون بينيدي أحدكم طعام كثير يفضل عنه وعن أهله ويقف السائل على بابه ويرد خائباً، عن قريب تبصر خبرك، عن قريب تصير مثله وترد كما رددته مع القدرة على عطائه.

(ويحك) هلا قمت وأخذت ما بين يديك وأعطيته، تجمع بين الحالين: التواضع في قيامك، والعطاء من مالك. نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يعطي السائل بيده،

---

(١) سورة الجاثية آية: ٢٤

ويعلف ناقته، ويحلب شاته، ويخيط قميصه. كيف تدعون كتابعته وأنـتم مخالفون لـه في أقواله، وأنتم في دعوى عريضة بلا بينة؟

يقال في المثل: إما أن تكون يهوديا خالصاً وإلا فلا تتولع بالتوراة، وهكذا أقول لك: إما أنك تأتي بشرائط الإسلام وإلا فلا تقل أنا مسلم. عليكم بشرائط الإسلام، عليكم بحقيقة الإسلام، وهي الاستسلام بين يدي الحق عزّ وجلّ. واس الخلق اليوم حتى يواسيك الحق عزّ وجلّ غداً برحمته.

ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. وقال بعد كلام: ما دمت قائماً مع نفسك لا تصل إلى هذا المقام، ما دمت توصل إليها حظوظها فأنت في قيدها، وفها حقها وامنعها حظها، إيصال الحق إليها بقاؤها، وبإيصال الحظ إليها هلاكها. حقها مالا بد منه من الطعام واللباس والشراب وموضع تسكن فيه، وحظها اللذات والشهوات.

خذ حقها من يد الشرع، وكل حظها إلى القدروالسابقة في علم الله عزّ وجلّ، أطعمها المباح لا الحرام، اقعد على باب الشرع وألزمها بخدمته وقد أفلحت، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[1].

اقنع باليسير ووطن نفسك عليه، فإن جاء الكثير من يد السابقة والعلم كنت فيه، إذا قنعت باليسير ما تهلك نفسك ولا يفوتها ما قسم لها.

كان الحسن البصري رحمة الله عليه يقول: يكفي المؤمن ما يكفي العنيزة: كف من حشف وشربة ماء. المؤمن يتقوت والمنافق يتمتع، المؤمن يتقوت لأنه في الطريق ما وصل إلى المنزل قد علم أن له في المنزل كل ما يحتاج إليه، والمنافق لا منزل له لا مقصد له.

ما أكثر تفريطكم في الأيام والشهور، تقطعون الأعمار بلا نفع. أراكم لا تفرطون في دنياكم وتفرطون في أديانكم، اعكسوا تصيبوا، الدنيا ما بقيت على أحد، وهكذا لا تبقى عليكم.

(يا قوم) أمعكم توقيع من الحق عزّ وجلّ بالحياة؟ ما أقل تدبيركم. من يعمر

---

(١) سورة الحشر آية: ٧

دنيا غيره بخراب آخرته، يجمع الدنيا لغيره بتفرق دينه، يوقع بينه وبين الحق عزّ وجلّ وسخطه عليه لرضا مخلوق مثله.

لو علم وتيقن أنه ميت عن قريب حاضر بين يدي الحق عزّ وجلّ وأنه محاسب على جميع تصرفاته لا قصّر عن كثير من أعماله.

عن لقمان الحكيم رحمة الله عليه أنه قال لإبنه: يا بنيّ كما تمرض ولا تدري كيف تمرض هكذا تموت ولا تدري كيف تموت. أحذركم وأنهاكم ولا تحذرون ولا تنهون، ياغائبين عن الخير مشغولين بالدنيا.

عن قريب تشب عليكم الدنيا تخنقكم، ولا ينفعكم ما جمعتموه من يدها ولا ما تلذذتم بها، بل يكون جميع ذلك وبالاً عليكم.

(يا غلام) عليك بالاحتمال وقطع الشرّ، للكلمات أخوات إذا كلمك واحد منهم كلمة ثم أجبته عنها جاءت أخواتها ثم يحضر الشرّ بينكما.

آحاد أفراد من الخلق يؤهلون لدعوة الخلق إلى باب الحق عزّ وجلّ وهم حجة عليهم إن لم يقبلوا منهم، هم نعمة على المؤمنين، نقمة على المنافقين، أعداء دين الله عزّ وجلّ.

اللهم طيبنا بالتوحيد، وبخرنا بالفناء عن الخلق وما سواك في الجملة.

يا موحدين يا مشركين، ليس بيد أحد من الخلق شيء، لكل عجزة الملوك والمماليك والسلاطين والأغنياء والفقراء، كلهم أسراء قدر الله عزّ وجلّ. قلوبهم بيده يقلبها كيف يشاء.

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1].

لا تسمنوا نفوسكم فإنها تأكلكم، كمن يأخذ كلباً ضارياً فيربيه ويسمنه ويخلو معه فلا جرم يأكله. لا تطلقوا أعنة النفوس وتحذوا سكاكسنها، فإنها ترمي بكم في أودية الهلاك وتخدعكم، اقطعوا موادها ولا تطلقوها في شهواتها، اللهم أعنا على نفوسنا.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[2].

---

(١) سورة الشورى آية: ١١

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس التاسع عشر

[في مخافة الله]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الثلاثاء عشية بالمدرسة ثامن عشر ذي القعدة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

والحق عزّ وجلّ أهل أن يخاف ويرجى ولو لم يخلق جنة ولا نار، أطيعوه طلباً لوجهه، ما عليكم من عطائه وعقابه. طاعته في امتثال أمره والانتهاء عن نهيه والصبر مع أقداره، توبوا إليه، ابكوا بين يديه، ذلوا له بدموع أعينكم وقلوبكم، البكاء عبادة وهو مبالغة في الذلّ.

إذا مت على التوبة والنية الصالحة والأعمال الزكية نفعك الحق عزّ وجلّ وتولى مجازاة المظلومين، لأن ليس من يظهر رحمته ورأفته للطائعين له، عليك بمحبته في الدنيا والآخرة، اجعل محبته أهم الأشياء إليك، لا بد لك منها فهي التي تنفعك، كل من الخلق يريدك له، والحق عزّ وجلّ يريدك لك.

(يا قوم) نفوسكم تدعي الإلهية وما عندكم خبر، لأنها تتجبر على الحق عزّ وجلّ وتريد غير ما تريد، وتحبّ عدوه الشيطان الرجيم ولا تحبه.

وإذا جاءت أقضية لا توافق ولا تصبر بل تعارض وتنازع، ما عندها من الاستسلام خبر، قد قنعت باسم الاسلام، وهذا لا ينفعها ولا يجدي عليها نفعها.

(يا غلام) لازم الخوف ولا تأمل حتى تلقي ربك عزّ وجلّ ويستقرّ قدما قلبك وبنيتك بين يديه، ويوضع توقيع الأمان في يديك، حينئذ ينبغي لك أن تأمن، إذا آمنك رأيت عنده خيراً كثيراً.

إذا أمنك فاستقرّ لأنه إذا وهب شيئاً لا يرجع فيه. الحق عزّ وجلّ إذا اصطفى عبداً قرّبه وأدناه، وكلما غلب عليه الخوف ألقى عليه ما يزيل ذلك ويسكن قلبه وسرّه، فيكون ذلك بينه وبينه.

(ويحك) يا جاهل تعرض عن الحق عزّ وجلّ وتخليه وراء ظهر قلبك وتشتغل بخدمة الخلق؟ القوم اشتغلوا بخدمة الحق عزّ وجلّ فقرب قلوبهم إليه، تعرّف إليها

فمعرفتـه، أحـدهم إذا عـرف الحق عـزّ وجـلّ وفـرغ مـن محاربـة نفسـه وهـواه وطبعـه وشيطانه وتخلص منهم ومن دنياه وفتح لـه الحق عـزّ وجـلّ باب قربـه يطلب شغلاً يعمله، فيقـال لـه ارجع وراءك واشـتغل بخدمـة الحق ودلهـم علينـا، اخـدموا الطـلاب والمريدين لنا، أنتم غفل عما القوم فيه، تواصلون الضياء بالظلام في الكد على النفـوس التي هي عدوتكم، وترضون أزواجكم بسخط ربكم عزّ وجل.

كثير من الخلق يقدمون رضا أزواجهم وأولادهم على رضا الحق عـزّ وجـلّ، إنـي أرى حركاتك وسكناتك وكلّ همك لنفسك وزوجتك وولدك، وما عندك مـن الحـق عـزّ وجلّ خبر.

(ويحك) أنت لا تعدّ من الرجال، الرجل الكامل في رجوليته لا يعمـل لأحـد سـوى الحق عزّ وجلّ، قد عميت عينا قلبك وتكدر صفاء سرّك، وقد حجبت عـن ربـك عـزّ وجلّ وما عندك خبر، ولهذا قال بعضهم سلام الله عليهم: ويـل للمحجـوبين الـذين لا يعملون أنهم محجوبون.

(ويحك) في فتيتـك زجـاج مكسر وأنـت تأكلـه ولا تعلـم بـه لقـوة شـرهك وغلبـة شهوتك وهواك وشدة حرصك. بعد ساعة تقطع معدتك وتهلك، كل بلائك لبعدك عن مولاك عزّ وجلّ واختيارك لغيره، لو خبرت الخلق لبغضتهم وأحببت خـالقهم. قـال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(اخبُرْ تقلِهْ).

يعني تبغض، أنت تحبّ وتبغض من غير اختيار، العقل يختير ولا عقل لك، القلب يختير ولا قلب لك، القلب يتفكر ويتذكر ويتعظ. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾(١).

انقلب العقل قلباً، وانقلب القلب سراً، وانقلب السرّ فناء، وانقلب الفنـاء وجوداً. آدم عليـه السلام والأنبياء كانت لهم شهوات ورغبـات، غير أنهم كـانوا يخـالفون نفوسـهم ويطلبـون رضـا ربهم عزّ وجلّ. آدم عليه السلام اشتهى شهوة واحدة في الجنة، وزلّ زلة واحدة وهو في الجنة.

ثم تاب ولم يكن له عودة، وكانت شهوته محمودة، فإنـه طلب أن لا يفـارق جـوار الحق عزّ وجلّ. والأنبياء عليهم السلام ما زالوا يخالفون نفوسهم وطبـاعهم وشـهواتهم

---

(١) سورة ق آية: ٣٧

حتى التحققوا بالملائكة من حيث الحقيقة، لكثرة مجاهداتهم ومكابداتهم لأنفسهم، الأنبياء والمرسلون والأولياء يصبرون، وأنتم أيضاً وافقوهم في الصبر.

(يا غلام) اصبر لضربة عدوك، فعن قريب تضربه وتقتله وتأخذ سلبه، ثم تأخذ الخلعة من الملك والإقطاع.

(يا غلام) اجهد أنك لا تؤذي أحداً، وأن تكون نيتك صالحة لكل أحد، إلا من أمرك الشرع بأذيته فأذيتك له عبادة. العقلاء النجباء الصديقون قد نفخ في صدورهم.

وقد أقاموا القيامة على نفوسهم، وأعرضوا عن الدنيا بهممهم، وعبروا الصراط بتصديقهم، ساروا بقلوبهم حتى وقفوا على باب الجنة، وقفوا عند الطريق وقالوا: لا نأكل ولا نشرب وحدنا، لأن الكريم لا يأكل وحده، فرجعوا إلى الدنيا قهقرى: أي يدعون الناس إلى طاعة الله عزّ وجلّ، ويخبرونهم بما هناك فيسهلون الأمر عليهم. من قوى إيمانهم وتكن في إيقانه رأي بقلبه جميع ما أخبره الله عزّ وجلّ به من أمور القيامة، يرى الجنة والنار وما فيها، يرى الصور والملك الموكل به، يرى الأشياء كما هي، يرى الدنيا وزوالها وانقلاب دول أهلها، يرى الخلق كأنهم قبور يوشون.

وإذا اجتاز على القبور أحس بما فيه من النعيم والعذاب، يرى القيامة وما فيها من القيام والموافقة، يرى رحمة الله عزّ وجلّ وعذابه، يرى الملائكة قياماً والأنبياء والمرسلين والأبدال والأولياء على مراتبهم، يرى أهل الجنة يتزاورون وأهل النار في النار يتعادون، من صح نظره نظر بعين رأسه الخلق، وبعين قلبه إلى فعل الله عزّ وجلّ فيهم، يرى تحريكه وتسكينه لهم، فهذا نظر العزّة من أولياء الله عزّ وجلّ، من إذا نظر إلى شخص رأى ظاهره بعين رأسه وباطنه بعين قلبه ومولاه عزّ وجلّ بعيني سرّه، من خدم خدم.

كان إذا جاءه القدر وافقه، أن حمله إلى البر أو البحر إلى السهل أو الجبل، أطعمه حلواً أو مراً، وافقه في العزّ والذلّ والغنى والفقر والعافية والسقم، مشى مع القدر حتى إذا علم القدر أنه قد تعب نزل وأركبه مكانه، وصار ركاباً له وخدمه، وتواضع له لقربه من الله عزّ وجلّ وكرامته له، وكل ذلك لمخالفته لنفسه وهواه وطبعه وعاداته وشيطانه وأقران السوء.

اللهم ارزقنا قدرك في جميع الأحوال.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس العشرون

[في القول بلا عمل]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الجمعة بكرة بالمدرسة حادي وعشرون من ذي القعدة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

يا أهل هذه البلدة قد كثر النفاق فيكم وقلّ الإخلاص، وقد كثرت الأقوال بلا أعمال، قول بلا عمل لا يسوى شيئاً، بل هو حجة لا محجة. القول بلا عمل كدار بلا باب ولا مرافق، كنز لا ينفق منه، هو مجرّد دعوى بلا بينة، صورة بلا روح، صنم لا يدان له ولا رجلان ولا بطش.

معظم أعمالكم كجسد بلا روح الروح: هو الإخلاص والتوحيد والثبات على كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله، لا غفلوا، اعكسوا تصيبوا، امتثلوا الأمر وانتهوا عن النهي ووافقوا القدر، آحاد أفراد من الخلق تسقى قلوبهم بنج الأنس والمشاهدة والقرب فلا يحسون بآلام القدر وبلاياه، فتنقضي أيام البلاء ولا يعلمون بها فيحمدون الله عزّ وجلّ ويشكرونه، كيف لم يكونوا موجودين حتى لا يعترضوا على ربهم عزّ وجلّ؟ الآفات تنزل على القوم كما تنزل عليكم، فمنهم من يصبر، ومنهم من يغيب عن الآفات وعن الصبر عليها. التضرّر عند ضعف الإيمان عند كونه طفلاً، عند كونه شاباً مراهقاً، والموافقة عند كونه بالغاً، والرضا عند كونه قريباً.

ينظر بعلمه إلى ربه عزّ وجلّ، والغيبة والفناء عند وجود القلب، والسرّ عند الحق عزّ وجلّ فهي حالة المشاهدة والمحادثة، يفني وجوده ويمحى بالإضافة إلى الخلق ويوجد عند الحق عزّ وجلّ، يمحى ويذوب هنالك ذوباناً، ثم إذا شاء الحق عزّ وجلّ أنشره، إذا أراد إعادته أعاده وجمع متلاشية ومتفرّقة، كما جمع أجساد الخلق يوم القيامة بعد التقطع والتمزّق، يجمع عظامهم ولحومهم وشعورهم، ثم يأمر إسرافيل بنفخ الأرواح فيها، هذا في حق الخلق.

أما هؤلاء يعيدهم بلا واسطة، نظرة تفنيهم ونظرة تعيدهم. شرط المحبة أن لا تكون لك إرادة مع محبوبك، وأن لا تشتغل عنه بدنيا ولا آخرة ولا خلق. محبة الله عزّ وجلّ ليست هنية حتى يدعيها كل أحد، كم ممن يدعيها زهي بعيدة عنه؟ وكم ممن لا يدعيها وهي عنده؟ لا تحقروا أحد من المسلمين، فإن أسرار الحق عزّ وجلّ مبذورة

فيهم، تواضعوا في أنفسكم ولا تتكبروا على عباد الله عزّ وجلّ، تنبهوا من غفلاتكم، ما أنتم إلا غفلة عظيمة، كأنكم قد حوبستم وعبرتم الصراط ورأيتم منازلكم في الجنة. ما هذا الإغترار العظيم؟

كل واحد منكم قد عصى الله عزّ وجلّ معاصي كثيرة وهو لا يتفكر فيها ولا يتوب منها ويظن أنها قد نسيت، هي مكتوبة في صحائفكم بتواريخ أوقاتها، يحاسب ويعاقب على القليلوالكثير منها. استيقظوا يا غفل، انتبهوا يا نيام، تعرّضوا لرحمة الله عزّ وجلّ، من اشتد معاصيه وزلاته وأصرّ عليها ولم يتب ولم يندم فقد جاء يريد الكفر، إن لم يتدارك الأمر، يادنيا بلا آخرة يا خلقاً بلا خالق، ما تخاف سوى الفقر، ما ترجو سوى الغنى.

(ويحك) الرزق مقسوم لا يزيد ولا ينقص، ولا يتقدم ولا يتأخر، أنت شاك في ضمان الحق عزّ وجلّ، حريص على طلب ما لم يقسم لك، حرصك قد منعك عن الحضور عند العلماء ومشاهد الخير، تخاف أن تنقص أرباحك وأن يقلّ زبونك.

(ويحك) من أطعمك وأنت طفل في بطن أمك؟ أنت معتمد عليك وعلى الخلق ودنانيرك ودراهمك، وعلى بيعك وشرائك وعلى سلطان بلدك، كل من اعتمدت عليه فهو إلهك، وكل من خفته ورجوته فهو إلهك.

كل من رأيته في الضرّ والنفع ولم تر أن الحق عزّ وجلّ مجري ذلك على يديه فهو إلهك، عن قليل ترى خبرك، يأخذ الحق عزّ وجلّ منك سمعك وبصرك، وبطشك زمالك، وجميع ما اعتدت عليه دونه، ويقطع بينك وبين الخلق، ويقسي قلوبهم عليك،ويقبض أيديهم عنك، ويعذلك عن شغلك، ويغلق الأبواب في وجهك، يرددك من باب إلى باب، ولا يعطيك لقمة ولا ذرّة، وإذا دعوته فلا يجيبك، كل ذلك لشركك به، واعتمادك على غيره، وطلبك نعمه من غيره، واستعانتك بها على معاصيه. هذا قد رأيته جرى على كثير من هذا الجنس، وهو الأغلب في العاصين.

ومنهم من يتدارك الأمر بالتوبة، فيقبل الحق عزّ وجلّ توبته، وينظر إليه بالرحمة، ويعامله بالكرم واللطف. يا خلق الله توبوا، يا علماء يا فقهاء يا زهاد يا عباد، ما منكم إلا من يحتاج إلى توبة، أخباركم عندي في حياتكم ومماتكم، إذا أشكلت عليّ أوائل أموركم لي في آخرها عند موتكم.

إذا خفي عليّ أصل مال أحدكم انتظر خروجه، فإن خرجت النفقة على الأولاد والأهل وفقراء الحق عزّ وجلّ ومصالح الخلق علمت أن أصله جاء من حلال، وإن خرج على الصديقين الذين هم خواصّ الحقّ عزّ وجلّ علمت أن أصله وتحصله كان بالتوكل على الحق عزّ وجلّ وأنه حلال طلق، لست معكم في أسواقكم، ولكن الحق عزّ وجلّ بين لي أموالكم بهذه الطريقة وبغيرها من الطرق.

(يا غلام) احذر أن يرى الحق عزّ وجلّ في قلبك غيره فتنهتك، احذر أن يرى في قلبك خوف غيره أو رجاء غيره أو حبّ غيره، طهروا قلوبكم من غيره، لا ترون الضرّ والنفع إلا منه، أنتم في داره وضيافته.

(يا غلام) كل ما تراه من الوجوه المستحسنة وتحبه فهو حبّ ناقص أنت معاقب عليه، الحبّ الصحيح الذي لا يتغير حبّ الله عزّ وجلّ، هو الذي تراه بعيني قلبك، وهو حبّ الصديقين الروحانيين.

ما أحبوا بالإيمان بل بالإيقان والعين، كشف الحجب عن أعين قلوبهم فرأوا ما في الغيب، رأو مالا يمكنهم شرحه.

اللهم ارزقنا محبتك مع العفو والعافية، أقسامكم مودعة عند الدنيا إلى أوقات معلومة عند الحق عزّ وجلّ، ما يقدر أحد على الامتناع من تسليمها إليكم وقت مجيء الإذن ممن ملكها، هي تضحك بالخلق وتخرب عقولهم وتستهزئ بها، وتضحك ممن يطلب منها ما لم يقسم له منها، وممن يطلب قسمه منها بغير إذن من الحق عزّ وجلّ.

(يا قوم) إن أعرضتم عن بابها وأقبلتم على باب الحق عزّ وجلّ خرجت وتبعتكم اطلبوا من الله عزّ وجلّ العقل. إذا أقبلت الدنيا على أولياء الله عزّ وجلّ قالوا لها: مرى غرى غيرنا، نحن قد عرفناك، قد رأيناك، لا تجربينا قدر عرفنا مخبرك، لا تتبهرجي علينا فإن دينارك محسن، زينتك على صنم مجوف من خشب لا روح فيه.

أنت ظاهر بلا معنى، منظر بلا مخبر، المنظر والمخبر للآخرة، لما ظهرت عيوب الدنيا عند القوم هربوا منها، ولما ظهرت عيوب الخلق عندهم غابوا عنهم وهربوا منهم واستوحشوا منهم، واستأنسوا بالصحاري والبراري والخراب والكهوف والجن والملائكة السائحين في الأرض، تأتيهم الملائكة والجنّ على غير صورهم، يظهرون لهم في بعض الأوقات على صور الزهاد والرهبان بالحاء، وعلى صور الوحوش يظهرون في أيّ صورة

أرادوا، والصور عند الملائكة والجن كثياب معلقة عند أحدكم في بيته يلبس أيها شاء.

المريد الصادق في إرادته الحق عزّ وجلّ في بداية أمره يضيق عن رؤية الخلق وعن سماع كلمة منهم، وعن رؤية ذرة من الدنيا، لا يقدر أن يرى شيئاً من المخلوقات، يكون قلبه تائهاً وعقله غائباً وبصره شاخصاً، لا يزال كذلك حتى تقع يد الرحمة على رأس قلبه فيأتيه السكون، لا يزال سكران حتى يستنشق رائحة القرب من ربه عزّ وجلّ فحينئذ يفيق.

وإذا تمكن في توحيده وإخلاصه ومعرفته بربه عزّ وجلّ وعلمه به ومحبته له جاءه الثبات واتساع الخلق، تأتيه القوّة من الله عزّ وجلّ، فيحمل أثقالهم من غير كلفة، يقرب منهم ويطلبهم ويكون كل شغله في مصالحهم وهو لا يشتغل عن ربه عزّ وجلّ طرفة عين. المتزهد المبتدي في زهده يهرب من الخلق، والزاهد الكامل في زهده لا يبالي منهم، لا يهرب منهم بل يطلبهم، لأنه يصير عارفاً عارفاً بالله عزّ وجلّ.

ومن عرف الله لا يهرب منهم بل يطلبهم ، لأنه يصير عارفاً لله عزّ وجلّ، ومن عرف الله لا يهرب من شيء، ولا يخاف من شيء سواه. المبتدي يهرب من الفساق والعصاة، والمنتهي يطلبهم، كيف لا يطلبهم وكل دوائهم عنده؟ ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه: لا يضحك في وجه الفاسق إلا العارف. من كملت معرفته لله عزّ وجلّ صار دالاً عليه، يصير شبكة يصطاد بها الخلق من بحر الدنيا، يعطي القوّة حتى يهزم إبليس وجنده، يأخذ الخلق من أيديهم.

يا من اعتزل بزهده مع جهله، تقدم واسمع ما أقول: يازهاد الأرض تقدموا، خرّبوا صوامعكم واقربوا مني، قد قعدتم في خلواتكم من غير أصل ما وقعتم بشيء، تقدموا والقطوا ثمار الحكم رحمكم الله، ما أريد مجيئكم لي بل أريده لكم.

(يا غلام) تحتاج تتعب حتى تتعلم الصنعة، تبني وتنقض ألف مرة حتى تحسن، تبني مالا ينتقض، إذا أفنيت في البناء والنقض بنى لك الحق عزّ وجلّ بناء لا ينتقض.

(يا قوم) متى تعقلون؟ متى تدركون الذي أسير إليه؟ طوفوا على مريدي الحق عزّ وجلّ، فإذا وقعتم بهم فاخدموهم بأموالكم وأنفسكم. المريدون الصادقون لهم روائحهم، لهم علامات ظاهرة نيرة على وجوههم، ولكن الآفة فيكم وفي بصائركم وفي أفهامكم السقيمة، ما تفرّقون بين الصديق والزنديق، بين الحلال والحرام.

بين المسموم وغير المسموم، بين المشرك والموحد، بين المخلص والمنافق، بين العاصي والطائع، بين مريد الحق عزّ وجلّ وبين مريد الخلق، اخدموا الشيوخ العمال بالعلم حتى يعرفوكم الأشياء كما هي، اجتهدوا في معرفة الحق عزّ وجلّ، فأنكم إذا عرفتموه عرفتم ما سواه، اعرفوه ثم أحبوه، إذا كنتم ما ترونه بأعين رءوسكم فانظروه بأعين قلوبكم، إذا رأيتم النعم منه أحببتموه ضرورة، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(أحبُوا اللهَ لما يَغْذيكُمْ من نِعَمِهِ، وأحبُوني بِحُبِّ اللهِ عزّ وَجَلّ لي).

(يا قوم) قد غذاكم بنعمة وأنتم في بطون أمهاتكم وبعد خروجكم منها، ثم أعطاكم العوافي والقوى والبطش، ورزقكم طاعته، وجعلكم مسلمين متبعين لنبيه صلى الله عليه وسلم، فإن شكره ومحبته كشكره ومحبته، إذا رأيتم النعم منه زالت محبة الخلق من قلوبكم. العارف لله عزّ وجلّ المحب له الناظر إليه بعيني قلبه الذي يرى الإحسان والإساءة منه لا يبقى له نظر إلى من يحسن إليه ويسيء من الخلق.

إن ظهر منهم إحسان رآه بتسخير الحق عزّ وجلّ، وإن ظهرت منهم إساءة رآها بتسليطه، ينتقل نظره من الخلق إلى الخالق، ومع ذلك يعطي الشرع حقه ولا يسقط حكمه. لا يزال قلب العارف ينتقل من حالة إلى حالة حتى يقوى زهده في الخلق والترك لهم والإعراض عنهم، ويرغب في الحق عزّ وجلّ ويقوى توكله عليه، يذهب عنه أخذ الأشياء من الخلق ويبقى عند أخذها من الخلق على يد الحق عزّ وجلّ، يتأكد ويتأيد عقله المشترك بينه وبين الخلق ويزداد عقلاً آخر وهو العقل من الله عزّ وجلّ.

يا فقير الخلق يا مشركاً بهم، احذر أن يأتيك الموت وأنت على ما أنت فيه، ما يفتح الله لروحك بابه ولا ينظر إليها لأنه غضبان على كل مشرك معتمد على غيره، عليك بالخلوة عن النفس، ثم بالخلوة عن الخلق، ثم بالخلوة عن الدنيا، ثم بالخلوة عن الآخرة، ثم بالخلوة عما سوى المولى، إذا أردت أن تخلو مع المولى فأخل عن وجودك وتدبيرك وهذيانك.

(ويحك) تقعد في صومعتك وقلبك في بيوت الخلق منتظر لمجيئهم وهداياهم، ضاع زمانك وجعلت لك الصورة بلا معنى، لا تؤهل نفسك لشيء لم يؤهلك الله عزّ وجلّ له، إن لم يأتيك التأهل من الله عزّ وجلّ وإلا ما تقدر عليه أنت ولا الخلق.

إذا أرادك لأمر هيأك له، إذا لم يكن لك باطن صحيح وقلب خال عما سوى الحق عزّ وجلّ وإلا فمجرد الخلوة لا ينفعك. اللهم انفعني بما أقول، وانفعهم بما أقول ويستمعون.

المجلس الحادي والعشرون

[في عدم الالتفات إلى الخلق]

وقال رضي الله عنه يوم الثلاثاء عشية بالمدرسة خامس عشر ذي القعدة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

الدنيا حجاب عن الآخرة، والآخرة حجاب عن ربّ الدنيا والآخرة، كل مخلوق حجاب عن الخالق عزّ وجلّ، مهما وقفت معه فهو حجاب بك، لا تلتفت إلى الخلق ولا إلى الدنيا، ولا إلى ما سوى الحق عزّ وجلّ حتى تأتي إلى باب الحق عزّ وجلّ بأقدام سرّك وصحة زهدك فيما سواه عرياناً عن الكل، متحيراً فيه مستغيثاً إليه مستعيناً به ناظراً إلى سابقته وعمله.

فإذا تحقق وصول قلبك وسرّك ودخلا عليه وقرّبك وأدناك وحياك وولاك على القلوب وأمرك عليها وجعلك طبيباً لها، فحينئذ التفت إلى الخلق والدنيا، فيكون التفاتك إليهم نعمة في حقهم، وأخذك للدنيا من أيديهم وردها إلى فقرائهم، واستيفاؤك لقسمك منها عبادة وطاعة وسلامة. من أخذ الدنيا على هذه الصفة لا تضرّه، بل يسلم منها وصفو له أقسامه من نتن كدرها. الولاية لها علامة في وجوه الأولياء يعرفها أهل الفراسة، الإشارات تنطبق بالولاية لا اللسان.

من أراد الفلاح فليبذل نفسه وماله للحق عزّ وجلّ، ويخرج بقلبه من الخلق والدنيا كخروج الشعرة من العجين واللبن، وهكذا من الأخرى، وهكذا من جميع ما سوى الحق عزّ وجلّ، فحينئذ يعطي كل ذي حق حقه، بين يديه تأكل أقسامك من الدنيا والآخرة وأنت على بابه وهما قائمتان خادمتان، لا تأكل قسمك من الدنيا وهي قاعدة وأنت قائم، بل كلها على باب الملك وأنت قاعد وهي قائمة والطبق على رأسها، تخدم من هو واقف على باب الحق عزّ وجلّ، وتذلّ من هو واقف على بابها، كل منها على قدم الغنى والعزّ بالحق عزّ وجلّ.

القوم رضوا من الله عزّ وجلّ بالإفلاس في الدنيا ورضوا منه بالآخرة أن يقربهم إليه، ما يطلبون من الله عزّ وجلّ سوى الله، علموا أن الدنيا مقسومة فتركوا الطلب لها، وعلموا أن درجات الآخرة ونعيم الجنة مقسومة أيضاً فتركوا طلب ذلك والعمل له، لا يريدون سوى وجه الحق عزّ وجلّ.

إذا دخلوا الجنة لا يفتحون عينهم حتى يروا نور وجه الحق عزّ وجلّ. أحبب التجريد والتفرد، من لم يكن قلبه مجرداً عن الخلق والأسباب لا يقدر يسلك جادة النبيين والصديقين والصالحين حتى يقنع باليسير من الدنيا وسلم الكثير إلى يد القدر، لا تتعرض بطلب الكثير فإنك تهلك، إذا جاءك الكثير من الحق عزّ وجلّ من غير اختيارك كنت محفوظاً فيه.

عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول:عظ الناس بعلمك وكلامك، يا واعظاً عظ الناس بصفاء سرك وتقوى قلبك، ولا تعظهم بتحسين علانيتك مع قبح سريرتك. الحق عزّ وجلّ كتب في قلوب المؤمنين الإيمان قبل أن يخلقهم، هذا سابقة، ولا يجوز الوقوف مع السابقة والاتكال عليها، بل يجتهد ويتعرض ويبذل المجهود، يجتهد في تحصيل الإيمان والإيقان، ويتعرض لنفحات الحق عزّ وجلّ، ويلازم الوقوف على بابه.

فقلوبنا تجتهد في اكتساب الإيمان،فلعل الحق عزّ وجلّ يهبهم لنا من غير كسب ولا تعب.أما تستحون يصف الحق عزّ وجلّ نفسه بصفات يرضاها له تتأولونها وتردونها عليه؟ ما يسعكم من تقدمكم من الصحابة والتابعين، ربنا عزّ وجلّ على العرش كما قال من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تجسيم.

اللهم ارزقنا ووفقنا وجنبنا الابتداع.

و﴿ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس الثاني والعشرون

[في خروج حب الدنيا من القلب]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة بالرباط سلخ ذي القعدة سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

سأل سائل: كيف أخرج حب الدنيا من قلبي؟

فقال: انظر إلى تقلبها بأربابها وأبنائها، كيف تحتال عليهم وتتلهى بهم وتعديهم خلفها، ثم ترقبهم من درجة إلى درجة حتى تعلمهم على الخلق وتمكنهم من رقابهم وتظهر كنوزها وعجائبها، فبينما هم فرحون بعلوّهم وتمكنهم وطيبة عيشهم وخدمتها لهم إذ أخذتهم وقيدتهم وغرتهم وأرمت بهم من ذلك العلوّ على رءوسهم، فتقطعوا وتمزقوا وأهلكوا.

وهي واقفة تضحك بهم، وإبليس إلى جنبها يضحك معها. هذا فعلها بكثير من السلاطين والملوك والأغنياء من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، بذلك ترفع ثم تضع، تقدم ثم تؤخر، تغني ثم تفقر، تدني ثم تذبح، والنادر منهم من يسلم منها ويغلبها ولا تغلبه ويعان عليها ويسلم من شرّها، وهم آحاد أفراد.

إنما يسلم من شرّها من عرفها واشتد حذره منها ومن حيلها. يا سائل إن نظرت بعيني قلبك إلى عيوبها قدرت على إخراجها منه، وإن نظرت إليها بعيني رأسك اشتغلت بزينتها عن عيوبها ولم تقدر على إخراجها من قلبك والزهد فيها وتقتلك كما قتلت غيرك. جاهد نفسك حتى تطمئن، فإذا اطمأنت عرفت عيوب الدنيا فيها، طمأنينتها أنها تقبل من القلب وتوافق السرّ وتطيعهما فيما يأمران به وينتهيان عنه وتقنع بعطائهما وتصبر على منعهما.

إذا صارت مطمئنة انضافت إلى القلب وسكنت إليه، نرى تاج التقوى على رأسه وخلع القرب عليه. عليكم بالإيمان والتصديق وترك التكذيب للقوم والمجادلة لهم، لا تنازعوهم فإنهم ملوك في الدنيا والآخرة، ملكوا قرب الحق عزّ وجلّ فملكوا ما سواه. الحق عزّ وجلّ قد أغنى قلوبهم وملأها من قربه ومن أنواره وكرامته.

لا يبالون بيد من تكون الدنيا ومن يأكلها، لا ينظرون إلى أولها، ينظرون إلى

عاقبتها وفنائها، يجعلون الحق عزّ وجلّ نصب عيون أسرارهم، لا يعبدون خوفاً من الهلك ولا رجاء للملك، خلقهم له ولدوام صحبته، ويخلق ما لا تعملون، هو فعال لما يريد. المنافق إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، من برئ من هذه الخصال التي ذكرها النبيّ صلى الله عليه وسلم تعالى فقد برئ من النفاق.

هذه الخصال هي المحك، والفرق بين المؤمن والمنافق، خذ هذا المحك وهذه المرآة وأبصر بها وجه قلبك، انظر هل أنت مؤمن أو منافق؟ موحد أو مشرك؟

كل الدنيا فتنة ومشغلة إلا ما أخذ بينة صالحة للآخرة، إذا صلحت النية في التصرّف في الدنيا صارت آخرة، كل نعمة تخلو من الشكر للحق عزّ وجلّ، قيدوا نعم الحق عزّ وجلّ لشكره، الشكر للحق عزّ وجلّ بشكره، الشكر للحق عزّ وجلّ شيئان:

الأول: الاستعانة بالنعم على الطاعات والمواساة للفقراء منها.

والثاني: الاعتراف بها للنعم بها والشكر لمنزلها وهو الحق عزّ وجلّ.

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال: كل ما يشغلك عن الله عزّ وجلّ فهو عليك مشئوم، إن شغلك ذكره عنه فهو عليك مشئوم، الصلاة والصوم والحج وجميع أفعال الخير فكل ذلك عليك مشئوم،إذا شغلتك نعمه عنه فهي عليك مشئومة، قابلت نعمته بمعاصيه والرجزع في المهمات إلى غيره.

قد تمكن الكذب والنفاق في حركاتك وسكناتك وصورتك ومعناك في ليلك ونهارك، قد احتال عليك الشيطان وزين لك الكذب والأعمال القبيحة، تكذب حتى في صلاتك، لأنك تقول الله أكبر وتكذب، لأن في قلبك إلهاً غيره، كل ما تعتمد عليه فهو إلهك، كل شيء تخاف منه وترجوه فهو إلهك، قلبك لا يوافق لسانك، فعلك لا يوافق قولك، قل الله أكبر ألف مرة بقلبك ومرة بلسانك، ما تستحي أن تقول لا إله إلا الله ولك ألف معبود غيره؟

تب إلى الله عزّ وجلّ من جميع ما أنت فيه، وأنت يا من يعلم العلم وقد قنع منه بالاسم دون العمل، إيش ينفعك إذا قلت أنا عالم فقد كذبت، كيف ترضى لنفسك أنك تأمر غيرك بما لا تعمله أنت؟ قال الله عزّ وجلّ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾(١).

---

(١) سورة الصف آية: ٢

(ويحك) تأمر الناس بالصدق وأنت تكذب، تأمرهم بالتوحيد وأنت مشرك، تأمرهم بالإخلاص وأنت مراء منافق، تأمرهم بترك المعاصي وأنت ترتكبها، قد ارتفع الحياء من عينيك، لو كان لك إيمان لاستحيت، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(الحياء من الإيمان).

لا إيمان لك، ولا إيقان لك ولا أمانة، خنت العلم فذهبت أمانتك، وكتبت عند الله عزّ وجلّ خواناً، لا أعرف لك دواء إلا التوبة والثبات عليها.

من صح إيمانه بالله عزّ وجلّ وبقدره سلّم كل أموره إليه ولم يجعل له شريكاً فيها، لا تشرك بالخلق والأسباب وتتقيد بها عنه، فإذا تحقق في هذا سلّمه من الآفات في جميع أحواله، ثم ينتقل من الإيمان إلى الإيقان، ثم تأتيه الولاية البدلية ثم الغيبية، وربما أتت في آخر أحواله القطبية، يباهي به الحق عزّ وجلّ عند كل خلقه: الجن والإنس والملك والأرواح، يقدمه ويقرّبه ويوليه على خلقه ويملكه ويمكنه ويحبه ويحببه إلى خلقه.

وكل هذا أساسه وبدايته الإيمان به وبرسله، والتصديق بهما، أساس هذا الأمر الإسلام ثم الإيمان بكتاب الله عزّ وجلّ وشريعة رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم الإخلاص في العمل مع توحيد القلب عند كمال الإيمان، المؤمن يفنى عنه وعن عمله وعن عمله وعن كل ما سوى الحق عزّ وجلّ، فيعمل الأعمال وهو في معزل عنها، مازال يجاهد نفسه والخلق كلهم في جنب الحق عزّ وجلّ حتى هداه إلى سبيله، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[1].

كونوا زاهدين في الأشياء وقد رضيتم بتدبيره يقلبهم في يد قدره.

فإذا وافقوه نقلبهم إلى قدرته. يا طوبى لمن وافق القدر، والنتظر فعل المقدّر، وعمل بالقدر وسار مع القدر ولم يكفر نعمة الأقدار، وآية نعمة المقدر رحمته القرب منه والغنى به عن كل خلقه. إذا وصل قلب العبد إلى ربه عزّ وجلّ أغناه به عن الخلق، يقرّبه ويمكنه ويملكه ويقول هل:

﴿ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾[1].

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٦٩

يستخلفه في ملكه كما استخلف صاحب مصر يوسف عليه السلام وفوّض إليه أمر ملكه وحواشيه، وتدبير ملكه وأسبابه، وجعله أميناً على خزائنه، هكذا القلب إذا صح وظهرت نجابته وطهارته عما سوى مولاه عزّ وجلّ مكنه من قلوب عباده.

ومن مملكته دنياه وأخراه، فيصير كعبة المريدين القاصدين، الطريق إلى هذا العلم والعمل بالعلم الظاهر. لا تتعوّد البطالة والكسل عن طاعة الحق عزّ وجلّ فإنه يبتليك عقوبة، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(إذا قصّرَ العَبْدُ في العَمَلِ ابتلاهُ اللهُ عزّ وجلّ بالهَمّ).

يباليه بهمّ ما لم يقسم له، وهمّ العيال وأذية الأهل ونقصان الربح في المعيشة وعصيان الولد له ومنافرة الزوجة، وأينما توجه يعثر، كل ذلك عقوبة لتقصيره في طاعة ربه عزّ وجلّ واشتغاله عنه بالدنيا والخلق، قال الله تعالى:

﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ ﴾[٢].

(ويحك) إلى متى تشتغل بنفسك وأهلك عن الحق عزّ وجلّ. عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال: إذا تعلم ولدك لقط النوى فأعرض عنه واشتغل بنفسك مع ربك عزّ وجلّ. أراد به: أنه إذا علم أن النوى يصلح لشيء وأن له ثمناً فقد تعلم، يكدّ لنفسه فلا تضيع زمانك في الكدّ عليه فإنه استغنى عنك. علمّ أولادك الصنائع وتفرّغ لعبادة الله عزّ وجلّ، فإن الأهل والولد لا يغنون عنك من الله شيئاً، الزم نفسك وأهلك وولدك القناعة بما لا بد لك عنه، وتفرّغ أنت وهم لطاعة مولاكم عزّ وجلّ.

فإن كان لكم في الغيب سعة الرزق فهي تأتي في وقتها المقدر عند الله تراها من الحق عزّ وجلّ، وتتخلص من الشرك بالخلق، وإن لم يكن لك عند القدر ذلك فعندك غنى عن جميع الأشياء بزهدك وقناعتك. المؤمن القانع إذا احتاج إلى شيء من الدنيا دخل على ربه عزّ وجلّ بأقدام سؤاله وتضرّعه وذله وتوبته، فإن أعطاه الذي يريد شكره على عطائه، وإن لم يعطيه وافقه في المنع واصبر معه على إرادته من غير اعتراض ولا منازعة.

لا يطلب الغنى بدينه وبريائه ونفاقه وتنمسه كما تفعل أنت يا منافق. الرياء

---

(١) سورة يوسف آية: ٥٤

(٢) سورة النساء آية: ١٤٧

والنفاق والمعاصي سبب الفقر والذل والطرد من باب الحق عزّ وجلّ، المرائي المنافق يأخذ الدنيا بدينه وتزييه بزيّ الصالحين من غير أهلية فيه، يتكلم بكلامهم ويتلبس بثيابهم ولا يعمل مثل عملهم، يدعي النسب إليهم وليس هو من نسبهم. قولك لا إله إلا الله دعوى، وتوكلك عليه وثقتك به وإعراض قلبك عن غيره بينة. يا كذابين اصدقوا، يا هاربين من مولاهم ارجعوا، اقصدوا بقلوبكم باب الحق عزّ وجلّ وصالحوه واعتذروا إليه.

في حالة الإيمان تأخذ من الدنيا بمباح الشرع، وفي حال الولاية تأخذ بيد الله أمر عزّ وجلّ مع شهادتهما له: يعني مع شهادة الكتاب والسنة، وفي حالة البدلية والقطبية تأخذ بفعل الله عزّ وجلّ تفوض الأشياء إليه.

(يا غلام) ما تستحي؟ ابك على نفسك فإنك قد حرمت الصواب والتوفيق، ما تستحي؟ تكون اليوم طائعاً وغداً عاصياً؟ اليوم مخلصاً وغداً مشركاً؟ عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(مَن استوى يوماهُ فهُوَ مغبُون، وَمَن كانَ أمسُهُ خيَراً من يَومِهِ فهُوَ محرُوم).

(يا غلام) بك لا يجيء شيء ولا بد منك، اجتهد والمعونة من ربك عزّ وجلّ، تحرك في هذا البحر الذي أنت فيه والأمواج ترفعك وتقلبك إلى الساحل، الدعاء منك والإجابة منه، الاجتهاد منك والتوفيق منه، الترك منك والحمية منه، أصدق في طلبك وقد أراك باب قربه، تريد رحمته ممتدة إليك ولطفه وكرمه ومحبته مشتاقين لك، وهذا غاية مطلوب القوم.

إيش أعمل بكم يا عبيد النفوس والطباع والأهوية والشياطين، ما عندي إلا حق في حق، لب في لب، صفاء في صفاء، قطع ووصل، قطع ما سوى الله عزّ وجلّ ووصل به، لا أقبل من هوسكم يا منافقون يا مدعون يا كذابون، لا أستحي من وجوهكم، كيف أستحي منكم وأنتم ما تستحيون من ربكم عزّ وجلّ ؟

وتتواقحون عليه وتستهينون بنظره وملائكته الموكلين بكم؟ عندي صدق أقطع به رأس كل كافر ومنافق كذاب لا يتوب ويرجع إلى ربه عزّ وجلّ بأقدام توبته واعتذاره.

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال: الصدق سيف الله عزّ وجلّ في أرضه، ما وضع

على شيء إلا قطعه، اقبلوا مني فإني ناصح لكم، أريدكم لكم، أنا ميت عنكم وحيّ بالحق عزّ وجلّ، من صدقني في الصحبة انتفع وأفلح، ومن كذبني وكذب في صحبتي حرم وعوقب عاجلاً وآجلاً. من جملة أسباب معرفته ترك المنازعة له والاعتراض عليه والرضا بتدبيره.

ولهذا قال مالك بن دينار لبعض مريديه: إن أردت معرفة الله عزّ وجلّ فارض بتدبيره وتقديره، ولا تجعل نفسك وهواك وطبعك وإرادتك شركا له فيهما، يا أصحاء الأجساد، يا متفرّغين من الأعمال، إيش يفوتكم من ربكم عزّ وجلّ ؟ لو اطلعت قلوبكم على ذلك لتحسرتم وندمتم، انتبهوا.

(يا قوم) أنتم عن قريب موتى، ابكوا على أنفسكم قبل أن يبكي عليكم، لكم ذنوب مزدحمة على عاقبة مبهمة، قلوبكم مرضى بحبّ الدنيا والحرص عليها، داووها بالزهد والترك والإقبال على الحق عزّ وجلّ.

سلامة الدين رأس المال، والأعمال الصالحة هي الأرباح، ارتكوا الطلب لما يطغيكم، واقنعوا بما يكفيكم. العاقل لا يفرح بشيء حلاله حساب وحرامه عقاب، أكثركم قد نسوا العقاب والحساب.

(يا غلام) إذا حضر بين يديك شيء من الدنيا ورأيت قلبك يشمئز منه فاتركه، ولكن لا قلب لك، كلك نفس وطبع وهوى، اصحب أرباب القلوب حتى يصير لك قلب.

لا بد لك من شيخ حكيم عامل بحكم الله عزّ وجلّ، يهذبك ويعلمك وينصحك. يا من باع كل شيء بلا شيء واشترى لا شيء، قد اشتريت الدنيا بالآخرة وبعت الآخرة بالدنيا، أنت هوس في هوس، عدم في عدم، جهل في جهل، تأكل كما تأكل الأنعام من غير تفتيش ولا احتساب ولا سؤال، من غير نية من غير أمر من غير فعل. المؤمن يأكل مباح الشرع. والوليّ يؤمر بالأكل وينهي عنه من حيث قلبه، والبدل لا يهتم بشيء، بل يفعل الأشياء وهو في غيبته مع ربه عزّ وجلّ وفنائه فيه.

فالوليّ قائم مع الأمر، والبدل مسلوب الاختيار، وكل ذلك مع حفظ حدود الشرع. الفاني عنه وعن الخلق يحفظ حدود الشرع ثم يستصرخ في بحر القدرة، فأمواجه ترفعه تارة وتخفضه أخرى، وتقلبه على الساحل تارة وتوقعه في وسط اللجة أخرى، يصير كأصحاب الكهف الذين قال الله عزّ وجلّ في حقهم:

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾[١].

ما كان لهم عقل ولا تدبير ولا حس، كانوا في بيت اللطف والقرب مغمضين الأعين ظاهراً وباطناً، فهكذا هذا المقرّب قد غمض عيني قلبه عما سوى ربه عزّ وجل، فلا ينظر إلا له وبه، ولا يسمع إلا منه، اللهم افننا عما سواك، وأوجدنا بك.

و ﴿ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٢].

---

(١) سورة الكهف آية: ١٨

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس الثالث والعشرون

[في جلاء صدأ القلوب]

وقال رضي الله عنه بكره الجمعة بالمدرسة ثاني عشر ذى الحجة سنة خمس وأربعين وخمسمائة :

عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(إنّ هذه القلوب لتصدأ، وإنّ جلاءها قراءة القرآن وذكرُ الموت وحضور مجالس الذكر).

القلب يصدأ، فإن تداركه صاحبه بما وصف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وإلا انتقل إلى السواد، يسودّ لبعده عن النور، يسودّ لحبه الدنيا والتحويز عليها من غير ورع ، لأن من تمكن من قلبه حبّ الدنيا زال ورعه، فيجمعها من حلال وحرام، يزول تمييزه فى جمعه، يزول حياؤه من ربه عزّ وجلّ ومراقبته.

(يا قوم) اقبلوا من نبيكم واجلوا صدأ قلوبكم بالدواء الذى قد وصفه لكم، لو أن بأحدكم مرضا ووصف بعض الأطباء دواء له لما أهنأه العيش حتى يستعمله، راقبوا ربكم عزّ وجلّ فى خلواتكم وجلواتكم، اجعلوه نصب أعينكم حتى كأنكم ترونه، فإن لم تكونوا ترونه فهو يراكم.

من كان ذاكراً لله عزّ وجلّ بقلبه فهو الذاكر، ومن لم يذكره بقلبه فليس بذاكر. اللسان غلام القلب وتبع له. دوام على سماع المواعظ، فإن القلب إذا غاب عن المواعظ عمى. حقيقه التوبة تعظيم أمر الحق عزّ وجّلّ فى جميع الأحوال.

ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه: الخير كله فى كلمتين التعظيم لأمر الله عزّ وجلّ والشفقة على خلقه، كل من لا يعظم أمر الله عزّ وجلّ ولا يشفق على خلق الله فهو بعيد من الله.

أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام: ارحم حتى أرحمك إنى رحيم، من رحم رحمته وأدخلته جنتى، فياطوبى للرحماء، ضاع عمركم فى أكلوا وأكلنا، وشربوا وشربنا، ولبسوا ولبسنا، وجمعوا وجمعنا. من أراد الفلاح فليصبر نفسه عن المحرمات والشبهات والشهوات، يصبر على أداء أمر الله عزّ وجلّ والانتهاء عن نهيه وعلى الموافقه لقدره.

القوم صبروا مع الله عزّ وجلّ ولم يصبروا عنه، صبروا له وفيه، صبروا ليكونوا معه، طلبوا ليحصل لهم القرب منه، خرجوا من بيوت نفوسهم وأهويتهم وطباعهم واستصحبوا الشرع معهم، وساروا إلى ربهم عزّ وجلّ فاستقبلتهم الآفات والأهوال والمصائب والغموم والهموم والجوع والعطش والعرى والذل والمهانة، فلم يبالوا بها ولم يرجعوا عن سيرهم ولم يتغيروا عما هم عليه، وهم إلى قدام لا يفتر سيرهم، لا يزالون كذلك حتى يتحقق لهم بقاء القلب والقالب.

(يا قوم) اعملوا للقاء الحق عزّ وجلّ واستحيوا منه قبل لقائه. حياء المؤمن من الله عزّ وجلّ ثم من خلقه، إلا فيما يرجع إلى الدين وخرق حدود الشرع، فإنه لا يحل له أن يستحى، بل يتواقح في دين الله عزّ وجلّ ويقيم حدوده ويمتثل أمره عزّ وجلّ. ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾[1].

ومن صحت تبعيته للرسول صلى الله عليه وسلم ألبسه درعه وخوذة، وقلده بسيفه، ونحله من أدبه وشمائله وأخلاقه، وخلع عليه من خلعه، واشتد فرحه به كيف هو من أمته، ويشكر ربه عزّ وجلّ على ذلك، ثم يجعله نائباً له في أمته ودليلا وداعياً لهم إلى باب الحق عزّ وجلّ، كان هو الداعي والدليل، ولما قبضه الحق عزّ وجلّ أقام له من أمته من يخلفه فيهم.

وهو آحاد أفراد من كل ألف ألف إلى انقطاع النفس واحد، يدلون الخلق ويصبرون على أذاهم مع دوام النصح لهم، يتبسمون في وجوه المنافقين والفساق ويحتالون عليهم بكل حيلة حتى يخلصوهم مما هم فيه، ويحملوهم إلى باب ربهم عزّ وجلّ، ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه: لا يضحك في وجه الفاسق إلا العارف، يضحك في وجهه ويريه أنه ما يعرفه وهو يعلم بخراب بيت دينه وسواد وجه قلبه وكثرة غله وكدره، والفاسق والمنافق يظنان أنهما قد خفيا عليه ولم يعرفهما، لا ولا كرامة لهما، ما يخفيان عليه، يعرفهما بلمحه ونظرة وكلمة وحركته، يعرفهما عند ظاهره وباطنه.

ولا شك، ويلكم تظنون أنكم تخفون على الصديقين العارفين العاملين، إلى أي وقت تضيعون عمركم في لا شيء؟

اطلبوا من يدلكم على طريق الآخرة يا ضلالاً عنها، الله أكبر عليكم يا موتى

---

(١) سورة النور آية: ٢

القلوب، يا مشركين بالأسباب، يا عابدين أصنام حولهم وقواهم ومعايشهم ورؤوس أموالهم وسلاطين بلادهم وجهاتهم التي ينتهون اليها.

إنهم محجوبون عن الله عزّ وجلّ، كل من يرى الضرّ والنفع من غير الله عزّ وجلّ فليس بعبد له، وهو عبد من رأى ذلك منه، فهو اليوم في نار المقت والحجاب وغدا في نار جهنم، ما يسلم من نار الله عزّ وجلّ إلا المتقون الموحدون المخلصون التائبون.

توبوا بقلوبكم ثم بألسنتكم، التوبة قلب دولة، تقلب دولة نفسك وهواك وشيطانك وأقرانك السوء، إذا تبت قلبت سمعك وبصرك ولسانك وقلبك وجميع جوارحك، وتصفي طعامك وشرابك من كدر الحرام والشبهة، وتتورع في معيشتك وبيعك وشرائك، وتجعل كل همك مولاك عزّ وجلّ، تزيل العادة وتترك مكانها العبادة، تزيل المعصية وتترك مكانها الطاعة، ثم تتحقق في الحقيقة مع صحة الشريعة وشهادتها.

لأن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، فإذا تحقق لك هذا جاءك الفناء عن الأخلاق المذمومة عن رؤية سائر الخلق، فحينئذ يكون ظاهرك محفوظاً وباطنك بربك عزّ وجلّ منشغولا.

فإذا تم لك هذا: فلو جاءت إليك الدنيا بحذافيرها ومكنتك منها وتبعك الخلق بأجمعهم من تقدم ومن تأخر لم يضرك ذلك ولم يغيرك عن باب مولاك عزّ وجلّ، لأنك قائم معه مقبل عليه مشغول به ناظر إلى جلاله وجماله.

إذا نظرت إلى جلاله تفرقت، وإذا نظرت إلى جماله اجتمعت، تخاف عند رؤية الجلال، وترجو عند رؤية الجمال، تنمحي عند رؤية الجلال، وتثبت عند رؤية الجمال، فطوبى لمن ذاق هذا الطعام.

اللهم أطعمنا من طعام قربك، واسقنا من شراب أنسك.

و ﴿ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [١].

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس الرابع والعشرون

[في علم مشاركة الله في تدبيره]

وقال رضى الله عنه بكرة الأحد بالرباط رابع عشر ذى الحجة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

لا تشاركوا الحق عزّ وجلّ فى تدبيره وعلمه بنفوسكم وأهويتكم وطباعكم، واتقوه فيكم وفى غيركم. عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال: وافق الحق عزّ وجلّ فى الخلق ولا توافقهم فيه، انكسرمن انكسر وانجبر من انجبر، تعلموا موافقة الحق عزّ وجلّ من عباده الصالحين الموافقين.

العلم جعل للعمل لا لمجرد الحفظ وإيراده على الخلق، تعلم واعمل، ثم علم غيرك، إذا علمت ثم عملت تكلم العلم عنك، وإن سكت تكلم بلسان العمل أكثر مما يتكلم بلسان العلم، ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه: من لا ينفعك لحظة لا ينفعك وعظة، العامل بعلمه ينتفع بعلمه هو وغيره.

لأن الله عزّ وجلّ ينطقنى بما يشاء على قدر أحوال الحضور عندى، وإلا فبينى وبينكم عداوة، عرضي لكم مبذول ومالي وليس لي شيء وإن كان لي شيء فما أمنعكم منه، ما بيني وبينكم سوى النصيحة، أنصحكم لله عزّ وجلّ لا لي، وافق القدر وإلا يقصمك، امش معه على اختياره وإلا نحرك، كن باركاً بين يديه إلى أن يرحمك ويردفك خلفه. بدية أمر القوم الكسب يأخذون من الدنيا على قدر الحاجة بيد الشرع.

حتى إذا عجزت مبانيهم عن الكسب وجاء التوكل فختم على قلوبهم وقيد جوارحهم، جاءتهم أقسامهم من الدنيا مهنأة مكفاه من غير تعب ولا عناء، الواحد من المقربين فى الآخرة يتلبس بنعيم الجنة على غير إرادة منه، بل يوافق الحق عزّ وجلّ فى ذلك كما وافقه فى التلبس بالأقسام التى كانت فى الدنيا، يوفيهم أقسامهم دنيا وآخرة لأنه ليس بظلام للعبيد.

(يا غلام) على قدر همتك تعطى، ابعد عما سوى الحق عزّ وجلّ بقلبك حتى تقرب منه، مت عنك وعن الخلق وقد رفعت الحجب بينك وبين ربك عزّ وجلّ، قال:

كيف أموت؟ مت عن متابعة نفسك وهواك وطبعك وعاداتك، وعن متابعة الخلق وأسبابهم، وأيس منهم.

واترك الشرك بهم، وعن طلب شيء سوى الحق عزّ وجلّ، اجعل أعمالك كلها لوجه الله عزّ وجلّ لا لطلب نعمه، ارض بتدبيره وقضائه وأفعاله، فإذا فعلت هذا فقد مت عنك وحييت به، يصير قلبك مسكنه، يقلبه كيف يشاء، يصير فى كعبة قربه، متعلقا بأستارها، ذاكراً له، ناسياً لما سواه. مفتاح الجنة قول لا إله إلاالله محمد رسول الله اليوم، وغدا بفنائك عنك وعن غيرك وعن كل ما سواه مع حفظ حدود الشرع. قرب الحق عزّ وجلّ جنة القوم، وبعدهم عنه نارهم، لا يرجون إلا هذه الجنة ولا يخافون إلا هذه النار، أى غل للنار عندهم حتى يخافوا منها ؟

هى تستغيث من المؤمن وتهرب منه، فكيف لا تهرب من المحبين المخلصين ؟ ما أحسن حال المؤمن فى الدنيا والآخرة، هو فى الدنيا لا على أى حال كان فيها بعد أن يعلم أن ربه عزّ وجلّ راض عنه، أينما سقط لقط قسمه ورضي به، أينما توجه نظر بنور الله عزّ وجلّ، لا ظلمة عنده، كل إشاراته إليه، كل اعتماده عليه، كل توكله عليه. احذروا من أذية المؤمن فإنها سم فى جسد مؤذيه، وسبب لفقره وعقوبته.

يا جاهلا بالله عزّ وجلّ وبخواصه، لا تذق طعم غيبتهم فإنها سم قاتل، إياك ثم إياك، إياك ثم إياك أن تتعرض لهم بسوء، فإن لهم من يغار عليهم. يا منافقاً قد علق شك النفاق فى قلبك، وقد ملك ظاهرك وباطنك، استعمل التوحيد والإخلاص فى جميع الأحوال وقد شفيت وذهب شكك ما أكثر ما تخرقون حدود الشرع ، وتمزقون دروع تقواكم ، وتنسجون ثياب توحيدكم، وتطفئون نور إيمانكم، وتتبغضون إلى ربكم عزّ وجلّ فى جميع أفعالكم وأحوالكم.

إذا أفلح الواحد منكم وعمل طاعة فهى مشوبة بالعجب ورؤية الخلق وطلب الحمد منهم عليها، من أراد منكم أن يعبد الله عزّ وجلّ فليعتزل عن الخلق، فإن رؤيتهم للأعمال مبطلة لها، عن النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(عليكم بالعزلة فإنها عبادة، وإنها دأب الصالحين من قبلكم).

عليكم بالإيمان، ثم بالإيقان، ثم الفناء والوجود بالله عزّ وجلّ، لا بك ولا بغيرك، مع حفظ الحدود، مع إرضاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، مع رضا المتلو المسموع

المقروء، لا كرامة لمن يقول غير هذا، هذا الذي في المصاحف والألواح كلام الله عزّ وجلّ، طرف بيده وطرف بأيدينا، عليك بالله عزّ وجلّ والانقطاع إليه والتعلق به، فإنه يكفيك مؤنة الدنيا والآخرة.

ويحفظك في الحياة والممات، ويذبّ عنك في جميع الأحوال، عليك بهذا السواد عن البياض، اخدمه يخدمك، يأخذ بيد قلبك، ويوقفه بين يدي ربه عزّ وجلّ العمل به يريش جناحي قلبك فيطير بهما إلى ربه عزّ وجلّ. يا من لبس الصوف وألبس الصوف لسرك ثم لقلبك، ثم لنفسك ثم لبدنك، بداية الزهد من هناك تكون لا من الظاهر إلى الباطن. إذا صفا السرّ تعدى الصفاء إلى القلب والنفس والجوارح والمأكول والملبوس، وتعدى إلى جميع أحوالك، أول ما يعمر داخل الدار.

فإذا كملت عمارتها أخرج إلى عمارة الباب. لا كان ظاهر بلا باطن، لا كان الخلق بلا خالق، لا كان باب بلا دار، لا كان قفل على خربة.

(يا غلام) دنيا بلا آخرة، يا خلقاً بلا خالق، جميع ما أنت فيه لا ينفعك يوم القيامة، بل يضرك، هذا المتاع الذي معك ما يبتاع منك، هناك متاعك الرياء والنفاق والمعاصي، وهي شيء لا ينفعق في سوق الآخرة. صحح الإسلام ثم تناول، الإسلام مشتق من الاستسلام، وإن تسلم أمر الله عزّ وجلّ إلى الله تسلم نفسك إليه وتعتمد عليه وتنسى حولك وقوتك، وما في يديك من الدنيا تنفقه في طاعته.

تعمل بالطاعات وتسلمها إليه وتنساها، كل عملك جوز فارغ، كل عمل لا إخلاص فيه فهو قشر لا لبّ فيه، خشبة ممدودة جسد بلا روح، صورة بلا معنى، وهذا عمل المنافقين.

(يا غلام) الخلق كلهم آلة، والله عزّ وجلّ الصانع لها والمتصرّف فيها، فمن رأى هذا تخلص من التقيد بالآلة ورأى المتصرّف فيها، الوقوف مع الخلق بغضة وكلفة وكرب، والوقوف مع الحق عزّ وجلّ فرحة وطيبة ونعمة.

أنت منقطع عن جادة من تقدم، لا نسب بينك وبينهم، قد قنعت برأيك ولم تجعل لك أستاذاً يعرّفك ويؤدبك، يا منقطعا عن الطريق، يا من تلاعب به شياطين الإنس والجن، يا عبد النفس والهوى الطبع.

(ويحك) قد خرست، استغث إلى الحق عزّ وجلّ، ارجع إليه لأقدام الندم والاعتذار

حتى يخلصك من أيدي أعدائك، وينجيك من لجة بحر هلاكك، تفكر في عاقبة ما أنت في وقد سهل عليك تركه، أنت مستظل بشجرة الغفلة، اخرج من ظلها وقد رأيت ضوء الشمس وعرفت الطريق، شجرة الغفلة تربى بماء الجهل، وشجرة اليقظة والمعرفة تربى بماء الفكر، وشجرة التوبة تربى بماء الندامة، وشجرة المحبة تربى بماء الموافقة.

(يا غلام) قد كان لك بعض العذر وأنت صبيّ وشاب إلى الآن، قد قاربت الأربعين أو قد جاوزتها وأنت تلعب بما يلعب الصغار، احذر من مخالطة الجهال والخلوة بالنساء والصبيان.

اصحب الشيوخ المتقين، واهرب من الشباب الجاهلين، قم ناحية عن القوم،فمن جاء منهم إليك فكن به كالطبيب لهم، كن للخلق كالأب الشفيق على أولاده، أكثر من طاعة الله عزّ وجلّ، فإن طاعته ذكره.

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(من أطاع اللهَ عزّ وجلّ فقد ذكرهُ وإن قلّت صلاتهُ وصيامهُ وقراءتهُ القرآن، ومَن عصاهُ فقد نسيهُ وإن كثرت صلاتهُ وصيامهُ وقراءتهُ القرآن).

المؤمن مطيع لربه عزّ وجلّ موافق له، صابر معه، يقف عند حظوظه وكلمه وأكله ولبسه وجميع تصرفاته. والمنافق لا يبالي بهذه الأشياء في جميع أحواله.

(يا غلام) تفكر في أمرك وحاقق نفسك ما ليس فيك، ما أنت صادق ولا صديق، ولا محب ولا موافق، ولا راض ولا عارف، قد ادّعيت المعرفة بالله عزّ وجلّ، قل لي ما علامة معرفته؟

إيش ترى في قلبك من الحكم والأنوار؟ ما علامة أولياء الله عزّ وجلّ وأبدال أنبيائه، تظن أن كل من ادّعى شيئاً سلم إليه ولا يطالب بالبينة؟ ولا يحك ديناره على المحك؟ من جملة صفات العارف لله عزّ وجلّ أنه يصبر على الآفات، بجميع أقضية الله عزّ وجلّ وأقداره في جميع الأحوال، في نفسه وأهله وسائر الخلق.

(يا غلام) حبّ الحق عزّ وجلّ وحبّ غيره لا يجتمعان في قلب واحد، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾[1].

---

(١) سورة الأحزاب آية: ٤

الدنيا والآخرة لا يجتمعان، والخالق والخلق لا يجتمعان، اترك الأشياء الفانية حتى يحصل لك شيء لا يفنى، ابذل نفسك ومالك حتى تحصل لك الجنة، قال الله عزّ وجل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾(١)

ثم ابذل من قلبك الزهد فيما سواه حتى يحصل لك القرب منه، وتكون في صحبته دنيا وآخرة. يا محب الحق عزّ وجلّ در مع قدره كيفما دار، وطهر قلبك الذي هو مسكن قرب الحق عزّ وجلّ، اكنسه عما سواه، واقعد على بابه بسيف التوحيد والاخلاص والصدق، ولا تفتحه لأحد غيره، ولا تشغل زاوية من زوايا قلبك بغيره.

يا لاعابين ما عندي لعب، يا قشور سوى اللب، عندي إخلاص بلا نفاق، وصدق بلا كذب. الحق عزّ وجلّ يريد التقوى والإخلاص من قلوبكم، ما ينظر الى ظاهر أعمالكم، قال الله عزّ وجل:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾(٢).

يا بني آدم: كل ما في الدنيا والآخرة مخلوق لكم، فأين شكركم وأين تقواكم وإشارتكم اليه وأخدامكم؟ لا تعيبوا وتعملوا أعمالاً بلا أرواح، الأعمال لها أرواح وهي الإخلاص.

---

(١) سورة التوبة آية: ١١١

(٢) سورة الحج آية: ٣٧

المجلس الخامس والعشرون

[في الزهد في الدنيا]

وقال رضي الله عنه في تاسع عشر ذي الحجة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

عن عيسى عليه الصلاة السلام أنه كان إذا شمّ رائحة طيبة سدّ أنفه وقال: هذا من الدنيا، هذا حجة عليكم. يا مدعين الزهد بأقوالكم وافعالكم، قد تلبستم بثياب الزهاد وبواطنكم ملأى رغبة وحسرة على الدنيا، لو خلعتم هذه الثياب وأظهرتم الرغبة التي في قلوبكم؟

لقد كان يكون أحبّ إليكم وأبعد لكم من النفاق. الصادق في زهده تجيء إليه أقسامه يتناولها فلبس ظاهره بها وقلبه مملوء من الزهد فيها وفي غيرها، ولهذا نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان أزهد من عيسى عليه الصلاة السلام ومن غيره من الأنبياء عليهم السلام، غير أنه قال:

(حُبِّبَ إليّ من دُنياكُم ثلاث: الطيب، والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة).

أحبّ ذلك مع زهده فيه وفي غيره، لأن ذلك كان من قسمه، قد سبق به علم ربه عزّ وجلّ، فكان يتناوله امتثالاً للأمر، وامتثال الأمر طاعة، فكل من يتناول أقسامه على هذه الصفة فهو في طاعة وإن كان متلبساً بالدنيا كلها. يا زهاد على قدم الجهل، اسمعوا وصدقوا ولا تكذبوا، تعلموا هذا حتى لا تردوا على القدر بجهلكم.

كلّ جاهل بالعلم مستغن برأيه، قابل كلام نفسه وهواه وشيطانه، فهو عبد إبليس تابع له قد جعله شيخه. يا جهالاً ويا منافقين، ما أظلم قلوبكم، وما أنتن روائحكم، وما أكثر لقلقة ألسنتكم، توبوا من جميع ما أنتم فيه، وارتكوا الطعن في الله عزّ وجلّ وفي أوليائه الذين يحبهم ويحبونه، ولا تعترضوا عليهم في تناول الأقسام فإنهم متناولون بالأمر لا بالهوى، عندهم شدة في حبهم لله عزّ وجلّ والشوق إليه والزهد فيما سواه، وإعراض الظاهر والباطن عن الكل، ولكن لهم أقسام قد سبق بها العلم لا بد لهم من تناولها، اشدّ البلاء عليهم قيامهم في الدنيا، وبقائهم فيها، وتلبسهم بأقسامهم ورؤيتهم للمكذبين لله عزّ وجلّ ولهم.

(يا غلام) اهجر الكلام عن الخلق ما دمت قائماً مع نفسك وهواك، مت عن

الكلام، فإن الحق عزّ وجلّ إذا أرادك لأمر له، إذا شاء أنشرك وأهلك وأثبتك، يكون هو المظهر لا أنت، سلّم نفسك وكلامك وجميع أحوالك إلى قدره واشتغل بالعمل له. كن عملاً بلا كلام، إخلاصاً بلا رياء، توحيداً بلا شرك، خملاً بلا ذكر، خلوة بلا جلوة، باطناً بلا ظاهر، واشتغل بالباطن بإبطال النية. أنت تخاطب الحق عزّ وجلّ وتشير إليه بقولك:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾(١).

هذا خطاب لحاضر إياك عندي، يا عالماً بي قريباً مني، يا ذاهداً عليّ، خاطبوه في صلاتكم وغيرها بهذه النية على هذه الصفة، ولهذا قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم.

(اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

(يا غلام) صفّ قلبك بأكل الحلال وقد عرفت ربك عزّ وجلّ، صفّ لقمتك وخرقتك وقلبك وقد صرت صافياً، التصوّف مشتق من الصفاء يا من لبس الصوف، الصوفي الصادق في تصوّفه يصفو قلبه عما سوى مولاه عزّ وجلّ، وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخرق وتصفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسليح والتهليل.

وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عزّ وجلّ، والزهد في الدنيا، وغخراج الخلق من القلب، وتجرّده عما سوى مولاه عزّ وجلّ.

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال: قلت في بعض الليالي: إلهي لا تمنعني ما ينفعني ولا يضرك، وكرّرت ذلك ثم نمت، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي: وأنت أيضاً لا تمتنع من عمل ما ينفعك، وامتنع من عمل ما يضرك، صححوا أنسابكم من نبيكم صلى الله تعالى عليه وسلم، من صحت تبعيته له فقد صح نسبه، وأما بقولك أنا من أمته من غير متابعة لا ينفعك، إذا اتبعتموه في أقواله وأفعاله كنتم معه في صحبته في دار الآخرة، أما سمعتم قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾(٢).

---

(١) سورة الفاتحة آية: ٥

(٢) سورة الحشر آية: ٧

امتثلوا ما أمركم وانتهوا عما نهاكم، وقد قربتم من ربكم عزّ وجلّ في الدنيا بقلوبكم، وفي الآخرة بنفوسكم وأجسادكم . يا زهادا ماتحسنون تزهدون، تزهدون بأنفسكم وأهويتكم وتستقلون برأيكم، اتبعوا واصحبوا المشايخ العارفين بالله عزّ وجلّ، العالمين العاملين، المقبلين على الخلق بلسان النصيحة وزوال الطمع، من إعراض قلوبكم عنهم وإقبالها على الحق عزّ وجلّ، هم عليه مقبلون وعن غيره معرضون .

(يا غلام) ارجع إلى ربك بقلبك قبل أن يقعد خلفك، قد قنعت من أحوال الصالحين بالكلام فيها، والتمنى لها كالقابض على الماء يفتح يده فلا يرى فيها شيئاً .

(ويحك) التمني وادي الحمق، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

(إياكم والتمنى فإنه وادي الحمق).

تعمل أعمال أهل الشر وتتمنى درجات أهل الخير، من غلب رجاؤه خوفه تزندق، ومن غلب خوفه رجاءه قنط، والسلامة فى اعتدالهما، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا).

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال: رأيت سفيان الثوري رحمة الله عليه بعد موته فى المنام فقلت له: ما فعل الله عزّ وجلّ بك ؟

فقال: وضعت إحدى قدميّ على الصراط والأخرى فى الجنة، سلام الله عليه، فلقد كان فقيهاً زاهداً ورعاً تعلم العلم وعمل به، أعطاه حقه بالعمل وأعطى العمل حقه بالإخلاص فيه، وأعطاه الحق عزّ وجلّ رضاه بالقصد إليه، وأعطى النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم رضاه بالمتابعة له، رحمة الله عليه وعلى جميع الصالحين وعلينا معهم.

كل من لم يتبع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ويأخذ شريعته فى يده والكتاب المنزل عليه فى اليد الأخرى ولايصل فى طريقه إلى الله عزّ وجلّ يهلك ويهلك، يضل ويضل، هما دليلان إلى الحق عزّ وجلّ، القرآن دليلك إلى الحق عزّ وجلّ، والسنة دليلك إلى الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم:

اللهم باعد بيننا وبين نفوسنا.

و ﴿ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (١).

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

المجلس السادس والعشرون

[في عدم الشكوى إلى الخلق]

وقال رضي الله عنه بالرباط عشرين ذي الحجة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(من كنوز العرش كتمان المصائب).

يا من يشكو إلى الخلق مصائبه، إيش ينفعك شكواك إلى الخلق؟ لا ينفعونك ولا يضرونك.

وإذا اعتمدت عليهم وأشركت فى باب الحق عزّ وجلّ يبعدونك، وفى سخطه يوقعونك، وعنه يحجبونك، أنت يا جاهل تدّعى العلم، من جملة جهلك طلبك الدنيا من غير ربها عزّ وجلّ، تطلب الخلاص من الشدائد بشكواك الى الخلق.

(ويحك) إذا كان هذا الكلب الشره يتعلم حفظ الصيد ويترك شرهه وطبعه، وهذا الطائر أيضا بالتعليم يخالف طبعه ويترك ما كان عليه من أكل الصيود التي تجعل له، فنفسك أولى بالتعليم، علّمها وفهّمها حتى لا تأكل دينك وتمزقك وتخون فى أمانات الحق عزّ وجلّ المودعه عندها.

دين المؤمن عنده لحمه ودمه، لا تصحبها قبل تعليمك لها، إذا تعلمت وفهمت واطمأنت حينئذ استصحبها أينما توجهت، لا تفارقها فى جميع الأحوال، إذا اطمأنت صارت حليمه عالمه راضيه بما يأتيها القدر به من الأقسام، لا تفرّق بين لبّ الحنطة وخبز الشعير، ترتفع فيما للحظوظ تصير، لأن لا تأكل أحب إليها من أن تأكل، مساعدة لك على فعل الخير والطاعة والايثار، ينتقل طبعها، تصير سخية كريمة زاهدة فى الدنيا راغبة فى الآخرة، ثم إذا زهدت فى الآخرة وطلبت المولى طلبته معك وسارت مع قلبك إلى بابه.

فحينئذ تجيئها السابقة تقول: كل يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب. المريض العاقل لا يأكل إلا من يد الطبيب، أو بأمره مع دوام أدبه والقبول منه، وترك الشره فى حضوره وغيبته، يا شره يا مستعجل، طعام قد خلق لك، من يقدر يأكله غيرك، لباس ومسكن ومركوب ومنكوح قد خلق لك، من يقدر يتناوله ويلبسه غيرك.

إيش هذا الجهل؟ ما لك ثبات ولا عقل ولا إيمان ولا تصديق بوعد الله عزّ وجل. يا زو كازى إذا عملت مع رجل كريم فتأدب ولا تطلب الثروة واللأجرة، فهما يحصلان لك من غير طلب وسوء أدب، إذا رآك قد تركت الشره والطلب وسوء الأدب ميزك على أصحابك الذين يعملون معك، ورفعك وأقعدك مشرفاً عليهم. الحق عزّ وجلّ لا يصحب مع الاعتراض والمنازعة.

وإنما يصحب مع حسن الأدب وسيكون الظاهر والباطن والموافقة الدائمة، كل من وافق القدر دامت له الصحبة مع الحق عزّ وجلّ، العارف بالله العالم به قائم معه لا مع غيره، موافق له لا لغيره، حيّ به ميت عن غيره.

(يا غلام) إذا تكلمت فتكلم بنية صالحه، وإذا سكت فاسكت بنية صالحة، كل من لم يقدم النية قبل العمل فلا عمل له، أنت إن تكلمت أو سكت فأنت فى ذنب، لأنك لا تصحح نيتك. سكوتك وكلامك بغير السنة، عند تغير الأحوال وضيقة الأرزاق تتغيرون عليه لأجل لقمة، وعند كسر عرض تكفرون، كل نعمة لأجل زوال فرد نعمة، كأنكم جبارون تتحكمون عليه، افعل ولاتفعل. ولم فعلت؟

وكان ينبغي أن يكون كذا هذا بعد ومقت وطرد. من أنت يا ابن آدم؟ ؟ أنت مخلوق من ماء مهين، تواضع لربك عزّ وجلّ وذلّ له، إذا لم يكن تقوى فلست بكريم عند الله عزّ وجلّ ولا عند عباده الصالحين، الدنيا حكمة والآخرة كلها قدرة.

(يا قوم) عليكم رقباء، أنتم فى توكيل الحق عزّ وجلّ وما عندكم خبر، كونوا عقلاء، افتحو أعين قلوبكم، إذا حضر أحدكم فى بيته جماعة فلا يكن مبتدئا بالكلام، بل يكون كلامه جواباً، ولا يسأل عما لا يعنيه. التوحيد فرض، وطلب الحلال فرض، وطلب ما لابد منه من العلم فرض، والإخلاص فى العمل فرض، وترك العوض على العمل فرض. اهرب من الفاسقين والمنافقين، والتحق بالصالحين الصديقين.

إذا أشكل عليك الأمر ولم تفرق بين الصالح والمنافق فقم من الليل وصلّ ركعتين ثم قل يا ربّ دلنى على الصالحين من خلقك، دلني على من يدلني عليك، ويطعمنى من طعامك ويسقيني من شرابك، ويكحل عين قربي بنور قربك ويخبرني بما رأى عياناً لا تقليداً. القوم أكلوا من طعام فضل الله عزّ وجلّ، وشربوا من شراب أنسه وشاهدوا باب قربه، لم يقتنعوا بالخبر بل جاهدوا وصابروا وسافروا عنهم وعن الخلق

حتى صار الخير عندهم عياناً.

لما وصلوا إلى ربهم أدبهم، وهذبهم وعلمهم الحكم والعلوم، أطلعهم على ملكه وعرّفهم أن ليس في السماء والأرض غيره، ولا معطي غيره، ولا مانع غيره، ولا محرك ولا مسكن غيره، ولا مقدر وقاض غيره، ولا معزّ ولا مذلّ غيره، ولا مسلط ولا مسخر غيره، ولا قاهرغيره، يريهم ما عنده فيرونه بأعين قلوبهم وأسرارهم فلا يبقى للدنيا وملكها عندهم قدر ولا وزن.

اللهم أرنا كما أريتهم، مع العفو والعافية:

و ﴿ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [1].

(يا قوم) توبوا من ترككم التقوى، التقوى دواء وتركها داء، توبوا فإن التوبة دواء والذنوب داء، قال النبى صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه:

(ألا أعلمكم ما دواؤكم وما داؤكم؟ فقالوا: بلى يارسول الله، فقال: داؤكم الذنوب ودواؤكم التوبة).

التوبة عرش الإيمان، والمواظبة على مجالس الذكر وطاعة الحق عزّ وجلّ شفاء لها، توبوا بلسان الإيمان وقد جائكم الفلاح.

تكلموا بلسان التوحيد والإخلاص وقد جاءكم الفلاح، اجعلوا الإيمان سلاحكم عند مجيء الآفات من ربكم عزّ وجلّ، وكان يقول رضي الله عنه في ابتداء كل مجلس:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [2].

يكررها ثلاث مرات، ويسكت عقب كل مرة لحظة ثم يقول: عدد خلقه، وزنة عرشه، ورضاء نفسه، ومداد كلماته، ومنتهى علمه، وجميع ما شاء وخلق وذرأ وبرأ، عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم، الملك القدوس العزيز الحكيم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت، وهو حيّ لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وإليه المصير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق.

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢٠١.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٢

﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[1].

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، واحفظ الإمام والأمه، والراعي والرعية، ألف بين قلوبهم في الخيرات، ادفع شرّ بعضهم عن بعض. اللهم وأنت العالم بسرائرنا فأصلحها، وأنت العالم بحوائجنا فاقضها، وأنت العالم بذنوبنا فاغفرها، وأنت العالم بعيوبنا فاسترها، لا ترانا حيث نهيتنا، لا تفقدنا حيث أمرتنا، لا تنسنا ذكرك ولا تؤمنا مكرك، لا تحوجنا إلى غيرك، لا تجعلنا من الغافلين.

اللهم ألهمنا رشدنا، وأعذنا من شرّ أنفسنا، اشغلنا بك عمن سوك، اقطع عنا كل قاطع يقطعنا عنك، ألهمنا ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ثم يلتفت عن يمينه ويقول: لا إله إلا الله، ما شاء الله، لا حول ولا قوة لنا إلا بالله العليّ العظيم، ثم يقول تلقاء وجهه هكذا، ثم يلتفت عن يساره ويقول هكذا، ثم يقول: لاتبد أخبارنا، ولا تهتك أستارنا، ولا تؤاخذنا بسوء أعمالنا، لاتحينا في غفلة، ولا تأخذنا على غرة.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[2].

ثم يشرع في الكلام بما يفتح الله على لسانه من فتوح الغيب من غير تقرير ولا تعبية بكلام، وفي النادر من المجالس يكون قد حفظ خبراً عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو كلمة حكمة من كلام الحكماء من جملة ما يقرأ عليه، فيبدأ بذكر ذلك تبركاً به، ويشرع ويبني الكلام عليه.

---

(١) سورة التوبة آية: ٣٣
(٢) سورة البقرة آية: ٢٨٦

المجلس السابع والعشرون

[في النهي عن الكذب]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة الجمعة في المدرسة سابع جمادي الآخرة سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

كن عاقلاً ولا تكذب، تقول أنا خائف من الله عزّ وجلّ وأنت تخاف من غيره، لا تخف جنياً ولا إنسياً ولا ملكاً، ولا تخف شيئا من الحيوانات الناطقة والصامتة.

لا تخف من عذاب الدنيا، ولا تخف من عذاب الآخرة، وإنما تخاف من المعذب بالعذاب. العاقل لايخاف لومه لائم في جانب الله عزّ وجلّ، هو أصمّ عن كلام غير الله عزّ وجلّ. الخلق كلهم عنده عجزة مرضى فقراء، هذا وأمثاله هم العلماء الذين ينتفع بعلمهم.

العلماء بالشرع وحقائق الإسلام هم أطباء الدين، الجابرون لكسره، يا من قد انكسر دينه تقدم إليهم حتى يجبروا كسرك. الذي أنزل الداء هو الذي ينزل الدواء، هو أعرف بالمصلحة من غيره، لاتتهم ربك عزّ وجلّ في فعله، نفسك أولى بالتهم واللوم من غيرها.

قل لها: العطاء لمن أطاع والعصا لمن عصى. إذا أراد الله عزّ وجلّ بعبد خيرا سلبه، فإن الصبر رفعه وطيبه وأعطاه وأقناه.

اللهم إنا نسألك القرب منك بلا بلاء، الطف بنا في قضائك وقدرك، اكفنا شر الأشرار وكيد الفجار، احفظنا كيف شئت وكما شئت، نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، ونسألك التوفيق للأعمال الصالحة والإخلاص في الأعمال آمين.

دخل رجل على أبي يزيد البسطامي رحمة الله عليه، فبقي ينظر يميناً وشمالاً فقال أبو يزيد له: مالك؟ قال: أريد موضعاً نظيفاً أصلي به، فقال له: طهّر قلبك وصلّ حيث شئت. لا يعرف الرياء إلا المخلصون، كانوا فيه وتخلصوا منه، هو عقبة في طريق القوم لا بد لهم من العبور عليها.

الرياء والعجب والنفاق من جملة سهام الشيطان التي يرمي بها إلى القلوب. اقبلوا من المشايخ وتعلموا منهم السير في الطريق الموصل إلى الحق عزّ وجلّ، فإنه طريق قد

سلكوه، سلوهم عن آفات النفوس والأهوية والطباع فإنهم قد قاسوا آفاتهم، وعرفوا غوائلهم ومجانيهم، بقوا في ذلك زماناً، فبعدكم وكم حتى غلبوا عليه وغلبوهم وملوكهم. لا تغترّ بنفخ الشيطان فيك، ولا تنهزم من سهام النفس فإنها ترميك بسهامه، فإنه لا يقدر عليك إلا بطريقها، شيطان الجن لا يقدر عليك إلا بشيطان الإنس، وهي النفس والأقران السوء، استغث بالله عزّ وجلّ.

واستعن به على هؤلاء الأعداء فإنه يغيثك، فإذا وجدته ورأيت ما عنده وحظيت به ارجع من عنده إلى العيال والخلق وخذهم إليه، قل لهم ائتوني بأهلكم أجمعين. يوسف عليه السلام لما ظفر بالملك والملك قال لأهله:

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(1).

المحروم من حرم الحق عزّ وجلّ، وفاته القرب منه دنيا وآخرة، قال الله عزّ وجلّ في بعض كتبه:

(يا ابن آدم إن فتك فاتك كلُّ شيءٍ).

كيف لا يفوتك الحق عزّ وجلّ وأنت معرض عنه وعن المؤمنين من عباده، مؤذياً لهم بقولك وفعلك، معرضاً عنهم بظاهرك وباطنك.

عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(أذيّة المؤمن أعظم عند الله من نقض الكعبة والبيت المعمور خمس عشرة مرّة).

اسمع ويلك يا من لم يزل يؤذي فقراء الله عزّ وجلّ، وهم المؤمنون به، الصالحون له، العارفون به، المتوكلون عليه، ويلك أنت عن قريب ميت مسحوب مخرج من بيتك، ومالك الذي تفتخر به منهوب، لا ينفعك ولا يرد عنك.

---

(1) سورة يوسف آية: ٩٣

المجلس الثامن والعشرون

[في الحب في الله]

وقال رضي الله تعالى عنه بالرباط تاسع جمادي الآخرة من سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

عن النبى صلى الله عليه وسلم:

(أنه جاءَ إليه رَجلٌ فقال له: إني أحبكَ في الله عزّ وَجل، فقال له: اتخذ البلاءَ جلباباً، اتخذ الفقرَ جلبابا).

لأنك تريد تتصف بصفتي، تتصف بي، لأن من شرط المحبة الموافقة، أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما صدق فى محبة الرسول صلى الله عليه وسلم أنفق عليه جميع ماله واتصف بصفته وشاركه فى الفقر حتى تخلل بالعباء، وافقه ظاهراً وباطناً سراً وعلانية، وأنت يا كذاب تدعي محبة الصالحين وتخبئ عنهم دنانيرك ودراهمك، وتريد القرب منهم والمصاحبة لهم، كن عاقلاً، هذه محبة كاذبة، المحب لا يخبئ عن محبوبه شيئاً، ويؤثره على كل شيء، كان الفقر ملازما للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم لا يفارقه، ولهذا قال:

(الفقرُ اسرَع إلي مَن يُحبني من سَيلٍ الماء إلى مُنتهاه).

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: مازالت الدنيا علينا كدرة عسرة مادام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فينا، فلما قبض صبت الدنيا صباً. فشرط حب الرسول الفقر، وشرط حب الله عزّ وجلّ البلاء.

وعن بعضهم أنه قال: وكل البلاء بالولاء، كيلا يدعي محبة الله عزّ وجلّ مع كذبه ونفاقه وريائه، ارجع عن دعواك وكذبك، لا تخاطر برأسك، إن كنت جئت تصدق وإلا فلا تتبعنا، لا تتبهرج على الصبر في فإنه لا يقبل منك ويفضحك.

لا تتولع بالحية والسبع فإنهما يهلكانك، إن كنت حواء فتقدم إلى الحية، وإن كان لك قوة فتقدم إلى السبع، طريق الحق عزّ وجلّ يحتاج إلى الصدق ويحتاج إلى نور المعرفة، به شمس المعرفة طالعة فى قلب الصديقين لا تغيب ليلاً ولا نهاراً.

(يا غلام) أعرض عن المنافقين المتعرضين لمقت الله عزّ وجلّ، كن عاقلاً ولا

تقرب أكثر أهل الزمان فأنهم ذئاب عليهم ثياب، خذ مرآة الفكر وانظر فيها، واسأل الله عزّ وجلّ أن يبصرك بك وبهم، إني قد خبرت الخلق والخالق فوجدت الشرعند الخلق والخير عند الخالق. اللهم سلمنا من شرورهم، وارزقني خيرك دنيا وآخرة.

إني لا أريدكم لي وإنما أريدكم لكم، فى حبالكم أفتل، ما آخذ منكم شيئاً إلا لكم لا لي. عندي فيما يخصني غنى عما آخذه منكم، ما عندي إلا الكسب أو التوكل على الله عزّ وجلّ، لا أنتظر ما تأتوني به كما ينتظركم هذا المنافق المرائي المتوكل عليكم الناسي لربه عزّ وجلّ ، أنا محك أهل الأرض فكونوا عقلاء، ولا تتبهرجوا علي فإني أعرف جيدكم من رديئكم بتوفيق الله عزّ وجلّ وتأهيله لي، إن أردت الفلاح فكن سنداناً لقضيبي حتى أقرع دماغ نفسك وهواك وطبعك وشيطانك وأعدائك وأقرانك السوء.

استعينوا بربكم عزّ وجلّ على هؤلاء الأعداء، والمنصور من يصبر عليهم، والمخذول من وكل إليهم. الآفات كثيرة ومنزلها واحد، الأمراض كثيرة وطبيبها واحد. يامرضى النفوس سلموا نفوسكم إلى الطبيب، لا تتهموه فيما يفعل بكم فهو أرأف بكم منكم على نفوسكم، احرسوا بين يديه ولا تعارضوه، وقد رأيتم الخير كله فى الدنيا والآخرة، القوم فى سكوت كلي وخمود كلي ودهشة كلية.

.فإذا تم لهم ذلك وداموا عليه أنطقهم كما ينطق الجمادات يوم القيامة، لا ينطقون إلا إذا أنطقوا، لا يأخذون إلا إذا أعطوا، لا ينبسطون إلا إذا بسطوا، التحقت قلوبهم بقلوب الملائكة، قال الله عزّ وجلّ:

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾(١).

التحقوا بالملائكة وزادوا عليهم بالمنزلة، زادوا عليهم بالمعرفة بالله عزّ وجلّ والعلم به، والملائكة غلمانهم وأتباعهم، يستفيدون منهم لأن الحكم تصب فى قلوبهم صبا، قلوبهم محروسة من جميع الآفات، تأتي إلى جوارحهم ومبانيهم ونفوسهم.

أما قلوبهم فلا، إن أردت الوصول إلى منازلهم فعليك بتحقيق الإسلام، ثم ترك الذنوب ما ظهر منها وما بطن، ثم الورع الشافي، ثم الزهد فى مباح الدنيا وحلالها، ثم الأستغناء بفضل الله عزّ وجلّ، ثم الزهد في فضله والاستغناء بقربه.

---

(١) سورة التحريم آية: ٦

وإذا صح لك الاستغناء بقربه صب عليك فضله، وفتح عليك أبواب أقسامه باب لطفه ورحمته ومنته، قبض عليك الدنيا بسطها إلى نهاية، وهذا الآحاد أفراد من الأولياء والصديقين لعلمه لتقواهم فإنهم لا يشتغلون عنه بشيء.

وأما الغالب منهم فالدنيا عنه مقبوضة، لأنه يحب فراغهم له، ودخولهم عليه، وطلبهم منه، ولو أعطاهم الدنيا لعلهم كانوا يشتغلون بها عن خدمته ويقعدون معها، هذا هو الأغلب، وذلك نادر والنادر لا يتعلق عليه حكم، نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم من جملة من عرضت عليه الدنيا ولم يشتغل بها عن خدمته، لم يلتفت إلى الأقسام مع كمال الزهد والإعراض، عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فردّها وقال:

(ربّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني مع المساكين).

الزهد منة صالحة، وإلا فما يقدر أحد أن يزهد قسمه، المؤمن يستريح من ثقل الحرص لا يشره ولا يستعجل، زهد في الأشياء بقلبه وأعرض عنها بسرّه واشتغل بما أمر به، وعلم أن قسمه لا يفوته فلم يطلبه، ترك الأقسام تعدو خلفه وتذلّ وتسأله قبولها.

(يا غلام) تحتاج إلى إيمان يسيرك في طريق الحق عزّ وجلّ، وإلى إيقان يثبتك فيها، تحتاج في أول سلوكك في هذا الطريق إلى هميان، وفي آخره إلى إيمان، بخلاف طريق مكة.

بعضهم قال: طريق مكة يحتاج إلى إيمان وهميان، وهذه الطريق التي قد أشرت إليها تحتاج إلى هميان وإيمان، بداية ونهاية.

(عن سفيان الثوري) رحمة الله عليه أنه أول ما طلب العلم كان على وسطه هميان فيه خمسمائة دينار ينفق منه ويتعلم ويدق عليه بيده ويقول: لولاك لتمندلوا بنا، فلما حصل له العلم وعرف الحق عزّ وجلّ أنفق ما بقي معه على الفقراء في يوم واحد.

وقال: لو أن السماء حديد لا تمطر، والأرض صخر لا تنبت، واهتممت برزقي في الطلب إني كافر. عليك بالكسب والتعلق بالسبب إلى أن يقوى إيمانك، ثم انتقل من المسبب، عليهم السلام اكتسبوا واقترضوا وتعلقوا بالأسباب في أول أمرهم وفي الآخر توكلوا، جمعوا بين الكسب والتوكل بداية ونهاية، شريعة وحقيقة، يا محروم لا تخل من يدك الكسب في التوكل على ما في أيدي الناس وتكدى منهم فتكفر نعمة الأقدار

فيمقتك الله عزّ وجلّ ويبعدك، ترك الكسب والكدية من الناس عقوبة من الله عزّ وجلّ للعبد. سليمان عليه السلام لما أزال ملكه عاقبه بأشياء من جملتها الكدية من الناس، كان في أيام مملكته يكتسب ويأكل فلما ضيق الحق عزّ وجلّ عليه أخرجه من مملكته وضيق عليه طريق الأرزاق حتى أكدى من الناس.

وكان سبب ذلك عبادة امرأة في بيته تمثالاً أربعين يوماً، فبقي في العقوبة أربعين يوماً، يوم بيوم. القوم لا فرحة لغمهم، ولا وضع لحملهم، لا قرار لعيونهم، لا سلوة لمصابهم حتى يلقوا ربهم عزّ وجلّ. ولقاؤهم على ضربين:

لقاء في الدنيا لقلوبهم وأسراره وهو نادر.

ولقاء في الآخرة إذا لقوا ربهم عزّ وجلّ جاءهم الهنا والفرح، أما قبل هذا فمصابهم دائمة.

وقال رضي الله تعالى عنه بعد كلام النفس:

(يا غلام) امنعها الشهوات واللذات، وأطعمها طعاماً طاهراً لا يكون نجساً، الطاهر الحلال، والحرام النجس، ثم قال: غذها من الحلال حتى لا تبطر وتشمخ وتسيء الأدب، اللهم عرفنا بك حتى نعرفك آمين.

المجلس التاسع والعشرون

[في عدم التواضع لغني لأجل غناه]

وقال رضي الله تعالى عنه بالمدرسة حادي عشر جمادي الآخرة سنة خمس وأربعين وخمسمائة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(مَن تَرَعرَعَ لِغَنِيٍّ طلباً لما في يَدَيهِ ذهب ثلثا دينه).

اسمعوا يامنفقون، هذا لمن ترعرع للأغنياء، فكيف من صلى وصام وحج لهم وقبل أعتابهم، يامشركين بالله عزّ وجلّ، ما عندكم منه ولا من رسوله خبر.

أسلموا وتوبوا، وأخلصو في التوبه حتى يبرأ إيمانكم ويترعرع إيقانكم وينشو توحيدكم فتصعد فروعه إلى العرش:

(يا غلام) إذا تربى إيمانك وصعدت شجرته أغناك الحق عزّ وجلّ عنك وعن الخلق، يغنيك عن كسبك وعن اكتسابك، الحق عزّ وجلّ يشبع نفسك وقلبك وسرّك، يوقفك على بابه ويغني فقرك بذكره وقربه والأنس به.

ولا تبالي بمن أكل من الدنيا واشتغل بها، لا تبالي بمن هي في يده فتصير رؤيتك له رحمة وكلفه وظلمة، يا من يدّعي العلم ويطلب الدنيا من أبنائها ويذلّ لهم، قد أضلك الله على علم، ذهبت بركة علمك، ذهب لبه وبقي قشره.

وأنت يا من يدعى العبادة وقلبه يعبد الخلق ويخافهم ويرجوهم، ظاهر عبادتك لله عزّ وجلّ وباطنها للخلق، كل طلبك وهمك لما بأيديهم من الدرهم والدينار والحطام، ترجو حمدهم وثناءهم، وتخاف ذمهم وإعراضهم، تخاف منعهم وترجو عطائهم بكثرة تماديك وتخادعك ولين كلامك على أبوابهم.

(ويلك) أنت مشرك منافق مراء مداخل زنديق، ويلك، على من تتبهرج؟ على من؟

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝﴾[1].

ويلك تقف في الصلاة وتقول الله أكبر وأنت تكذب في قولك، الخلق في قلبك أكبر

---

(1) سورة غافر: الآية ١٩.

من الله عزّ وجل، تب الى الله عزّ وجل، ولا تعمل حسنة لغيره لا للدنيا ولا للآخرة، كن ممن يريد وجهه، أعط الربوبية حقها، لا تعمل للحمد والثناء، لا للعطاء ولا للمنع.

ويحك رزقك لا يزيد ولا ينقص، ما قد قضي عليك من الخير والشرّ لابد من مجيئه، فلا تشتغل بشيء قد فرغ منه واشتغل بطاعته، قلل حرصك وقصر أملك، واجعل الموت نصب عينيك وقد أفلحت، عليك بموافقة الشرع فى جميع أحوالك.

(يا قوم) اليس قد بقى عندكم من موافقة الشرع، قد تركتموه من أيدى ظواهركم وبواطنكم، وتبعتم نفوسكم وأهويتكم، واغتررتم بحلم الله عزّ وجلّ عنكم يوماً بعد يوم، يرفع العذاب والنكال عنكم وفى الآخرة ينزله عليكم من جميع جهاتكم، يأخذك ويبطش بك، ثم يجيئك الموت والنزول إلى القبر، فتلقى ضيقه وعذابه.

فتبقى في ذلك إلى يوم القيامة، ثم يعاد إليك نبشك وتحشر إلى العرض الأكبر، فتحاسب على الذرات وعلى جميع ما عملت في الساعات، تسأل عن القليل والكثير. أنت صنم بلا روح، جلد يابس بلا معنى ولا قوة، لا تصلح إلا للنار، عبادتك لا إخلاص فيها، فإذا لا روح فيها، لا تصلح أنت وعبادتك إلا للنار، ما تحتاج تتعب إن لم تخلص في الأعمال، ما يفيد منها شيء.

أنت من العاملة الناصبة، عاملة في الدنيا ناصبة في النار يوم القيامة، إلا أن تتوب وتعتذر قبل مجيء الموت، ارجع إلى الله عزّ وجلّ بتجديد الإسلام وحسن التوبة والإخلاص فيها قبل أن يجيء الموت فيغلق الباب في وجهك فلا تقدر على الدخول الى باب التوبة، ارجع إليه بأقدام قلبك حتى لا يغلق في وجهك باب فضله ويكلك إلى نفسك وحولك وقوتك ومالك، ولا يبارك لك في جميع ما أنت فيه.

(ويلك) ما تستحي منه عزّ وجلّ وقد جعلت دينارك ربك ودرهمك همك ونسيته بالكلية؟ عن قريب ترى خبرك.

(ويحك) اجعل دكانك ومالك لعيالك تكسب لهم بأمر الشرع ويكون قلبك متوكلا على الله عزّ وجلّ، اطلب رزقك ورزقهم منه لا من المال والدكان، فيجري رزقك ورزقهم على يديك، ويجعلك فضله وقربه والأنس به لقلبك، يغني عيالك عنك، ويغنيك به، يغنيهم بما يشاء.

ويقال لقلبك هذا لك وهذا لعيالك. كيف تصل إلى هذا المقال وأنت عمرك كله كشرك محجوب مطرود، لا تشبع من الدنيا وجمعها، أغلق باب قلبك وأيئس الكل من الدخول إليه، وأنزل فيه ذكرك الحق عزّ وجلّ حسب، وتب توبة في إثر توبة من أعمالك، وندامة في إثر ندامة من تجربك وسوء أدبك.

وأكثر البكاء على ما كان منك، وواس الفقراء بشيء من مالك لا تبخل به، فعن قريب تفارقه، المؤمن الموقن بالخلف في الدنيا والآخرة لا يكون بخيلاً.

عن عيسى عليه الصلاة والسلام أنه قال لإبليس: من أحبّ الخلق إليك؟ قال: مؤمن بخيل، قال: ومن أبغضهم إليك؟ قال: فاسق كريم، ثم قال له: لم ذلك؟

قال: لأني أرجو المؤمن البخيل أن يوقعه بخله في المعصية، وأخاف من الفاسق الكريم أن تمحى سيئاته بكرمه. اشتغل بالدنيا للدنيا. الشرع إنما شرع الكسب ليستعان به على طاعة الحق عزّ وجلّ، أما أنت إذا اكتسبت استعنت به على المعصية، وتركت الصلاة وفعل الخير ولم تخرج الزكاة، فأنت في معصية لا في طاعة.

يصير كسبك كقطع الطريق. عن قريب يجيء الموت، فيفرج به المؤمن، ويغتمّ له الكافر والمنافق. عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(إذا مات المؤمن يتمنّى أنّه ما كان في الدّنيا ولا ساعةً لما يرى من كرامة الله عزّ وجلّ له).

أين التائب الثابت على توبته؟ أين المستحي من ربه عزّ وجلّ المراقب له في جميع الأحوال؟

أين المتعفف عن المحارم في خلوته وجلوته؟ أين الغاض لبصر قلبه وقالبه؟ عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(إنّ العينين ليزنيان، وزناهما النّظرُ إلى المحرّمات).

كم تزني عينك بالنظر إلى المحر من النساء والصبيان، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ:

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾[1].

---

(١) سورة النور: آية ٣٠.

يا فقير اصبر على فقرك فإن فقر الدنيا ينقطع. عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال لعائشة رضي الله تعالى عنها:

(يا عائشة تجرّعي مرارة الدّنيا لنعيم الآخرة).

ما تدري ما اسمك مع القوم، شقيّ أم سعيد؟ معلوم أن هذا في علم الله عزّ وجلّ وسابقته، لكن لا تترك الخوف وتتوكل على العلم والسابقة فتمرق عن حدّ الشرع، اجهد في فعل ما أمرت به، وما عليك من هذا العلم السابق، هذا شيء ما تعلمه أنت ولا غيرك، هو جملة الغيوب.

القوم طووا فراش الدنيا وتنحوا عنها، وقاموا بين يديّ مولاهم واشتغلوا بخدمته مع خدمه، يأخذون منها تزوّداً لا تنعماً، بل يفعلون ذلك ضرورة، يقومون بنياتهم على العبادة، ويحصنون فروجهم من كيد الشيطان ومكره، يمتثلون في ذلك أمر ربهم عزّ وجلّ، ويتبعون سنة نبيهم صلى الله تعالى عليه وسلم.

كل شغلهم في امتثال الأوامر وتباع السنة، هم نبوّ الهمة وقوة الزهد في كل الأشياء، اللهم اجعلنا منهم وأعد علينا من بركاتهم آمين.

(يا غلام) مادام حبّ الدنيا في قلبك لا ترى شيئاً من أحوال الصالحين، ما دمت مكدياً من الخلق مشركاً بهم لا تنفتح عينا قلبك، لا كلام حتى تزهد في الدنيا والخلق، كن مجتهداً تر مالا يراه غيرك، تخرق لك العادة، إذا تركت ما هو في حسابك جاءك ما هو في غير حسابك، إذا اعتمدت على الحق عزّ وجلّ واتقيته خلوة وجلوة رزقك من حيث لا تحتسب، اترك أنت يعطك هو.

ازهد أنت يرغبك هو في البداية الترك وفي الآخرة الأخذ، في بدء الأمر تكليف القلب بترك الشهوات والدنيا، وفي الآخرة تناولها، الأول للمتقين، والثاني للأبدال الواصلين إلى طاعة الله عزّ وجلّ. يا مرائي يا منافق يا مشرك، لا تزاحمهم فيما تترك، هم معدودون، لا تطلب أحوالهم فيما يقع بيدك.

هم خرقوا العادات وأنت حفظتها، فلا جرم عند أمنك أمنوا عند خوفك، بذلوا عند إمساكك، عملوا للحق عزّ وجلّ وعملت أنت لغيره، أرادوه وأردت أنت غيره، سلموا الأمر إليه وجاذبته أنت وحاربته، فغنوا بقضائه، وقطعوا ألسنتهم عن الشكوى إلى الخلق ولم تفعل أنت.

كذلك صبروا على المرارة فانقلبت في حقهم حلاوة، سكاكين القدر تقطع لحومهم ولا يبالون ولا يتألمون، وذلك لرؤيتهم المؤلم ودهشتهم به، الخلق منهم في راحة، لا يتعدى منهم إلى أحد ألم. قيل إن الأبرار الذين لا يؤذون الذرّ، والذرّ هو نمل صغار لا يكاد يرى، يواصلون الحق عزّ وجلّ بالطاعة والخلق بحسن العشرة والأهل بالصلة، هم في نعيم دنيا وأخرى، في الدنيا نعيم القرب، وفي الأخرى الجنة.

ورؤيتهم لله عزّ وجلّ ودنوّهم منه والسماع لكلامه والتلبس بخلعه، ما عليك منهم، اشتغل بالتوبة من ذنوبك ووقاحتك على ربك عزّ وجلّ وتجريك عليه. ويلك الحياء من الله عزّ وجلّ يكون لا من الخلق، هو الكائن قبل كل شيء، فتستحي من المحدث وتتواقح على القديم؟

هو الكريم وغيره لئيم. هو الغنيّ وغيره الفقير، دأبه العطاء ودأب غيره المنع، ارجع بحوائجك إليه فإنه أولى من غيره، استدل عليه بصنعته. حافظ على حدود شرعه ولازم تقواه، فإنك إذا دمت على تقواه دلك عليه واشتغلت به عن المصنوع، استدل عليه واطلبه واترك الدنيا والآخرة، فإن مالك منهما يأتيك ولا يفوتك، تركك لما سواه يصفي قلبك من الأكدار.

إن لم يدلك قلبك عليه فأنت كالهائم بلا عقل، قم عن الدنيا وتعال إلى العقلاء الذين دلهم عقلهم على الله عزّ وجلّ، فتعلم العقل منهم واعرف به نفسك وربك.

(ويحك) عمرك يذوب وماعندك خبر، إلى متى هذا الإعراض عن الآخرة والإقبال على الدنيا.

(ويحك) رزقك لايأكله غيرك، موضعك من الجنة والنار لا يسكنه غيرك، قد ملكتك الغفلة وأسرك الهوى، كل همك في الأكل والشرب والنكاح والنوم وبلوغ أغراضك، همك هم الكفار والمنافقين بعد ماتشبع من حلال أو حرام، ما على قلبك كان لك دين أولا.

يا مسكين ابك على نفسك، يموت ولدك، تقوم القيامه عليك، يموت دينك ولا تبالي ولا تبكى عليه، الملائكة الموكلون بك يبكون عليك لما يرون من خسرانك فى بضاعة دينك، مالك عقل، لو كان لك عقل بكيت على ذهاب دينك، معك رأس مال وأنت لا تتجر به.

هذا العقل والحياء هما رأس المال وأنت ما تحسن أن تتجر بهما، علم لا تعمل به، وعقل لا تنتفع به، وحياة لا تفيد، كبيت لا يسكن وكنز لا يعرف وطعام لا يؤكل.

إذا كنت لا تعرف ما أنت فيه فأنا أعرف، معي مرآة الشرع الذى هو الحكم الظاهر،ومرآة العلم بالله عزّ وجلّ الذى هو العلم الباطن، انتبه من نوم الغفلة، واغسل وجهك بماء اليقظة، فانظر ما أنت؟ مسلم أو كافر، مؤمن أو منافق، موحد أو مشرك، مراء أو مخلص، موافق أو مخالف، راض أو ساخط، الحق عزّ وجلّ لا يبالى بك رضيت أم سخطت، ضرر هذا ومنفعته عائدان إليك.

سبحان الكريم الحليم المتفضل، الكل تحت لطفه وفضله، لو لم يلطف بنا لهلكنا، لو قابل كل واحد منا حقيقة المقابلة على فعله لهلكنا أجمع.

(يا غلام) تمنّ على الله عزّ وجلّ بعبادتك مع سهوك وريائك ونفاقك، وتطلب كرامته لك وتزاحم الصالحين مع فسادك، مالك والذكر لهم والدعوى لمعرفتهم، يا آبق يا شارد ياخارجا عن دائرة المخلصين الموحدين من هذه الأمة.

(ويحك) ابك حتى يبكى معك، اقعد في مصيبتك والبس ثياب العزاء حتى يقعد معك، أنت محجوب وما عندك خبر.

قال بعض الصالحين رحمة الله عليه: ويل للمحجوبين الذين لا يعلمون أنهم محجوبون.

(ويلك) أى شيء قلبك؟ أى شيء تعقل؟ إلى من تشكو؟ إلى من تستغيث؟مع من تنام؟ إذا وقعت في شدة بمن تثق؟حدثني،إني أعرف كذبك ونفاقك، أنت والخلق عندي كالبق، الصادق منكم أنا عليمه وخادمه، إن أراد أن يحملني إلى السوق يبيعني أو يكاتبني فليفعل.

إن أراد أن يأخذ ثيابى وما بيدى أو يأمرني حتى أكدي فليفعل، أنت لا صدق لك ولا توحيد ولا إيمان، إيش أعمل بك أسديك الشق، أنت خشب نجر لا تصلح إلا للنار.

(ياقوم) الدنيا تذهب، والأعمار تفنى، والآخرة قريبة منكم، وما همكم لها بل همكم للدنيا وجمعها، أنتم أعداء نعم الله عزّ وجلّ.

إن كان منه إليكم شرّ تظهرون، وإن كان منه إليكم خير تكتمون، إذا كتمتم نعم

الله عزّ وجلّ ولم تشكروه عليها سلبها منكم، عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(إذا أنعم الله عزّ وجلّ على عبدهِ نعمةً أحبَّ أن ترى عليه).

القوم جعلوا لهم هماً واحداً، أخرجوا الأشياء عن قلوبهم وأسكنوها شيئاً واحداً لا كالأشياء، أخلصوا عبادتهم من الرياء والنفاق والسمعة، حققوا العبودية لربهم عزّ وجلّ، وأنتم عبيد الرياء والنفاق.

عبيد الخلق والألوهية والحظوظ والثناء، ما فيكم من تحققت له العبودية إلا من يشاء الله عزّ وجلّ، آحاد أفراد، هذا يعبد الدنيا ويحب دوامها ويخاف زوالها.

وهذا يعبد الخلق يخاف منهم ويرجوهم، وهذا يعبد الجنة يرجو نعيمها ولا يرجو خالقها، وهذا يعبد النار يخاف منها ولا يخاف من خالقها، ما الخلق وما الجنة وما النار؟ ومن سواه؟ قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[1].

العارفون العالمون به عبدوه له لا لغيره، أعطوا الربوبية والعبودية حقها، عبدوه امتثال أمره ومحبة له لا لمعنى آخر، وعنوا به دون غيره وتركوا ما سواه.أنتم صور بلا أرواح، أنتم ظاهر والقوم باطن، أنتم مباني والقوم معاني، أنتم جهر وهم سر، القوم رجالة الأنبياء عن أيمانهم وشمائلهم وقدامهم ووراءهم، بقايا طعامهم وشرابهم لهم، يعملون فصحت الوراثة لهم منهم، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(العلماءُ ورثةُ الأنبياء).

إذا عملوا بعلومهم كانوا خلفاء الأنبياء وورّاثهم ونوابهم.

(ويلك) لا تجيء بمحض العلم فحسب، كما لا تنفع دعوى بلا بينة لا ينفع علم بلا عمل. عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(يهتفُ العلمُ بالعملِ فإن أجابهُ وإلّا ارتحل).

ترتحل بركته وتبقى دراسته، تبقى قشوره ويذهب لبه. يا تاركين العمل بالعلم

---

(١) [سورة البينة آية: ٥].

أحدكم يحذق الشعر بعبارته وفصاحته وبلاغته وليس له عمل ولا إخلاص، لو تهذب قلبك لتهذبت جوارحك لأنه ملك الجوارح، فإذا تهذب الملك تهذبت الرعية. العلم قشر والعمل لب.

إنما يحفظ القشر حتى يحفظ اللب، وإنما يحفظ اللبّ حتى يستخرج منه الدهن، فإذا لم يكن القشر لبحتى يستخرج منه الدهن، فإذا لم يكن في القشر لبّ ما يصنع به؟

وإذا لم يكن في اللبّ دهن فما يصنع به؟ العلم قد ذهب لأنه إذا ذهب العمل به فقد ذهب، إيش ينفعك حفظه ودراسته بلا عمل، يا عالم إن أردت خير الدنيا والآخرة فاعمل بعلمك وعلم الناس، ويا غني إن أردت خير الدنيا والآخرة فواس الفقراء بشيء من مالك، عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(النَّاسُ عِيالُ اللهِ وأَحبُّ النَّاسِ إلى اللهِ عزَّ وَجلَّ أَنفعُهُمْ لعِيالِه).

سبحان من أحوج البعض إلى البعض، له في ذلك حكم، يا غنيّ تهرب مني، أنا آخذ منك لك، سيجيئني الخير من الله عزّ وجلّ ويغنيني عنكم ويحوجكم إليّ.

كان إبراهيم رحمة الله عليه إذا رأى قلة صبر الفقير يقول: اللهم وسع علينا في الدنيا وزهدنا فيها، ولا تزوها عنا وترغبنا فيها فنهلك بطلبها، اللهم الطف بنا في أقضيتك وأقدارك.

المجلس الثلاثون

[الاعتراف بنعم الله عز وجل]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة بالرباط سادس عشر جمادي الآخرة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

يا طوبى لمن اعترف لله عزّ وجلّ بنعمه وأضاف الكل إليه، وعرى نفسه وأسبابه وحوله وقوته. العاقل الذي لا يحسب على الله عزّ وجلّ عملاً ولا يطلب منه جزاء في جميع الأحوال.

(ويلك) أنت تعبد الله عزّ وجلّ بغير علم، وتزهد بغير علم، وتأخذ الدنيا بغير علم، ذلك حجاب في حجاب، مقت في مقت، لا تميز الخير من الشرّ. لا تفرق بين ما هو لك وما هو عليك، ما تعرف صديقك من عدوك، كل ذلك لجهلك بحكم الله عزّ وجلّ، وتركك لخدمة الشيوخ.

شيوخ العمل وشيوخ العلم يدلوك على الحق عزّ وجلّ، القول أولاً والعمل ثانياً، وبه تصل إلى الحق عزّ وجلّ، وما وصل من وصل إلا بالعلم والزهد في الدنيا والإعراض عنها بالقلب والقالب، المتزهد يخرج الدنيا من يده، والزهد المتحقق في زهده يخرجها من قلبه.

زهدوا في الدنيا بقلوبهم فصار الزهد طبعاً لهم ظواهرهم وبواطنهم، انطلقت نارية طباعهم، انكسرت أهويتهم، اطمأنت نفوسهم واستحال شرّها.

(يا غلام) هذا الزهد ليس هو صنعة تعلمها، ليس هو شيئاً تأخذه بيدك ترميه بل هو خطوات أولها النظر في وجه الدنيا فتراها كما هي على صورتها عند من تقدم من الأنبياء والرسل، وعند الأولياء والأبدال الذين لم يخل منهم زمان. إنما تصح رويتك لها باتباع من تقدم في الأقوال والأفعال.

إذا اتبعتهم رأيت ما رأوا، وإذا كنت على أثر القوم قولاً وفعلاً خلوة وجلوة علماً وعملاً صورة وعنى تصوم كصيامهم وتصلي كصلاتهم وتأخذ كأخذهم وتترك كتركهم وتحبهم فحينئذ يعطيك الله نوراً ترى به نفسك وغيرك، يبين لك عيوبهم وعيوب الخلق، فتزهدهم في نفسك وفي الخلق أجمع.

فإذا صح لك ذلك جاءت أنوار القرب إلى قلبك، صرت مؤمناً موقناً عارفاً عالماً، فترى الأشياء على صورها ومعانيها، ترى الدنيا كما رآها من تقدم من الزاهدين المعرضين، تراها في صورة عجوز شوهاء قبيحة المنظر، فهي عند هؤلاء القوم على هذه الصفة.

وعند الملوك كالعروس المجلية في أحسن صورة، هي عند القوم حقيرة ذليلة، يحرقون شعرها، ويخرقون ثيابها، ويخمشون وجهها، ويأخذون أقسامهم منها قهراً وجبراً على رغم أنفها، وهم في صحبة الآخرة.

(يا غلام) إذا صح لك الزهد في الدنيا فازهد في اختيارك، وفي الخلق فلا تخالفهم ولا ترجوهم، وفي جميع ما تأمرك به نفسك فلا تقبل منها إلا بعد مجيء أمر الله عزّ وجلّ.

والغالب لك من حديث قلبك بطريق الإلهام أو المنام، نافراً معرضاً عن جميع المخلوقات.

وإن سكنت جوارحك فلا عبرة، الا يضرك ذلك، العبرة بسكون القلب، هو الداهية العظمى، لا سكون لك حتى تموت نفسك وطبعك وهواك وما سوى مولاك، فحينئذ تحيا بقربه، موت ثم نشر، ثم إذا شاء أنشرك له، ردك إلى الخلق لتنظر في مصالحهم وتردهم إلى بابه، يجيء لك الميل إلى الدنيا والآخرة لتتناول أقسامك منها، تجيء لك القوّة على مقاساة الخلق فتردهم من ضلالهم وتمتثل أمره فيهم.

وإن لم تشأ ذلك ففي قربه لك كفاية ومندوحة عن غيره، ما تقنع بالخلق بعد حصول الخالق المكوّن للأشياء قبل وجودها، هو الكائن قبل كل شيء، والمكون لكل شيء، والكائن بعد كلّ شيء، ذنوبكم كالأمطار، فلتكن توباتكم كل لحظة في مقابلتها.

(ويحك) أنت بطر، أنت أشر، أنت شبق، أنت هوى، أنت عبارة. انظر إلى القبور الدارسة وخاطب أهلها بلسان الإيمان فإنهم يخبرونك عن أحوالهم.

(يا غلام) تدعي إرادة الحق عزّ وجلّ وإرادة أوليائه، وأدعك لا أحكك وأعير عليك، أنا محتسب بإذن الحق عزّ وجلّ، أقطع أقفية المنافقين الكذابين في قلوبهم وأفعالهم، قد احتسبت على الشيوخ مراراً كثيرة حتى صحت لي الحسبة.

يا أهل الأرض اعجنوا أعمالكم بلا ملح، تعالوا خذوا له ملحاً، يا شاري الملح تقدم. يا منافقين عجينكم بلا ملح، فطير هو محتاج إلى خمير، العلم وملح الإخلاص. يا منافق أنت معجون بالنفاق، عن قريب ينقلب عليك نفاقك ناراً، أخلص قلبك من التفاني وقد تخلص.

إذا أخلصت الجوارح وتخلصت، القلب راعي الجوارح فإذا استقام استقامت، إذا استقام القلب والجوارح كما أمر المؤمن وصار راعيا على أهله وجيرانه وأهل بلده، يرتفع حاله على قدر قوة إيمانه وقربه من مولاه.

(يا قوم) أحسنوا العشرة مع الله عزّ وجلّ واحذروا منه، اعملوا بحكمة فإنه كلفكم العمل بحكمة الاشتغال بالعلم السابق فيكم، اعمل بهذا الحكم واقض حقه، فإنك إذا عملت به أخذ العمل بيدك وادخلك على من عملت له فتستفيد منه علماً لم تكن تعلمه، فتكون معه بعلمه ومع خلقه بحكمه.

أنت أول ما علمت به تطلب الثاني، إذا استقرت أقدامك في الأول حينئذ اطلب الثاني، الغلام ما لقيت، كيف تلقى الأستاذ؟ ارجع إلى ورائك وكن عاقلاً، حصل العلم وأخلص، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(تفقه ثم اعتزل).

المؤمن من يتعلم ما يجب عليه ثم يعتزل عن الخلق ويخلوا بعبادة ربه عزّ وجلّ، عرف الخلق فبغضهم، وعرف الحق عزّ وجلّ فأحبه وطلبه وخدمه، تبعه الخلق فهرب، وطلب غيرهم زهدهم ورغب في غيرهم، علم أن لا ضرّ ولا نفع، ولا خير ولا شرّ في أيديهم، وإن جرى على أيديهم شيء من ذلك فهو من الله عزّ وجلّ لا منهم، فرأى أن البعد منهم خير من القرب.

رجع إلى الأصل وترك الفرع، علم أن الفرع كثير والأصل واحد فتمسك به، نظر في مرآة الفكر فرأى أن الوقوف على باب واحد خير من الوقوف على أبواب كثيرة، فوقف عليه وتمسك به، المؤمن الموقن المخلص عاقل قد أعطى عقل العقول ولهذا هرب من الناس وأخذ عنهم جانباً.

المجلس الحادي والثلاثون

[في الغضب المحمود والمذموم]

وقال رضي الله تعالى عنه في المدرسة عشية ثامن عشر جمادي الآخرة سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

الغضب إذا كان لله عزّ وجلّ فهو محمود، وإذا كان لغيره فهو مذموم. المؤمن يحتدّ لله عزّ وجلّ لا لنفسه، يحتدّ نصرة لدينه لا نصرة لنفسه، يغضب إذا خرق حدّ من حدود الله عزّ وجلّ كما يغضب النمر إذا أخذوا صيده.

فلا جرم يغضب الله عزّ وجلّ لغضبه ويرضى لرضاه، لا تظهر الغضب لله عزّ وجلّ وهو لنفسك فتكون منافقاً وما أشبه ذلك، لأن ما كان لله عزّ وجلّ يتم ويبقى ويزداد، وما كان لغيره يتغير ويزول، فإذا فعلت فعلاً فأزل نفسك وهواك وشيطانك منه، ولا تفعله إلا لله عزّ وجلّ وامتثالاً لأمره، لا تفعل شيئاً إلا بأمر حزم من الله عزّ وجلّ، إما بواسطة الشرع أو بإلهام من الله عزّ وجلّ لقلبك مع موافقة الشرع.

ازهد فيك وفي الخلق وفي الدنيا يرحك من الخلق، وارغب في الأنس بالحق عزّ وجلّ والراحة بقربه، لا أنس إلا الأنس به، ولا راحة إلا معه بعد الصفاء من كدورات نفسك وهواك ووجودك، كن مع القوم فتتأيد بتأييدهم وتبصر ببصرهم، ويباهي بك كما يباهي بهم، يباهي بك الملك بين بقية المماليك. طهر قلبك ممن سواه، فإنك ترى به ما سواه.

في الجملة تراه ثم ترى به أفعاله في خلقه، كما لا يحل أن تدخل على الملوك مع نجاسة ظاهرك لم تدخل على مالك الملوك الذي هو الحق عزّ وجلّ مع نجاسة باطنك، أنت خابية ملآن دردى، إيش يعمل بك؟

اقلب ما فيك وتطهر، وبعد ذلك يكون الدخول على الملوك، في قلبك معاصي وخوف من الخلق ورجاء لهم وحب الدنيا وما فيها، وكل هذا من نجاسة القلوب، لا كلام حتى تموت نفسك وتحمل على باب نعش صدقك، حينئذ لا يبالي بإقبالك على الخلق، أما ما دام عندك وجود لهم وأنت تراهم فلا تمدّ يدك إليهم حتى يقبلوها، لا كلام حتى يكون عندك دهشة بقربه فيكون عندك شغل منهم ومن تقبيلهم يدك ومن عطائهم

ومنعهم وحمدهم وذمهم. إذا صحت التوبة صح الإيمان وازداد، عند أهل السنة أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، هذا في العوام.

وأما الخواص فيزيد إيمانهم بخروج الخلق من قلوبهم وينقص بدخولهم إليها، يزيد بسكونهم إلى الله عزّ وجلّ وينقص بسكونهم إلى غيره، على ربهم يتوكلون وبه يثقون، وإليه يستنون، يستندون، ومنه يخافون، وإليه يرجعون،له يوحدون، وعليه يعتمدون فلا يشركون، وعلى ذلك سفتتنون، توحيدهم فى قلوبهم ومداراتهم للخلق في ظواهرهم، إذا جهل عليهم لا يجهلون، قال الله عزّ وجلّ في حقهم:

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾(1).

عليك بالصمت والحلم عن جهل الجاهل وثوران طباعهم ونفوسهم وأهويتهم، أما إذا ارتكبوا معصية الحق عزّ وجلّ فلا صمت لأنه يحرم، يصير الكلام عبادة وتركه معصية.

إذا قدرت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا تقصر عنه فإنه باب خير قد فتح في وجهك فبادر بالدخول فيه.

كان عيسى عليه السلام يأكل من حشائش الصحراء ويشرب من ماء الغدران، ويأوي الى الكهوف والخراب، كان عيسى عليه السلام يأكل من حشائش الصحراء ويشرب من ماء الغدران، ويأوي الى الكهوف والخراب، ذا نام توسد بصخرة أو بذراعه، المؤمن يفعل هكذا ويعزم أن يلقى ربه عزّ وجلّ على هذل القدوم.

وإن كان له أقسام في الدنيا فهي تجيئه فيتلبس بها ظاهره ويستوفيها بنفسه وقلبه مع الله عزّ وجلّ على القدوم الأول لم يتغير، لأن الزهد إذا تمكن في القلب لا يغيره مجيء الدنيا وتناول الأقسام. المؤمن لو كان يحبّ الدنيا وأهلها وشهواتها ولذاتها ما كان يصبر عنها لحظة مشغولا بها في ليله ونهاره.

وما كان يتعبد ويتنسك ولا يذكر الله عزّ وجلّ ولا يطيعه، فبصره الله بعيوب نفسه فتاب منها وندم عليها على ما فرط منه في أيامه الخاليه،وبصره بعيوب الدنيا بطريق الكتاب والسنة والشيوخ فجاءه الزهد فيها.

---

(١) [سورة الفرقان آية: ٦٣].

فكلما نظر إلى عيب أبصر عيوبا أخر فعلم أنها فانية، عمرها إلى أمد قريب، نعيمها زائل وحسنها متغير، أخلاقها شرسة، يدها ذابحة، كلامها سموم، ذواقة مطلاقة، ليس لها مرجوع ولا أصل ولا عهد، القيام فيها كالبناء على الماء فلا يأخذها قرارا لقلبه ولا دارا له، ثم يترقى درجة ويقوى تمكنه، فيعف الحق عزّ وجلّ، فلا يأخذ الآخرة أيضا قرارا لقلبه، بل يتخذ قربه من مولاه قرارا له في دنياه وأخراه، يبنى لسرّه وقلبه دارا هناك.

فحينئذ لا تضرّه عملرة تادنيا ولو بني ألفا من الدور لأنه يبني لغيره لا لاه، يمتثل أمر الله عزّ وجلّ في ذلك، ويوافق قضاءه وقدره، يقيمه في خدمة الخلق وإيصال الراحة إليهم، يواصل الضياء بالظلام في الطبخ والخبز ولا يأكل من ذلك ذرّة، يصير له طعام يخصه لا يشاركه فيه غيره، فيكون مفطرا عند طعامه، صائما مجوعا عند طعام غيره.

الزاهد صائم عن الطعام والشراب، والعارف صائم عن غير معروفه، فهو مجوع لا يأكل من غير يد طبيبه، داؤه البعد ودواؤه القرب، صوم الزاهد نهاراً صوم العارف نهاراً وليلاً، لا فطر لصومه حتى يلقى ربه عزّ وجلّ. العارف صائم الدهر دائم الحمى، صائم الدهر بقلبه محموم بسرّه، قد علم أن شفاءه لقاء ربه وقربه منه.

(يا غلام) إن أردت الفلاح فأخرج الخلق من قلبك لا تخفهم ولا ترجعهم ولا تستأنس بهم ولا تسكن إليهم، هرول عن الكل واشمئز منهم كأنهم ميتات جيف، فإذا صح لك هذا فقد صحت لك الطمأنينة عند ذكر الله عزّ وجلّ والانزعاج عند ذكر غيره.

المجلس الثاني والثلاثون

[في أداء الأوامر واجتناب النواهي]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الجمعة بكرة في المدرسة حادي عشر جمادي الآخرة سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

أدِّ الأمر وانته عن النهي واصبر على هذه الآفات وتقرب بالنوافل، وقد سميت مستيقظاً عاملاً لطلب التوفيق من ربك عزّ وجلّ مع اجتهادك وترك تكلف الحضور باب العمل وهو المستعمل لك، سله وتذلل بين يديه حتى يهيئ لك أسباب الطاعة، فإنه إذا أرادك لأمر هيأك له.

قد أمرك بالمسارعة من حيثك، ويوجه إليك التوفيق من حيثه، الأمر ظاهر والتوفيق باطن، النهي عن المعاصي ظاهر والحمية عنها باطنة، بتوفيقه تتمسك وبحميته وعصمته تترك وبقوته تصبر. احضروا عندي بعقل وثبات ونية وعزيمة وإزاحة التهمة لي وحسن الظن فيّ، وقد نفعكم ما أقول وفهمتم معانيه.

يا متهماً لي غداً يتبين لك كل ما أنا فيه، لا تزاحمني فيما أنا عليه، قلبك ينقهر وتغلب، أثقال الدنيا على رأسي وأثقال الآخرة على قلبي وأثقال الحق عزّ وجلّ على سري، فهل لي من معاون؟ من يحسن يتقدم إليّ ويخاطر برأسه،بحمد الله عزّ وجلّ، ما احتاج إلى معاونة أحد سوى الحق عزّ وجلّ.

كونوا عقلاء وأحسنوا الأدب مع القوم فإنهم نزاع العشائر شحن البلاد والعباد، بهم تحفظ الأرض، وإلا إيش يحفظ بريائكم ونفاقكم وشرككم، يا منافقين يا أعداء الله عزّ وجلّ ورسوله، يا حطب النار.

اللهم تبْ عليّ وعليهم، اللهم أيقظني وأيقظهم وارحمني وارحمهم، فرّغ قلوبنا وجوارحنا لك، وإن كان ولا بد فالجوارح للعيال في أمور الدنيا والنفس للأخرى، والقلب والسرّ لك آمين.

(يا غلام) لا يجيء منك شيء ولا بد منك وحدك، لا يجيء منك شيء ولا بد من حضورك، اثبت باب العمل حتى يستعملك للبناء، أنت والتوفيق هكذا، أنت زوكارى والتوفيق مستعمل وصاحب العمل الله عزّ وجلّ، قد أمرك بالمسارعة إلى طاعته وهو منه التوفيق.

(ويحك) قد قيدت نفسك بالخوف من الخلق والرجاء لهم، أزل هذه القيود من رجليها وقد قامت إلى خدمة ربها عزّ وجلّ وصارت مطمئنة بين يديه، زهدها في الدنيا وشهواتها ونسائها وجميع من فيها، في النار لها في السابقة شيء من ذلك فهو يجيء إليها بلا أمرك ولا طلبك.

وتسمى عند الحق عزّ وجلّ زاهداً، وينظر إليك بعين الكرامة والقسم لا يفوت، ما دمت متكلاً على حولك وقوتك وما في يديك لا يجيئك من الغيب شيء.

قال بعضهم: ما دام في الجيب شيء لا يجيء من الغيب شيء.

اللهم إنا نعوذ بك من الاتكال على الأسباب والوقوف مع الهوس والأهوية والعادات، نعوذ بك من الشرّ في سائر الأحوال.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٠١.

المجلس الثالث والثلاثون

[في رؤية الله يوم القيامة]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الأحد بكرة في الرباط ثالث عشر من جمادي الآخرة سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

من رأى محباً لله عزّ وجلّ فقد رأى من رأى الله عزّ وجلّ بقلبه، دخل عليه بسرّه، ربنا عزّ وجلّ شيء موجود مرئي، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر لا تضامون في رؤيته).

يرى اليوم بأعين القلوب، وغداً بأعين الرؤوس.

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾(١).

المحبون له رضوا به دون غيره، استعانوا به واقتصروا عمن سواه،صارت مرارة الفقر عندهم حلاوة، والفقر من الدنيا عندهم، والرضا به عندهم، والتنعم به عندهم، غناهم في فقرهم، نعيمهم في أسقامهم.

أنسهم في وحشتهم، وقربهم في بعدهم، راحتهم في تعبهم، طوبى لكم يا صبّر، يا رضين، يا فانين عن نفوسهم وأهويتهم.

(يا قوم) وافقوه وارضوا بأفعاله فيكم وفي غيركم، لا تتعالوا وتتمعقوا على من هو أعقل منكم، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾(٢).

قفوا بين يديه على أقدام الإفلاس من عقولكم وعلومكم لتنالوا علمه، تحيروا ولا تتخيروا، تحيروا فيه حتى يأتيكم العلم به، التحير أولاً ثم العلم ثانياً ثم الوصول إلى المعلومات ثالثاً. القصد ثم الوصول إلى المقصود، الإرادة ثم حصول المراد، اسمعوا واعملوا، فإني أفتل في حبالكم، أفتل حبالكم الرخوة وأصل المقطع منها.

ليس لي همّ إلا همكم، ليس لي غمّ إلا غمكم، إني طائر أينما سقطت لقطت، الشأن فيكم بأحجار مرمية، يا معقدين مثقلين يا مقلين يا مقلين بالنفوس معقلين بالأهوية، اللهم ارحمني وارحمهم.

---

(١) سورة الشورى آية: ١١.

(٢) سورة البقرة آية: ٢١٦.

المجلس الرابع والثلاثون

[في النهي عن الكبر]

وقال رضي الله عنه بعد كلام:

القوم شغلهم البذل وإيجاد الراحة للخلق، نهابون وهابون، ينهبون من فضل الله عزّ وجلّ ورحمته، ويهبونه للفقراء والمساكين المضيق عليهم، يقضون الديون على المدينين العاجزين عن قضائه، هم الملوك لا ملوك الدنيا، فإنهم ينهبون ولا يهبون.القوم يؤثرون بالموجود، وينتظرون المفقود.

يأخذون من يد الحق عزّ وجلّ لا من أيدي الخلق، اكتساب جوارحهم للخلق واكتساب قلوبهم لهم، ينفقون لله عزّ وجلّ لا للهوى وأغراض النفس لا للحمد والثناء. دع عنك التكبر على الحق عزّ وجلّ وعلى الخلق فإنه من صفات الجبارين الذين يكبهم الله عزّ وجلّ على وجوههم في نار الجحيم، إذا أغضبت الحقّ عزّ وجلّ فقد تكبرت عليه، إذا أذن المؤذن فلم تجبه بقيامك إلى الصلاة فقد تكبرت عليه، إذا ظلمت أحداً من خلقه فقد تكبرت عليه، تب إليه وأخلص في توبتك قبل أن يهلكك بأضعف خلقه كما أهلك نمروذ وغيره من الملوك لما تكبروا عليه.

أذلهم بعد العزّ، أفقرهم بعد الغنى، عذبهم بعد النعيم، أماتهم بعد الحياة، كونوا من المتقين.

الشرك في الظاهر والباطن، الظاهر عبادة الأصنام، والباطن الاتكال على الخلق ورؤيتهم في الضرّ والنفع، وفي الناس من تكون الدنيا بيده ولا يحبها، يملكها ولا تملكه، تحبه ولا يحبها، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها، يستخدمها ولا تستخدمه، يفرّقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله عزّ وجلّ ولا تقدر الدنيا تفسده، فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه، ولهذا قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(نِعمَ المَالُ الصَالِحُ للرَّجُلِ الصَالِحِ).

أو قال (لا خير في الدنيا إلا لمن قال هكذا وهكذا) وأشار إلى أنه يفرّقها بيديه في وجوه البرّ والصلاح، اتركوا الدنيا في أيديكم لمصالح عيال الحق عزّ وجلّ، وأخرجوها من قلوبكم فلا جرم لا يضركم، ولا يغركم نعيمها وزينتها، فعن قريب تذهبون وتذهب بعدكم.

(يا غلام) لا تستغن عني برأيك فإنك تضل، من استغنى برأيه ضلّ وذلّ وزلّ إذا استغنيت برأيك حرمت الهداية والحماية لأنك ما طلبتها ولا دخلت في سببها.

تقول أنا مستغن عن علم العلماء وتدعي العلم فأين العمل؟ ما تأثير هذه الدعوى، ما مصداقها؟

إنما تتبين صحة دعواك للعلم بالعمل والإخلاص والصبر عند البلاء، وأن لا تتغير ولا تجزع ولا تشكو إلى الخلق، أنت أعمى كيف تدعي البصر، أنت سقيم الفهم كيف تدعي الفهم، تب من دعواك الكاذبة إلى الله عزّ وجلّ، وعليك به دون غيره، تعرض عن الكل وتطلب خالق الكل، ما عليك ممن انكسر وانجبر وهلك أو ملك، عليك بخويصة نفسك إلى تطمئن وتعرف ربها عزّ وجلّ.

فحينئذ التفت إلى غيرك، عليك بجادة مراده، اطلب صحبته في الدنيا والآخرة، عليك بالتقوى والتجريد والتفرّد عمن سواه، عليك بالمحو أبداً.

والإخلاص تثبت نفسك في شيء إلا في الأوامر والنواهي فإنه هو أثبتك فيها، يا رجالاً ويا نساء، قد أفلح منكم من كان معه ذرّة من التقوى، ذرّة من التقوى، ذرّة من الصبر والشكر، إني أراكم مفاليس.

المجلس الخامس والثلاثون

[في مخافة الله عز وجل]

وقال رضي الله تعالى عنه:

ويحكم يا متكبرين، عباداتكم لا تدخل الأرض إنما تصعد السماء قال الله عزّ وجل:

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾(١).

ربنا عزّ وجلّ على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وعلمه محيط بالأشياء مبدع سبع آيات في القرآن في هذا المعنى لا يمكنني محوها لأجل جهلك ورعونتك تفزعني بسيفك ما أفزع.

ترغبني في مالك ما أرغب، إنما أخاف الله عزّ وجلّ وما أخاف غيره أرجوه ولا أرجو غيره أعبده ولا أعبد غيره أعمل له ولا أعمل لغيره رزقي عنده وبيده، كل له، العبد وما يملك لمولاه، وذكر أنه أسلم على يده قدر خمسمائة نفس وتاب أكثر من عشرين ألفاً، قال: وهذا من بركات نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾(٢).

الغيب عنده فاقرب منه حتى تراه وترى ما عنده، دع أهلك ومالك وبلدك وزوجتك وأولادك، واخرج عنهم بقلبك ودع الكل وسرّ إلى بابه، إذا وصلت إلى بابه فلا تشتغل بغلمانه وسلطانه وملكه.

إن قدموا لك طبقاً فلا تأكل، إن أسكنوك في حجرة فلا تسكن، إن زوّجوك فلا تتزوّج، لا تقبل شيئاً من ذلك حتى تلقاه كما أنت بثيابك وتعبك وغبار سفرك وشعثك، فيكون هو المغير عليك المطعم المسقي، المؤنس لوحشتك، المفرج لك، المريح لتعبك، المؤمن لخوفك. يكون بقربه لك غناك، وبرؤيته لك طعامك وشرابك ولباسك، ما معنى تولي الخلق؟ هو الخوف منهم والرجاء لهم، والسكون إليهم، والثقة بهم، هذا معنى تولي الخلق.

---

(١) سورة فاطر آية: ١٠.

(٢) سورة الجن الآيتان: ٢٦، ٢٧.

المجلس السادس والثلاثون

[في إخلاص العمل لله]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الثلاثاء عشية في المدرسة ثاني رجب من سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

هذه الدنيا سوق، بعد ساعة لا يبقى فيه أحد، عند مجيء الليل يذهب أهله منه اجتهدوا أنكم لا تبيعون ولا تشترون في هذا السوق إلا ما ينفعكم غداً في سوق الآخرة، فإن الناقد بصير. توحيد الحق عزّ وجلّ الإخلاص في العمل له هو الناقد هناك.

وهو قليل عندكم، يا غلام كن عاقلاً ولا تستعجل، فإنه ما يقع بيدك شيء بعجلتك، لا تجيء وقت الغروب ووقت الصبح، فهلا صبرت وتشاغلت حتى يجيء وقت المغرب وتنال ما تريد؟ كن عاقلاً وتأدب مع الحق عزّ وجلّ وخلقه، لا تظلم الخلق وتطلب منهم ما ليس لك عندهم، لا كلام حتى يأتي التوقيع إلى الوكيل، فحينئذ ترى العطاء قبل التوقيع، لا يعطي ذرة، لا يعطونك ذرة ولا بدرة ولا بحراً ولا قطرة إلا بإذن الله عزّ وجلّ وتوقيعه وإلهامه لقلوبهم، كن عاقلاً، هذا هو العقل، أثبت مكانك بين يدي الحق عزّ وجلّ، فإن الرزق مقسوم عنده وبيده.

(ويحك) بأي وجه تلقاه غداً وأنت تنازعه في الدنيا معرض عنه مقبل على خلقه مشرك به تنزل حوائجك بهم وتتوكل في المهمات عليهم؟ الحاجة إلى الخلق عقوبة لأكثر السائلين.

فإنهم ما خرجوا إلى السؤال إلا بذنوبهم، والأقل منهم يكون ذلك بلا كراهية في حقهم، إذا سألت وأنت معاقب تكون محروماً بمنعك العطاء.

(ويحك) الأولى عندي في حال ضعفك أن لا تطلب أحد شيئاً، وأن لا يكون لك شيء لا تعرف ولا تعرف، لا ترى وترى، وإن تعطي ولا تأخذ فافعل، وتخدم ولا تطلب الخدمة من غيرك فافعل، القوم عملوا له ومعه فأراهم عجائبه في الدنيا والآخرة، أراهم بهم وتوليه لهم.

(يا غلام) إذا لم يكن لك إسلام فما يكون لك إيمان، وإذا لم يكن لك إيمان فلا يكون لك إيقان، وإذا لم يكن لك إيقان فما يكون لك معرفة له وعلم به.

هذه درجات وطبقات، إذا صح لك الإسلام صح لك الاستسلام، كن مسلماً إلى الله عزّ وجلّ في جميع أحوالك مع حفظ حدود الشرع والملازمة له، سلم له في حق نفسك وغيرك، أحسن الأدب معه ومع خلقه.

لا تظلم نفسك ولا غيرك، فإن الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة، الظلم يظلم القلب ويسوّد الوجه والصحائف، لا تظلم ولا تعاون ظالماً، فإن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الظلمة ؟ أين أعوان الظلمة؟ أين من برى لهم قلماً؟ أين من لاق لهم دواةً؟ اجمعوهم واجعلوهم في تابوتٍ من نار).

اهرب من الخلق واجهد أن لا تكون مظلوماً ولا ظالماً، وإن قدرت فكن مظلوماً ولا تكن ظالماً، مقهوراً ولا قاهراً.

نصرة الحق عزّ وجلّ للمظلوم، ولا سيما إذا لم يجد ناصراً من الخلق. عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(إذا ظُلِمَ مَن لم يجد ناصراً غيرَ الحقّ عزّ وجلّ فإنّه يقول: لأنصرنّكَ ولو بعدَ حين).

الصبر سبب للنصرة والرفعة والمعزة. اللهم إنا نسألك الصبر معك، ونسألك التقوى والكفاية والفراغ من الكل والاشتغال بك ورفع الحجب بيننا وبينك، ارفعوا الوسائط بينكم وبينه، فإن وقوفكم معها هوس.

لا ملك ولا سلطان ولا غنى ولا عزّ إلا للحق عزّ وجلّ. يا منافق إلى متى ترائي وتنافق؟ إيش يقع بيدك ممن تنافق لأجله؟ ويلك أما تستحي منه عزّ وجلّ وما تؤمن بلقائه عن قريب؟ تعمل عملاً له وباطن لغيره، تخادعه وتستجدي به، بعلمك بك، ارجع وتدارك أمرك وأصلح نيتك له، اجهد أن لا تأكل لقمة ولا تمشي خطوة ولا تعمل شيئاً في الجملة إلا بنية صالحة تصلح للحق عزّ وجلّ. إذا صح لك هذا فكل عمل تعمله يكون له لا لغيره، تزول عنك الكلفة، وتصير هذه النية طبعاً للعبد إذا صحت عبوديته لربه عزّ وجلّ، لا يحتاج إلى تكلف في شيء لأنه يتولاه، وإذا تولاه أغناه وحجبه عن الخلق فلا يحتاج إليهم.

فالتعب ما دمت مريداً قاصداً سائراً إذا وصلت وانقطعت مسافة سفرك قصرت

في بيت قرب ربك عزّ وجلّ زال التكلف، فيثبت الأنس به في قلبك وتزداد حتى تأخذ بجوانبه، تكون أولاً صغيراً ثم تكبر، فإذا كبرت امتلأ القلب بالله عزّ وجلّ، فلا يبقى لغيره طريق إليه ولا زاوية فيه، إن أردت الوصول إلى هذا فكن مع امتثال أمره والانتهاء عن نهيه والتسليم إليه في الخير والشرّ والغنى والفقر، والعزّ والذلّ عند بلوغ الأغراض وكثيرها في أمور الدنيا والآخرة، تعمل له ولا تطالب بذرة من الأجر. تعمل ويكون قصدك رضا المستعمل وقربه.

فالأجرة تكون رضاه عنك وقربك منه دنيا وآخرة، في الدنيا لقلبك وفي الآخرة لقالبك. اعمل ولا تنافس لا على ذرة ولا على بدرة، لا تنظر إلى عملك بل تكون جوارحك تتحرك بالعمل وقلبك مع المستعمل، فإذا تم لك هذا صار لقلبك عيون تنظر بها، صار المعنى صورة والغائب حاضراً والخبر معاينة. العبد إذا صلح لله عزّ وجلّ كان معه في جميع الأحوال بغيره، ويبدله وينقله من حال إلى حال يصير كله. معنى يصير كله إيماناً وإيقاناً ومعرفة وقرباً ومشاهدة، يصير نهاراً بلا ليل، ضياء بلا ظلام، صفاء بلا كدر، قلباً بلا نفس، وسراً بلا قلب، فناء بلا وجود غيبة بلا حضور، يصير غائباً عنهم وعنه.

كل هذا أساسه الأنس بالله عزّ وجلّ كلام حتى يتم هذا الأنس بينك وبينه. اخط عن الخلق خطوة، لاضرهم ولانفعهم فقد جربتهم، واخط عن النفس خطوة ولاتوافقها، وعادها في رضا ربك عزّ وجلّ وقد جربتها، فالخلق والنفس بحران ناران، واديان مهلكان، اعزم وجر هذا المهلك وقد وقعت، في الأول داء والثاني دواء الله، اترك الداء والدواء والأمراض كلها أدوية عنده وبيده لا يملكها أحد سواه.

إذا صبرت على الوحدة جاءك الأنس بالواحد، إذا صبرت على الفقر جاءك الغنى، اترك الدنيا ثم اطلب الأخرى، ثم اطلب القرب من المولى، اترك الخلق ثم ارجع إلى الخالق.

(ويحك) خلق وخالق لا يجتمعان، دنيا وأخرى في القلب لا يجتمعان، لا يتصوّر، لا يصح، لا يجيء منه شيء، إما الخلق وإما الخالق، إما الدنيا وإما الآخرة. وقد يتصوّر أن يكون الخلق في ظاهرك والخالق في باطنك والدنيا في يدك والآخرة في قلبك، أما القلب فلا يجتمعان.

انظر لنفسك واختر لها، فإن أردت الدنيا فأخرج الآخرة من قلبك، وإن أردت الآخرة فأخرج الدنيا من قلبك وإن أردت المولى فأخرج الدنيا والآخرة وما سواه من قلبك، لأن ما دام في قلبك ذرّة مما سوى الحق عزّ وجلّ لا ترى قربه عندك، ولا يتحقق لك الأنس والسكون إليه ما دام في قلبك ذرّة من الدنيا.

لا ترى الآخرة بين يديك، وما دام في قلبك ذرّة من الآخرة لا ترى تقريب الحق عزّ وجلّ، كن عاقلاً لا تأتي إلى بابه إلا بأقدام الصدق فإن الناقد بصير.

(ويحك) تسترت عن الخلق، لا عن الخالق، كيف تتستر، عن قريب تنتهك عند الخلق وتأخذ العملة من جيبك وبيتك، يا تارك الزجاج للكسر غداً أكلك في قنينتك يبين لك الخير، يا آكل السمّ عن قريب يتبين فعله في جسدك، أكل الحرام سمّ لجسد دينك، ترك الشكر على النعم سمّ لدينك، عن قيب يعاقبك الحق عزّ وجلّ بالفقر والسؤال للخلق ورفع الرحمة من قلوبهم لك.

وأنت يا تارك العمل بعلمه، عن قريب ينسيك العلم ويذهب بركته من قلبك، يا جهالاً لو عرفتموه عرفتم عقوباته، أحسنوا الأدب معه ومع خلقه قللوا من الكلام فيما لا يعنيكم.

عن بعض الصالحين أنه قال: رأيت شاباً يكدي فقلت له: لو عملت كان أحبّ إليك، فعوقبت بأن حرمت قيام الليل ستة أشهر.

(يا غلام) فيما يعنيك شغل عما لا يعنيك، أخرج نفسك من قلبك وقد جاءك الخير فإنها هي الكدرة المكدرة، بعد خروجها يجيء الصفاء غير كدر وقد غيرت، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(١).

يا إنسان اسمع، يا ناس اسمعوا، يا مكلفين اسمعوا، يا بلغ يا عقل، كلام الباري عزّ وجلّ واخباره وهو أصدق القائلين، غيروا له من نفوسكم ما يكره حتى يؤتيكم ما تحبون، الطريق واسع، إيش بكم يا زمنى، قوموا وتشبثوا، اعملوا ولا تغفلوا ما دام الحبل بطرفيه بأيديكم.

---

(١) سورة الرعد آية: ١١.

استعينوا به على ما يصلحكم، نفوسكم اركبوها وإلا ركبتكم، لا هي أمارة بالسوء في الدنيا ولوامة في الآخرة، اهربوا ممن يشغلكم عن الله عزّ وجلّ كهربكم من السبع، عاملوه فإنه من عامله ربح، من أحبه أحبه، من أراده أراده.

من تقرّب إليه قرب منه، من تعرّف إليه عرفه نفسه. اسمعوا مني واقبلوا قولي، فما على وجه الأرض من يتكلم على الناس على حالة غيري أريد الخلق لهم لا لي، وإن طلبت الأخرى طلبتها لهم، كل كلمة أتكلم بها لا أريد بها إلا الحق عزّ وجلّ.

إيش عليّ من الدنيا والأخرى وما فيهما؟ وهو يعلم صدقي لأنه علام الغيوب، تعالوا إلي أنا محك، أنا صاحب الكورة ودار الضرب، يا منافق إيش تهذي؟ هذيانك فارغ، كم تقول أنا، ومن أنت؟ ويلك ترى غيره وتقول أنا تأنس بغيره وتقول أنا آنس به، تسمي نفسك راضياً وذلك معارضة، تسميها صابة وبقة تزعجك وتكفرك، لا كلام حتى يصير لحمك ميتاً لكثرة الآلام والآفات فيه، فلا تؤلمه مقاريض الآفات كلها خلوة به، يخلو قلبك عن الدنيا والآخرة فيكون في عدم بالإضافة إليها وإلى ما فيهما، ووجودك عند امتثال الأمر والانتهاء عن النهي، فإنه يوجدك، وفعله يحركك ويسكنك، وأنت في غيبته معه.

لا يثبت لك مقام حتى يصح لك هذا المقام، الحق عزّ وجلّ لا يطلب من العبد صورته، إنما يطلب معناه، وهو توحيده وإخلاصه، وإزالة حب الدنيا والآخرة من قلبه، وأن تصير جميع الأشياء في معزل عنه، فإذا تم له هذا أحبه وقربه ورفعه على غيره. يا واحد وحدنا لك، خلصنا من الخلق واستخلصنا لك، صحح دعاوينا ببينة فضلك ورحمتك، طيب قلوبنا ويسر أمورنا، اجعل أنسنا بك ووحشتنا بمن سواك، اجعل همومنا هماً واحداً وهو الهم بك، والقرب منك دنيانا وأخرانا.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠١.

المجلس السابع والثلاثون

[في عيادة المرضى]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة الجمعة في المدرسة خامس رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(عُودوا المَرضى وَشيّعوا الجَنائزَ فإنّهُ يُذكّرُكمُ الآخرَةَ).

قصد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك أن تذكروا الآخرة وأنتم تهربون من ذكرها، وتحبون العاجلة، عن قريب يحال بينكم وبينها بلا أمركم، يؤخذ من أيديكم الذي أنتم فرحون به، تجيئكم البغضة، تجيئكم الترحة بدل الفرحة.

ياغافل ياهمج، انتبه ماخلقت للدنيا وإنما خلقت للآخرة، ياغافلا عما لابد لك منه، قد جعلت للشهوات واللذات وجمع الدنيا فوق الدينار وأشغلت جوارحك باللعب، إن ذكرك مذكر الآخرة والموت تقول نغصت على عيشي وتلوي برأسك هكذا وهكذا، قد جاءك نذير الموت وهو الشيب في شعرك وأنت تقصه أو تغيره بالسواد إذا جاء أجلك إيش تعمل؟

إذا جاء ملك الموت ومعه أعوانه بأى شئ ترده إذا أنقطع رزقك وانقضت مدتك بأىّ حيلة تحتال، دع عنك هذا الهوس، الدنيا مبنيه على العمل إذا عملت فيها أعطيت الأجرة، وإن لم تعمل فما تعطى؟ هى دار الأعمال والصبر على الآفات، هى دار التعب والآخرة دار الراحة.

المؤمن يتعب نفسه فيها فلا جرم يستريح، وأما أنت تعجلت بالراحة وتماطل بالتوبة وتسوّف يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وسنة بعد سنة وقد أنقضى أجلك، عن قريب تندم، كيف ما قبلت النصيحه وكيف انتبهت وصدقت، فما صدقت .

(ويحك) جذع سقف حياتك قد انكسر، أيها المغرور حيطان حياتك تتواقع هذه الدار التي أنت بها تخرب تحول منها إلى أخرى، اطلب دار الآخرة وانقل رحلك إليها، ما هذه الرحل؟

الرحل هي الأعمال الصالحة، قدم مالك إلى الآخرة حتى تجده وقت وصولك إليه،

يامغرورا بالدنيا يا مشتغلاً بلا شيء، يا من ترك السرية واشتغل بالخدامة.

(ويحك) الأخرى لا تجتمع معها لأنها لا ترضاهالـخادمة، أخرجها من قلبك وقد رأيت الآخرة كيف تجئ وتستولي على قلبك.

فإذا تم لك هذا ناداك القرب من الله عزّ وجلّ، فحينئذ خلّ الأخرى واطلبه، فهنالك تكمل صحة القلب وصفاء السرّ.

(يا غلام) إذا صح قلبك شهد الله عزّ وجلّ والملائكة وأولو العلم، يقيم لك مدع يدعى ويشهد هو لك فما تحتاج أنت تشهد بصحته لنفسك، فإذا تم لك هذا تصير جبلاً لا تزيله الرياح، ولا تنقضه الرماح، ولا تؤثر فيك رؤية الخلق ومخالطتهم، ولا تخدش خدشة في قلبك، ولا تكدر صفاء سرك.

(يا قوم) خلوا من يعمل عملاً يريد به وجه الخلق وقبولهم له، فهو عبد آبق عدو لله عزّ وجلّ كافر به وبنعمتة، محجوب ممقوتُ ملعون. الخلق يسلبون القلب والخير والدين، يجعلونك مشركاً بهم ناسياً لربك عزّ وجلّ، يريدونك لهم لا لك.

والحق عزّ وجلّ يريدك لك لا لهم، فاطلب من يريدك لك واشتغل به، فإن الاشتغال به أولى ممن يريدك له. إن كان ولا بد لك من الطلب فاطلب منه لا من خلقه، فإن أبغض الخلق إلى الله عزّ وجلّ من يطلب الدنيا من خلقه، استغث به إليه، هو الغني والخلق كلهم فقراء، لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم ضراً ولا نفعاً.

اطلب وده فإنه يريدك في البداية تكون مريدا وهو المراد، وفي النهاية تكون مرادا وهو المريد. الصغير في حال صغره يطلب أمه، فإذا كبر تطلبه أمه، إذا علم صدق إرادتك له أرادك، إذا علم صدق محبتك له أحبك ودل قلبك وقربك منه، كيف تفلح وقد تركت يد نفسك وهواك وطبعك وشيطانك على عيني قلبك؟ نح هذه الأيدي وقد رأيت الأشياء كما هي، نح نفسك بمجاهدتك لها ومخالفتك، نح يد هواك وطبعك وشيطانك فإنك تجده، نح هذه الأيدى وقد ارتفعت الحجب بينك وبين ربك عزّ وجلّ فتنظر به ما سواه.

ترى نفسك وترى غيرك، ترى عيوبك فتجتنبها وترى عيوب غيرك فتهرب منها، فإذا تم لك هذا قربك وأعطاك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. يحلند سمع قلبك وسرك وبصرها، ويصححهما ويكسوهما، ويخلع عليهما خلع

كرامته، يوليك بولايته، ونعينك ويسلطنك ويملكك، وفي سائر خلقه يسرحك، ويجعلك حارس قلبك، ويخدم لك ملائكته ويريك أرواح أنبيائه ورسله، فلا يخف] عليك من الخلق خافية.

(يا غلام) اطلب هذا المقام وتمنه واجعله همك، ودع الاشتغال بطلب الدنيا فإنها لا تشبعك، وما سوى الحق عزّ وجلّ لا يشبعك، فاشتغل به فإنه شبعك. إذا حصل لك حصل الغنى دنيا وآخرة.

يا غافلا رد من يريدك، اطلب من يطلبك، أحبّ من يحبك، اشتغل إلى من يشتاق إليك، أما سمعت قوله عزّ وجلّ:

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (١).

وقوله فيما تكلم به: وإني إلى لقائكم لأشوق، قد خلقك لعبادته فلا تلعب. أرادك لصحبته فلا تشتغل بغيره، لا تحبّ معه في محبته أحدا، إن أحببت غيره حبّ رأفة ورحمة ولطف يجوز، حبّ النفوس يجوز.

أما حبّ القلوب فلا يجوز، حبّ السر لا يجوز، آدم عليه السلام لما اشتغل قلبه بحبّ الجنة وأحب المقام فيها فرّق بينه وبينها، وأخرجه منها بطريق أكل الثمرة، مال قلبه إلى حواء، فرق بينه وبينها وجعل بينهما مسيرة ثلثمائة سنة هو بسرنديب وهي بجدة. يعقوب لما سكن إلى ولده يوسف عليهما السلام وضمه إليه فرّق بينه وبينه.

ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لما مال إلى عائشة رضي الله عنها نوع ميل جرى عليها ما جرى من القذف والبهتان وبقي أياماً لا يبصرها.

فاشتغل بالله عزّ وجلّ لا بغيره، لا تستأنس بغيره، اجعل الخلق خارج قلبك ناحية منه، فرغه له. يا بطال يا كسلان ياقليل القبول، إن قبلت مني وعملت بما أقول فلنفسك تعمل، وإن لم تعمل فعلى نفسك المقت والحرمان. قال الله عزّ وجلّ:

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ (٢).

وقال تعالى:

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (١).

---

(١) سورة المائدة آية: ٥٤.
(٢) سورة البقرة آية: ٢٨٦.

هي غداً تلقى ثواب الأعمال في الجنان وعقوبة الأعمال في النيران، عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(أطعموا طعامكم الأتقياء، وأعطوا خيرَكم المؤمنين).

إذا أطعمت للمتقي وساعدته في أمر دنياه كنت شركه فيما يعمل ولا ينقص من أجره شيء، لأنك عاونته في قصده ورفعت عنه أثقاله وأسرعت خطاه إلى ربه عزّ وجلّ، وإذا أطعمت طعامك لمنافق مراء عاص وساعدته في أمور دنياه كنت شريكاً فيما يعمل ولا ينقص من عقوبته شيء، لأنك أعنته على معصية الحق عزّ وجلّ فيرجع شرّه إليك.

يا جاهل تعلم العلم، فلا خير في عبادة بلا علم، ولا خير في إيقان بلا علم، تعلم واعمل، فإنك تفلح دنيا وأخرى، إذا لم يكن لك صبر على تحصيل العلم والعمل به كيف تفلح؟ العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه.

قيل لبعض العلماء رحمة الله تعالى عليه: بم نلت هذا العلم الذي معك؟

فقال: بباكورة الغراب، وبصبر الجمل، وبحرص الخنزير، وبتملق الكلب، كنت أبكر على أبواب العلماء كما يبكر الغراب إلى الطيران، وكنت أصبر على أثقالهم كصبر الجمل على الأثقال، وكنت أحرص على طلب العلم كحرص الخنزير على شيء يأكله، وكنت أتملق لهم كتملق الكلب بباب دار صاحبه حتى يطعمه شيئاً يا طالب العلم اسمع مقالة هذا العالم واعمل بها إن أردت العلم والفلاح.

العلم حياة والجهل موت، العالم العامل بعلمه المخلص في عمله الصابر على تعليمه لحق ربه عزّ وجلّ لا موت له، لأنه إذا مات التحق بربه عزّ وجلّ فدامت حياته معه، اللهم ارزقنا العلم والإخلاص فيه.

---

(١) سورة الإسراء آية: ٧.

المجلس الثامن والثلاثون

[في فضل لا إله إلا الله]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة الأحد في الرباط سابع رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة: عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(أضنوا شياطينكم بقول لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله، فإنّ الشيطان يضنتي بها كما يُضني أحدكم بعيره بكثرة ركوبه وثقل أحماله عليه).

(يا قوم) أضنوا شياطينكم بالإخلاص في قول لا إله إلا الله لا بمجرد اللفظ.التوحيد يحرق الإنس والجن لأنه نار للشياطين ونور للموحدين، كيف تقول لا إله إلا الله وفي قلبك كم إله؟

كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صنمك، لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب، لا ينفعك طهارة القالب مع نجاسة القلب، الموحد يضني شيطانه، والمشرك يضنيه شيطانه. الإخلاص لبّ الأقوال والأفعال لأنها إذا خلت منه كانت قشراً بلا لبّ، القشر لا يصلح إلا للنار.

اسمع كلامي واعمل به، فإنه يخمد نار طمعك ويكسر شوكة نفسك، لا تحضر موضعاً تثور فيه نار طبعك فيخرب بيت دينك وإيمانك، يثور الطبع والهوى والشيطان فيذهب بدينك وإيقانك، لا تسمع كلام هؤلاء المنافقين المتصنعين المزخرفين.

فإن الطبع يسكن إلى كلام مزخرف مصنع هوس، كعجين فطير بلا ملح يؤذي بطن آكله ويهدم بيته. العلم يؤخذ من أفواه الرجال لا من الصحف، من هؤلاء الرجال رجال الحق عزّ وجلّ المتقون التاركون الوارثون العارفون العاملون المخلصون، ما هو غير التقوى هوس وباطل.

الولاية للمتقين دنيا وآخرة، الأساس والبناء لهم دنيا وآخرة، الله عزّ وجلّ إنما يحب من عباده المتقين المحسنين الصابرين، لو كان لك خاطر صحيح عرفتهم وأحببتهم وصحبتهم، إنما يصح الخاطر إذا تنور القلب بمعرفة الله عزّ وجلّ، لا تسكن إلى خاطرك حتى تصح المعرفة ويتبين لك منه الخير والصحة، غضّ بصرك عن المحارم، وأمسك نفسك عن الشهوات، وعوّد نفسك أكل الحلال.

واحفظ باطنك بالمراقبة لله عزّ وجلّ وظاهرك اتباع السنة، وقد صارلك خاطر صحيح مصيب، وتصح لك المعرفة بالله عزّ وجلّ إنما أربي العقول والقلوب، أما النفوس والطباع والعادات فلا، ولا كرامة.

(يا غلام) تعلم العلم وأخلص حتى تخلص من شبكة النفاق وقيده، اطلب العلم لله عزّ وجلّ لا لخلقه ولا لدنياه، علامة طلبك العلم لله عزّ وجلّ خوفك ووجلك منه عند مجئ الأمر والنهي، تراقبه وتذلّ له في نفسك، وتتواضع للخلق من غير حاجة إليهم، لا طمعا فيما في أيديهم.

وتصادق في الله عزّ وجلّ وتعادي فيه، لأن الصداقة في غير الله عزّ وجلّ عداوة، الثبات في غيره زوال، العطاء في غيره حرمان، قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

(الإيمان نصفان، نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ).

إذا لم تصبر على النقم ولم تشكر على النعم فلست بمؤمن، ومن حقيقة الإسلام الإستسلام، اللهم أحي قلوبنا بالتوكل عليك، وبالطاعة لك، بالذكر لك، بالموافقة لك، بالتوحيد لك، لولا رجال في قلوبهم هذه الحياة هم مبددون في الأرض لهلكتم.

لأن الحق عزّ وجلّ يصرف عذابه عن أهل الأرض بدعائهم. صورة النبوة ارتفعت ومعناها باق إلى يوم القيامة، وإلا فعلى أيّ شيء كان يبقى في الأرض أربعون، منهم من فيه معنى من معاني النبوة قلبه كقلب واحد من الأنبياء، منهم خلفاء الله ورسله في الأرض، أقام الغلمان في النيابة عن الأستاذين، ولهذا قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم :

(العلماءُ ورثةُ الأنبياء).

هم ورثة حفظاً وعملاً، وقولاً وفعلاً، لأن القول بلا فعل لا يساوي شيئا، والدعوى المجردة بلا بينة لا تساوي شيئاً.

(يا غلام) بينتك ملازمة الكتاب والسنة والعمل بهما والإخلاص في العمل، إني أرى علماءكم جهالاً، زهادكم طالبي الدنيا وراغبين فيها، متوكلين على الخلق ناسين الحق عزّ وجلّ، الثقة بغير الحق عزّ وجلّ سبب اللعنة، عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(ملعون ملعون من كانت ثقته بمخلوق مثله).

وقال عليه الصلاة والسلام:

(من تعزّز بمخلوق فقد ذلّ).

(ويحك) إذا خرجت من الخلق صرت مع الخالق، يعرفك مالك وما عليك، تميز بين مالك وبين ما لغيرك، عليك بالثبات والدوام على باب الحق عزّ وجلّ وقطع الأسباب من قلبك.

وقد رأيت الخير عاجلاً وآجلاً، هذا شيء لا يتم والخلق والرياء في قلبك، والأخرى وما سوى الحق عزّ وجلّ في قلبك ولا مقدار ذرة من ذلك، إذا لم تصبر لا دين لك، لا رأس لإيمانك. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم :

(الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد).

معنى الصبر أنك لا تشكو إلى أحد، ولا تتعلق بسبب، ولا تكره وجود البلية، ولا تحب زوالها. العبد إذا تواضع لله عزّ وجلّ في حال فقره وفاقته وصبر معه على مراده ولم يستنكف من الصفة المباحة وواصل الضياء بالظلام بالعبادة والكسب ينظر إليه بعين الرحمة، يغنيه ويغني عياله من جهة لم تكن في حسابه. قال الله عزّ وجلّ :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(١).

أنت كالحجام تخرج الداء من غيرك وفيك داء محض ما تخرجه، إلى أراك تزداد علما ظاهراً وجهلاً باطناً، مكتوب في التوراة: من ازداد علما فليزدد وجعا، ما هذا الوجع؟ هو الخوف من الله عزّ وجلّ والذلّ له ولعباده.

إذا لم يكن لك علم تعلم، إذا لم يكن لك علم ولا عمل ولا إخلاص ولا أدب ولا حسن ظن بالشيوخ فكيف يجئ منك شيء؟ قد جعلت همك الدنيا وحطامها، عن قريب يحال بينك وبينها، أين أنت من القوم الذين همهم همّ واحد، يراقبون الله عزّ وجلّ في بواطنهم كما يراقبونه في ظواهرهم، يهذبون القلب كما يهذبون الجوارح.

حتى إذا تم لهم هذا كفاهم همّ الشهوات بأسرها، فلا يبقى في قلوبهم إلا شهوة واحدة، وهي طلب الله عزّ وجلّ والقرب منه ومحبته فحسب.

---

(١) سورة الطلاق الآيتان: ٢٦، ٢٧.

حكى أن بني إسرائيل أصابتهم شدة، فاجتمعوا إلى نبيّ من أنبيائهم فقالوا له:

خبرنا بما يرضى الحق عزّ وجلّ حتى نتبعه فيكون سبباً لدفع هذه الشدة عنا، فسأل الحق عزّ وجلّ عن ذلك، فأوحى الله إليه: قل لهم: إن أردتم رضاي فأرضوا المساكين، فإن أرضيتموهم رضيت، وإن أسخطتموهم سخطت.

اسمعوا ياعقل أنتم ما تزالون تسخطون المساكين وتريدون رضا الله عزّ وجلّ، ما يقع بأيديكم رضاه بل أنتم متقلبون في سخطه، اثبتوا على خشونة كلامي وقد أفلحتم، الثبات نبات، ما كنت أهرب من كلام الشيوخ وغضاضته وخشونته، بل كنت أخرس أعمى.

الآفات تنزل عليّ منهم وأنا ساكت، وأنت لا تصبر على كلامهم وتريد تفلح، لا ولا كرامة، لا تفلح حتى توافق القدر لك وعليك وتصحب الشيوخ مع إزالة التهم في حظك ونصيبك، وتتبعهم وتوافقهم في جميع الأحوال وقد جاءك الفلاح دنيا وآخرة. افهموا ما أقول واعملوا به.

الفهم بلا عمل لا يساوي شيئاً، العمل بلا إخلاص طمع فارغ، الطمع كل حروفه فارغة مجوفة ليس فيها شيء، العوام لا يعرفون بهرجتك، الصيرفي يعرف بهرجتك ثم يعلم العوام حتى يحذروك.

لو صبرت مع الله عزّ وجلّ لرأيت عجائب من لطفه. يوسف عليه السلام لما صبر على الأخذ والعبودية والسجن وال ووافق ربه عزّ وجلّ صحت نجابته وصار ملكاً، نقل من الذلّ إلى العزّ، من الموت إلى الحياة.

فهكذا أنت إذا اتبعت الشرع وصبرت مع الله عزّ وجلّ وخفت منه ورجوته وخالفت نفسك وهواك وشيطانك نقلت من هذا الذي أنت فيه إلى غيره، تنقل مما تكره إلى ما تحب، اجهد واجتهد فإنك بك لا تجيء ولا بد منك، اجتهد وقد جاءك الخير، من طلب وجدّ وجد، اجهد في أكل الحلال فإنه ينوّر قلبك ويخرجه من ظلماته، أنفع العقل ما عرفك نعم الله عزّ وجلّ وأقامك في شكرها وأعانك على الاعتراف بها وبمقدارها.

(يا غلام) من عرف بعين اليقين أن الله عزّ وجلّ قسم جميع الأشياء وفرغ منها لا يطلب منه شيئاً حياء منه، يشتغل بذكره عن مطالبته، لا يسأله تعجيل قسمه ولا يعطيه قسم غيره، دأبه الخمول والسكوت وحسن الأدب وترك الاعتراض.

لا يشكو إلى الخلق لا في قليل ولا في كثير، الكدية من الخلق بالقلب كالكدية منهم باللسان عندي، لا فرق بينهما من حيث الحقيقة.

(ويلك) ما تستحي تطلب من غير الله عزّ وجلّ وهو أقرب إليك من غيره، تطلب من الخلق ما لا حاجة بك إليه، كنز مكنوز وأنت تزاحم الفقراء على حبة وذرّة، إذا مت افتضحت، تظهر مخالبيك ومكاتمك، وتأخذك اللعنة من جوانبك، لو كنت عاقلاً اكتسبت ذرّة من الإيمان تلقى الله عزّ وجلّ بها.

ولكنت تصحب الصالحين وتتأدب بهم بأقوالهم وأفعالهم، حتى إذا ترعرع إيمانك وتمّ إيقانك استخلصك الله عزّ وجلّ له وتولى أدبك وأمرك ونهيك من حيث قلبك يا عبد صنم الرياء ما تشم قرب الله عزّ وجلّ لا دنيا ولا آخرة.

يا مشركاً بالخلق مقبلاً عليهم بقلبه أعرض عنهم، فليس منهم ضرر ولا نفع ولا عطاء ولا منع، لا تدعي توحيد الله عزّ وجلّ مع الشرك الملازم لقلبك، فما يقع بيدك منه شيء.

المجلس التاسع والثلاثون

[في حب الأولياء والصالحين]

وقال رضي الله عنه بكرة الجمعة في الرباط ثاني عشر رجب من سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

إن أردت الملك دنيا وآخرة فاجعل كلك لله عزّ وجل، فتصير أميراً ورئيساً على نفسك وعلى غيرك، إني قد نصحتك فاقبل نصحي، قد صدقتك فصدقني، إذا كذبت وكذبت وكذب لك، وإذا صدقت وصدقت صدقت وصدق لك (كما تدين تدان).

خذ مني دواء لمرض دينك واستعمله وقد جاءته العافية. من تقدم كانوا يطوفون الشرق والغرب في طلب الأولياء والصالحين الذين هم أطباء القلوب والدين، فإذا حصل لهم واحد منهم طلبوا منه دواء لأديانهم، وأنتم اليوم أبغض إليكم الفقهاء والعلماء والأولياء الذين هم المؤدبون والمعلمون.

فلا جرم لا يقع بأيديكم الدواء. إيش ينفع علمي وطبي معك؟ فكل يوم أبني لك أساسا وأنت تنقصه، أصف لك دواء ولا تستعمله، أقول لك لا تأكل هذه اللقمة فيها سم كل هذه دواء فتخالفني وتأكل التي فيها السم، عن قريب يظهر ذلك في بنية دينك وإيمانك إني أنصحك ولا أفرغ من سيفك ولا أريد ذهبك.

من يكون مع الله عزّ وجل لا يفزع من أحد في الجملة، لا من جن ولا من إنس، ولا من حشرات الأرض مسباعها وهوامها، ولا شيء من المخلوقات بأسرها. لا تزدروا بالشيوخ العمال بالعلم.

أنتم جهال بالله عزّ وجل ورسوله والصالحين من عباده الواقفين معه الراضين بأفعاله. كل السلامة في الرضا بالقضاء وقصر الأمل والزهد في الدنيا، فإذا رأيتم في أنفسكم ضعفاً فدونكم بذكر الموت وقصر الأمل، قال صلى الله تعالى عليه وسلم حكاية عن الله عزّ وجل:

(ما تقرّب المتقربون إليّ بأفضل من أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش).

يبصر جميع أفعاله بالله تعالى، وبه يخرج من حوله وقوته ورؤيته نفسه وغيره، نصير حركاته وحوله وقوته بالله عزّ وجلّ، لا به ولا بسائر الخلق، يعزل نفسه ودنياه وأخراه، كله طاعة.

فلا جرم تقربه طاعته تكون سبباً لمحبة الله عزّ وجلّ له، بالطاعة يحبّ ويقرب، وبالمعصية يبغض ويبعد، بالطاعة يحصل الأنس، بالمعصية تحصل الوحشة، لأن من أساء استوحش، بمتابعة الشرع يحصل الخير، وبمخالفته يحصل الشرّ، من لم يكن الشرع رفيقه في جميع أحواله فهو هالك مع الهالكين.

اعمل واجتهد ولا تتكل على العمل، فإن التارك للعمل طامع، والمتكل على العمل معجب مغرور. قم قيام بيد الدنيا والآخرة، وقوم قيام بين الجنة والنار، وقوم قيام بين الخلق والخالق، إن كنت زاهداً فأنت لبن الدنيا والآخرة وإن كنت خائفاً فأنت بين الجنة والنار.

وإن كنت عارفاً فأنت قائم بين الخلق والخالق، تنظر إلى الخلق تارة وإلى الخالق أخرى، تبلغ القوم وتعرفهم أحوال الآخرة وحسابها وجميع ما فيها، لا بل تخبر بما قد شاهدت ورأيت، ليس الخبر كالمعاينة، القوم منتظرون لقاء الله عزّ وجلّ يتمنونه في جميع أوقاتهم.

لا يخافون من الموت لأنه سبب للقاء محبوبهم. فارق قبل أن تفارق، ودع قبل أن تودع، اهجر قبل أن يهجرك أهلك وسائر الخلق، ما ينفعونك إذا حصلت في القبر، تب من تناول المباح بشهوة.

(يا قوم) تورعوا في جميع أحوالكم، الورع كسوة الدين، اطلبوا مني كسوة لأديانكم، اتبعوني فإني على جادة الرسول صلى الله عليه وسلم، أنا تابع له في أكله وشربه ونكاحه وأحواله وما كان يشير إليه.

لا أزال كذلك حتى أقع بمراد الله عزّ وجلّ مني فإني على ذلك، ولا أفكر بحمد الله عزّ وجلّ، لا أفكر بحمدك ولا ذمك، بعطائك ومنعك، بخيرك وشرك، بإقبالك وإدبارك، أنت جاهل والجاهل لا يبالى به، إذا أفلحت وعبدت الله عزّ وجلّ كانت عبادتك مردودة عليك، لأنها عبادة مقرونة بالجهل والجهل كله مفسدة، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(مَنْ عَبَدَ اللهَ عزَّ وَجلَّ على جَهْلٍ كانَ ما يُفْسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلح).

لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة.

عن بعضهم رضي الله عليه أنه قال: من لم يكن له شيخ فإبليس شيخه، اتبع الشيوخ العلماء بالكتاب والسنة العاملين بهما أو أحسن الظن بهم، وتعلم منهم وأحسن الأدب بين أيديهم والعشرة معهم وقد أفلحت.

إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فما تفلح أبدا. ما سمعت من استغنى برأيه ضل.

هذب نفسك بصحبة من هو أعلم منك، اشتغل بإصلاحها ثم انتقل إلى غيرها، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(ابْدَأْ بِنَفْسِكَ ثمَّ بِمَنْ تعولُ)، وقال: (لا صَدَقَةَ وَذُو رَحِمٍ مُحْتاجٌ).

المجلس الأربعون

[في التفقه في الدين]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الأحد بكرة في الرباط رابع عشر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(إذا أراد الله بعبدٍ خيراً فقّهه في الدين وبصّره بعيوب نفسه).

الفقه في الدين سبب لمعرفة النفس، من عرف ربه عزّ وجلّ عرف الأشياء كلها به تصح له العبودية والعتق من عبودية غيره، لا فلاح لك، لا نجاة لك حتى تؤثر على غيره، تؤثر دينك على شهواتك، وآخرتك على دنياك، وخالقك على خلقك.

هلاكك في تقديم شهوتك على دينك ودنياك على آخرتك، وخلقك على خالقك، اعمل بهذا وقد كفاك، أنت محجوب عن الحق عزّ وجلّ، لا إجابة لك، الإجابة إنما تكون بعد الاستجابة، إذا أجبته بالعمل أجابك في وقت سؤالك له، وجود الزرع إنما يكون بعد الزراعة، ازرع حتى تحصد، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(الدنيا مزرعة الآخرة).

ازرع هذه الزراعة بالقلب والبدن، هو الإيمان والحراثة لها وجلب الماء إليها وسقيها بالأعمال الصالحة، إذا كان هذا القلب فيه لين ورأفة ورحمة نبت فيه.

وإذا كان قاسياً فظاً كانت أرضه سبخة والسبخ لا ينبت الزرع، إذا زرعت على رأس جهل لا ينبت فيه فهو إلى الهلاك أقرب، تعلم هذه الزراعة من الزارع لها، لا تنفرد برأيك، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(استعينوا على كلّ صنعة بصالح أهلها).

أنت مشغول بزرع الدنيا لا بزرع الآخرة، أما علمت أن طالب الدنيا لا يفلح مع الآخرة؟ لا يرى الحق عزّ وجلّ. إن أردت الآخرة فعليك بترك الدنيا.

وإن أردت الحق عزّ وجلّ فعليك بترك الحظوظ والخلق وقد وصلت إليه، فإذا صح لك هذا جاءت إليك الدنيا والآخرة والحظوظ والخلق تبعاً طوعاً وكرهاً.

لأن الأصل معك وكل الفروع تبع لهذا الأصل، كن عاقلاً، لا إيمان لك، لا عقل لك، لا تمييز لك، أنت قائم مع الخلق مشرك بهم، أنت هالك إن لم تتب، تنح عن طريق القوم، تنح عن بابهم.

لا تزاحمهم بأكتاف بنيتك دون قلبك، لا تزاحمهم بنفاقك ودعاويك وهوسك، إنما تزاحم القوم بالقلوب والأسرار بأكتاف التوكل والصبر على الآفات والرضا بالأقسام.

(يا غلام) كن بين يدي الحق عزّ وجلّ والآفات تنزل عليك، أنت قائم على قدم محبته لا تتغير، لا تزيلك الرياح والأمطار، ولا تفرقك الرماح، تكون ثابتاً ظاهراً وباطناً، قائماً في مقام لا خلق فيه، لا دنيا فيه، ولا آخرة فيه، لا حقوق فيه لا حظوظ فيه، لا ألم فيه، لا كيف فيه، لا ما سوى الحق عزّ وجلّ فيه.

لا تكدرك رؤية الخلق ومؤنة العيال، ولا تتغير بالقلة والكثرة، لا بالذم ولا بالحمد، لا بالإقبال ولا بالإدبار، تكون معه من وراء معقول الإنس والجن والملك والخلق في الجملة. ما أحسن ما قال بعضهم، إن كنت تصدق وإلا فلا تتبعنا. الصبر والإخلاص والصدق أساس لما قد شرحت لك، تريدني أنافقك وألين لكف الكلام تفرح نفسك وتعجب وتظن أنها على شيء؟

لا ولا كرامة لها، أنا نار، ولا يثبت على النار إلا السمندل الذي يبيض ويفرخ ويقوم ويقعد في النار، اجتهد أن تكون سمندلاً في نار الآفات والمجهدات والمكابدات والصبر على مطارق الأقضية والأقدار حتى على مصاحبتي وسماع كلامي وخشونته، والعمل به ظاهراً وباطناً سراً وعلانية في خلوتك أولاً، وفي جلوتك ثانياً، وفي وجودك ثالثاً.

فإن صح لك هذا جاءك الفلاح دنيا وآخرة بمشيئة الله عزّ وجلّ وتقديره، أنا لا احابي أحداً من الخلق في شيء هو لله عزّ وجلّ، ومن حقه لا ألتفت إلى أحد منهم في شيء بلا إمرة، بل أتقوى به في استيفاء حقه من خلقه، ولا أضعف وأقوى مع نفسي وأوافقها فيهم.

عن بعضهم رحمة الله تعالى عليه أنه قال: وافق الله عزّ وجلّ في الخلق ولا توافق الخلق في الله، انكسر من انكسر، وانجبر من انجبر، كيف أبالي وأنت عاص لله عزّ وجلّ، مستهين بأوامره ونواهيه، منازع له في أقضيته وأقداره، معاد له في ليلك ونهارك، فأنت ممقوته وملعونه.

قال الله عزّ وجلّ في بعض كلامه: إذا أطعت رضيت، وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية، وإذا عصيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، وتبلغ لعنتي إلى الولد السابع، هذا زمان بيع الدين بالتبي، زمان طول الأمل وقوّة الحرص، اجهد أن لا تكون ممن قال الله فيهم:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾(١).

كل عمل يراد به غير الله عزّ وجلّ فهو هباء منثور.

(ويحك) إن خفي أمرك على العوام فما يخفى على الخواص، السوادى يخفي عليه بهرجك، الصيرفي لا، الجاهل يخفى عليه العالم لا، اعمل وأخلص في عملك واشتغل بالله عزّ وجلّ ودع الاشتغال بما لا يعنيك غيرك مما لا يعنيك فلا تشتغل به عليك بخويصة نفسك حتى تقهرها وتذلها وتستأسرها وتجعلها مطيتك فتقطع بها فيافي الدنيا حتى تصل إلى الآخرة.

تقطع بها الخلق حتى تصل إلى الحق عزّ وجلّ، حتى إذا تم لك وقويت أردفت غيرك، ومن الدنيا أخرجته، وإلى المولى قدمته، ولقم الحكم لقمته. عليك بصدق الحديث لا تتأول، فإن المتأول غادر، لا تخف الخلق ولا ترجهم.

فإن ذلك من ضعف الإيمان، على همتك وقد علوت، إن الله عزّ وجلّ يعطيك على قدر همتك وصدقك وإخلاصك، اجتهد وتعرض واطلب، فإن بك لا يجيء شيء، ولا بد منك تكلف في تحصيل الأعمال الصالحة كما تتكلف في تحصيل الرزق، الشيطان يلعب بعوام الناس كما يلعب الفارس بكرته، يدير أحدهم فيما يشاء كما يدير أحدكم دابته فيما يشاء.

يضرب أقفية قلوبهم ويستخدمهم كيف أراد يحطهم من الصوامع ويخرجهم من المحاريب ويوقفهم في خدمته، والنفس تعينه على ذلك وتهيء له أسبابه.

(يا غلام) اضرب نفسك بسوط الجوع والمنع من الشهوات واللذات والترهات واضرب قلبك بسوط الخوف والمراقبة، اجعل الاستغفار دأب نفسك وقلبك وسرك.

فإن لكل منهم ذنباً يخصه، ألزمهم بالموافقة والمتابعة له في جميع الأحوال. يا

---

(١) سورة الفرقان آية: ٢٣.

قليل الدراية إذا كان القدر لا يمكنك رده ولا تغييره ومحوه ومخالفته فلا ترد غير ما يريد، إذا كان لا يأتيك إلا بما يريد فلا تريد، إذا كان لا يريد شيئاً لا يتم فلا تتعب نفسك وقلبك فيه، سلم الكل إلى ربك عزّ وجل، تعلق بذيل رحمته بيد توبتك إليه.

فإذا دمت على هذا تزول الدنيا من عين قلبك ورأسك، وتهون عليك مصائبها، وترك شهواتها ولذاتها، ولا تشكو من قرصاتها ولسعاتها تصير نفسك وألم البلاء كآسية رضي الله تعالى عنها زوجة فرعون لما تحقق أنها مؤمنة بالله عزّ وجل أمر بها فضرب في يديها ورجليها أوتاداً من حديد، وجعل يعاقبها بالسياط، رفعت رأسها إلى السماء.

فرأت أبواب الجنة مفتحة والملائكة تبني فيها بيتاً، وجاءها ملك الموت ليقبض روحها فقال لها: هذا البيت لك، فضحكت وذهب عنها ألم العقوبة وقالت:

﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾[١].

فهكذا تصير أنت، لأنك تنظر بعين قلبك ويقينك إلى ما ثم فتصبر على ما همنا من البلاء والآفات، وتخرج من حولك وقوتك، ولا تأخذ ولا تعطي ولا تتحرك ولا تسكن إلا بحول الله وقوته، تفنى بين يديه، تسلم أمرك إليه، توافقه فيك وفي الخلق.

فلا تدبر مع تدبيره، ولا تحكم مع حكمه، ولا تختر مع اختياره، من عرف هذا الحال لا يطلب غيره، لا يكون له أمنية سواه، كيف لا يتمنى العاقلهذا الحال وصحبة الحق عزّ وجل لا تتم إلا به؟

---

(١) سورة التحريم آية: ١١.

المجلس الحادي والأربعون

[في المحبة في الله]

وقال رضي الله تعالى عنه بعد كلام:

اعلم أن الأشياء كلها محركة بتحريكه ومسكنة بتسكينه، إذا ثبت هذا له استراح من ثقل الشرك بالخلق واستراح الخلق منه، لأنه لا يعيب عليهم ولا يطالبهم بشيء مما يليه، إنما يطالبهم بما طلبهم به الشرع فحسب، يطالبهم شراع ويعذرهم علماً.

جمعاً بين الحكم والعلم، رؤية الله عزّ وجلّ في الخلق عقيدة لا ينقض بها الحكم، هو المقدر وهو المطالب.

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1].

هذا معتقد كل مسلم موقن موحد راض عن الله عزّ وجلّ موافق له في أقضيته وأقداره وصنعه فيه وفي غيره، هو غنيّ عن نفسك وصبرك، ولكن ينظر كيف تعمل في دعواك هل تصدق أو تكذب؟

المحب لا يملك شيئاً، يسلم الكل إلى محبوبه، محبة وتملك لا يجتمعان. المحب للحق عزّ وجلّ الصادق في محبته يسلم إليه نفسه وماله وعاقبته، ويترك اختياره فيه وفي غيره، لا تتهمه في تصرّفه، لا تستعجله، لا تبخله، يحلو عنده كل ما يصدر إليه منه، تنسدّ جهاته، لا يبقى له جهة واحدة. يا من يدّعي محبة الله عزّ وجلّ لا تكمل لك محبتك إياه حتى تنسدّ الجهات في حقك، لا يبقى لك إلا جهة واحدة، محبوبك يخرج الخلق من قلبك من العرش إلى الثرى، فلا تحب الدنيا ولا الآخرة، تستوحش منك وتستأنس به، تصير كمجنون ليلى لما تمكنت منه المحبة خرج من بين الخلق ورضي بالوحدة وخالط الوحش، خرج من العمران ورضي بالخراب، خرج من مدح من مدح الخلق وذمهم، وصار كلامهم وسكوتهم عنده واحداً، رضاهم عنه وسخطهم عنده واحداً، قيل له بعض الأيام من أنت؟

قال: ليلى، وقيل له أيضاً: من أين جئت؟ قال: ليلى، قيل له: إلى أين تمر؟ قال: ليلى. عميى عما سواها، وطرش عن سماع غير كلامها، لم يرجع عنها بعذل عاذل، ما أحسن ما قال بعضهم:

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

وإذا تساعدت النفوسُ على الهوى   فالخَلْقُ تضربُ في حديدٍ باردِ

هذا القلب إذا عرف الحق عزّ وجلَ وأحبه وقرب منه يستوحش من الخلق والكون اليهم، يستوحش من أكله وشربه ولباسه ونكاحه، يستوحش من العمران ويهيم على وجهه إلى الخراب.

لا يقيده شيء سوى أمر الشرع، يقيده في الأمر والنهي والفعل، يقيده إلى أوقات مجيء القدر. اللهم لا تدعنا من يد رحمتك فنغرق في بحر الدنيا وبحر الوجود، يا مانح الكرم والآراء السابقة أدركنا.

(يا غلام) من لا يعمل بما أقول لا يفهم ما أقول، فإذا عمل فهم. إذا لم تحسن الظن بي ولا تؤمن بما أقول ولا تعمل به كيف تفهم؟

أنت جائع تقف بحذائي ولا تأكل من طعامي كيف تشبع؟ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال:سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول:

(مَنْ مَرِضَ لَيْلَةً واحِدَةً وَهُوَ رَاضٍ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ صابِرٌ عَلى ما نَزَلَ بِهِ خَرَجَ مِن ذنوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أمُّهُ).

بك لا يجيء شيء ولا بد منك.كان معاذ رضي الله تعالى عنه يقول للصحابة:قوموا نؤمن ساعة: أي قوموا ذوقوا ساعة، قوموا ادخلوا الباب ساعة، رفقاً بهم، كان يشير إلى الاطلاع على أشياء غامضة، يشير إلى النظر بعين اليقين.

ليس كل مسلم مؤمناً، ولا كل مؤمن موقناً، ولهذا لما قال الصحابة رضي الله عنهم للنبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم إن معاذاً يقول لنا قوموا نؤمن ساعة: ألسنا مؤمنين؟ فقال:

(دَعُوا مُعاذاً وشأنَهُ).

يا عبد نفسه وهواه وطبعه وشيطانه ودنياه، لا قدر لك عند الله وعند عباده الصالحين، من عبد الآخرة لا ألتفت إليه. كيف من يعبد الدنيا؟.

(ويحك) إيش تعمل بلقلقة اللسان بلا عمل، أنت تكذب وعندك أنك تصدق، تشرك وعندك أنك توحد، وتعتقد الصحة معك بالغش وتعتقد أنه جوهر، شغلي معك أن أمنعك من الكذب وآمرك بالصدق، وبيدي ثلاث محكات أعرف بها: الكتاب والسنة،

وقلبي المحك الأخير يتبين فيه الأشباح، لا يبلغ القلب إلى هذه المنزلة حتى يتحقق له العمل بالكتاب والسنة، العمل بالعلم تاج العلم.

العمل بالعمل نور العلم، صفاء الصفاء، جوهر الجوهر، لب اللب، العمل بالعلميصحح القلب ويطهره، فإذا صح القلب صحت الجوارح. إذا طهر القلب طهرت الج ٔذا خلع عليه خلع على الجنة، إذا صلحت المضغة صحت البنية، صحة القلب من صحة السرّ الذي بين الآدمي وبين ربه عزّ وجل، السرّ طائر والقلب قفصه، والقلب طائر والبنية قفصه، والبنية طائر والقبر قفصها، وهو قفص القلب الذي لا بد لهم من الدخول إليه.

المجلس الثاني والأربعون

[في التقوى]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة في المدرسة تاسع عشر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(مَن أحبَّ أن يكونَ أكرمَ الناس فليتقِ الله. ومَن أحبَّ أن يكونَ أقوى الناس فليتوكّل على الله. ومَن أحبَّ أن يكونَ أغنى الناس فليكُن واثقاً بما في يد الله أوثق على ما في يده).

من أحبّ الكرامة دنيا وآخرة فليتق الله عزّ وجلّ، لأنه قال عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(١).

الكرامة في تقواه، والمهانة في معصيته، ومن أحبّ القوّة في دين الله عزّ وجلّ فليتوكل على الله عزّ وجلّ.

لأن التوكل يصحح القلب ويقويه، ويهذبه ويهديه، ويريه العجائب. لا تتوكل على درهمك ولا دينارك وأسبابك، فإن ذلك يعجزك ويضعفك، وتكل على الله عزّ وجلّ، فإنه يقويك ويعينك، ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب، ويقوى قلبك. ولا تبالي بمجيء الدنيا وذهابها بإقبال الخلق وإدبارهم، فحينئذ تكون أقوى الناس، وإذا توكلت على مالك وجاهك وأهلك وأسبابك فقد تعرّضت لمقت الله عزّ وجلّ ولزوال هذه أشياء، لأنه غيور لا يحب أن يرى في قلبك غيره.

ومن أحبّ الغنى في الدنيا والآخرة فليتق الله عزّ وجلّ دون غيره، وليقف على بابه ويستحي منه أن يأتي باب غيره. ويغمض عينيه عن النظر إلى غيره: أعني عيني القلب لا عيني القالب.

كيف تثق بما في يديك وهو معرّض للزوال وتترك الثقة بالله عزّ وجلّ وهو لا يزول جهلك به يحملك على الثقة بغيره، ثقتك به كل الغنى، ثقتك بغيره كل الفقر يا تارك التقوى قد حرمت الكرامة دنيا وآخرة، يا متوكلاً على الخلق والأسباب قد

---

(١) سورة الحجرات آية: ١٣.

حرمت القوّة والتعزّز بالله عزّ وجلّ دنيا وآخرة، ويا واثقاً بما في يديه قد حرمت الغنى بالله عزّ وجلّ دنيا وآخرة.

(يا غلام) إن أردت أن تكون متقياً متوكلاً واثقاً فعليك بالصبر فإنه أساس لكل خير، إذا صحت لك النية في الصبر فصبرت لوجه الله عزّ وجلّ كان جزاؤه لك أن يدخل قلبك حبه وقربه دنيا وأخرى. الصبر موافقة الحق عزّ وجلّ في قضائه وقدره الذي سبق به علمه ولا يقدر أحد من خلقه على محوه، ثبت هذا عند المؤمن الموقن فصبر على ما قدر عليه اختياراً لا اضطراراً.

إن الصبر في أول قدم اضطرار وفي ثاني قدم اختيار، كيف تدعي الإيمان ولا صبر لك؟ كيف تدعي المعرفة ولا رضا لك؟ هذا شيء لا يجيء بمجرد الدعوى، لا كلام حتى ترى الباب وتتوسد بالعتبة وتصبر على دوس أقدام القدر وأقدام الضرّ والنفع، يدوس قلبك لا جسد قالبك وأنت في مكانك لا تبرح كأنك مبنج، كأنك جسد بلا روح.

هذا الأمر يحتاج إلى سكون بلا حركة، وخمول بلا ذكر، غيبة عن الخلق بلا حضور معهم من حيث القلب والسرّ والباطن والمعنى. ما أكثر ما أصف ولا تستعملون، ما أكثر ما أطول وأعرض وأشرح ولا تفهمون، ما أكثر ما أعطيكم ولا تأخذون، ما أكثر ما أعظكم ولا تتعظون، ما أقسى قلوبكم وما أجهلها به عزّ وجلّ، لو كنتم تعرفونه وتؤمنون بلقائه وتذكرون الموت وما وراءه لما كنتم كذلك.

أما شاهدتم موت آبائكم وأمهاتكم وأهاليكم؟ أما شاهدتم موت ملوككم؟ فهلا اتعظتم بهم وزجرتم نفوسكم عن طلب الدنيا وحبّ البقاء فيها؟ هلا غيرتم قلوبكم وبدلتموها وأخرجتم الخلق منها؟ قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾(١).

تقولون ولا تعملون، وكم تعملون ولا تخلصون. كونوا عقلاء ولا تسيئوا أدبكم بين يدي الحق عزّ وجلّ، تأيدوا وتحققوا، أنيبوا وتفكروا، هذا الذي أنتم فيه لا ينفعكم في الآخرة، أنتم بخلاء على أنفسكم، لو تكرّمتم عليها لحصلتم لها ما ينفعها في الآخرة.

---

(١) سورة الرعد آية: ١١.

أنتم اشتغلتم بما يزول وفاتكم مالاً يزول، لا تشتغلون بجمع الأموال والأزواج والأولاد، فعن قريب يحال بينكم وبين جميع ذلك، لا تشتغلوا بطلب الدنيا والتعزز بالخلق، فإنهم لا يغنون عنكم من الله شيئاً، قلبك نجس بالشرك، شاكٌ في الله عزّ وجلّ، متهم له متعرّض عليه في جميع أحوالك، فلما علم منك ذلك بغضك وألقى في قلوب عباده الصالحين بغضك.

كان بعضهم رحمة الله تعالى عليه لا يخرج من بيته إلا معصب العينين يقوده ابنه، فقيل له في ذلك؟ فقال: حتى لا أبصر كافراً بالله عزّ وجلّ، ففي بعض الأيام خرج من بيته محلول العينين، فرأى فوقع مغشياً عليه. ما أشدّ ما كانت غيرته لله عزّ وجلّ كيف تعبد غيره وتشرك به؟

كيف تأكل نعمته وتكفر به؟ وأنتم لا تحسنون بذلك بل تؤاكلون الكفار وتقعدون معهم، لأن ما في قلوبكم إيمان ولا غيرة للحق عزّ وجلّ.

عليكم بالتوبة والاستغفار والحياء منه، اخلعوا ثياب الوقاحة عليه والتجرّي بين يديه، تجنبوا حرام الدنيا وشبهاتها، ثم تجنبوا مباحاتها بهوى وشهوة لأن تنولكم بالهوى والشهوة يشغلكم عن الحق عزّ وجلّ. قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(الدُّنيا سجنُ المُؤمن).

كيف يفرح المسجون في سجنه، ما يفرح ولكن بشره في وجه وحزنه في قلبه بشره على ظاهره والآفات تقطعه من حيث باطنه وخلوته، ومعناه جراحاته معصية من تحت ثيابه يعطي جراحاته بقميص تبسمه.

ولهذا يباهي به ربه عزّ وجلّ الملائكة، يومي إليه بالأصابع، كل واحد من هؤلاء شجاع في دولة دين الله عزّ وجلّ وسرّه، ما زالوا يصبرون معه ويتجرّعون مرارة أقداره حتى أحبهم. قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾[1].

إنما يبتليك لحبه لك، كلما امتثلت أوامره وانتهيت عن نواهيه ازددت حباً، وكلما صبرت على بلائه ازددت قرباً منه.

(١) سورة آل عمران آية: ١٤٦.

عن بعضهم رحمة الله تعالى عليه أنه قال: أبى الله أن يعذب حبيبه، ولكن يبتليه ويصبره.وكان النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم يقول:

(كأنّ الدنيا لم تكن، وكأنّ الآخرة لم تزل).

يا طالبي الدنيا، يا محبي الدنيا، تقدموا إليّ حتى أعرفكم عيوبها وأدلكم على طريق الحق عزّ وجلّ وألحقكم بالذين يريدون وجه الله عزّ وجلّ، أنتم على هوس، اسمعوا ما أقول لكم واعملوا به وأخلصوا بالعمل، إذا علمتم ما أقول ومتم على العمل رفعتم إلى عليين، فتنظرون إليّ هناك فترون أصل كلامي من هناك، فتدعون لي وتسلمون عليّ وتتحققون حقيقة ما أشير إليه.

(يا قوم) أزيلوا التهمة لي من قلوبكم فلست بلعاب ولا طالب دنيا، إنما أقول الحق وأشير إلى الحق، ما زلت في عمري كله أحسن الظن في الصالحين وأخدمهم.

وذلك الذي ينفعني، لا اريد منكم أجرة على نصحي لكم وكلامي عليكم، ثمن كلامي العمل به، وهو كلام يصلح للخلوة للإخلاص. النفاق ينقطع عند انقطاع الحيل والأسباب، يرى الإيمان والإيقان لا للنفوس والأهوية، ينفق على المؤمن لا على المنافق.

(يا قوم) دعوا عنكم الهوسات والأماني الباطلة، واشتغلوا بذكر الله عزّ وجلّ تكلموا بما ينفعكم واسكتوا عما يضركم، إن أردت أن تتكلم ففكر فيما تريد أن تتكلم به وحصل فيه النية الصالحة ثم تكلم.

ولهذا قيل: لسان الجاهل أمام قلبه، ولسان العاقل العالم وراء قلبه. اخرس أنت، فإن أراد الله عزّ وجلّ منك النطق فهو ينطقك، إذا أرادك لأمر هيأك له، صحبته خرس كلي، فإذا تمّ الخرس يجيء النطق منه إن شاء أو يديم ذلك إلى حين الاتصال بالآخرة، وهذا معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(مَن عرَفَ اللهَ كَلَّ لِسانُهُ).

يكل لسان ظاهره وباطنه عن الاعتراض عليه في شيء من الأشياء، يصير موافقة بلا منازعة، يعمى عيني قلبه عن النظر إلى غيره، يتمزّق ويتلاشى أمره، ويتفرّق ماله ويخرج من وجوده، ويخرج دنياه وآخرته، يذهب اسمه ورسمه.

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾[١].

يوجد بعد الفقد، يعيده خلقاً آخر، يفنيه بيد الفناء ثم يعيده بيد البقاء ليطلب اللقاء، ثم يعيده ليدعو الخلق من الفقر إلى الغنى. الغنى هو الغنى بالله عزّ وجلّ والاتصال به؛ والفقر هو البعد عن الله عزّ وجلّ والاستغناء بغيره. الغنى من ظفر قلبه بقرب ربه عزّ وجلّ، والفقير من عدم ذلك. من أراد هذا الغنى فليترك الدنيا والأخرى وما فيهما وما سواه في الجملة، يخرج الأشياء من قلبه شيئاً فشيئاً،لا تتقيدوا بهذا اليسير الموجود عندكم، إنما جعل هذا اليسير الذي عندكم زاداً فتتزودون به طريق السير إليه، جعل لكم النعم لتضيفوها إليه وتستدلوا بها عليه، وجعل لكم العلم لتعملوا به وتهتدوا بنوره.

اللهم اهد قلوبنا إليك:

و﴿ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[٢].

(١) سورة عبس آية: ٢٢.
(٢) سورة البقرة آية: ٢٠١.

المجلس الثالث والأربعون

[في النفس الأمارة]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الأحد بكرة في الرباط حادي عشر شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

(يا غلام) إذا أردت الفلاح فخالف نفسك في موافقة ربك عزّ وجلّ، ووافقها في طاعته وخالفها في معصيته، نفسك حجابك عنه معرفة الخلق، والخلق حجابك عن معرفة الخالق عزّ وجلّ.

فما دمت مع نفسك لا تعرف الخلق، وما دمت مع الخلق لا تعرف الحق عزّ وجلّ، ما دمت مع الدنيا لا تعرف الآخرة، وما دمت مع الآخرة لا ترى ربّ الآخرة. مالك ومملوك لا يجتمعان، كما لا تجتمع الدنيا والآخرة فهكذا لا يجتمع الخالق والخلق، النفس أمارة بالسوء، هذه جبلتها، فبعدكم وكم تأمر بما يأمر به القلب، جاهدها في جميع الأحوال ولا تحتج لها بقوله عزّ وجلّ:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾(١).

ذوبها بالمجاهدة فإنها إذا ذابت وفنيت اطمأنت إلى القلب، ثم يطمئن القلب إلى السرّ، ثم يطمئن السرّ إلى الحق عزّ وجلّ، فيكون شرب الجميع من هنالك، إذا تمّ تذويبك لها تنادي من حيث قلبك.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(٢).

إنما يجيء هذا الخطاب من الحق عزّ وجلّ بعد طهارتها من الأكدار وذوبان شرّها، وسمن القلب بذكر الحقّ عزّ وجلّ وطاعته، إذا لم يحصل لها هذا فلا تطمع في تقربها مع كدرها وشرّها، كيف يحصل لها القرب من الملك مع عدم الطهارة من الأنجاس؟ قصر أملها وقد أطاعتك إلى ما تريد منها، عظمها بموعظو الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وهو قوله:

---

(١) سورة الشمس آية: ٨.
(٢) سورة النساء آية: ٢٩.

(إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، فإنك لا تدري ما اسمك غداً).

أنت أشفق عليها من غيرك وقد ضيعتها فكيف يشفق علها غيرك ويحفظها؟ قوة أملك وحرصك حملاك على تضييعها. اجهد في تقصير الأمل، وتقليل الحرص وذكر الموت، ومراقبة الحق عزّ وجلّ، والتداوي بأنفس الصديقين وكلماتهم.

والذكر الصافي من التكدر في الليل والنهار، قل لها: لك ما كسبت وعليك ما اكتسبت، أحد ما يعمل معك ولا يعطيك من عمله شيئاً، ولا بد من العمل والمجاهدة. صديقك من نهاك، عدوك من أغواك، إني أراك عند الخلق لا عند الخالق عزّ وجلّ تؤدي حق النفس والخلق وتسقط حق الحق عزّ وجلّ، تشكر غيره على نعمه، من أعطاك ما أنت فيه من النعم غيره حتى تشكره وتعبده؟ إن كنت تعلم أن ما عندك من النعم من الحق عزّ وجلّ فأين شكره؟

وإن كنت تعلم أنه خلقك فأين عبادته في امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه والصبر على بلائه؟ جاهد نفسك حتى تهتدي، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾(١).

وقال الله عزّ وجلّ:

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾(٢).

لا ترخص لها ولا تطعها وقد أفلحت، لا تتبسم في وجهها وجاوبها عن كل ألف كلمة كلمة إلى أن تتهذب وتطمئن وتقنع، إذا طلبت منك الشهوات واللذات فماطلها وأخرها وقل لها: موعدك الجنة، صبرها على مرارة المنع حتى يجيئها العطاء. إذا صبرتها وصبرت كان الله عزّ وجلّ معها، لأنه قال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ﴾(٣).

لا تقبل لها قولاً فإنها لا تأمرك إلا بشر، إن أجبتها فخالفها، ففي خلافها صلاح لها.يا من يدعي إرادة الحق عزّ وجلّ وهو واقف مع نفسه كذبت في دعواك، النفس والحق لا يجتمعان.

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٦٩.
(٢) سورة محمد آية: ٧.
(٣) سورة البقرة آية: ١٥٣.

الدنيا والآخرة لا يجتمعان، من وقف مع نفسه فاته الوقوف مع الحق عزّ وجلّ، من وقف مع الدنيا فاته الوقوف مع الآخرة، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(مَنْ أحبَّ دنياه أضرّ بآخرته ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه).

اصبر فإذا تم صبرك تم رضاك، جاءك فناؤك فيصير الكل عندك طيباً، ينقلب الكل شكراً، يصير البعد قرباً، يصير الشرك توحيداً، فلا ترى من الخلق ضراً ولا نفعاً، لا ترى أضداداً، بل تتحد الأبواب والجهات فلا ترى إلا جهة واحدة، حالة لا يعقلها كثير من الخلق، بل هي لآحاد أفراد من كل ألف ألف إلى انقطاع النفس واحد.

(يا غلام) اجهد أن تموت هاهنا بين يدي الحق عزّ وجلّ، اجهد أن تموت نفسك قبل خروج روحك من بدنك، موتها بالصبر والمخالفة، فعن قريب تحمد عاقبة ذلك،صبرك يفنى وجزاؤه لا يفنى.

إني صبرت ورأيت عاقبة الصبر محمودة، متّ ثم أحياني ثم أماتني، وغبت ثم أوجدني من غيبتي، هلكت معه وملكت معه، جاهدت نفسي في ترك الاختيار والإرادة حتى حصل لي ذلك. فصار القدر يقودني، والمنة تنصرني، والفعل يحركني، والغيرة تعصمني. والإرادة تطيعني، والسابقة تقدمني، والله عزّ وجلّ يرفعني.

(ويحك) تهرب مني وأنا شحنتك احفظها، مكانك عندي وإلا فأنت هالك، يا جويهل حج إليّ أولاً ثم حج إلى البيت ثانياً، أنا باب الكعبة، تعال حتى أعلمك كيف تحج؟ أعلمك خطاباً تخاطب به ربّ الكعبة، سوف ترون إذا انجلى الغبار، اقعدوا يا سياس، احتموا بي فإني قد أعطيت القوة من الله عزّ وجلّ، القوم يأمركم بما أمركم به وينهونكم عما نهاكم عنه.

قد سلم إليهم النصح لكم فهم يؤدون الأمانة في ذلك. اعملوا في دار الحكمة حتى تصلوا إلى دار القدرة، الدنيا حكمة والآخرة قدرة، الحكمة تحتاج إلى أدوات وآلات وأسباب، والقدرة لا تحتاج إلى ذلك، وإنما فعل الحق عزّ وجلّ ذلك ليميز دار القدرة من دار الحكمة.

الآخرة فيها تكوين بلا سبب، تنطق بها جوار حكم وتشهد عليكم بما علمتم من معاصي الحق عزّ وجلّ، يوم القيامة تنكشف الأستار وتظهر المخبآت، إن شئتم أو أبيتم، لا يدخل أحد من الخلق النار إلا بقلب بارد لارتكاب الحجة عليه اقرءوا كتبكم بألسنة

فكركم فيها، ثم توبوا من السيئات واشكروا على الحسنات، احصروا كتب المعاصي واضربوا على سطورها بالتوبة.

(يا غلام) قد تبت على يدي وصحبتني، إذا لم تقبل مني ما أقول لك إيش ينفعك ذلك؟ رغبت في الصورة دون المعنى، من يريد يصحبني يقبل ما أقول له ويعمل به يدور كيف درت وإلا فلا يصحبني، فإنه يخسر أكثر مما يربح. أنا سماط هدف، وما أحد يأكل مني شيئاً، باب مفتوح لا يدخله أحد، إيش أعمل بكم؟

كم أقول لكم وأنتم لا تسمعون مني، فإني أريد لكم لا لي، إني لا أخافكم ولا أرجوكم، لا أفرق بين الخراب والعمران، بين الباقي والميت، بين الغني والفقير، بين الملك والمملوك، الأمر بيد غيركم، لما أخرجت حبّ الدنيا من قلبي صح لي هذا.كيف يصح لك التوحيد وفي قلبك حبّ الدنيا؟ أما سمعت قول النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(حبّ الدّنيا رأسُ كلّ خطيئة).

ما دمت مبتدئاً معتداً طالباً سالكاً فحبّ الدنيا في حقك رأس كل خطيئة، فإذا انتهى سرّ قلبك ووصل إلى قرب الحق عزّ وجلّ حبّب إليك قسمك من الدنيا وبغّض إليك قسم غيرك، يحبّب إليك أقسامك حتى تستوفيها تحقيقاً لعلمه السابق فيك فتقتنع لها ولا تلتفت إلى غيرها، وقلبك قائم ببين يديه يتقلب في الدنيا كتقلب أهل الجنة في الجنة، فجميع ما يجري عليك من الحق عزّ وجلّ محبوبك، لأنك تريد بإرادته وتختار باختياره، تدور مع قدره وتقطع عن قلبك جميع ما سواه، تنحي الدنيا والآخرة عنك فيصير تناولك للأقسام وحبك لها به لا بك.

المنافق المرائي المعجب بعمله يديم صيام النهار وقيام الليل ويخشن مأكوله ملبوسه وهو في خله باطناً وظاهراً، لا يتقدم من قلبه خطوة إلى ربه عزّ وجلّ، فهو من العاملة الناصبة، سريرته ظاهرة عند الصديقين والأولياء الصالحين الواصلين إلى الحق عزّ وجلّ، اليوم يعرفه الخواصّ من الخلق، وغداً يعرفه العوام جميعهم.

الخواصّ إذا رأوه مقتوه بقلوبهم، ولكنهم يسترونه بستر الله عزّ وجلّ، لا تزاحم القوم بنفاقك فإنك ما تخفلى، لا كلام حتى تقطع الزناد، وتجدد الإسلام، وتحقق التوبة بقلبك،وتخرج من بيت طبعك وهواك ووجودك، وجلب النفع إليك ودفع الضرّ عنك،لا كلام حتى تخرج عنك بترك نفسك وهواك وطبعك على الباب، وتترك قلبك في

الدهليز، وتترك سرك في المخدع عند الملك، أسرع إلى الأساس.

فإذا أحكمته أسرع إلى البناء، ماء الأساس الفقه في الدين، فقه القلب لا فقه اللسان فقه القلب يقربك إلى الحق عزّ وجلّ، وفقه اللسان يقربك إلى الخلق وملوكهم، فقه القلب بتركك في صدر مجلس القرب من الحق عزّ وجلّ، يصدرك ويرفعك ويقرب خطابك إلى ربك عزّ وجلّ.

(ويحك) تضيع زمانك في طلب العلم ولا تعمل به، فأنت على قدم الجهل في هوس، تخدم أعداء الحق عزّ وجلّ وتشرك بهم هو غنيّ عنك وعمن أشركت به لا يقبل منك شريكاً، ما علمت أنك عبد من زمامك بيده؟

إن أردت الفلاح فاترك زمام قلبك بيد الحق عزّ وجلّ وتوكل عليه حقيقة التوكل، واخدمه بظاهرك وباطنك، ولا تتهمه غير متهمٍ، هو أعرف منك بمصلحتك، وهو يعلم وأنت لا تعلم.

عليك بالسكوت بين يديه والخمول والتقمص والإطراق والخرس إلى أن يأتيك الإذن منه بالنطق فتنطق به لا بك، فيكون نطقك دواء لأمراض القلوب وشفاء للأسرار وضياء للعقول.

اللهم نوّر قلوبنا ودلها عليك، وصف أسرارنا وقربها منك.

﴿ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٠١.

المجلس الرابع والأربعون

[الدنيا سجن المؤمن]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الثلاثاء عشية في المدرسة ثالث عشر شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

المؤمن غريب في الدنيا، والزاهد غريب في الآخرة، والعارف غريب فيما سوى المولى، المؤمن مسجون في الدنيا وإن كان في سعة الرزق والمنزل، أهله يتقبلون في ماله وجاهه، ويفرحون ويضحكون حواليه وهو في سجن باطن، بشره في وجهه وحزنه في قلبه، عرف الدنيا فطلقها بقلبه أول ما طلقها طلقة واحدة لأنه خاف من تقليب الأعيان، فبينما هو كذلك إذ فتحت الآخرة بابها، فجاء برق حسن وجهها فطلق الدنيا طلقة أخرى، فجاءته الأخرى فعانقته فطلق الدنيا الطلقة الثالثة ووقف مع الآخرة بكليته.

فبينما هو معها إذا برق نور الحق عزّ وجلّ فطلق الأخرى، قالت له الدنيا: لم طلقتني؟ قال لها: رأيت أحسن منك، وقالت له الأخرى: لم طلقتني؟ قال لها: لأنك محدثة مصورة، أما أنت غيره، فكيف لا أطلقك؟ فحينئذ تحققت معرفته لربه عزّ وجلّ فصار حراً مما سواه غريباً في الدنيا والآخرة في غيبة عن الكل في محو الكل فتقف الدنيا في خدمته.

يرى خدامه لأسرته تقف بصدد العمل خالية عن زينتها التي تظهر بها عند أبنائها، وإنما جعلت كذلك لئلا يكون التفات إليها، الملكة إذا أحبت شخصاً نفدت هداياها إليه على يد العجائز والجواري الزنج حفظها له وغيرة عليه، أقبل على ربك بكليتك، اترك غداً إلى جنب أمس لعل غداً يأتي وأنت ميت، وأنت يا غني لا تشتغل بغناك عنه لعل غداً يأتي وأنت فقير، لا تكن مع شيء بل كن مع خالق الأشياء الذي هو شيء لا يشبهه شيء، لا تستروح إلى غيره راحة، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم:

(لا راحة لمؤمن من دون لقاء ربّه).

إذا خرب ما بينك وبين الخلق وعمر ما بينك وبينه فقد اختار لك فلا تكره خيرته، من صبر مع الحق عزّ وجلّ رأى عجائب من ألطافه، من صبر على الفقر جاءه

الغنى، أكثر ما جعل النبوة في الرعاة والولاية في المولى والغرباء.

كلما ذل العبد له أعزّه. كلما تواضع له رفعه، هو المعزّ والمذلّ الرافع والواضع الموفق والمسهل، لولاه ما عرفناه. يا معجبين بأعمالهم ما أجهلكم؟ لولا توفيقه ما أصبتم وصممتم وصبتم،أنتم في مقام الشكر لا في مقام العجب، أكثر العباد معجبون بعبادتهم وأعمالهم، طالبون للحمد والثناء من الخلق راغبون في إقبال الدنيا وأربابها عليهم، وسبب ذلك وقوفهم مع نفوسهم وأهويتهم.

الدنيا محبوبة النفوس، والأخرى محبوبة القلوب، والحق عزّ وجلّ محبوب الأسرار. إنما قذف الحكم إلى قلوبكم بعد إحكام الحكم لأن الحكم قدم هذا الأمر، فمن ادعى منه شيئاً مع عدم إحكام الحكم فقد كذب، لأن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طر إلى الحق عزّ وجلّ بجناحي الكتاب والسنة، ادخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، اجعله وزيرك ومعلمك، دع يده تزينك وتمشطك وتعرضك عليه.

هو الحاكم بين الأرواح، المربي للمريدين، جهبذ المرادين، أمير الصالحين، قسام الأحوال والمقامات بينهم، لأن الحق عزّ وجلّ فوض ذلك إليه، جعله الكل،الخلع إذا خرجت من عند الملك للجند إنما تقسم على يد أميرهم، التوحيد عبادة والشرك بالخلق عادة.

فالزم العبادة واترك العادة، إذا خرقت العبادة إذن خرقت في حقك العادة، غير حتى يغير الله لك، قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١).

أخرج نفسك والخلق من قلبك واملأه بمكنونهما حتى يرد إليك التكوين، ما هذا شيء يجيء بصيام النهار وقيام الليل، لكن بطهارة القلوب وصفاء الأسرار.

(عن بعضهم) رحمة الله عليه أنه قال: الصيام والقيام خلّ وبقل على المائدة والطعام غيرهما صدق، هما أول الطعام، ثم يجيء لون بعد لون من الأطعمة، ثم الأكل، ثم غسل الأيدي، ثم يجيء لقاء الله عزّ وجلّ، ثم الخلع والإقطاع والإمارة والنيابة وتسليم البلاد والقلاع.

---

(١) سورة الرعد آية: ١١.

إذا صلح قلب العبد للحق عزّ وجلّ وتمكّن من قربه أعطى الملكة والسلطة في أقطار الأرض، وسلم إليه نشر الدعوة من الخلق والصبر على أذاهم، يسلم إليه تغيير الباطن وإظهار الحق يعطيه ويغنيه، لأنه إذا أعطى أغنى، يملأ بطنه حكما الحق عزّ وجلّ، قد جعل من خلال أراضي قلوب عباده الصالحين له العارفين به أنهار الحكم تنبع من وادي علمه، من عند عرشه ولوحه تجري إلى أراضي القلوب الميتة الجاهلة به المعرضة عنه.

(يا غلام) أكل الحرام يميت قلبك، وأكل الحلال يحييه، لقمة تنور قلبك،ولقمة تظلمه، لقمة تشغلك بالدنيا، ولقمة تشغلك بالأخرى، ولقمة تزهدك فيهما، ولقمة ترغبك في خالقهما.

الطعام الحرام يشغلك بالدنيا ويحبب إليك المعاصي، والطعام المباح يشغلك بالأخرى ويحبب إليك الطاعات، والطعام الحلال يقرّب قلبك من المولى، هذه الأطعمة لا تعرف إلا بمعرفة الحق عزّ وجلّ، ومعرفته إنما تكون في القلب لا في الدفاتر، منه تكون لا من خلقه، إنما تحصل معرفة الله عزّ وجلّ بعد العلم بحكمه، بعد التصديق والصدق، بعد التوحيد لله عزّ وجلّ والثقة به، بعد الخروج من الخلق في الجملة.

كيف تعرف الحق عزّ وجلّ ولست تعرف إلا ما تأكل وتشرب وتلبس وتنكح؟ ولا تبال (يا مسكين) أيّ وجه كان، أما سمعت قول النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(مَنْ لَمْ يُبالِ مِنْ أيْنَ مَطعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ لَمْ يُبالِ اللهُ مِنْ أيّ بابٍ مِنْ أبْوابِ النّارِ أدخَلَهُ).

وقال رضي الله تعالى عنه بعد كلام: فلا تبال بجمع الأشياء ولا تسم شيئا، ولا يشغلك عنه شيء، لا تقيدك الخلق عنه، غير أنك تحدثهم بما يعقلون، وتتصدق عليهم بالمداراة، تعمل بقول النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(مُداراةُ النّاسِ صَدَقَةٌ).

تعطيهم من عطاء ربك عزّ وجلّ، تتكرم عليهم بشيء من كرامته لك، ترفق بهم وتلطف بهم وتلين جانبك لهم، يصير خلقك من أخلاق الحق عزّ وجلّ وفعلك من أمره، الشيوخ اثنان:

شيخ الحكم، وشيخ العلم. شيخ من الخلق يدلك على باب قرب الحق عزّ وجلّ.

بابان لا بد لك من الدخول فيهما: باب الخلق، وباب الخالق، باب الدنيا، وباب الآخرة، أحدهما تبع للآخرة، باب الخلق أولاً وباب الحق عزّ وجلّ ثانياً، ما ترى الباب الأخير حتى تجوز من الباب الأول.

اخرج بقلبك من الدنيا حتى تدخل إلى الأخرى، اخدم شيخ الحكم حتى يدخل بك إلى شيخ العلم، اخرج من الخلق حتى تعرف الحق عزّ وجلّ، هي درجات درجة بعد درجة، وهما ضدان لا يجتمعان، هذه الأشياء أضداد فلا تطلب الجمع بينها فما يقع بيدك، فرّغ قلبك الذي هو بيت الحق عزّ وجلّ لا تدع فيه غيره.

إذا كانت الملائكة عليهم السلام لا تدخل بيتاً فيه صورة، فكيف يدخل الحق عزّ وجلّ إلى قلبك وفيه صور وأصنام؟ كل ما سواه صنم، فكسر الأصنام وطهر هذا البيت وقد رأيت حضور صاحبه فيه تر من العجائب ما لم تكن تراه من قبل.

اللهم وفقنا لما يرضيك عنا.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [١].

(١) سورة البقرة آية: ٢٠١.

المجلس الخامس والأربعون

[في التمسك بالعروة الوثقى]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة في المدرسة سادس عشر من شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم قال:

(ملعون ملعون مَنْ كانت ثقته بمخلوقٍ مثله).

ما أكثر الذين دخلوا في هذه اللعنة من خلق كثير، واحد يثق بالله عزّ وجلّ، ومن وثق بالله عزّ وجلّ:

﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[1].

(فقد استمسكَ بالعُروةِ الوُثقى).

ومن وثق بمخلوق مثله فهو كالقابض على الماء، يفتح يده لا يرى فيها شيئاً.

(ويحك) الخلق يقضون حوائجك يوماً أو اثنين أو ثلاثة أو شهراً أو سنة أو سنتين، وفي الآخرة يضجرون منك، عليك بصحبة الحق عزّ وجلّ وإنزال حوائجك به، فإنه لا يضجر منك ولا يسأم من حوائجك دنيا وآخرة. الموحّد عند قوة توحيده لا يبقى له أب ولا أم ولا أهل ولا صديق ولا عدوّ ولا مال ولا جاه ولا سكون إلى شيء في الجملة، لا يبقى له سوى التعلق بباب الحق عزّ وجلّ ومننه.

يا واثقاً بالدينار والدرهم اللذين في يدك، عن قريب يذهبان من يدك عقوبة لك كما يفنيهما، قد كانا في يد غيرك فسلبا منه وسلما إليك لتستعين بهما على طاعة مولاك عزّ وجلّ فجعلتهما صنمك. يا جاهل تعلّم العلم لوجه الله عزّ وجلّ واعمل به فإنه يؤدبك، العلم حياة والجهل موت، الصديق إذا فرغ من تعلم العلم المشترك أدخل في العلم الخاص: علم القلوب والأسرار.

فإذا تمكن في هذا العلم صار سلطان دين الله عزّ وجلّ يأمر وينهي ويعطي ويمنع بإذن مسلطنه، يصير سلطاناً في الخلق يأمر بأمر الله عزّ وجلّ وينهى عن نهيه، يأخذ

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٦.

منهم بأمره ويعطيهم بأمره، فيكون معهم بالحكم ومع الحق عزّ وجلّ بالعلم، الحكم بواب على الباب، والعلم داخل الدار، الحكم عام والعم خاص، العارف واقف على باب الحق عزّ وجلّ وقد سلم إليه علم المعرفة والاطلاع على أمور لم يطلع غيره عليها، يؤمر بالعطاء فيعطي ويؤمر بالإمساك فيمسك، يؤمر بالأكل فيأكل، يؤمر بالجوع فيجوع، يؤمر بالإقبال على شخص وبالإعراض عن آخر، يؤمر بالأخذ من شخص وبالردّ إلى الآخر.

المنصور من نصره، والمخذول من خذله، القوم يأتون إليكم ولمنفعتكم لا لحوائجهم، لا حاجة لهم إلى أحد من الخلق، في حبال الخلق يفتلون، ولبنيانهم يشيدون، وعليهم يشفقون هم جهابذة الحق عزّ وجلّ في الدنيا والآخرة. إيش يأخذون منكم؟ لكم لا لهم، شغلهم النصح للخلق والدوام عليه، لأن ما كان من الله عزّ وجلّ فهو يدوم ويثبت، وما كان من غيره فلا.

اخدم العلم والعلماء العمال واصبر على ذلك، إذا صبرت على خدمة العلم أولاً لا بد أن يخدمك ثانياً، اصبر على خدمتك كما صبرت على خدمته، إذا صبرت على خدمة العلم أعطيت فقه القلب ونور الباطن.

(يا قوم) سلوما الأمور إلى الحق عزّ وجلّ فهو أعلم بكم منكم، انتظروا فرجه فإن من ساعة إلى ساعة فرجاً، اخدموا الحق عزّ وجلّ واستفتحوا بابه وأغلقوا أبواب الخلق فإنه يريكم عجائب ما ليس في حسابكم.

(ويحك) إن أراد الله عزّ وجلّ أن ينفعك على أيدي الخلق نفعك، وإن أراد أن يضرك على أيديهم كان ذلك هو المسخر والملين والمقسي لقلوبهم، هو المحيي والمميت، المعطي والمانع، هو المعزّ المذلّ، هو الممرض والمعافي، هو المشبع والمجوّع، هو المكسي والمعري، هو المحسن والموحش، هو الأول والآخر الظاهر والباطن.

كل ذلك هو لا غيره، اعتقد هذا بقلبك وأحسن معاشرة الخلق بظاهرك، وهذا شغل الصالحين المتقين، يتقون الله عزّ وجلّ في جميع أحوالهم، ويدارون الخلق، يحدثونهم بما يعقلون بقلوبهم بخلق حسن، بخلق الكتاب والسنة، ويأمرونهم بما فيهما، فإن قبلوا شكروهم على ذلك، وإن خرجوا منها فلا يبقى بينهم وبينهم صداقة ولا محاباة، يتواقحون على الخلق في أمر الله عزّ وجلّ ونهيه، اجعل قلبك مسجداً، لا تدع

مع الله أحداً كما قال الله عزّ وجل:

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾[1].

فإذا ترقت درجة هذا العبد من الإسلام إلى الإيمان، من الإيمان إلى الإيقان، من الإيقان إلى المعرفة، من المعرفة إلى العلم، من العلم إلى المحبة، من المحبة إلى المحبوبية، من طلبه إلى مطلوبيته، فحينئذ إذا غفل لم يترك، وإذا نسي ذكر، وإذا نام نبه، وإذا غفل أوقظ، وإذا ولى أقبل، وإذا سكت نطق، فلا يزال أبداً مستيقظاً صافياً، لأنه قد صفت آنية قلبه، يرى من ظاهرها باطنها، ورث اليقظة من نبين عليه الصلاة والسلام، كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان يرى من ورائه كما يرى من أمامه، كل أحد يقظته على قدر حاله.

فالنبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم لا يصل أحد إلى يقظته، ولا يقدر أن يشاركه أحد في خصائصه، غير أن الأبدال والأولياء من أمته يردون على بقايا طعامه وشرابه، يعطون قطرة من بحار مقاماته، وذرّة من جبال كراماته لأنهم وراءه، المتمسكون بدينه الناصرون له الدالون عليه الناشرون لعلم دينه وشرعه عليهم سلام الله وتحياته وعلى الوارثين لهم إلى يوم القيامة.

المؤمن لمح الدنيا فأرادها وطلبها وامتلأ قلبه بها، فأرادت تملكه فطلقها، ثم طلب الآخرة حتى وجدها فامتلأ قلبه بها، فخاف من تقيدها وحبسها له عن ربه عزّ وجلّ فطلقها وأقعدها إلى جنب الدنيا وأدى فرضها، ولحق بباب الحق عزّ وجلّ، فخيم عنده وتوسد بعتبته، اتبع ملة إبراهيم عليه السلام الزاهد في النجم ثم في القمر ثم الشمس، ثم:

﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[2]، ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3].

فلما دام توسده بالعتبة وعرف الحق عزّ وجلّ صدقه في الطلب فتح الباب وأذن لقلبه في الدخول عليه، فاستخبره عن حاله وما جرى عليه مع الدنيا والأخرى وهو أعلم بذلك منه.

---

(١) سورة الجن آية: ١٨.

(٢) سورة الأنعام آية: ٧٦.

(٣) سورة الأنعام آية: ٧٩.

فقصّ عليه قصته، فقرّبه وآنسه وحدثه، وخلع عليه خلعة رضاه، وأملأ من حكمته وعلمه، ودعى لمطلقتيه الدنيا والآخرة، وجدد له العقد عليهما، وكتب بينه وبينهما قضية، وشرط عليهما ترك الأذية، وجعلهما خادمتين له بوفيان أقسامه منهما.

وألقى عليهما محبته، وانقلب الأمر في حقه، صار مقام قلبه عند ربه عزّ وجلّ وتنحى ما سواه عنه، صار عبداً حرّاً، عبد الله عزّ وجلّ، حراً مما سواه مطلقاً في الأرض والسماء، لا يملكه شيء ويملك الأشياء، صار ملكاً لا يملكه سوى الملك. الباب مشرع في وجهه بإذن مطلق لا بوّاب ولا حاجب.

(يا غلام) كن غلام القوم، فإن الدنيا والآخرة تخدمهم، أيّ وقت شاءوا أخذوا منها بإذن الحق عزّ وجلّ، يعطونكم صورة من الدنيا معنى في الآخرة.

اللهم عرّف بيننا وبينهم دنيا وآخرة.

المجلس السادس والأربعون

[في اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة الأحد ثامن عشر من شهر رجب سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

الدنيا سوق عن قريب ينغلق، اغلقوا أبواب رؤية الخلق وافتحوا باب رؤية الحق عزّ وجلّ، اغلقوا أبواب الاكتساب والأسباب في حال صفاء القلوب وقرب السرّ فيما يخصكم، لا فيما يعمّ غيركم من الأهل والأتباع، فليكن الكسب لغيركم والنفع لغيركم والتحصيل لغيركم.

واطلبوا ما يخصكم من طيف فضله، واقعدوا نفوسكم مع الدنيا وقلوبكم مع الأخرى وأسراركم مع المولى، إنك تعلم ما تريد.

وقال رضي الله عنه: القوم أبدال الأنبياء، فاقبلوا منهم ما يأمرونكم به، فإنهم يأمرونكم بأمر الله عزّ وجلّ ورسوله، وينهون بنهيهما، ينطقون فينطقون، يعطون فيأخذون، لا يتحركون حركة بطباعهم ونفوسهم.

لا يشركون الحق عزّ وجلّ في دينه بأهويتهم، اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله، سمعوا قول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾(١).

اتبعوا الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم حتى حملهم إلى المرسل، قربوا منه فقربهم إلى الحق عزّ وجلّ، أخرج لهم الألقاب والخلع والإمارة على الخلق.

يا منافقون حسبتم أن الدين مشمر وأن الأمر سدى، لا كرامة لكم ولا لشياطينكم ولا لقرنائكم السوء.

اللهم تب عليّ وعليهم، وخلصهم من ذل النفاق وقيد الشرك، اعبدوا الله عزّ وجلّ واستعينوا على عبادته بكسب الحلال، إن الله عزّ وجلّ يحب عبداً مؤمناً مطيعاً آكلاً من الحلال، يحب من يأكل ويعمل، ويبغض من يأكل ولا يعمل، يحب من يأكل بكسبه ويبغض من يأكل بنفاقه ويوكله على الخلق، يحب الموحد له ويبغض المشرك

---

(١) سورة الحشر آية: ٧

به، يحبّ المسلم إليه ويبغض المنازع له.

من شرط المحبة الموافقة، ومن شرط العداوة المخالفة، سلموا إلى ربكم عزّ وجلّ وارضوا بتدبيره في الدنيا والآخرة. من أيام ابتليت ببلية، فسألت الله عزّ وجلّ كشفها فزادني بلية أخرى فوقها، فتحيرت في ذلك وإذا قائل يقول لي: ألم تقل لنا في حال بدايتك إن حالتك حالة التسليم؟ فتأذبت وسكت.

(ويحك) تدعي محبة الله عزّ وجلّ وتحبّ غيره، هو الصفاء وغيره الكدر: فإذا كدرت الصفاء بمحبة غيره كدر عليك، يفعل بك كما فعل بإبراهيم الخليل ويعقوب عليهما السلام لما مالا إلى ولديهما بحرقة من قلبيهما ابتلاهما فيهما، ونبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم لما مال إلى ولدي ابنته الحسن والحسين.

جاءه جبريل عليه السلام فقال: أتحبهما؟ فقال: نعم ، فقال: أما أحدهما فيسقى السمّ، وأما الآخر فيقتل، فخرجا من قلبه وفرّغه لمولاه عزّ وجلّ وانقلب الفرح بهما حزناً عليهما. الحق عزّ وجلّ غيور على قلوب أنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين، يا طالب الدنيا بنفاقه افتح يدك فما ترى فيها شيئاً، ويلك زهدت في الكسب وقعدت تأكل أموال الناس بدينك، الكسب صنعة الأنبياء جميعهم، ما منهم إلا من كان له صنعة، وفي الآخرة أخذوا من الخلق بإذن الحق عزّ وجلّ، يا سكران بخمر الدنيا بشهواتها وهواساتها عن قريب تصحو في لحدك.

المجلس السابع والأربعون

[في بغض الخلق عند الضرر]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الثلاثاء في المدرسة مستهل شعبان سنة خمس وأربعين وخمسمائة: تعلم ثم اعمل، أخلص، تجرد عنك وعن الخلق.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[1].

قل كما قال إبراهيم عليه السلام:

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

اهجر الخلق وأبغضهم ما دمت تراهم في الضر، فإذا صح توحيدك وخرج خبث الشرك من قلبك عد إليهم وخالطهم، وانفعهم بما عندك من العلم، ودلهم على باب ربهم عزّ وجلّ. موت الخواص موت عن الخلق في الجملة، موت عن الإرادة والاختيار، من صحت له هذه الموتة صحت له الحياة الأبدية مع ربه عزّ وجلّ، تصير موتته الظاهرة سكتة، لحظة غشية، لحظة غيبة، لحظة نومة ثم يقظة، إن أردت هذه الموتة فعليك بتناول بنج المعرفة والقرب والنوم على عتبة الحق عزّ وجلّ حتى تأخذك يد الرحمة والمنة فتحييك حياة أبدية، للنفس طعام، للقلب طعام، وللسرّ طعام، ولهذا قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(إني أظلُ عندَ ربِّي فيُطعمني ويَسقيني).

يعني: يطعم سرّي معاني، يطعم روحي الروحانية، يغذيني بغذاء يخصني، في الأول عرج بقالبه وقلبه، ثم بعد ذلك منع القالب وصار يعرج بقلبه وسرّه وهو حاضر بين الناس، وهكذا ورّاثه على الحقيقة، الذين جمعوا بين العلم والعمل والإخلاص والتعليم للخلق.

(يا قوم) كلوا بقايا القوم، اشربوا ما قد بقي في أوانيهم، يا من يدعي العلم لا عبرة بعلمك من غير عمل، ولا عبرة بعلمك من غير إخلاص، لأنه جسد بلا روح. علامة إخلاصك أنك لا تلتفت إلى حمد الخلق ولا إلى ذمهم، ولا تطمع فيما في أيديهم.

---

(1) سورة الأنعام آية: ٩١.
(2) سورة الشعراء آية: ٧٧.

بل تعطي الربوبية حقها، تعمل للمنعم لا للنعمة، للمالك لا للملك، للحق لا للباطل، ما عند الخلق قشر، وما عند الخالق لب، فإذا صح صدقك فيه وإخلاصك له ودام وقوفك بين يديه أطعمك من دهن هذا اللب، وأطعمك على لبّ اللبّ وسرّ السرّ ومعنى المعنى.

فحينئذ تتعرى عما سواه في الجملة. التعري للقلب لا للجسد، الزهد للقلب لا للجسد، الإعراض للسرّ لا للظاهر، النظر إلى المعاني لا للمباني، النظر للحق عزّ وجلّ لا للخلق، الدائرة على أن تكون معه لا مع الخلق. تنعدم الدنيا والآخرة بالإضافة إليكم، كأن لا دنيا ولا آخرة، كأن لا شيء سواه، تنعم المحبوب لله عزّ وجلّ الذين هم خواصه من خلقه لابتلاء أجسادهم الشهداء الذين قتلوا بسيوف الكفار، لابتلاء أجسادهم، فكيف الشهداء الذين قتلوا بسيوف المحبة؟ إنما يتسلط الخراب على الأبنية والمباني بالمعاصي.

أما ترى المواضع الخراب معاصي أهلها خربتها، لأن المعاصي تخرب البلاد وتهلك العباد؟ هكذا أنت بنيتك بلدة إذا عصيت فيها جاءها الخراب، إذا عصيت يجيئك الخراب إلى جسدك، ثم إلى جسد دينك، يجيئك العمى والزمن والطرش وذهاب القوة، تجيئك الأمراض المختلفة، يجيئك الفقر فيخرب بيت مالك ويحوجك إلى أصدقائك وأعدائك. ويلك يا منافق لا تخادع الحق عزّ وجلّ، تعمل عملاً وتظهر أنه له وهو للخلق، ترائيهم وتنافقهم وتتملق لهم وتنسى ربك عزّ وجلّ.

عن قريب تخرج من الدنيا مفلساً، يا مريض الباطن عليك بالدواء، وهذا الدواء لا يكون إلا عند الصالحين من عباد الله عزّ وجلّ، خذ الدواء منهم واستعمله وقد جاءتك العافية الدائمة والصحة الأبدية لمعناك ولقلبك ولسرك ولخلوتك مع ربك عزّ وجلّ، تنفتح عينا قلبك فتنظر بها إلى ربك عزّ وجلّ، تصير من المحبين الواقفين على بابه.

الذين لا ينظرون إلى ما سواه، قلب فيه بدعة كيف ينظر إلى الحق عزّ وجلّ؟

(يا قوم) اتبعوا ولا تبتعدوا، وافقوا ولا تخالفوا، أطيعوا ولا تعصوا،أخلصوا ولا تشكروا، وحدوا الحق عزّ وجلّ وعن بابه فلا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره، استعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره وأنتم يا خواص، سلموا نفوسكم إليه وارضوا بتدبيره فيكم واشتغلوا بذكره دون مسئلته.

اما سمعتم قوله عزّ وجلّ في بعض كتبه (من شغله ذكري عن مسئلتي أعطيته افضل ما أعطي السائلين) يا من اشتغل بذكره وانكسر قلبه لأجله، أما ترضى من عطائه أن يكون جليساً لك، قال الله عزّ وجلّ في بعض كلامه:

(أنا جليس من ذكرني) وقال. (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي)

(يا غلام) تذكرك له يقرب قلبك منه وتدخل إلى بيت قربه وتصير ضيفا له، الضيف يكرم ولا سيما ضيف الملك، إلى متى تشتغل عن هذا الملك بالملك والملك عن قريب تفارق ملكك وملكك، عن قريب تحصل في الآخرة وتري كأن الدنيا لم تكنوالآخرة لم تزل، لاتهربوا مني لفقر يدي، فإن عندي غني عنكم وعن أهل المشرق والمغرب.

إنما أريدكم لكم، في حبالكم اقتل. لا تبتدع وتحدث في دين الله عزّ وجلّ شيئا لم يكن، اتبع الشاهدين العادلين الكتاب والسنة، فإنهما يوصلانك إلى ربك عزّ وجلّ.

واما إن كنت مبتدعا فشاهداك عقلك وهواك، فلا جرم يوصلانك إلى النار ويلحقانك بفرعون وهامان وجنودهما. لا تحتج بالقدر فلا يقبا منك، لا بد لك من الدخول إلى دار العلم والتعلم ثم العمل ثم الإخلاص، بك لا يجيء شيء ولا بد منك، اجعل سعيك في طلب العلم والعمل ولا تجعله في طلب الدنيا، عن قريب ينقطع سعيك، فاجعل سعيك فيما ينفعك.

قام إليه رجل وتواجد وقال: ما كان مقدمة هذه العروس حتى كان لها البخت؟ فقال: لمحبة من الشاب قبل الزفاف.

(يا غلام) تعرّض وتوصل إلى رضا الحق عزّ وجلّ ، فإنه إذا رضى عنك أحبك، نح غم الرزق عن قلبك وقد جاءك الرزق من الله عزّ وجلّ من غير تعب منك ولا عناء، نح الهموم عن قلبك واجعلها واحدا، وهو الحق عزّ وجلّ.

فإذا فعلت ذلك كفاك الهموم كلها. همك ما أهمك، إن كان همك الدنيا فأنت معها، وإن كان همك الآخرة فأنت معها، وإن كان همك الخلق فأنت معهم، وإن كان همك الحق عزّ وجلّ فأنت معه دنيا وآخرة.

المجلس الثامن والأربعون

[العمل الصالح]

وقال رضي الله تعالى عنه يوم الثلاثاء عشية في المدرسة ثامن شعبان سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(مَنْ تزيَّنَ للناس بما يُحبُّون، وبارزَ الله بما يكْرَهُ، لقِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وَهُوَ عليْهِ غضبان).

اسمعوا كلام النبوة يا منافقون، يابائعين الآخرة بالدنيا، يا بائعين الحق عزّ وجلّ بالخلق، يا بائعين ما يبقى بما يفنى، خسرت تجارتكم وذهبت رؤوس أموالكم، ويلكم أنتم متعرّضون لمقت الله عزّ وجلّ وسخطه، لأن من تزين للناس بما ليس فيه مقته الله عزّ وجلّ.

زين ظاهرك بآداب الشرع وباطنك بإخراج الخلق منه، رد أبوابهم، أفنهم من حيث قلبك حتى كأنهم لم يخلقوا، لا ترى على أيديهم ضراً ولا نفعاً، قد اشتغلت بزينة القالب وتركت زينة القلب بالتوحيد والإخلاص والثقة بالله عزّ وجلّ وبذكره ونسيان غيره.

عن عيسى عليه السلام أنه قال: العمل الصالح هو الذي لا يحبّ أن يحمل عليه، يا بله يا مجانين بالنسبة إلى الآخرة، عقل بالنسبه إلى الدنيا، هذا عقل لا ينفعكم، اجهد في تحصيل الإيمان، وقد حصل لك الإيمان، تب واعتذر، واندم وأرسل دموع عينيك على خديك، الفقر فإن البكاء من خشية الله عزّ وجلّ يطفىء نيران المعاصي ويطفئ نيران غضب الله عزّ وجلّ، إذا ثبت بقلبك الفقر فإن نور التوبة الصادقة يضيء على الوجه.

(يا غلام) اجهد في حفظ سرّك مهما قدرت على الحفظ، فإذا جاءتك الغلبة فأنت معذور. الحبّ يخرب حيطان الخدر والستر، حيطان الحيا، حيطان الوجود، حيطان رؤية الخلق، المتكلف أمر بإخراجه، والمكلف المغلوب اكتحل بتراب قدمه، لأن هذا نفسي وهذا قلبي، هذا خلقي وهذا رباني، اجتهد أن لاتكون أنت بل يكون هو، اجهد أن لا تتحرّك في دفع الضرّ عنك ولا جلب النفع إليك، فإنك إذا فعلت ذلك أقام الحق عزّ وجلّ إليك من يخدمك وينحي الأذى عنك، كن معه كالميت مع الغاسل، وكأهل

الكهف مع جبريل عليه السلام، كن معه بلا وجود ولا اختيار ولا تدبير.

في الجملة اثبت بين يديه على قدمي إيمانك ونفسك وقت نزول أثقال أقضيته وأقداره، الإيمان يقف ويثبت مع القدر،والنفاق يهرب. المنافق كلما مضت عليه الأيام والليالي هزلت بنيته وسمنت نفسه وهواه وطبعه، وعميت عينا سرّه وقلبه، باب داره عامر وداخل الدار خراب، ذكره للحق عزّ وجلّ بلسانه لا بقلبه، غضبه لنفسه لا لربه عزّ وجلّ:

والمؤمن بالضد منه ذكره الله عزّ وجلّ بلسانه وبقلبه، وفي أكثر أوقاته يكون قلبه ذاكرا ولسانه ساكتا، غضبه لله عزّ وجلّ ولرسوله لا لنفسه وهواه وطبعه ودنياه، لا يحسد ولا يحسد، ولا ينازع أهل الحظوظ في حظوظهم.

(يا غلام) إياك وإياك أن تنازع محظوظا فإنه يسلم ويرتفع، وأنت تهلك وتنحط وتذل وتفضح، كيف تغير حظه بمنازعتك وقد سبق علم الله بما هو فيه، إذا نازعت الحق عزّ وجلّ في علمه السابق فيك وفي غيرك سقطت من عينيه ولا ينفعك علمك،كما قال الله عزّ وجلّ :

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ ﴾[1].

تب إلى الله عزّ وجلّ ، المعصوم كيس، لا ترجع عن القصد إليه لأجل بلاء أنزله بك، انتظر كشفه عنك ولا تيأس، فإن من ساعة إلى ساعة فرجا ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[2] ينقل من قوم إلى قوم، اصبر معه وارض بتقديره فإنك:

﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۝ ﴾[3].

إذا صبرت خفف عنك البلاء وأحدث لك أمرا يحبه وتحبه، وإذا جزعت واعترضت ثقل عليك البلاء وزادك منه عقوبة لاعتراضك عليه، سبب اعتراضكم عليه عزّ وجلّ ومنازعتكم له وقوفكم مع نفوسكم وأهويتكم وأغراضكم وحبكم الدنيا وحرصكم على جمعها.

(يا قوم) إن كان ولابد فتكون نفوسكم على باب الدنيا وقلوبكم على باب الآخرة

---

(١) سورة الغاشية آية: ٣.
(٢) سورة الرحمن آية: ٢٩.
(٣) سورة الطلاق آية: ١.

وأسراركم على باب المولى، إلى حين تنقلب النفس قلبا وتذوق مما ذاق، وينقلب القلب سرًا ويذوق مما ذاق، وينقلب السر فناء فيه لا يذوق ولا يذاق، ثم يحييه له لا لغيره، فحينئذ يصير كيماء ، كل درهم منه يقع في ألف مثقال من الشبه يجعلها ذهبا.

فهذا هو الغاية الكليه الأصلية الباقية. طوبى لمن عرف ما أقول وآمن به، طوبى لمن عمل به وأخلص فيه، طوبى لمن أخذ العمل بيده فقربه إلى المعمول به،

(يا غلام) إذا مت تراني وتعرفني ، تراني عن يمينك وشمالك أحمل وأدفع عنك وأسأل فيك. إلى متى أنت مشرك بالخلق متكل عليهم؟ يجب عليك أن تعلم أن أحدا منهم لا ينفعك ولا يضرك، فقيرهم وغنيهم، عزيزهم وذليلهم.

عليك بالله عزّ وجلّ ، لا تتكل على الخلق ولا على كسبك وحولك وقوتك، اتكل على فضل الله عزّ وجلّ ، اتكل على الذى أقدرك على الكسب ورزقك إياه، فإذا فعلت ذلك سيّرك معه، وأراك عجائب قدرته وسابقته، يوصل قلبك اليه ثم يذكره بعد الوصول إليه أيامه السالفة كما يتذاكر أهل الجنة في الجنة أيام الدنيا.

إذا خرقت شبكة السبب وصلت إلى المسبب، إذا خرقت العادة خرقت لك العادة، من خدم يخدم، من أطاع يطاع، من أكرم يكرم، من تقرب قرب، من تواضع رفع، من تكرم تكرم عليه،من أحسن الأدب قرب، حسن الأدب يقربك وسوء الأدب يبعدك، حسن الأدب طاعة الله وسوء الأدب معصيته.

(يا قوم) لا تؤخروا العرض لأنفسكم والمحاسبة لها، عجلوا بذلك على أنفسكم في الدنيا ى‌قبل الآخرة. عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال:

(إنّ الله عزّ وجلّ يستحي أن يحاسب المتورعين من عباده في الدنيا)

عليك بالورع وإلا فالخذلان في ربقك، تورّع في تصرفك في الدنيا وإلا انقلبت شهواتك حسرات في الدنيا والآخرة، الدنيا دار النار، والدرهم دار الهم، لاسيما إذا أخذتهما من وجه حرام وصرفتهما في وجه حرام، غدا يبين لك هذا الذى أقول اليوم، أنت أعمى وأصم؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(حبّك الشيء يعمي ويصم).

عزّ قلبك من الدنيا وأجعه وأظمئه حتى يكسوه الحق عزّ وجلّ ويطعمه

ويسقيه، سلم ظاهرك وباطنك اليه ولا تدبر، بل تكون هو بلا انت، كن أبدا زو كاريا لأن الدنيا دار العمل والآخرة، دار الأجرة، دار العطاء، دار الموهبة، هذا هو الأغلب في حق الصالحين.

وأما النادر منهم من يخرجه من العمل في الدنيا ويمن عليه ويرحمه ويعجل له الراحة قبل مجيء الآخرة، يقتصر منه بأداء الفرائض ويريحه من النوافل، فإن الفرض لا يسقط في سائر الأحوال والمقامات، وهذا في حق آحاد أفراد من عباد الله عز وجل وهو نادر من كل نادر.

(يا غلام) ازهد وأعرض فتستريح بالعاجل، وإن كان لك قسم من الدنيا فلا بد من وصوله إليك، تأتيك أقسامك وأنت عزيز مكرم مسئول، لا تأكل بنفسك وهواك، فإن ذلك حجاب يحجب قلبك عن ربك عزّ وجلّ. المؤمن لا يأكل لنفسه وبنفسه، ولا يلبس لها، ولا يتمتع، بل يتقوت ليتقوى على طاعة الله عزّ وجلّ، يأكل ما يثبت أقدام ظاهره بين يديه، يأكل بالشرع لا بالهوى، والولىّ يأكل بأمر الله عزّ وجلّ، والبدل الذى هو وزير القطب يأكل بفعل الله عزّ وجلّ، والقطب أكله وتصرفه كأكل النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم وتصرفه، كيف لا يكون كذلك وهو غلامه ونائبه وخليفته في أمته؟ هو خليفة الرسول خليفة الله عزّ وجلّ، هذا خليفة باطن وإمام المسلمين المتقدم عليهم خليفة ظاهر، وهو الذى لا يحلّ لأحد من المسلمين ترك متابعته وطاعته.

وقد قيل: إن إمام المسلمين إذا كان عادلا هو قطب الزمان، لا تحسبوا أن الأمر هين، قد وكل بكم من يحصى أفعالكم الظاهرة وهو يحصى أفعالكم الباطنة، ما منكم إلا من يؤتي به يوم القيامة ومعه ملائكته الذين كانوا موكلين به في الدنيا، يكتبون عليه حسناته وسيئاته، ومعهم تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، فيها حسناته وسيئاته وجميع ما صدر منه، فيكلف قراءتها جميعا فيقرؤها، وإن كان في الدنيا لم يحسن يكتب ولم يقرأ، لأن الدنيا دار حكمة والآخرة دار قدرة.

الدنيا تحتاج إلى أسباب وآلات، والآخرة لا تحتاج إلى ذلك، إذا جحد أحدكم ما في سجلاته نطقت جوارحه بما فيها، تنطق كل جارحة على حدة بجميع ما عملته في الدنيا، قد خلقتم لأمر عظيم وما عندكم خبر، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

---

(١) سورة المؤمنون آية: ١١٥.

المجلس التاسع والأربعون

[إعطاء السائل]

وقال رضى الله عنه في المدرسة يوم الجمعة حادى عشر شعبان سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

حكى عن عبد الله بن المبارك رحمة الله تعالى عليه أنه جاء إليه في بعض الأيام سائل يسأله شيئا من الطعام، فلم يحضر عنده شيء سوى عشر بيضات، فأمر جاريته بأن تعطيه إياها، فأعطته تسعة وخبأت واحده، فلما كان وقت غروب الشمس جاء رجل ودق الباب وقال: خذوا منى هذه السلة، فخرج عليه عبد الله رضى الله تعالى عنه وأخذها منه، فرأى فيها بيضا، فعده فإذا هو تسعون بيضة، فقال لجاريته: أين البيضة الأخرى؟ كم أعطيت السائل؟ فقالت: أعطيته تسعة وتركت واحده نفطر عليها، فقال لها غرمتينا عشرة.

هكذا كانوا في معاملتهم لربهم عزّ وجل، كانوا يؤمنون ويصدقون بما ورد في الكتاب والسنة، كانوا عند القرآن لا يخالفونه في حركاتهم وسكناتهم وأخذهم وعطائهم، عاملوا ربهم عزّ وجلّ فربحوا في معاملته فلزموها، رأوا بابه مفتوحا فدخلوه ورأوا باب غيره مغلوقا فهجروه، ووافقوه في غيره ولم يوافقوا غيره فيه، وافقوه في بغضه لمن يبغض، وفي حبه لمن يحب.

ولهذا قال بعضهم: وافق الله عزّ وجلّ في الخلق ولا توافق الخلق في الله عزّ وجلّ، انكسر من انكسر وانجبر من انجبر. القوم لا يزالون في جانب الحق عزّ وجلّ ينصرونه على نفوسهم وعلى غيره، لا تأخذهم فيه لومة لائم، لا يخافون أحدا في حدوده وإقامة شرعه.

(يا غلام) دع عنك الهوس الذى أنت فيه وعليه، واتبع القوم في أقوالهم وأفعالهم، لا تطلب الوصول إلى ما وصلوا إليه بمجرد الدعوى الكاذبة، اصبر على البلاء كما صبروا عليه حتى تصل إلى ما وصلوا إليه، لولا البلاء لكان الناس كلهم عبادا زهادا، ولكنهم تجيئهم البلايا فلا يصبرون عليها فتحجبهم عن باب ربهم عزّ وجلّ.

من لا صبر له لا عطاء له، إذا عدمت الصبر والرضا كان ذلك سببا لخروجك من عبوديتك للحق عزّ وجلّ، قال الله تعالى في بعض كتبه:

(مَنْ لَمْ يَرْضَ بقضائي، ولَمْ يَصْبِرْ على بَلائي فَلْيتخذ إلهاً سوايَ).

اقنعوا به دون غيره، والمقدر كائن لكم وعليكم، حققوا الإسلام حتى تصلوا إلى الإيمان، ثم حققوا الإيمان حتى تصلوا إلى الإيقان، فحينئذا ترون ما لم تروه من قبل اليقين، يريكم الأشياء كما هى على صورتها، يصير الخبر معاينة، وهو يوقف القلب على الحق عزّ وجلّ ويريه الأشياء منه.

إذا وقف القلب على باب الحق عزّ وجلّ خرجت إليه يد الكرامة فتكرّمت عليه، فيصير كريما مؤثرا يتكرّم على الخلق ولا يبخل عليهم بشيء، القلب الصحيح الذى صلح لله عزّ وجلّ كريم، والسرّ الذى قد صفا عن الكدر كريم، وكيف لا يكونان كذلك وقد تكرم عليهما أكرم الأكرمين؟

(يا قوم) عليكم بالكرم والإيثار في طاعة الحق عزّ وجلّ لا في معصيته، كل نعمة تصرف في المعصية هى معرّضةللزوال، تشاغلوا بالاكتساب مع ملازمة الطاعة إلى أن يأتيكم القرب منه فتجتمع هومكم به ومعه، لا بغيره ولا مع غيره.

فحينئذ يصير أكلكم من طبق فضله وكرمه من حيث لا تدرون ولا تعقلون. النفس حجابهم عنه. فإذا زالت من الوسط زال الحجاب.

ولهذا قال أبو يزيد البسطامى رحمة الله عليه: رأيت ربي في المنام فقلت له: كيف الطريق إليك ياباری خدا؟ فقال دع نفسك وتعال، فانسلخت منها كما تنسلخ الحيه من جلدها، إنما عين الحق عزّ وجلّ على النفس دون غيرها، وأمره بتركها لأن الدنيا وما فيها وما سوى الحق عزّ وجلّ في الجملة تبع للنفس، الدنيا لها وهى محبوبتها، والآخرة لها أيضا، فإن الله عزّ وجلّ قال:

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[1].

وقال رضى الله عنه بعد كلام: هم بالنهار في مصالح الخلق والعيال، وفي الليل في خدمة ربهم عزّ وجلّ والخلوه معه، هكذا الملوك طول النهار مع الغلمان والحواشي وقضاء حوائج الناس، فإذا جاء الليل خلوا بوزرائهم وخواصهم.

اسمعوا رحمكم الله تعالى ما أقول بأسماع قلوبكم واحفظوه واعملوا به، ما أنطق

---

(١) سورة الزخرف آية: ٧١.

إلا بالحق من الحق، ما أنطق إلا بصفة طريق الحق عزّ وجلّ أصفها حتى تسلكوها، ما اقنع منكم بأن تقولوا لي أحسنت، بل بألسنة قلوبكم أحسنت، واعملوا بما أقول وأخلصوا في أعمالكم، حتى إذا رأيت ذلك منكم قلت لكم أحسنتم ، متى تصل على نفسك وعلى دنياك وأخراك، وعلى الخلق وما سوى الحق عزّ وجلّ في الجملة؟ الخلق حجاب نفسك، ونفسك حجاب قلبك، وقلبك حجاب سرك، فما دمت مع الخلق لا ترى نفسك، فإن تركتهم رأيتها، تراها عدوة لربك عزّ وجلّ ولك، فلا تزال تحاربها حتى تطمئن إلى ربها عزّ وجلّ وتطمئن إلى وعده وتخاف من وعيده، تمتثل أمره وتنتهي عن نهيه وتوافقه في قدره، فحينئذ تزول الحجب عن القلب والسرّ، يريان ما لم يرياه من قبل، يعرفان ربهما عزّ وجلّ ويلجآن به ولا يقفان مع شيء سواه.

العارف لا يقف مع شيء، بل يقف مع خالق كل شيء لا نوم له و سنة له، لا قيد له عن ربه عزّ وجلّ، والمحبوب لا وجود له، هو في وادي القدر والعلم بربه عزّ وجلّ، أمواج بحر العلم ترفعه وتحطه، ترفعه إلى الجوّ ثم تحطه إلى التخوم، وهو غائب مبهوت لا يعقل، أصمّ أبكم لا يسمع من غير الحق عزّ وجلّ ولا يرى غيره، وهو ميت بين يديه، فإذا شاء أنشره، إذا أراد أوجده، هم أبداً في سرادق القرب، فإذا جاءت نوبة الحكم كانوا في صحن الحكم، إذا جاءت نوبة الخروج كانوا على الباب، يأخذون القصص من الخلق، يصيرون وسائط بينهم وبين الحق عزّ وجلّ، هذه أحوالهم ولكن من الحال ما يكتم.

(يا قوم) إيش هذا؟ أنتم في هوس، أنتم في ضياع، الزمان بلا شيء، اصبروا مع الله عزّ وجلّ وقد رأيتم الخير في الدنيا والآخرة، إن أردت تحقيق الإسلام فعليك بالاستسلام، وإن أردت القرب من الله عزّ وجلّ فعليك بالاستطراح بين يدي قدره وفعله، بلا لم ولا كيف، فبذلك تقرب منه. لا تشأ شيئاً فإنه ما يصح، قال عزّ وجلّ:

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[1].

إذا كان لا يتم لك ما تشاء فلا تشأ، لا تنازعه في أفعاله، إذا أخذ عرضك ومالك وعافيتك وولدك وكسر أعراضك فتبسم في وجه قدره وإرادته وتبديله، كن على ذلك إن أردت قربه، إن أردت الصفاء معه، إن أردت وصول قلبك إليه وأنت في الدنيا، اكتم حزنك وأظهر بشرك، خالق بخلق حسن.

---

(١) سورة الإنسان آية: ٣٠.

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم:

(بشرُ المؤمنِ في وَجهِهِ وحزنُهُ في قلبِهِ).

لا تشكوا إلى أحد، فإنك إن شكوت من الحق عزّ وجلّ سقطت من عينه.ومع ذلك لا يزول من عندك ما شكوت منه، ولا تعجبنّ بشيء من أعمالك، فإن العجب يفسد العمل ويهلكه. من رأى توفيق الله عزّ وجلّ له انتفى عنه العجب بشيء من الأعمال.

اجعل كل قصدك إليه، فإنه يجعل رحمته لك ويهيئ لك أسباب الوصول إليه، كيف تقدر أن تجعل قصدك إليه وأنت كاذب في أقوالك وأفعالك، طالب الحمد من الخلق خائف من ذمهم، طريق الحق عزّ وجلّ كلها صدق،القوم لهم صدق بلا كذب، صدق بلا ظهور، أفعالهم أكثر من أقوالهم، هم نوّاب الحق عزّ وجلّ في خلقه وخلفاؤه عليهم وجهابذته وشحنه في أرضه، هم مفردوه وخواصه، أنت يا منافق ليس عليك منهم، لا تزاحمهم بنفاقك، هذا شيء لا يجيء بالتخلي والتمني والقال والقيل.

اللهم اجعلنا من الصادقين.

و ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

وقال رضي الله تعالى عنه: لا تقنع من أحوالهم بالاسم والتزيي بزيهم والتشدق بكلامهم، لا ينفعك ذلك مع مخالفتك لأفعالهم، أنت كدر بلا صفاء، خلق بلا خالق، دنيا بلا آخرة، باطل بلا حقيقة، ظاهر بلا باطن، قول بلا عمل، عمل بلا إخلاص، إخلاص بلا إصابة السنة.

إن الله عزّ وجلّ لا يقبل قولاً بلا عمل، ولا عملاً بلا إخلاص، ولا يقبل شيئاً من الجملة غير موافق لكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ذلك دعوى بلا بينة فلا جرم لا يقبل منك شيئاً، إن حصل لك قبول الخلق مع كذبك فما حصل لك قبول الحق عزّ وجلّ، هو العالم بما في القلوب، لا تبهرج فإن الناقد بصير. إن الله عزّ وجلّ ينظر إلى قلبك لا إلى صورتك، ينظر إلى ما وراء الثياب والجلود والعظام، ينظر إلى خلوتك لا إلى جلوتك، أما تستحي جعلت منظر الخلق مزيناً ومنظر الحق عزّ وجلّ منجساً؟ إن أردت الفلاح فتب من جميع ذنوبك وأخلص في توبتك، تب من شركك بالخلق، لا تعمل شيئاً

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٠١.

إلا الله عزّ وجل، إني أراك كلك خطأ لأنك مع النفس والهوى والدنيا والشهوات واللذات، تجرّدك بقة، تسخطك لقمة، ترضى لرضا نفسك وتسخط لسخطها، فأنت عبدك، زمامك بيدها.

أين أنت من عباد الله عزّ وجلّ الذين تحققت لهم العبودية له والرضا بأفعاله؟ الآفات تنزل عليهم وهم قعود كالجبال الرواسي، تنزل إليهم وعليهم وهم ينظرون إليها بعين الصبر والموافقة، تركوا الجساد للبلايا، وطاروا إلى الحق عزّ وجلّ بقلوبهم، فهم خيم بلا رجال، أقفاص بلا طيور، أرواحهم عنده وأجسادهم بين يديه. يا معرضين عن ربهم عزّ وجلّ ، يا مستوحشين منه ، تقدموا إليّ حتى أصلح بينكم وبينه، أسأله فيكم، آخذ لكم الأمن منه، أتضترع بين يديه، حتى يهب لكم حقوقه التى له عليكم.

اللهم ردنا إليك، وأوقفنا على بابك، اجعلنا لك وفيك ومعك، أرضنا بخدمتك، اجعل أخذنا وعطاءنا لك، طهر بواطنناعن غيرك، لا ترنا حيث نهيتنا، لاتفقدنا حيث أمرتنا، لا تجعل ظواهرنا في معاصيك وبواطننا في الشرك بك، خذنا من نفوسنا إليك، اجعل كلنا لك، أغنياء بك عن غيرك، نبهنا من الغفلةعنك، أردنا بطاعتك ومناجاتك، لذذ قلوبنا وأسرارنا بقربك، أحل بيننا وبين معاصيك كما أحلت بين السماء والأرض، وقرّبنا إلى طاعتك كما قربت بين سواد العين وبياضها. أحل بيننا وبين ما تكره كما أحلت بين يوسف وزليخا في معصيتك.

وقال رضى الله تعالى عنه: ذوّبوا نفوسكم وأهويتكم وطباعكم بالصوم الدائم، والصلاة الدائمة والصبر الدائم، إذا صح للعبد ذوبان نفسه وهواه وطبعه بقى هو ومولاه بلا زحمة، بقى قلبا وسرا ومولى، سعة بلا ضيق، عافية بلا سقم، كونوا عقلاء وتعلموا واعلموا وأخلصوا.

(يا غلام) تعلم من الخلق ثم من الخالق، قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

(مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

لا بد من التعلم من الخلق أولا وهو الحكم، ثم من الخالق ثانيا وهو العلم اللدنى، علم يخص القلوب، سرّ يخص الأسرار، كيف تقدر تتعلم شيئا بلا أستاذ، أنت في دار الحكمة، اطلب العلم فإن طلبه فريضة، قال النبى صلى الله عليه وسلم :

(اطلبُوا العلمَ ولوْ بالصيْن)

(يا غلام) اصحب من يعاونك على جهاد نفسك لا من يعاونها عليك، إذا صحبت شيخا جاهلا منافقا صاحب طبع وهوى كان معاونا لها عليك. الشيوخ لا يصحبون للدنيا بل يصحبون للآخرة، إذا كان الشيخ صاحب طبع وهوى صحب للدنيا، وإذا كان صاحب قلب صحب للآخرة، وإذا كان صاحب سرّ صحب للمولى.

يا من تمشيخ وتصدر وزاحم الشيوخ المخلصين في أحوالهم، ما دمت تطلب الدنيا بنفسك وهواك فأنت صبيّ، ذلك طبع محض النادر من كل نادر، نفس تعرض عن الدنيا وتتركها اختيارا لا اضطرارا، او كون النفس تطمئن وتصير قلبا نادر من كل نادر، بعيد من كل بعيد، إنما يصح في حقها إذا عميت عن الدنياوالآخرة وما سوى المولى.

كلما قرب العبد من ربه عزّ وجلّ كثر خطره واشتد خوفه، ولهذا أخطر الناس من الملك وزيره لأنه أقربهم منه، ما يصل اليه المؤمن إلا بالإخلاص فحينئذ هو على خطر، القوم على خطر عظيم، لا يسكن خوفهم حتى يلقوا ربهم عزّ وجلّ، من عرف الله عزّ وجلّ اشتد خوفه، ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم :

(أنا أعرفكم بالله وأشدكم له خوفا).

الحق عزّ وجلّ يختبر أولياءه ليصفيهم، فهم أبدا على قدم الخوف من التغيير والتبديل، يخافون وإن كان حالهم الأمن، ينزعجون وإن كانوا قد أعطوا السكون يناقشون أنفسهم على ذرّة وخردلة ولفتة وأدنى غفلة، كلما أسكنهم طاروا، كلما أغناهم افتقروا، كلما أمنهم خافوا، كلما أعطاهم امتنعوا، كلما أضحكهم بكوا، كلما فرحهم حزنوا، يخافون من تقلب الأغيار وسوء العاقبة، قد علموا أن ربهم عزّ وجلّ :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1].

وأنت يا غافل، تبارز الحق عزّ وجلّ بالمعصية والمخالفة ثم تأمنه، عن قريب ينقلب أمنك خوفا، سعتك ضيقا، عافيتك مرضا، عزّك ذلا، رفعك وضعا، غناك فقرا. اعلم أن أمنك يوم القيامة من عذاب الله عزّ وجلّ على قدر خوفك منه في الدنيا،

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٢٣.

وخوفك في الآخرة على قدر أمنك في الدنيا، ولكنكم غائصون في بحر الدنيا ساكنون في غمر بئر الغفلة، فلا جرم عيشكم كعيش البهائم، لا تعرفون سوى الأكل والشرب والنكاح والنوم، أحوالكم ظاهرة عند أرباب القلوب، الحرص على الدنيا وجمعها وطلب الأرزاق قد حجبكم عن طريق الحق عزّ وجلّ وعن بابه، يا من قد فضحه حرصه، لو اجتمعت أنت وأهل الأرض على أن تجلب لك شيئا لم يقسم لك لم تقدر، فدع عنك الحرص على طلب ما قد قسم لك وطلب ما لم يقسم لك.

كيف يحسن لعاقل أن يضيع زمانه فيما قد فرغ منه، أخرج الخلق من قلبك ولا تراهم في الضرّ والنفع والعطاء والمنع، في الحمد والذم، في الإكرام والإهانة، في الإقبال والإدبار، واعتقد أن الضرّ والنفع من الله عزّ وجلّ . وأن الخير والشر بيده، يجريهما على أيدي الخلق، فإذا تحققت صرت سفيرا بين الخلق والخالق آخذ بأيديهم إلى بابه، تراهم كأنهم معدومون بالإضافة إليك، ترى العصاة لربهم عزّ وجلّ بعين الجنون والجهل فتداريهم وتطبهم وتصبر على أذاهم وجهلهم.

الطائعون لربهم عزّ وجلّ هم العلماء العقل، والعاصون لربهم عزّ وجلّ هم الجهال المجانين، العاصي جهل ربه عزّ وجلّ فعصاه وتابع شيطانه ووافقه، فلو لم يجهل لما عصى، لو عرف نفسه وعلم أنها تأمره بالسوء لما وافقها، كم أحذرك من إبليس وأعوانه وأنت تصحبه وتقبل منه أعوانه: النفس والدنيا والهوى والطبع وأقران السوء، احذر الجميع فإن كلهم أعداؤك، وليس لك محبّ سوى الله عزّ وجلّ فإنه يريدك لك وغيره يريدك له.

فإذا فقدت نفسك في حال خلوتك وطلبتها مع الطالبين حينئذ صارت خلوتك أنسا بالحق عزّ وجلّ، إذا تركت نفسك مع الدنيا وقلبك مع الأخرى وسرّك مع المولى حينئذ صارت خلوتك أنسا بالله، وأما مع وجودها ووجود غيرها من النفس لا يكون لك خلوة، الخلوة معه إنما تكون مع الوحدة من غيره، إنما تجده بعد بغض غيره.

متى تصفو حتى ترى الصفاء وأهله؟ متى تصدق حتى ترى الصدق وأهله؟ متى تخلص حتى ترى باب الحق عزّ وجلّ وأهله؟ إذا حققت حالك رأيت رجال الحق عزّ وجلّ، إذا رأيت باب الملك رأيت خدمه وقوفا هناك، باب الملك مادسته، مالحته، كيف ترى غلمانه؟ لا كلام حتى ترى الباب فحينئذ ترى الغلمان، لا كلام حتى ترى الله عزّ

وجلّ فحينئذ ترى صدقاً، وقد رأيت هناك الصدق يحملك ويقدمك ويوقظك، والكذب يردك وينوّمك.

كنْ مع الصادقين حتى تعامل بما عوملوا به، اصدق في أقوالك وأفعالك واصبر في جميع أحوالك، الصدق هو التوحيد والإخلاص والتوكل على الله عزّ وجلّ، حقيقة التوكل قطع السباب والأرباب والخروج من حولك وقوتك من حيث قلبك وسرك إن أردت الاتصال به فاقطع كل موصول غيره، وأعرض عنك وعنهم، أعرض عن المحدث حتى تصل إلى المحدث ما دمت معك ومعهم لا تفلح، قرب الحق عزّ وجلّ لايحتمل الزحمة، من كل ألف ألف منكم إلى انقطاع النفس واحد يعقل ما أقول ويعمل به، وباقيكم يدخلون في عماره ويتبركون بحضورهم معه، إنى أرجو لكم الخير في الدنيا والآخرة. الدنيا سجن المؤمن، فإذا نسى سجنه جاءه الفَرَج.

المؤمنون في سجن، والعارفون في شكر ، فهم غائبون عن السجن، قد سقاهم ربهم شراب الشوق إليه، شراب الأنس به، شراب الطلب له، شراب الغفلة عن الخلق واليقظة به، سقاهم هذه الأشربه فتبنجور عن الخلق وفاقوا به، ومعه غابوا عن السجن والمسجونين، قد عجل لهم في الدنيا نارهم وجنتهم، المنازعة نارهم والرضا والقضاء جنتهم، الغفلة نارهم واليقظة جنتهم القيامة في حقّ العوام المحاسبة، وفي حق الخواص معاتبة، كيف لا يكونون كذلك وقد أقاموا القيامة على أنفسهم؟ وهم في الدنيا بكوا قبل الضرب، فنفعهم البكاء وقت حضور الضرب.

رؤى سفيان الثورى رحمة الله عليه في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: أوقفنى بين يديه وقال لى: يا سفيان أما علمت أنى غفور رحيم؟ بكيت ذلك البكاء كله من خوفي، أما استحييت منى؟ اهجر طبعك وهواك وشيطانك ولا تركن إليهم. إذا ثبت هذا فاجعل بينك وبين أقران السوء عداوة، ولا تصادقهم حتى يوافقوك في حالك. التوبة قلب دولة، من تاب ولم يغير ما كان عليه قبل التوبة فقد كذب في توبته، إذا غيرت غير عليك، قال الله عزّ وجلّ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[1].

لا تظلم أحداً في الدنيا فإنك تؤخذ به في الآخرة، اعدل في الدنيا حتى لا يعدل

---

(١) سورة الرعد آية: ١١.

بك عن طريق الجنة، الظلمة لما تركوا العدل عدل بهم عن طريق دار أهل العدل، اترك كل شيء في موضعه حتى يصير لك موضع عند الله عزّ وجلّ ، هذا آخر الزمان، إني أراكم قد غيرتم وبدلتم، فإني أخاف عليكم من التغيير والتبديل، لا بد ما يغير أشياء ويبدل، ولكن من الحلال ما يكتم.

يا خلق الله إني أطلب صلاحكم ومنفعتكم في الجملة، أتمنى غلق أبواب النار وعدمها بالكلية، وأن لا يدخلها أحد من خلق الله عزّ وجلّ ، وفتح أبواب الجنة، وأن لا يمنع من دخولها أحد من خلق الله عزّ وجلّ ، وإنما تمنيت هذه المنية لاطلاعه على رحمة الله عزّ وجلّ وشفقته على خلقه، فعودي لمصالح قلوبكم وتهذيبها لا لتغيير الكلام وتهذيبه، لا تهربوا من خشونة كلامي فما رباني إلا الخشن في دين الله عزّ وجلّ ، كلامي خشن وطعامي خشن، فمن هرب مني ومن أمثالي لا يفلح. إذا أسأت الأدب فيما يرجع إلى الدين لا أتركك، ولا أقول افعل ذلك ولا أبالي حضرت عندي أم غبت، لا أطلب الحيال إلا بالله عزّ وجلّ ومنه لا منكم، إني ناحية عن عددكم وحسابكم، ما أنا فيه لا يغير باللسان إنما يغير بالجنان، لا يمين ولا شمال ولا وراء، بل قدام، حسب صدر بلا ظهر ، تابع للأنبياء والمرسلين والسلف، لا أزال عنهم في عدو كلي إلى دار قربه.

توبوا من ذنوبكم وسوء أدبكم، هذه التوبة غرسي في أرض قلوبكم، بناء أبنية عندكم، انقض بناء الشيطان وابني بناء الرحمن وألحقكم بمولاكم وربكم عزّ وجلّ، إني قائم مع اللبّ لا مع القشر، هذا الظاهر قشر لا أتعب في تربيته، إنما أربي ألبابكم وأنحي قشوركم وأربيكم حتى تقرّ عين عين نبيكم بكم.

(يا غلمان) لا تصحبوني للدنيا واصحبوني للآخرة فحسب، إذا صحت صحبتكم لي للآخرة جاءتكم الدنيا تبعاً وضمناً، فتأخذونها على قدر الزهد فيها وأنا ضامن لكم أنكم لا تحاسبون عليها. قدموا الآخرة على الدنيا، الباطن على الظاهر، الحقّ على الباطل، الباقي على الفاني، اتركوا ثم خذوا، اتركو الأخذ من أيدي الطبع والهوى والنفس، وخذوا من يدي القلب والسر، اتركوا الأخذ من أيدي الخلق وخذوا من يد الخالق، أطيعوا الرسول واقبلوا منه ما يأتيكم به من الأمر والنهي، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[1].

---

(١) سورة الحشر آية: ٧.

كونوا سباعاً عند أمر الله عزّ وجلّ ورسوله ومرضى عند نهيهما، موتى عند مجيء الأقضية والأقدار، ومع هذا عاشروا الناس بخلق حسن، لا تطلبوا من الله عزّ وجلّ بغير علمه فيكم، ووافقوه في حكمه وقدره فيكم وفي غيركم، عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(لمّا خلق اللهُ عزّ وجلّ القلمَ قال له: اكتب قال ما الذي اكتب؟ قال اكتب حكمي في خلقي إلى يوم القيامة).

يا موتى القلوب، يا أحياء النفوس، قلوبكم قد ماتت، فكونوا في مصيبتها أولى ما تكون في مصيبة غيركم، موت القلوب الغفلة عن الله عزّ وجلّ وعن ذكره فمن أراد منكم أن يحي قلبه فليترك فيه ذكر الحق عزّ وجلّ والأنس به والنظر إلى سلطانه وعظمته، وتصرّفه في خلقه.

(يا غلام) اذكر الحق عزّ وجلّ أولاً بقلبك ثم بقالبك ثانياً، اذكر بقلبك ألف مرة وبلسانك مرة، اذكره عند مجيء الآفات بالصبر، وعند مجيء الدنيا بالترك، وعند مجيء الأخرى بالقبول، وعند مجيء الحق بالتوحيد، وعند مجيء غيره في الجملة بالإعراض عنه، إذا أرخت عنان نفسك طمعت فيك وأرمت بك، ألجمها بلجام الورع ودع عنك القال والقيل. ذكر الموت يصفي قلبك، ويبغض الدنيا والخلق إليك، ينكشف الغطاء عن قلبك فترى الخلق فانين، موتى هلكى عجزى، لا ضرّ فيهم ولا نفع.

المجلس الخمسون

[وجوب التفرغ من هموم الدنيا]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة الجمعة في المدرسة ثامن عشر شعبان سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

اشتغل بإصلاحك وصلاحك، ودع عنك القال والقيل وهوس الدنيا، تفرّغ من همومها ما استطعت، كان النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم يقول:

(تفرّغوا من هموم الدّنيا ما استطعتم).

يا جاهلاً بالدنيا لو عرفتها ما طلبتها، إن جاءت إليك أتعبتك، وإن تولت حسرتك، لو عرفت الله عزّ وجلّ لعرفت به غيره، ولكنك جاهل به وبرسله وأنبيائه وأوليائه.

(ويحك) أما تتعظ بما جرى على من تقدم من الخلق من هذه الدنيا ؟ اطلب الخلاص منها، اخلع لباسها واهرب منها، اخلع لباس النفس وسر إلى باب الحق عزّ وجلّ.

وإذا انخلعت من نفسك فقد انخلعت مما سوى الله عزّ وجلّ، وإن كان ما سواه تابعاً للنفس فنح عن نفسك وقد رأيت ربك عزّ وجلّ، سلم إليه وقد سلمت جاهد فيه وقد اهتديت، واشكره وقد زادك، سلم إياك والخلق إليه، لا تعترض عليه فيك ولا في غيرك، القوم لا يريدون مع الله عزّ وجلّ إرادة، ولا يختارون معه اختياراً، لا يحرصون على طلب أقسامهم، ولا ينظرون إلى أقسام غيرهم.

إن أردت صحبة القوم دنيا وآخرة فوافقه في أقواله وأفعاله وإرادته، إني أراك قد عكست الأمر وقد جعلت مخالفته ومنازعته دابك بالليل والنهار، يقول لك افعل ولا تفعل. كأنه هو العبد وأنت المعبود، سبحانه ما أحلمه، لولا حلمه لرأيت ضد ما عندك، إن أردت الفلاح فعليك بالسكون بين يديه، سكون الظاهر والباطن سوء الأدب عندي، وإنما أعده رخصة. أد الأمر وانته عن النهي ووافق القدر وسكن ظاهرك وباطنك عن الكلام بين يديه وقد رأيت الخير دنيا وآخرة.

لا تسأل الخلق شيئاً، فإنهم عجزة فقراء لا يملكون لأنفسهم ولا غيرهم ضراً ولا

نفعاً. اصبر مع الله عزّ وجلّ ولا تستعجله ولا تستبخله ولا تتهمه عليها، هو أشفق عليكم منكم، منك عليك، ولهذا قال بعضهم: إيش عليّ مني؟ عليكم بالموافقة له عزّ وجلّ فهو أعلم منكم بكم، ليس كل ما فيه مصلحة لكم يطلعكم عليه، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]. وقال: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] وقال: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[3].

ومن أراد سلوك طريق الحق عزّ وجلّ فليهذب نفسه قبل سلوكه، هي سيئة الأدب، لأن النفس أمارة بالسوء، إيش تعمل عند الحق عزّ وجلّ كيف في سيرك إليه؟ جاهدها حتى تطمئن، فإذا اطمأنت استصحبها معك إلى بابه، لا توافقها إلا بعد الرياضة بعد التعلم وحسن الأدب والطمأنينة إلى وعد الله عزّ وجلّ ووعيده.

هي عمياء خرساء طرشاء مخبلة، جاهلة بربها عزّ وجلّ عدوة له، فبدوام المجاهدات تنفتح عيناها وينطق لسانها وتسمع أذنها ويزول خلبها وجهلها وعداوتها لربها عزّ وجلّ، وهذا يحتاج إلى حبال ورجال.

ودوام ساعة بعد ساعة، ويوم بعد يوم، وسنة بعد سنة، ما يجيء هذا بمجاهدة ساعة، يوم، شهر، اضربها بسوط الجوع، امنعها حظها وأوفها حقها، احمل عليها ولا تخف من سيفها وسكينها سيفها خشب ما هو حديد، لها كلام بلا أفعال، كذب بلا صدق، عهد بلا وفاء، لا مودة لها، جولة بلا دولة.

إبليس الذي هو أميرها، لا قوة له عند المؤمنين الصادقين في عداوته ومخالفته فكيف هي؟ لا تظن أنه دخل الجنة وأخرج آدم عليه السلام منها بقوته، وإنما الحق عزّ وجلّ قوّاه على ذلك وجعله سبباً لا أصلاً. يا قليل العقل لا تهرب من باب الحق عزّ وجلّ لأجل بلية يبتليك بها، فإنه أعرف منك بمصلحتك، وما يبتليك إلا لفائدة وحكمة.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢١٦.

(٢) سورة النحل آية: ٨.

(٣) سورة الإسراء آية: ٨٥.

إذا ابتلاك فاثبت وارجع عن ذنوبك وأكثر الاستغفار والتوبة واسأله الصبر والثبات عليها، وقف بين يديه وتعلق بذيل رحمته، واسأله كشف ذلك عنك وبيان وجه المصلحة فيه.

إن أردت الفلاح فاصحب شيخاً عالماً بحكم الله عزّ وجلّ وعلمه، يعلمك ويؤدبك ويعرفك الطريق إلى الله عزّ وجلّ. المريد لا بد له من قائد ودليل، لأنه في برية فيها عقارب وحيّات وآفات وعطش وسباع مهلكة، فيحذره من هذه الآفات ويدله على موضع الماء والأشجار المثمرة، فإذا كان وحده من غيره دليل وقع في أرض مسبعة كثيرة السبعة والعقارب والحيات والآفات.

يا مسافراً في طريق الدنيا لا تفارق القافلة والدليل والرفقاء، وإلا ذهب منك مالك وروحك، وأنت يا مسافراً في طريق الآخرة كن أبداً مع الدليل إلى أن يوصلك إلى المنزل، اخدمه في الطريق وأحسن أدبك معه، ولا تخرج عن رأيه فيعلمك ويقربك إليه، ثم يستنيبك في الطريق لرؤيته نجابتك وصدقك وحذقك، فيصيرك أميراً فيها وسلطاناً على أهلها، يستخلفك في مراكبه، فلا تزال على ذلك إلى أن يأتي بك إلى نبيك صلى الله تعالى عليه وسلم، فيسلمك إليه فيقربك عيناً، ثم يستنيبك على القلوب والأحوال والمعاني، فتصير سفيراً بين الله عزّ وجلّ وبين خلقه، غلاماً بين يدي نبيك صلى الله تعالى عليه وسلم.

تأتي إلى الخلق والخالق مرة بعد مرة، هذا شيء لا يجيء بالتخلي والتمني، ولكن بشيء وقر في الصدور وصدقه العمل. القوم نزاع العشائر، من كل ألف ألف إلى انقطاع النفس واحد، يسمعون كلام الله عزّ وجلّ بقلوبهم ومعانيهم، ويصدقون ذلك السماع بأعمال جوارحهم.

يا جهال توبوا إلى الله عزّ وجلّ وارجعوا إلى جادة الصديقين واتبعوهم في أقوالهم وأفعالهم ولا تتبعوا بنيات الطرق المنافقين الطالبين الدنيا المعرضين عن الآخرة التاركين لجادة الحق عزّ وجلّ التي كان عليها من تقدم خذوا يميناً وشمالاً ووراء، طلبوا طريق الكسالى ولم يمرّوا بجادتهم في الجادة الصحيحة التي هي الطريق إلى الحق عزّ وجلّ.

(يا غلام) هؤلاء الذين تعاشرهم في الدنيا للدنيا غداً لا تراهم، تقطع بينكم،

كيف لا تقطع بينك وبين أقرانك السوء الذين عاشرتهم في غير الله عزّ وجلّ ؟ إن كان ولا بد لك من معاشرة الخلق، فعاشر المتورعين المتزهدين العارفين العاملين مريدي الحق عزّ وجلّ ومراديه.

عاشر من يأخذ منك الخلق ويعطيك قرب الحق عزّ وجلّ يأخذ منك الضلال ويقيمك على الجادة، يعصب عينك عن الدنيا ثم يفتحها على الآخرة، ينحي من بين يديك طبق الدنيا ويترك بدله طبق الأخرى، ينحي عنك الخفاية ويترك بدلها الحرية، يقيمك من بين الحيات والعقارب والسباع، ويقعدك في الأمن والراحة والطيبة.

عاشر من هذه صفته واصبر على كلامه واقبل أمره ونهيه وقد رأيت الخير عاجلاً، غير أن أجل الشجاعة صبر ساعة، بك لا يجيء شيء ولا بد منك، اشتر الرزكارية والزنبيل واقعد على باب العمل، فإن قدر عملك فسوف تعمل، أعط السبب حقه وتوكل واقعد على باب العمل، فإن أخذوا الرزكارية ولم يأخذوك لا تبرح من مكانك حتى تيأس من أحد يدعوك إلى عمله، فحينئذ ألق نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب.

أحسن أدبك بين يدي معلمك، وليكن صمتك أكثر من نطقك، فإن ذلك سبب لتعلمك وقربك إلى قلبه، حسن الأدب يقربك وسوء الأدب يبعدك، كيف يحسن أدبك وأنت لا تخالط الأدباء؟ كيف تتعلم وأنت لا ترضى بمعلمك ولا تحسن ظنك فيه؟.

المجلس الحادي والخمسون

[عدم الركون إلى الدنيا]

وقال رضي الله تعالى عنه في عشرين من شعبان من السنة:

الدنيا كلها حكمة، وعمل الآخرة كلها قدرة، فهذه مبنية على الحكمة وتلك مبنية على القدرة، فلا تترك العمل في دار الحكمة ولا تعجز قدرته في دار القدرة، عمل في دار الحكمة بحكمته ولا تتكل على قدرته، لا تجعل القدر عذراً لنفسك فإنها تحتج به وتترك العمل، العذر بالقدر حجة الكسالى، إنما يكون العذر بالقدر في غير الأوامر والنواهي.

وقال رضي الله تعالى عنه بعد كلام : المؤمن لا يسكن إلى هذه الدنيا ولا إلى ما فيها، يأخذ قسمه منها ويتنحى بقلبه إلى الحق عزّ وجلّ، يقف هناك حتى ينحي عنه وهج الدنيا، ويؤذن لقلبه بالدخول عليه سفارة سرّه.

يخرج السرّ إلى القلب والقلب إلى النفس المطمئنة والجوارح الطائعة، فبينما هو كذلك إذ أغنى عياله عنه وحيل بينه وبينهم، يكفيه شرور الخلق ويطيعهم له، ويحيل بين قلبه وقلوبهم.

ويبقى وحده مع ربه عزّ وجلّ، كأن الخلق لم يخلقوا بالإضافة إليه، كأن لا خلق لربه عزّ وجلّ سواه، يبقى ربه عزّ وجلّ فاعلاً وهو مفعول فيه، يبقى مطلوبه وهو طالبه، يبقى أصله وهو فرعه، لا يعرف غيره ولا يرى غيره، يطويه عن الخلق:

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾[1] .

لهم يوجده بينهم، لمصالحهم ولهدايتهم، ويصبر على أذاهم لمرضاة الحق عزّ وجلّ. القوم حرّاس القلوب والأسرار، قائمون مع الحق عزّ وجلّ لا مع غيره، عاملون له لا لغيره.

يا منافق ما عندك من هؤلاء القوم خبر ولا من الإيمان خبر ولا من الأنس بالله عزّ وجلّ خبر، عن قريب تموت وتندم بعد الموت، قد قنعت بفصاحة اللسان مع عجمة

---

(١) سورة عبس آية، ٢٢.

الجنان وهذا لا ينفعك، الفصاحة للقلب لا للسان، ابك على نفسك ألفاً وعلى غيرك مرة.

يا ميت القلب يا غائباً عن القوم يا مدبراً يا محجوباً بك وبالخلق عن الحق عزّ وجل. إلهي إني كنت أخرس فأنطقتني فانفع الخلق بنطقي وكمل لهم الصلاح على يدي، وإلا ردني إلى الخرس.

(يا قوم) إن أدعوكم إلى الموت الأحمر، وهو مخالفة النفس والهوى والطبع والشيطان والدنيا، والخروج عن الخلق وترك ما سوى الحق عزّ وجلّ في الجملة، جاهدوا في هذه الأحوال ولا تيأسوا فإن الحق عزّ وجل:

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾[1].

اسألوه على قدر قدرته، اسألوه من حيث القدرة لا من حيث الحكمة، اسألوه من حيث علمه لا من حيث علمكم، اسألوه بقلوبكم وأسراركم لا بقلقلة اللسان، اسألوه من وراء تجوز علمكم وقدرتكم؛ قفوا بين يديه على قدم الإفلاس من جميع الأشياء، لا تتعاملوا عليه، ولا تتمقدروا عليه، ولا تتمعلقوا عليه، ولا تردوا تدبيره بتدبيركم إلى الجهال.

من لم يعمل بعلمه فهو جاهل، وإن كان متقناً لحفظه والعمل بمعانيه، تعلمك للعلم من غير عمل يردك إلى الخلق، وعملك بالعلم يردك إلى الحق عزّ وجلّ ويزهدك في الدنيا ويبصرك بباطنك، يشغلك عن تزيين الظاهر ويلهمك بتزيين الباطن، فحينئذ يتولاك الحق عزّ وجلّ لأنك قد صلحت له، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[2].

يتولى ظواهرهم وبواطنهم، يربي ظواهرهم بيد حكمته وبواطنهم بيد علمه، فلا يخافون من غيره، ولا يرجون غيره ولا يأخذون إلا منه ولا يعطون إلا فيه، يستوحشون من غيره، يستأنسون به ويسكنون إليه. هذا آخر الزمان قد كثر فيه التغيير والتبديل، هو زمان الفترة زمان النفاق ونفاقه.

يا منافق أنت عبد الدنيا والخلق، تراثيهم وتعمل لهم وتنسى نظر الحق عزّ وجلّ

---

(١) سورة الرحمن آية: ٢٩.

(٢) سورة الأعراف آية: ١٩٦.

إليك، تظهر أنك تعمل للآخرة وكل عملك وقصدك للدنيا، عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(إذا تزيّن العبد بعمل الآخرة وهو لا يريدها ولا يطلبها لعن في السموات باسمه ونسبه).

إني أعرفكم يا منافقون من طريق الحكم والعلم، ولكن أستركم بستر الله عزّ وجلّ.

(ويحك) ما تستحي؟ جوارحك ما طهرت من المعاصي والنجاسات الظاهرة، تدّعي طهارة الباطن، طهارة القلب ما صحت فيك السرّ؟ ما تأدبت مع المخلوق وتدّعي الأدب مع الخالق. المعلم ما رضي عنك ولا تأدبت معه وقبلت منه أوامره تقعد في الدست وتتصدر، لا كلام حتى يقوم توحيدك على رجله ويثبت بين يدي الحق عزّ وجلّ، وتخرج من بيضة وجودك وتقعد في حجر اللطف، وتكون تحت جناح الأنس به، وتلقط حبّ الإخلاص وتشرب ماء المشاهدة، ثم تبقى على ذلك إلى أن تصير ديكاً، فحينئذ تصير حافظاً للدجاج مؤثراً لهم بالحب، مؤذناً منبها للناس في الليل والنهار، تنبههم إلى طاعة ربهم عزّ وجلّ.

يا جاهل اترك الدفتر من يدك وتعال اقعد ههنا بين يدي على رأسك. العلم يؤخذ من أفواه الرجال لا من الدفاتر، يؤخذ من الحال لا من المقال، يؤخذ من الفانين عنهم وعن الخلق الباقين بالحق عزّ وجلّ، الدائرة على فنائك عنك وعنهم ثم وجودك به، مت عن غيره ثم أحي به وله. اصحب خدم الحق عزّ وجلّ الذين لا يبرحون على بابه، شغلهم الامتثال لأمره والانتهاء عن نهيه والموافقة لقدره، يدورون مع إرادته فيهم وفعله بهم، ليس عندهم منازعة له فيهم ولا في غيرهم، لا يتعرضون عليه في القليل ولا في الكثير لا في العالي ولا في الداني.

لا تشتغل عن خدمة الحق عزّ وجلّ بخدمة نفسك بالحرص على بلوغ أغراضها، أولياء الله عزّ وجلّ في تكلف الطلب من الخلق من غير حاجة إليهم، ولكن يليهم بذلك رحمة للخلق، لا يطلب منهم بنفسه، نفسه قد اطمأنت ولم يبق لها إرادة وشهوة فيما يلي الدنيا، تحسب أن نفسه كنفسك الجاهلة التي قد أوقفتك في خدمتها وتصرفك في إرادتها وشهواتها.

لو كان لك عقل لانصرفت من خدمتها واشتغلت بخدمة ربها عزّ وجلّ، عدوة لك، الصواب لك السكوت عن جوابها، وأن تضرب بكلامها الحائط، اسمع منها كما تسمع

من مجنون قد زال عقله، لا تلتفت إلى قولها وطلبها للشهوات والـذات والترّهات، هلاكـك وهلاكها في قبولك منها، وصلاحك وصلاحها في مخالفتها.

النفس إذا كانت طائعة لله عزّ وجلّ أتاها رزقها رغداً مـن كـل مكان، فـإذا عصت وتجبرت قطع عنها الأسباب وسلط عليها الأذايا فهلكت، وهـي خاسـرة للـدنيا والآخـرة. الطائعة القانعة صاحبها مخدوم، أينما توجه لقط قسمه من الرضا بـه، يـؤدي الفـرض الذي عليه مع طيبة القلب بلا كلفة، فارغ القلب مما سوى الله عزّ وجلّ، ساكن الجـوارح عن التعب في تحصيل الدنيا وفضولها.

يا منعماً عليه اشكر النـعم وإلا سلبت مـن يـدك، قصّ جنـاح الـنعم بالشكر وإلا طارت من عندك. الميت من مات عن ربه عزّ وجلّ وإن كان حياً في الـدنيا، إيـش تنفعـه حياته وهو يصرفها في تحصيل شهواته ولذاته وترهاته؟ فهو ميت معنى لا صورة.

اللهم أحينا بك وأمتنا عن غيرك، يا شيخاً في السن صبياً في الطبع، إلى متـى تعـدو لصبوة طبعك خلف شكاسة الدنيا ؟ قد جعلتها لك همك، أما تعلـم أن همـك مـا أهمـك، وأنك عبد من زمامك بيده.

إن كان زمامك بيد الدنيا فأنت عبد لها، وإن كان زمامك بيد الأخـرى فأنـت عبـد لها، وإن كان زمامك بيد الحق عزّ وجلّ فأنت عبد له وإن كان زمامك بيـد نفسـك فأنـت عبد نفسك، وإن كان زمامك بيد هواك فأنت عبـد هـواك، وإن كـان زمامـك بيـد الخلـق فأنت عبد الخلق.

فانظر إلى من تسلم زمامك، الأكثر والأغلب منكم من يريد الدنيا، والقليل مـنكم من يريد الآخرة، والنادر مـنكم مـن يريـد وجـه ربّ الـدنيا والآخـرة. اصحبهم بحسن الأدب ولا تعرضهم ولا تنازعهم ولا تناقصهم فتنقص، لا تسيء الأدب عليهم فتهلك.

كونـوا عقـلاء، أنـتم تعـادون الحق عـزّ وجلّ بأعمـالكم، لا تسـاووا عنـده جنـاح بعوضة إلا أن تخلصوا له في خلواتكم وجميع أحوالكم، الكنز الـذي لا يفنـى هـو الصـدق والإخلاص والخوف من الله عزّ وجلّ والرجاء له والرجوع إليه في جميع الأحوال.

عليك بالإيمان فإنه يلحقك، إذا رأيت واحداً منهم فاخفض له جناحك وسلم إليه حاله ولا تنازعه فيه، اسكت عنـه ولا تـؤذه بسـوء أدبـك والسكوت عمـا لا تعلـم، العلـم والتسليم فيما لا تعلم إسلام. يا ضـعيف الـيقين لا دنيـا عنـدك ولا آخـرة، وذلـك بسـوء

أديك على الحق عزّ وجلّ، وتهمتك لأوليائه وإبدال أنبيائه الذين أقامهم الحق عزّ وجلّ مقامهم، حمّلهم ما حمّل النبيين والصدّيقين، سلم إليهم أعمالهم وعلومهم، أفناهم عن نفوسهم وأهويتهم، وأوجدهم به وأقامهم بين يديه.

طهر قلوبهم عما سواه، وجعل الدنيا والآخرة والخلق في أيديهم، أراهم قدرته وعلمهم حكمه وعلمه القوة به لهم، صح قول لا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

صدقوا في هذا القول فأفنوا حولهم وقواهم وقوى الخلق، واستمسكوا بقوّة الحق عزّ وجلّ. كان معاذ رحمة الله تعالى عليه يقول: اللهم إن لم تفعل بي ما أريد فصبرني على ما تريد.

(يا غلام) الرضا بالقضاء أطيب من تناول الدنيا مع المنازعة، حلاوته أحلى في قلوب الصدّيقين من تناول الشهوات واللذات، هو أحلى عندهم من الدنيا جميعها وما فيها، لأنه يطيب العيش. في الجملة في سائر الأحوال على اختلاف أجناسها، تكلم على الناس بلسان العلم والعمل والإخلاص ولا تتكلم عليهم بلسان العلم بلا عمل، فإنه لا ينفعك ولا ينفع من عندك، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(يهتف العلمُ بالعملِ فإنْ أجابهُ وإلاّ ارتحلَ عنهُ).

ترتحل بركته وتبقى عليك حجته، تصير عالماً مفتوناً بعلمه، تبقى عندك شجرته وتذهب عنك ثمرته، سل الله عزّ وجلّ أن يرزقك حالاً ومقاماً بين يديه، فإذا رزقك ذلك سله كتمان ذلك وأن لا تحب إظهار شيء منه، إذا أحببت إظهار ما بينك وبين الحق عزّ وجلّ كان ذلك سبباً لهلاكك. إياك والعجب بالأحوال والأعمال، فإنه مطغ مسخط لصاحبه من عين الحق عزّ وجلّ. إياك ومحبة الكلام على الخلق والقبول عندهم، فإن ذلك يضرك ولا ينفعك.

لا تتكلم بكلمة حتى تحمل أمرك ويأتيك من حيث قلبك أمر جزم من الحق عزّ وجلّ. كيف تدعو الناس إلى بيتك وما هيأت لهم طعاماً؟ هذا الأمر يحتاج إلى أساس ثم يكون بعد ذلك البناء.احفر أرض قلبك إلى أن ينبع ماء الحكمة، ثم ابن بالإخلاص والمجاهدات والأعمال الصالحات إلى أن يرتفع قصرك، ثم ادع الناس إليه بعد ذلك. اللهم احي أجساد أعمالنا بروح إخلاصك.

إيش تنفعك الخلوة عن الخلق والخلق في قلبك؟ لا ولا كرامة لك ولا لخلوتك. إذا

خلوت والخلق في قلبك فإنك قاعد وحدك بلا حضور، الأنس بالله عزّ وجلّ، بل النفس والشيطان والهوى قرناؤك إذا كان قلبك مستأنساً بالله عزّ وجلّ، فأنت خال عن الخلق وإن كنت بين أهلك وعشيرتك إذا تمكن الأنس في قلبك هدم حيطان وجودك وبصر بصر بصيرتك فتبصر فضله وفعله، فترضى به دون غيره، من كان في حالة من الأحوال مع ملازمة الشرع ولم يتمنّ ما فوقها ولا ما تحتها ولا زوالها ولا بقاءها فقد حصل له شرط الرضا والموافقة والعبودية. ويلك لا تكذب، تدعي الرضا وتغيرك بقة ولقمة وكلمة وكسر عرض.

لا تكذب ما أسمع كذبك ولا أعمل به ولا أصدقك عليه، آحاد أفراد من الخلق يرحى إلى قلوبهم، يقذف إليها كلمات يخصها، يعرفون الخير ويوقفون عليه، كيف لا يكون كذلك وهم على متابعة الرسول في أقواله وأفعاله؟ وهو عليه الصلاة والسلام أوحى إليه ظاهراً وهو يوحى إلي قلوبهم باطناً لأنهم ورائه وأتباعه في جميع ما أمرهم به.

إن أردت أن تصح لك هذه المتابعة فأكثر من ذكر الموت، فإن ذكره يعينك على نفسك وهواك وشيطانك وانعزالك عن دنياك، من لم يتعظ بالموت فما إلى وعظه سبيل، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(كفى بالموت واعظا).

قسمك يأتيك إن زهدت أو رغبت، فإذا زهدت وصل إليك قسمك وأنت عزيز، وإذا رغبت وصل إليك وأنت غير عزيز، المنافق يستحي من الله عزّ وجلّ وقت حضور الخلق عنده ويتواقح عليه وقت خلوته.

(ويلك) لو صح إيمانك به واعتقادك أنه ناظر إليك قريب منك رقيب عليك لاستحييت منه، إني أقول لكم الحق ولا أخاف منكم ولا أرجوكم، أنتم وأهل الأرض عندي كالبق وكالذرّ، لأني أرى الضرّ والنفع من الله عزّ وجلّ لا منكم. المماليك والملوك عندي سواء، أنكروا على أنفسكم وعلى غيركم بالشرع لا بالهوى والنفس والطبع، ما سكت الشرع عنه فوافقوه في سكوته، وما نطق به فوافقوه في نطقه.

(يا غلام) لا تنكر على غيرك بنفسك وهواك، بل أنكر عليه بإيمانك. الإيمان هو المنكر، واليقين هو المزيل، والربّ عزّ وجلّ هو الناصر ينصرك ويباهي بك.

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾[١]. ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[٢].

إذا أنكرت منكراً غيرته لله عزّ وجلّ أعانك على إزالته ونصرك على أهله وذلهم لك، وإذا أنكرته بنفسك وهواك وشيطانك وطبعك خذلك ولم ينصرك على أهله، ولم تقدر على إزالته. الإنكار هو المنكر، فكل منكر لا يكون إنكاره بالإيمان فليس بمنكر، الإنكار بلا، أنت تريد أن يكون لله عزّ وجلّ لا لخلقه، لدينه لا لنفسك، له لا لك.

دع عنك الهوس وأخلص في أعمالك ،الموت على رصد منك لا بد لك من العبور على قنطرته، دع عنك هذاالحرص الذي قد فضحك، ما هو لك لا بد أن يأتيك، وما هوم لغيرك لا يأتيك، فاشتغل بالله عزّ وجلّ واترك طلب مالك وما لغيرك، قال الله عزّ وجلّ لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم:

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[٣].

اشد الأشياء على من عرف الله عزّ وجلّ، النطق مع الخلق والقعود معهم، ولهذا يكون ألف عارف والمتكلم فيهم واحد، إلا أنه يحتاج إلى قوة الأنبياء عليهم السلام، وكيف لا يحتاج إلى قوتهم وهو يريد أن يقعد بين أجناس الخلق يخالط من يعقل ومن لا يعقل، يقعد مع منافق ومؤمن.

فهو على مقاساة عظيمة صابر على ما يكرره، ومع ذلك فهو محفوظ فيما هو فيه معان عليه، لأنه ممتثل لأمر الحق عزّ وجلّ، في كلامه على الخلق لم يتكلم بنفسه وهواه واختياره وإرادته، إنما أجبر على الكلام فلا جرم يحفظ فيه. إن أردت أن تعرف الله عزّ وجلّ فأسقط قدر الخلق من قلبك فيما يلي الضرّ والنفع فإنك ما تعرفه إلا بذلك.

(ويحك) الدنيا في اليد يجوز، في الجيب يجوز، ادخارها السبب بينة صالحة يجوز، اما في القلب فلا يجوز. وقوفها على الباب يجوز، أما دخولها إلى ما وراء الباب لا، ولا كرامة لك، إذا فنى هذا العبد عنه وعن الخلق صار كأنه مفقود ممحو، لا يتغير باطنه عند مجيء الآفات، يوجد عند مجيء أمر الله عزّ وجلّ فيمتثله، وعند مجيء نهيه

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٦٠.

(٢) سورة محمد آية: ٧.

(٣) سورة طه آية: ١٣١.

فينتهي عنه، لا يتمنى شيئاً ولا يحرص على شيء، يرد التكوين إلى قلبه، يسلم إليه تقليب الأعيان.

أين أنتم وهم يا خونة في العلم والعمل، يا أعداء الله ورسوله، يا قاطعي عباد الله عزّ وجلّ، أنتم في ظلم ظاهر ونفاق ظاهر، هذا النفاق إلى متى يا علماء ويازهاد؟ كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا وشهواتها ولذاتها؟ أنتم وأكثر الملوك في هذا الزمان ظلمة خونة في ما لله عزّ وجلّ في عباده.

اللهم اكسر شوكة المنافقين واخذلهم أو تب عليهم، واقمع الظلمة وطهر الأرض منهم أو أصلحهم آمين.

وقال رضي الله عنه: يا ملوك، يا مماليك، يا ظالمون ويا عادلون، يا منافقون ويا مخلصون، الدنيا إلى أمد والآخرة إلى أبد، فارق من سوى الحق عزّ وجلّ بمجاهدتك وزهدك، نظف قلبك من غير ربك عزّ وجلّ، احذر أن يصطادك شيء أو يحبسك شيء أو يوقفك شيء عن مولاك عزّ وجلّ، فإذا جاءت الأقسام تناولها بيد الأمر، بيد الموافقة على قدم الزهد فيها، لا بيد الاختيار لها والحب لها.

الزهد إذا دام عمل في البدن، فيورث في القلب حزناً وفي البنية نحولاً، فإذا تحقق هذا الحزن والنحول جاء الفرج من الحق عزّ وجلّ بالفرح به والمعرفة له فيذهب الحزن والهم.

المؤمن منقطع القلب عن الخلق وعن الأهل والمال والولد، وإنما يتشاغل بهم وقلبه منتظر لمجيء رسول الملك وصل باب البلد وقد ودع أهله وهو قاعد بينهم، المؤمن أبداً مودع، هو بين الخلق وقد ودعهم، ذره مع الخلق وحبله مع الخالق.

إذا وقر التوحيد في القلب صح العمل من حيث الظاهر، لأنه يستوي ظاهرك وباطنك، غناك وفقرك، إقبال الخلق وإدبارهم، ذمهم لك ومدحهم، كيف لا تخرجهما وقد ضاقت مضغتك عنهما بما رحبت وامتلأ قلبك بالله عزّ وجلّ وبذكره والشوق إليه؟ فحينئذ:

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾[1].

---

(١) سورة الكهف آية: ٤٤.

تصير محبا حقا، عالما معلما، حكيما محكما، قريبا مقربا، أديبا مؤدبا، مغني عن الخلق: يعني مكفيا عنهم بكفاية. يا جاهل تعلم من جهلك أنك قد تركت التعلم واشتغلت بالتعليم، لا تتعب ما يجيء منك شيء ولا يفلح على يديك أحد، لأن من لا يحسن أن يكون معلم نفسه فكيف يكون معلم غيره.

(يا قوم) لا تعجزوا الله عزّ وجلّ قدره فتلحقوا بالكفار، اعملوا بالحكم حتى يلحقهم ذلك العمل بالعلم، فإذا تحقق عندكم العمل رأيتم القدرة، فحينئذ يجعل التكوين في أيدي قلوبكم وأسراركم، إذا لم يبق بينك وبين الله حجاب من حيث قلبك، قدرك على التكوين، وأطلعك على خزائن سرّه، وأطعمك طعام فضله، وسقاك شراب الأنس، وأقعدك على مائدة القرب منه، وكل هذا ثمرة العلم بالكتاب والسنة، اعمل بهما ولا تخرج عنهما حتى يأتيك صاحب العلم الله عزّ وجلّ يأخذك إليه.

إذا شهد لك معلم الحكم بالحزق في كتابه نقلك إلى كتاب العلم، فإذا تحققت فيه أقيم قلبك ومعناك والنبيّ في صحبتها بأيديهما ويدخلهما إلى الملك ويقول لهما: ها أنتما وربكما.

المجلس الثاني والخمسون

[النظر إلى الناس]

وقال رضي الله عنه بكرة الجمعة في المدرسة ثالث شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

(يا قوم) فرّوا إلى الله عزّ وجلّ، اهربوا إليه من الخلق والدنيا ومما سواه في الجملة، صيروا إليه بقلوبكم، أما سمعتم قوله عزّ وجلّ:

﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[1].

(يا غلام) لا تنظر إلى الخلق بعين البقاء، بل انظر إليهم بعين الفناء، لا تنظر إليهم بعين الضرّ والنفع، بل انظر إليهم بعين العجز والذل، وخذ الحق عزّ وجلّ وتوكل عليه ولا تهذي فيما قد فرغ منه. الدنيا وجميع ما يظهر فيها قد فرغ منه، والخلق وجميع ما يتقلبون فيه قد فرغ منه، قلب المؤمن فارغ من هذا كله، لا سيما إذا كان متجرداً عن الأسباب فهو آكد بحاله.

وإن جاءته الأسباب والعيال فيعان عليهم ويعطي القوّة على مقاساتهم، فقلبه في جميع الأحوال فارغ عما سوى ربه عزّ وجلّ، لا يبرح في غيبته ولا يزال، لا طلب منه التغيير والتبديل لأنه يعلم أن الذي قد قضى لا يتغير، والقسم قد فرغ منه لا يزيد ولا ينقص، فلا يطلب زيادة ولا نقصاناً، لا يطلب تأخير قسمه ولا الإسراع في مجيئه، لأنه قد تحقق أن له وقتاً مقدراً مخصوصا.

فهو وأمثاله هم العقل من الخلق، والطالبون للزيادة والنقصان والإسراع والتأخير هم المجانين، من رضي عن الله عزّ وجلّ وافقه في جميع أحواله وفي غيره أحبه وعرفه إياه واستصحبه بقية عمره على جادة مراده يوفقه ثم يقربه ويقول له:

(أنا ربّك).

عند تحيره وتقطعه. كما قال لموسى عليه الصلاة والسلام:

(أنا ربّك).

قال لموسى على نبينا و عليه أفضل الصلاة والسلام ظاهرا، ويقول لقلب هذا

---

(١) سورة الشورى آية: ٥٢.

العارف باطناً، يسمعه ذلك رحمة له ولطفاً به وكرامة لنبيه عليه الصلاة والسلام،معجزات الأنبياء عليهم السلام ظاهرة، وكرامة الأولياء باطنة، هم الوارثون للأنبياء، يقيمون دين الله عزّ وجلّ ويحفظونه من شياطين الإنس والجن. أنت جاهل بالله عزّ وجلّ وبرسله وبهم، ما يدريك يا منافق ما القوم فيه وعليه، أنت تقرأ القرآن وما تدري ما تقرأ، تعمل وما تدري إيش تعمل، ذلك دنيا بلا آخرة، ثم ذلك تعرض عليهم.

كن عاقلاً وتأدب وتب واخرس، ما عندك من الله عزّ وجلّ خبر، ولا من رسله خبر، ولا من أوليائه خبر، ولا من علمك فيه وفي خلقه خبر. الزم التوبة والسكوت، وتفكر في موتك وكونك إلى القبر محمولاً حتى تعلم العلم، اعمل مع الله عزّ وجلّ حتى يعطيك نوراً تستضيء به دنيا وآخرة.

اقبلوا ما أقول لكم واجتهدوا فيه ودعوا التعلق بالسابقة فإنه هوس منكم وحط وحجة الكسالى، ما علينا من السابقة بل نشد الأوساط ونجتهد ونعمل ولا نقول: قال وقلنا ولم وكيف، لا ندخل في علم الله عزّ وجلّ، نحن نجتهد وهو يفعل ما شاء، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1].

إذا انتهى أمرك وقرب الحق عزّ وجلّ قلبك إليه، وصح لك هذا زهدك في الدنيا ورغبك في الآخرة، لقيت اسمك مكتوبا على باب قربك من ربك عزّ وجلّ فلان ابن فلان من عتقاء الله عزّ وجلّ، فذلك الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا ينقص ولا يزيد، فحينئذ يزداد شكرك لربك عزّ وجلّ، وفعلك للخيرات والطاعات بين يديه، ومع ذلك لا تترك الخوف من يد قلبك ولا تعجز قدرته، واقرأ قوله عزّ وجلّ:

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾[2].

وقال: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

لا قف مع ذلك المكتوب، فإن الذي كتبه هو القادر على محوه، الذي بناه هو القادر

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٢٣

(٢) سورة الرعد آية: ٣٩.

(٣) سورة الأنبياء آية: ٢٣

على نقضه، كن أبداً على قدم الطاعة والخوف والوجل والحذر إلى أن يأتيك الموت وتعبر من الدنيا إلى الآخرة على قدم السلامة، فحينئذ تأمن من التغيير والتبديل.

يا من يزاحم بجهله ونفاقه وطلبه للدنيا ومزاحمته عليها، يا آكل الحرام كيف تطمع في نور القلب وصفاء السرّ والنطق بالحكمة؟ القوم كلامهم ضرورة، ونومهم نوم الغرقى، أكلهم أكل المرضى، فهم على ذلك إلى أن يبلغ الكتاب أجله، قد شبهوا بالملائكة الذين قال الله عزّ وجلّ في حقهم:

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[1].

شبهوا بهم وزادوا عليهم، فالملائكة علماؤهم يحملون الفواشي بين أيديهم دنيا وآخرة.

(يا قوم) إن لم يبلغ كلامي حالكم، فأسمعوه الإيمان والتصديق، كلامي وجه للقلوب فاسمعوه بقلوبكم وأسراركم وقد تروحت ظواهركم وبواطنكم وتنكسر شوكة نفوسكم وأهويتكم وتنطفيء نيران شهواتكم، أشرّ ما عليكم الشهوات التي تحبب إليكم الدنيا وتبغض إليكم الفقر وتوقعكم في المهالك.

(عن بعضهم) رحمة الله تعالى عليه أنه قال: حقيقة التقوى أنك لو جمعت ما في قلبك وتركته في طبق مكشوف وطفت به في السوق لم يكن فيه شيء يستحي منه. يا جاهل ما يكفيك أنك غير متق حتى إذا قيل لك اتق الله تغضب، إذا قيل لك الحق تسمع وتتهاون، ثم إذا أنكر عليك منكر تغتاظ عليه وتشفي غيظك منه.

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: من يتق الله لا يشفي غيظه. قال الله عزّ وجلّ في بعض كلامه:

(كنت أحبكم لما أطعتموني فلما عصيتموني بغضتكم).

الحق عزّ وجلّ يحبكم لا لحاجة إليكم بل رحمة لكم، فهو يحبك لك لا له، يحبّ طاعتك له لأن نفعها عائد إليك، عليك بالاشتغال والإقبال على من يحبك لك والإعراض عمن يحبك له. المؤمن نسي كل شيء وذكر مولاه عزّ وجلّ فحصل له قربه والحياة به ومعه صح توكله فلا جرم. كفاه المهام دنيا وآخرة.

---

(١) سورة التحريم آية: ٦.

إذا صح توكل المؤمن وتوحيده عامله الحق عزّ وجلّ بما عامل به إبراهيم عليه السلام، يعطيه معناه وحاله لا لقبه، يطعمه من طعامه ويسقيه من شرابه ويسكنه في دهليز داره، لا أنه يعطيه عين مقامه، فحينئذ يصح نسبه منه من حيث المعنى لا من حيث الصورة.

أما تستحي، قد حملك حرصك على أنك تخدم الظلمة وتأكل الحرام؟ إلى متى تأكل وتخدم، الملوك الذين تخدمهم يزول ملكهم عن قريب وتتولى خدمة الحق عزّ وجلّ الذي لا يزول.

كن عاقلاً واقنع باليسير من الدنيا حتى يأتيك الكثير من الآخرة، تناول الأقسام بيد زهدك، ويكون تناولك على باب مولاك عزّ وجلّ بيد قدرته وفعله ومعه، لا مع الدنيا وبيدها، ولا على أبواب السلاطين في صحبة الطبع والهوى والشيطان والعوام.

إذا تناولت الدنيا وقلبك على باب ربك عزّ وجلّ تكون الملائكة وأرواح الأنبياء حولك، فشتان ما بين الموضعين والحالين. القوم عقل قالوا لا نأكل أقسامنا من الدنيا في الطريق ولا في بيوتنا ولا نأكل إلا عنده، الزاهدون يأكلون في الجنة والعارفون يأكلون عنده وهم في الدنيا، والمحبون لا يأكلون في الدنيا ولا في الآخرة، طعامهم وشرابهم أنسهم وقربهم من ربهم عزّ وجلّ ونظرهم إليه، باعوا الدنيا بالآخرة، ثم باعوا الآخرة بقربهم من ربهم عزّ وجلّ، ربّ الدنيا والآخرة.

الصادقون في محبته باعوا الدنيا والآخرة بوجهه وأرادوه دون غيره، فلما تمّ البيع والشراء غلب الكرم فردّ عليهم الدنيا والآخرة موهبة وأمرهم بتناولهما، فأخذوهما بمجرد الأمر مع الشبع بل مع التخمة والغنى عنهما، فعلوا ذلك موافقة للقدر وحسن أدب مع القدر، قبلوا وأخذوا وهم يقولون:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[1].

تعلم أن قد رضينا بك دون غيرك،ورضينا بالجوع والعطش والعرى والذل والمهانة، وأن نكون على بابك مطروحين، لما رضوا بذلك وقرّروا مع نفوسهم الطمأنينة عليه، نظر إليهم نظر الرحمة فأعزّهم بعد ذلهم وأغناهم بعد فقرهم ومنحهم تقرّبهم من دنيا وآخرة.

---

(١) سورة هود آية: ٧٩.

المؤمن يزهد في الدنيا فيزيل الزهد وسخ باطنه ودرنه وكدره، فيأتي الآخرة فيسكن قلبه، ثم تأتي يد الغيرة فتزيلها عن قلبه وتعلمه أنه حجاب عن قرب الحق عزّ وجلّ، فحينئذ يترك الاشتغال بالخلق في الجملة ويمتثل أوامر الشرع ويحفظ حدوده المشتركة بينه وبين العوام.

تنفتح عينا بصيرته فيبصر عيوب نفسه وعيوب المخلوقات، فلا يسكن إلى غير ربه عزّ وجلّ، ولا يسمع من غيره، ولا يعقل عن غيره، ولا يسكن إلى غير وعده، ولا يخاف من غير وعيده، يترك الشغل بغيره ويشتغل به، فإذا تمّ هذا فهو فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

(يا غلام) اشتغل بنفسك ثم غيرك، لا تكن كالشمعة تحرق هي نفسها وتضيء لغيرها، لا تدخل في شيء بك وبهواك ونفسك، الحق عزّ وجلّ إذا أرادك لأمر هيأك له، إن أرادك لنفع الخلق ردك إليهم وأعطاك ثباتاً ومداراة لهم وقوة على مقاساتهم، يوسع قلبك للخلق ويشرح صدرك ويقذف فيه الحكم، يلاحظ باطنك ويسرّ إلى سرّك، فحينئذ يكون هو لا أنت، أما سمعت قوله عزّ وجلّ:

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

اعتبر قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ما قال أنت جعلت نفسك، فالقوم لا إرادة لهم ولا اختيار، بل هم في مجرد أمر الحق عزّ وجلّ وفعله وتدبيره وإرادته. يا منعزلاً عن الطريق المستقيمة لا تحتج بشيء فمالك حجة، الجادة بين يديك، الحلال بيّن الحرام بيّن، ما أوقحك على الله عزّ وجلّ، ما أقل خوفك منه ما أكثر تهاونك برؤيته، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(خف من الله عزّ وجلّ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

أهل اليقظة رأوا الله عزّ وجلّ بقلوبهم فاجتمع شتاتها، انسبكت فصارت شيئاً واحداً، تتساقط الحجب بينهم وبينه، محيت المباني وبقيت المعاني، تقطعت الأوصال وانخلعت الأرباب، فلم يبق لهم سوى الحق عزّ وجلّ، لا كلام لهم ولا حركة ولافرح بشيء حتى يصح لهم هذا، فإذا صح فقد تم الأمر في حقهم، أول ما خرجوا من رق الدنيا

---

(١) سورة ص آية: ٢٦.

والعبودية لها، ثم مما سوى الحق عزّ وجلّ في الجملة، لا يزالون في معاملته وفي ابتلاء:

(لِيَنظُرَ كَيفَ تعمَلُونَ).

فالسرّ هو الملك، والقلب وزيره، والنفس واللسان والجوارح خدم بين أيديهما، السرّ يستقى من بحر الحق عزّ وجلّ، والقلب يستقى من السرّ، والنفس المطمئنة تستقى من القلب، واللسان يستقى من النفس، والجوارح تستقى من اللسان، إذا كان اللسان صالحاً صلح القلب، وإذا كان فاسداً فسد.

يحتاج لسانك إلى لجام التقوى وتوبة عن الكلام بالهذيان والنفاق، فإذا دمت على ذلك انقلبت فصاحة اللسان إلى فصاحة القلب، فإذا تمّ له هذا تنوّر وظهر النور منه إلى اللسان والجوارح فحينئذ يكون النطق للسان المقرّب، وفي حالة قربه لا لسان له، لا دعاء له ولا ذكر له، الدعاء والذكر والكلام في البعد، أما في القرب السكوت والخمود والقناعة بالنظر والتمتع به.

اللهم اجعلنا ممن يراك في الدنيا بعيني قلبه، وفي الآخرة بعيني رأسه:

و ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

(١) سورة البقرة آية: ٢٠١.

المجلس الثالث والخمسون

[الاختبار والابتلاء]

وقال رضي الله تعالى عنه عشية الثلاثاء في المدرسة سابع عشر شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

لا بد من الاختبار والابتلاء ولا سيما للمدعين، لولا الابتلاء والاختبار لادعى الولاية خلق كثير، ولهذا قال بعضهم: وكل البلاء بالولاية كي لا تدعي. ومن جملة علامة الوليّ صبره على أذية الخلق والتجاوز عنهم. الأولياء يتعامون عما يرون من الخلق، ويتطارشون عما يسمعون منهم، قد وهبوا لهم أعراضهم:

(حبك للشيء يعمي ويصم).

أحبوا الحق عزّ وجلّ فعموا وصموا عن غيره، يلقون الخلق بالكلام الطيب والرفق والمداراة، وتارة يغضبون عليهم غيرة لله عزّ وجلّ وموافقة في غضبه، هم أطباء قد علموا أن لكل مرض دواء، الطبيب لا يداوي كل المرضى بدواء واحد، هم من حيث قلوبهم ومعانيهم بين يدي الحق عزّ وجلّ كأصحاب الكهف.

أولئك كان جبريل عليه السلام يقلبهم، وهؤلاء يد القدرة والرحمة واللطف تقلبهم، يد المحبة تقلب قلوبهم وتنقلها من حال الى حال، دنياهم لطالبي الدنيا، وأخراهم لطالبي الأخرى، وربهم عزّ وجلّ لهم، لا يبخلون بشيء إذا طلبت الدنيا منهم وهي عندهم بذلوها، وإذا طلب منهم ثواب الآخرة بذلوه، يعطون الدنيا للفقراء منهم، ويعطون ثواب الآخرة للمقصرين في طلبها.

يتركون المحدث للمحدث، ويتركون المحدث لهم، ويهبون القشر لأن ما سوى الحق عزّ وجلّ قشر والطلب له والقرب منه هو اللب.

(عن بعضهم) رحمة الله تعالى عليه أنه قال: لا يضحك في وجه الفاسق إلا العارف، نعم يأمره وينهاه ويتحمل أذاه، ولا يقدر على هذا إلا العارفون بالله عزّ وجلّ، أما الزهاد والعباد والمريدون لا. كيف لا يرحمون العصاة وهم موضع الرحمة مقام التوبة والاعتذار؟

العارف خلقه من أخلاق الحق عزّ وجلّ فهو يجتهد في تخليص العاصي من يد

الشيطان والنفس والهوى. إذا رأى أحدكم ولده أسيراً في يد كافر أليس يجتهد في تخليصه؟ فهكذا العارف، الخلق جميعهم كالأولاد، يخاطب الخلق بلسان الحكم ثم يرحمهم لاطلاعهم على العلم، فيرى أفعال الحق عزّ وجلّ فيهم.

ينظر إلى خروج الأقضية والأقدار من باب الحكم والعلم ولكنه يكتم ذلك، ويخاطب الخلق بالحكم الذي هو الأمر والنهي ولا يخاطبهم بالعلم الذي هو السرّ. الحق عزّ وجلّ أرسل الرسل وأنزل الكتب وحذر وأنذر لتركيب الحجة على الخلق وعلمه فيهم لا تدخل فيه ولا تعترض عليه، فيه كرّ وفرّ.

والعلم فيه ثبات يحتاج إلى الحكم المشترك لك ولغيرك، وتحتاج إلى العلم الخالص لك فحسب إذا عمل أحدكم بالعلم الظاهر زقه الرسول صلى الله عليه وسلم من العلم الباطن، يزقه الحكم الباطن كما يزق الطير لولده، يفعل ذلك معه لأجل تصديقه وعمله بقوله الظاهر وهو شريعته.

ابن آدم إذا صح فلا صحيح مثله، إذا صفا فلا صفاء مثله، إذا قرب فلا قريب مثله، الجاهل ينظر بعين رأسه، والعاقل ينظر بعين عقله، والعارف ينظر بعين قلبه مجوهراً عالماً، فليقمه الخلق بأسرهم فيغيبون فيه، لا يبقى عنده سوى الحق عزّ وجل، فحينئذ يقول:

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾[1].

يصير الحق عزّ وجلّ ظاهره وباطنه، وأوله وآخره، وصورته ومعناه، لا شيء غيره عنده، فحينئذ يديم محبته معه دنيا وآخرة موافقاً له في جميع الأحوال يختار رضاه وسخط غيره، لا تأخذه فيه لومة لائم، كما قال بعضهم رحمة الله تعالى عليه: وافق الله عزّ وجلّ في الخلق ولا توافق الخلق في الله تعالى. انكسر من انكسر وانجبر من انجبر، شيطانك وهواك وطبعك وأقرانك السوء أعداؤك، فاحذرهم حتى لا يوقعوك في الهلاك، تعلم العلم حتى تعلم كيف تعاديهم وتحذر منهم، ثم تدري كيف تعبد ربك عزّ وجلّ، الجاهل لا يقبل منه عبادة.

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

---

(١) سورة الحديد آية: ٣.

(من عبد الله بجهل كان ما يفسد أكثر مما يصلح).

الجاهل لا تسوى عبادته شيئا، بل هو فساد كلي وظلمة كلية، والعلم أيضاً لا ينفع إلا بالعمل به، والعمل لا ينفع إلا بالإخلاص فيه، كل عمل بلا إخلاص لا ينفع ولا يقبل من عامله، إذا علمت ولم تعمل كان العلم حجة عليك، عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(الجاهل يعذب مرة والعالم سبع مرات).

الجاهل لم لم يتعلم، والعالم لم لم يعمل بعلمه. تعلم واعمل وعلم فإن ذلك مجمع لك الخير بأسره، إذا سمعت كلمة من العلم وعملت بها وعلمتها غيرك كان لك ثوابان: ثواب العلم، وثواب التعلم. الدنيا ظلمة والعلم نور فيها، فمن لا علم له فهو يتخبط في هذه الظلمة ويفسد أكثر مما يصلح.

يا من يدعي العلم لا تأخذ من يد نفسك وطبعك وشيطانك، لا تأخذ من يد وجودك، لا تأخذ من يد ريائك ونفاقك، زهدك ظاهر، ورغبتك باطن، هذا زهد باطل أنت معاقب عليه، تدلس على الحق عزّ وجلّ وهو يعلم ما في خلوتك وما في جلوتك وما في قلبك، ليس عنده خلوة ولا جلوة ولا ستر.

قل: واحياءاه، وا ويلاه، وافضيحتاه، فكيف يطلع الحق عزّ وجلّ على جميع افعالي في ليلي ونهاري وهو ناظر وأنا لا أستحي منه نظره؟ تب من وقاحتك عليه وتقرّب إليه بأداء الفرائض و الانتهاء عن النواهي، أترك الذنوب الظاهرة و الباطنة وافعل الخيرات الظاهرة، فبذلك تصل إلى بابه وتقرب منه، ويحبك ويحببك إلى خلقه، ويحبك دون خلقه، ثم ينقل ذلك إلى خلقه.

إذا أحبك الله و ملائكته أحبك جميع الخلق، سوى الكافرين و المنافقين فإنهم لا يوافقون الله عزّ وجلّ في حبك. كل من في قلبه إيمان يحب المؤمن، وكل من قلبه نفاق يبغضه، فلا فكرة ببغض الكافرين والمنافقين والشياطين والأبالسة، المنافقون والكافرون هم شياطين الإنس. المؤمن الموقن العارف في معزل عن الخلق بقلبه وسره، ومعناه يصل إلى حالة لا يقدر أن يدفع عن نفسه ضراً ولا نفعا، يجلب عليها، يصير مستطرحاً بين يدي الحق عزّ وجلّ، لا يبقى له حول ولا قوة، فإذا صح له هذا جاءه الخير من كل جانب.

لا تزاحم القوم بمجرد الدعوى والتخلي والتمني، ما يجيء من هذا شيء، لا كلام حتى تعمى عن الأسباب، لا كلام حتى تزمن وتنقطع رجلاك عن السعي إلى أبواب الناس، لا كلام حتى ينقلب قلبك وعقلك ووجهك عن الخلق إلى الخالق، فيصير ظهرك إلى الخلق ووجهك إلى الحق عزّ وجلّ، يصير ظاهرك وصورتك إلى الخلق وباطنك ولبك ومعناك إلى الخالق،فحينئذ يصير قلبك كقلوب الملائكة والنبيين، يطعم قلبك ويسقى من طعامهم وشرابهم، هذا أمر يتعلق بالقلوب والأسرار والمعاني بالصور.

اللهم طيب قلوبنا، واخلع على أسرارنا، وصف عقولنا فيما بيننا وبينك من وراء عقول الخلق وعقولنا، يا حاضرون ويا غائبون يوم القيامة ترون مني عجباً، إني أناظر في حق المنافقين فكيف في حق المؤمنين ؟

اللهم أغنني عن الكل، أغنني بك عمن سواك، اغن المعلم عن الصبيان وعما في بيوتهم، واجعل داره دار السماط مع التعليم. اللهم إنك تعلم أن هذا الكلام قد غلب عليّ فاعذرني فيه، جامكيتي قد تمت وحصلت لي منك بقية جامكية الأطفال والأتعاب والطوارق، و اسألك تسهيل ذلك مع طيبة قلبي وصفاء سرّي.

(يا قوم) تظنون أني آخذ منكم وأنا أراكم، لا ولا كرامة، إنما آخذ من الله عزّ وجلّ لا منكم، بل هو منفذ على أيديكم لما كنت معكم ما كنت أعرفكم، فلما خرجت منكم عرفتكم، إني داحض المنافقين وخبرة العارفين، لا أضراب المنافقين إلا بغطاطيس لا بقضيب، سماطي لكم، وأكلي بعد فراغكم لي نوالة من غيركم، لي طبق بعد خروجكم من صاحبي الذي أنا قدامه، أما ترون يا أهل البصائر كمي مشمراً ووسطي مشدوداً؟

سأل سائل فقال: رسول الحق عزّ وجلّ إلى أنبيائه جبريل عليه الصلاة والسلام فمن رسوله إلى أوليائه؟ فقال: هو رسوله إليهم بلا واسطة، برحمته ولطفه ومننه وإلهامه ونظراته إلى قلوبهم وأسرارهم وتحننه عليهم، يرونه يقظة ومناماً بأعين قلوبهم وصفاء أسرارهم ودوام يقظتهم.

(يا قوم) إنما يقطعكم عن معرفة الله عزّ وجلّ ومعرفة أوليائه حبكم للدنيا وحرصكم عليها وحب التكاثر بها، ومنها اذكروا الآخرة ودعوا الدنيا بحسن الكرم والحسن والجود من صفاتك ونحن عبيدك، فأعطنا ذرة منهما آمين.

المجلس الرابع والخمسون

[المجلس الرابع والخمسون]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة الجمعة في المدرسة عاشر شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

(يا غلام) خطوتان وقد وصلت: خطوة عن الدنيا وخطوة عن الأخرى، خطوة عن نفسك وخطوة عن الخلق. اترك هذا الظاهر وقد وصلت إلى الباطن، بداية ثم نهاية، استيد أنت والتمام على الله عزّ وجلّ، منك البداية ومن الله عزّ وجلّ النهاية، خذ المرّ والزنبيل واقعد على باب العمل، حتى إذا طلبت تكون قريباً من المستعمل، ولا تقعد على فراشك وتحت لحافك ومن وراء أغلاق ثم تطلب العمل والاستعمال، أدن قلبك من الذكر وذكره يوم النشور، تفكر في القبور الدوارس تفكر كيف يحشر الحق عزّ وجلّ جميع الخلق ويقيمهم بين يديه، إذا دمت على هذا التفكر زالت قساوة قلبك وصفا من كدره، إذا كان البناء على أساس ثبت ورسخ، وإذا لم يكن على أساس تعجّل وقوعه.

إذا بنيت حالك على أحكام الحكم الظاهر لا يقدر أحد من الخلق على نقضه، وإذا لم تبنه على ذلك لا يثبت لك حال ولا تصل إلى مقام، ولا تزال قلوب الصدّيقين تمقتك وتتمنى أن لا تراك.

(ويحك) يا جاهل الدين لعب هو؟ تنميس هو؟ لا ولا كرامة لقفاك، يا متنمس قد أهلت نفسك للكلام على الخلق من غير أهلية فيك، إنما يكون ذلك لآحاد من الناس أفراد من الصالحين، وإلا فالخرس دأبهم والإشارة لهم دون الكلام النادر منهم من يؤمر بالنطق فيتكلم على الخلق على الكره منه، بعد كلام يصير الخبر معاينة ينقلب الأمر بالإضافة إلى قلبك وصفاء سرك.

ولهذا قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه ورضي عنه: لو كشف الغطاء ماازددت يقيناً — وقال: لا أعبد رباً لم أره، وقال: أرني قلبي ربي. يا جهال خالطوا العلماء واخدموهم وتعلموا منهم. العلم يؤخذ من أفواه الرجال، جالسوا العلماء بحسن الأدب وترك الاعتراض عليهم وطلب الفائدة منهم لينالكم من علومهم، وتعلوا عليكم بركاتهم وتشملكم فوائدهم، وجالسوا العارفين بالصمت وجالسوا الزاهدين بالرغبة فيهم.

العارف هو في كل ساعة أقرب إلى الله عزّ وجلّ مما كان في الساعةالتي قبلها، في كل ساعة يتجدّد خشوعه لربه عزّ وجلّ وذله له، يخشع من حاضر لا من غائب، زيادة خشوعه على قدر زيادة قربه من ربه عزّ وجلّ، زيادة خرسه على قدر زيادة مشاهدته، من عرف الله عزّ وجلّ خرس لسان نفسه وطبعه وهواه وعادته ووجوده، أما لسان قلبه وسرّه وحاله ومقامه وعطائه فينطق بإظهار النعم التي عنده، فلهذا يجالسون بالصمت لينتفع بهم ويشرب من الشراب الذي ينضح من قلوبهم. من أثر مخالطة العارفين بالله عزّ وجلّ عرف نفسه، ذلّ لربه عزّ وجلّ.

ولهذا قيل: من عرف نفسه عرف ربه، هي الحجاب بين العبد وبين ربه عزّ وجلّ، من عرف نفسه تواضع لله عزّ وجلّ، ولخلقة إذا عرفها حذرها واشتغل بشكر الله عزّ وجلّ على معرفتها، وعلم أنه ما عرّفه إياها إلا وهو يريد له الخير دنيا وآخرة، فظاهره مشغول بشكره وباطنه مشغول بحمده، ظاهره متفرّق وباطنه مجتمع، فرحه في باطنه وحزنه في ظاهره ستراً للحال. والعارف على العكس من المؤمن، فإن حزنه في قلبه وبشره في وجهه، هو عليم، واقف على الباب لا يدري ما يريد به، هل يقبل أو يرد؟ هل يفتح الباب في وجهه أو يدوم غلقه؟ فمن عرف نفسه كان على العكس من المؤمن في جميع أحواله، المؤمن صاحب حال والحال يحول، والعارف صاحب مقام والمقام ثابت، المؤمن خائف من انتقال حاله وزوال إيمانه، فحزنه دائم في قلبه وبشره دائم في وجهه، سائر بحزنه، تكلمه يتبسم في وجهك وقلبه ينقطع بحزنه، والعارف حزنه في وجهه لأنه يلقى الخلق بوجه النذارة يحذرهم ويأمرهم ينهاهم نيابة عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، القوم عملوا بما سمعوا فقرّبهم العمل إلى الحق عزّ وجلّ الذي عملوا له، فسمعوا مواعظه من غير واسطة بإسماع قلوبهم ذلك عند الغيبة والنومة عن الخلق، والحضور واليقظة بالخالق.

إذا صح قلبك كنت أبداً في غيبة عن الخلق ونومة عنهم ويقظة بالخالق، فلا يزال بالجلوة في الخلوة وأنت في الجلوة، فلا تزال موارد الحق عزّ وجلّ وحكمه ترد عليك على السرّ، والسرّ يملي على القلب، والقلب يملي على النفس المطمئنة، والنفس تملي على اللسان، واللسان يملي على الخلق. من تكلم على الخلق بهذه الصفة وإلا فلا يتكلم، جنون القوم ترك العادات الطبيعية والأفعال النفسية الهوائية والتعامي عن الشهوات والذات، لا أنهم جنّوا كجنون المجانين الذين ذهبت عقولهم.

قال الحسن البصري رحمة الله عليه: لو رأيتموهم لقلتم مجانين، ولو رأوكم لقالوا ما آمن هؤلاء بالله عزّ وجلّ طرفة عين، خلوتك ما صحت، لأن الخلوة عبارة عن التعري من حيث جميع الأشياء، يتعرى باطنك فيكون متجرداً بلا دنيا ولا آخرة ولا ما سوى الحق عزّ وجلّ في الجملة، وهذا هو جادة من تقدم من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحبّ إليّ من ألف عابد في الصوامع، نظر النفس أغمصه وقصره ورده حتى لا يكون نظرها سبباً لهلاكها إلا أن تصير تابعة للقلب والسرّ من جملة أتباعهما.

لا تخرج لهما عن رأي وتتحد معها فلا يكون بينها وبينهما فرق، تأمر بما يأمران به وتنهى عما ينهيان عنه وتختار ما يختارانه، فحينئذ تصير نفساً مطمئنة فيتوافقون على طلب واحد ومقصود واحد، إذا بلغت النفس إلى هذا الحال استحقت التقصير من مجاهدتها، لا تنظر الحق عزّ وجلّ فيما يفعل وفي الخلق، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ:

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾[1].

أين متابعة الحق عزّ وجلّ منك إن لم تحسن الأدب، وإلا أخرجت من الدار مهاناً، وإن أحسنت الأدب ووافقت أقعدت وأكرمت. المحبّ لله عزّ وجلّ ضيف عنده، والضيف لا يتخير على أصحاب الدار في مأكوله ومشروبه وملبوسه وجميع أحواله، بل لا يزال موافقاً صابراً راضياً، فلا جرم يقال له أبشر بما ترى وتلقى.

من عرف الله عزّ وجلّ غابت الدنيا والآخرة وما سوى الحق عزّ وجلّ عن قلبه، يجب عليك أن يكون كلامك لله عزّ وجلّ، وإلا فالخرس أحبّ إليك، لتكن حياتك في طاعة الله عزّ وجلّ وإلا فالموت أحبّ إليك.

اللهم احينا في طاعتك واحشرنا مع أهل طاعتك آمين.

وقال رضي الله تعالى عنه: المؤمن من هاجر لنفسه يصحب شيخاً يؤدبه ويعلمه، لا يزال في التعليم من حال صغره إلى أن يموت في أول حاله. المقرئ يحفظه كتاب الله عزّ وجلّ، وفي ثاني حاله العالم يعلمه سنة خمس وأربعين وخمسمائة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك التوفيق ملازم له.

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٢٣.

يعمل بما يعلم فيقربه العمل إلى الحق عزّ وجلّ، كلما عمل بما يعلم أورثه الله عزّ وجلّ علم ما لم يعلم، يقيم القلب على قديمه، والإخلاص يقرب منه خطاه إلى الحق عزّ وجلّ. إذا علمت ورأيت أن قلبك لا يدنو من الحق عزّ وجلّ ولا تجد حلاوة العبادة والأنس فاعلم أنك لست بعامل وأنك محجوب لأجل الخلل الذي في عملك، ماذا الخلل؟ الرياء والنفاق والعجب.

يا عامل عليك بالإخلاص، وإلا فلا تتعب، عليك بالمراقبة للحق عزّ وجلّ في الخلوة والجلوة، المراقبة في الجلوة للمنافقين، وفي الجلوة والخلوة للمخلصين.

(ويحك) إذا رأيت مستحسنا أو مستحسناً فغمض عينيك، عيني نفسك وهواك وطبعك، واذكر نظر ربك عزّ وجلّ إليك واقرأ:

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ) الآية.

احذر من الحق عزّ وجلّ، اغمض عينيك عن النظر إلى المحرّم، واذكر نظر من لاتبرح من نظره وعلمه، إذا لم تناظر الحق عزّ وجلّ ولم تنازعه تمت عبوديتك له وصرت عبداً حقاً وتدخل في زمرة من قال في حقهم:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[1].

إذا تحقق شكرك لله عزّ وجلّ ألهم قلوب الخلق وألسنتهم بالشكر لك والتودد إليك، فحينئذ لا طريق للشيطان وأعوانه عليك. ترك الدعاء عزيمة والاشتغال به رخصة، الدعاء نفس للغريق وروزنة للمحبوس إلى أن يأتي الفرج من الحبس والدخول على الملك.

كونوا عقلاء أنتم ما تحسنون تتركون الدعاء ولا تحسنون تدعون وما من شيء إلا يحتاج إلى نية وعقل وعلم واتباع لمن يعرف، أنتم ما تعقلون ما عند الله عزّ وجلّ وما عند عباده الصالحين ولهذا أسأتم ظنونكم فيهم.

لا تخاطروا برؤوس أديانكم وأحوالك معهم، لا تعترضوا عليهم في جميع تصاريفهم إذا لم يعترض الشرع عليهم، لا تعترضوا عليهم، هم بين يدي الحق عزّ وجلّ من حيث الظاهر والباطن، ما يسكن قلبه من الخوف حتى يسكن ويضمن له السلامة.

---

(١) سورة الحجر آية، ٤٢.

تعالوا يا عباد الله عزّ وجلّ في الأرض ويا زهاداً، تعلموا شيئاً ما عندكم منه خبر، ادخلوا كتابي حتى أعلمكم شيئاً لا تجدونه عندكم. للقلوب كتاب، وللأسرار كتاب، وللنفوس كتاب، وللجوارح كتاب، هي درجات ومقامات وأقدام معدودة.

القدم الأول ما صح لك، كيف تصل إلى الثاني؟ الإسلام ما صح لك فكيف تصل إلى الإيمان؟ الإيمان ما صح لك فكيف تصل إلى الإيقان؟ الإيقان ما صح لك فكيف تصل إلى المعرفة والولاية؟ كن عاقلاً، ما أنت على شيء، كلّ منكم يطلب الرياسة على الخلق بلا آلة فيه، إنما تصح الرياسة على الخلق بعد الزهد فيهم وفي الدنيا والنفس والهوى والطبع والإرادة.

الرياسة من السماء تنزل لا من الأرض، الولاية من الحق عزّ وجلّ لا من الخلق، كن أبداً تابعاً لا متبوعاً، صاحياً لا مصحوباً، ارض بالذل والخمول، فإن كان لك عند الحق عزّ وجلّ ضدّ ذلك فهو يجيئك في وقته، عليك بالتسليم والتفويض وترك حولك وقوتك واعتراضك وشركك بالخلق وبنفسك، عليك بصحبة العبودية وهي امتثال الأمر و الانتهاء عن النهي والصبر على الآفات، أساس هذا الأمر التوحيد، والثبات عليه الأعمال الصالحة الأساس ما أحكمته: على أي شيء تبني؟ النية ما صحت لك: كيف تتكلم؟ سكوتك ما تم لك، كيف تنطق هذا الكلام على الخلق نيابة عن الرسل؟ لأنهم هم الذين كانوا خطباء الخلق، فما ذهبوا أقام الحق عزّ وجلّ العلماء العمال بعلمهم مقامهم وجعلهم وراثهم، من يريد أن يكون في مقام الرسل يكون أطهر من الخلق في زمانه وأعلمهم بحكم الله عزّ وجلّ وعلمه، يحسبون أن هذا الأمر هين.

يا جهالاً بالله وبرسله وأوليائه الصالحين من عباده، يا جهالاً بنفوسهم وطباعهم ودنياهم وأخراهم، ويحكم اخرسوا واسكتوا حتى تنطقوا وتنعشوا وتقاموا وتجيئوا، من غلب علمه هواه فذلك العلم النافع، كيف لا يكون نافعاً وقد أغلق أبواب الخلق وفتح باب الحق عزّ وجلّ الذي هو الباب الأكبر؟ إذا صح هذا الغلق والفتح لعباده ذهبت عنه الرحمة وجاءته الخلوة، جاءت الخلع إلى قلبه والنثار عليه، جاءته المفاتيح، تناثر عنه القشور وبقي اللب.

انسدّ طريق الهوى وانغلب وانقهر، وانفتحت الطريق إلى الحق عزّ وجلّ وظهرت الجادة عليه، جادة مراده التي هي جادة من تقدم من الأنبياء والمرسلين والأولياء، ما

تلك الجادة جادة الصفاء بلا كدر، جادة التوحيد بلا شرك جادة الإستسلام بلا منازعة، جادة الصدق بلا كذب، جادة الحق عزّ وجلّ بلا خلق، جادة المسبب بلا سبب.

هذه الجادة التي عليها أمراء الدين وسلاطين المعرفة وملوكها، الذين هم رجال الحق عزّ وجلّ وأصفياؤه ونجباؤه الناصرون لدينه المعادون فيه والمحبون فيه.

(ويحك) كيف تدعي طريق هؤلاء القوم وأنت مشرك بك وبغيرك من الخلق؟ لا إيمان لك وعلى وجه الأرض من تخالفه وترجوه، لا زهد لك وفي الدنيا شيء تريده، لا توحيد لك وأنت ترى غيره في طريقك إليه، العارف غريب في الدنيا والآخرة، وزاهد فيهما وفيما سوى الحق عزّ وجلّ، في الجملة لا رغبة له في غيره.

(يا قوم) اسمعوا مني وأزيلوا التهمة لي من قلوبكم، كيف تتهموني وتغتابوني وأنا شفيق عليكم، أحمل أثقالكم، وأخيط فتوق أعمالكم، وأشفع إلى الحق عزّ وجلّ في قبول حسناتكم والتجاوز عن سيئاتكم؟ من عرفني ما يبرح من عندي إلى أن يموت، يجعلني شهواته ولذاته وطعامه وشرابه ولباسه، يستغني بي عن غيري.

(يا غلام) كيف لا تنحني وأنا أريدك لك لا لي؟ أريد منفعتك وتخلصك من يد الدنيا القتالة الغرارة، إلى متى تعدون خلفها؟ عن قريب تلتفت إليكم وتقتلكم، الحق عزّ وجلّ لا يترك محبية مع الدنيا ولا لحظة، لا يأمنها عليهم ولا يتركهم معها ولا مع غيره في الجملة، بل هو معهم وهم معه، قلوبهم أبداً له ذاكرة، بين يديه حاضرة، وعن غيره معرضة، وعليه مقبلة، فهو معهم حافظ لهم، ولهم مؤنس.

اللهم اجعلنا منهم واحفظنا كما حفظتهم:

و ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(١).

وقال رضي الله عنه: يا منافق، الله عزّ وجلّ هو المظهر لمن يشاء من عباده، هو المنادي عليهم، هو الجامع لقلوب الخلق على من يريد من عباده، هو المسخر، تريد أنت بنفاقك أن تجمع قلوب الخلق عليك، لا يجيء من هذا شيء.

(يا غلام) اترك شهواتك تحت أقدامك وأعرض عنها بكل قلبك، فإن كان لك شيء منها في سابقة علم الله عزّ وجلّ فهو يجيئك في وقته، لأن السابقة لا يصح الزهد

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٠١.

فيها، وعلم الله عزّ وجلّ لا يتغير ولا يتبدل، يجيئك القسم في وقته مهناً مكفي مطيباً، فتأخذه بيد العز لا بيد الذل، ومع ذلك قد حصل لك عند الله عزّ وجلّ ثواب الزهد فيه، ونظر إليك بعين الكرامة لأنك لم تشره وتلح في طلبه.

كلما هربت من الأقسام تعلقت بك وعدت خلفك، فالزهد فيها لا يصح، ولكن لابد من الإعراض عنها قبل مجيئها، تلعم مني الزهد والتناول. لا تقعد في زاويتك مع جهلك.تفقه ثم اعتزل، تفقه في حكم الله عزّ وجلّ واعمل به ثم انعزل عن الكل، إلا آحاد أفراد من العلماء بالله عزّ وجلّ، فمخالطتك لهم وسمعاك منهم أفضل من انعزالك، إذا رأيت واحداً منهم فالزمه وتعلم منه الفقه في علم الله عزّ وجلّ والمعرفة به، تفقه فيه بسماعك له من أفواههم.

العلم يؤخذ من أفواه الرجال، من هؤلاء الرجال العلماء بحكم الله عزّ وجلّ وعلمه، فإذا صح لك ذلك إنعزل وحدك بلا نفس وشيطان وهوى وطبع وعادة ورؤية للخلق. إذا صح لك هذا الانعزال كانت الملائكة وأرواح الصالحين وهممهم حولك، إن انعزلت عن الخلق على هذه القاعدة، وإلا فانعزالك نفاق، وتضيع زمانك في لا شيء، وتكون في النار دنيا وآخرة، في الدنيا في نار الآفات، وفي الآخرة في النار المعدة للمنافقين والكافرين.

اللهم عفوا وغفراناً وستراً وتجاوزاً وتوبة، لا تهتك أستارنا، لا تؤاخذنا بذنوبنا يا الله يا كريم، أنت قلت:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾(١).

تب علينا واعف عنا آمين.

(ويحك) تدعي العلم وتفرح فرح الجهال وتغضب كغضبهم، فرحك بالدنيا وإقبال الخلق عليك ينسيك الحكمة ويقسي قلبك، المؤمن لا يفرح إلا بالله عزّ وجلّ لا بغيره، إن كان ولا بد من الفرح فافرح، إذا كان دنيا وبذلتها في طاعة الله عزّ وجلّ تنفع بها خدام الحق عزّ وجلّ وتغيرهم على طاعتهم، الزم الخوف في ليلك ونهارك حتى يقال لقلبك وسرك.

---

(١) سورة طه آية: ٤٦.

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[1].

كما قال ذلك لموسى وهارون عليهما السلام، ما أنت منهم لأن معك حفظ العلم بلا عمل فلا جرم لا تكون وارثاً، الوراثة إنما تصح بالعلم والعمل والإخلاص، أعرف قدرك ولا تتطاول إلى شيء لم يقسم لك، وافق الحق عزّ وجلّ في مقدوره، فلا جرم يوفقك ويلطف بك ويحمل عنك الأثقال ويرفق بك دنيا وآخرة.

المؤمن إذا قوى إيمانه سمي موقناً، ثم إذا قوى إيقانه سمي عارفاً، ثم إذا قويت معرفته سمي عالماً، وإذا قوى علمه سمي محباً، وإذا قويت محبته سمي محبوباً، وإذا صح له ذلك سمي غنياً مقرباً مستأنساً يستأنس الله عزّ وجلّ، يطلعه على أسرار حكمه وعلمه وسابقته ولاحقته وأمره وقدره، ويكون ذلك على قدر حوصلاته وما يعطيه من القوة قلبه وسعته، ثم قائم مع ربه عزّ وجلّ خارج بقلبه عن الخلق.

إذا جاء علم ربه عزّ وجلّ السابق ومعه قسم من المأكولات والمشروبات والملبوس والمنكوح لا يجد من يتناوله منه لغيبة المنفذ به فيوجده الحق عزّ وجلّ للتناول لئلا يبطل عمله وتمحي فيخلقه خلقاً آخر، وينشئه لئلا ينتقض ما بناه في سابق علمه فيتلقم الأقسام كما يلقم الصبيّ الصغير، وكما تضع الأم الدبس في فم ولدها الرضيع، تنزل الأقسام في فمه ويلزم بأكلها كما يلزم المريض بتناول الأشربة، ويحفظ قوته بها بلا اختيار منه في ذلك، بل السابقة تربي هذا المؤمن الموقن العارف الفاني عن جلب المصالح إلى نفسه ودفع المضارّ عنها، يد الرحمة تقلبه ذات اليمين وذات الشمال، بل اللطف يشيله ويحطه.

يا خيبة من لم يعرف الله عزّ وجلّ ولم يتعلق بذيل رحمته، يا خيبة من لم يعامله وينقطع إليه بقلبه ويتعلق به بسرّه ويتمسك بلطفه ومننه.

(يا قوم) الحق عزّ وجلّ يتولى تربية قلوب الصديقين من حال صغرهم إلى كبرهم، كلما اختبرهم بشيء من البلايا ورأى صبرهم ازداد قربهم منه، البلايا لا تقهرهم ولا تلحقهم، كيف تلحقهم وهي ماشية وقلوبهم على أجنحة الطيور الطائرة؟ يا خيبة من يؤذي قلوبهم، يا مقت الله عزّ وجلّ له، يا حرمات الله عزّ وجلّ له، يا غضب الله عزّ وجلّ له.

---

(١) سورة طه آية: ٤٦.

(يا غلام) كن غلام القوم وارضا لهم وخادماً بين أيديهم، فإذا دمت على ذلك صرت سيداً، من تواضع الله عزّ وجلّ ولعباده الصالحين رفعه الله في الدنيا والآخرة، إذا احتملت القوم وخدمتهم رفعك الله إليهم وجعلك رئيسهم، فكيف إذا خدمت خواصه من خلقه؟

اللهم أجر الخيرات على أيدينا وألسنتنا، واجعلنا من أهل لطفك وعنايتك.

المجلس الخامس والخمسون

[الرضا بقضاء الله]

وقال رضي الله تعالى عنه بكرة الجمعة في المدرسة سابع عشر شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

من أراد أن يحصل له الرضا بقضاء الله عزّ وجلّ فليدم ذكر الموت، فإن ذكره يهوّن المصائب والآفات، ولا تتهمه على نفسك وعلى ولدك، بل قل: ربي أعلم بي مني، فإذا دمت على ذلك جاءتك لذة الرضا والموافقة، فتذهب الآفات بأصولها وفروعها، ويجيئك بدلها والطيبات النعم، لما وافقت وتلذذت بالرضا في حال البلاء جاءتك النعم من كل جانب ومكان.

(ويحك) يا غفلان عنه، لا تشتغل عنه بطلب غيره، كم تطلب منه سعة الرزق ولعله فتنة لك وأنت لا تعلم، ما تدري الخيرة في أيّ شيء؟ فاسكت ووافق واطلب منه الرضا بأفعاله والشكر في سائر الأحوال. سعة الرزق فتنة مع عدم الشكر وضيق الرزق فتنة مع الصبر، الشكر يزيدك من النعم ويقربك إلى ربك عزّ وجلّ، والصبر يثبت أقدام قلبك وينصره ويؤيده ويظفره وعاقبته محمودة دنيا وآخرة. الاعتراض على الحق عزّ وجلّ حرام يظلم به القلب والوجه.

(ويحك) يا جاهل، بدل ما تشغل نفسك بالاعتراض اشغلها بالسؤال للحق عزّ وجلّ، شاغلها به حتى تذهب أوقات البلايا وتنطفئ نيران الآفات، وما أنت يا مدعي إرادة الحق عزّ وجلّ المطلع على خزائن رحمته ومحبته، فسله إذا كنت في الطريق قبل الوصول إليه، إذا تحيرت قل: يا دليل المتحيرين دلني.

إذا ابتليت وعجزت عن الصبر قل: إلهي أعني وصبرني واكشف عني، وأما إذا وصلت وأدخل قلبك منه فلا سؤال ولا لساناً بل سكوتاً ومشاهدة، تصير ضيفاً والضيف لا يتشهى، بل يحسن الأدب ويأكل ما يقدم له ويأخذ ما يعطي، إلا أن يقال له تشه فيتشهى، امتثال أمر لا اختيار منه. السؤال عند البعد والسكوت عند القرب القوم لا يعرفون غير الحق عزّ وجلّ، تقطعت الأرباب عنهم وانخلعت الأسباب من قلوبهم.

لو انقطع عنهم الطعام والشراب أياماً وأشهراً لا يبالون ولا يغيرون، لأن الحق عزّ

وجلّ مغذيهم، يغذيهم بما يريد. من ادّعى محبة الله عزّ وجلّ وطلب منه غيره فقد كذب في محبته، اما إذا صار محبوباً واصلاً ضيفاً مقرّباً يقال له اطلب وتشه وقل ما تريد فإنك ممكن، المحبّ مقبوض والمحبوب مبسوط، الحرمان للمحبّ والعطاء للمحبوب.

مادام العبد محباً فهو في الهيمان والتقطع والتمزّق والكسب لأجل القوت، فإذا انقلبت التوبة فصار محبوباً انقلب الأمر في حقه، فجاء الدلال والرفاهية والسكون وسعة الرزق وتسخير الخلق، كل هذا ببركة صبره وثباته في حال محبته. صحبة العبد لله عزّ وجلّ ومحبة الله عزّ وجلّ ليست كمحبة المخلوق للمخلوق، قال ربنا عزّ وجلّ:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾[1].

اضرب الأمثال للناس، اطلبوا منه الفهم عنه، اطلبوا منه طيبة القلوب معه فإنه يوسع طيبة القلوب على من يشاء، يكثر أرزاق القلوب لمن يشاء، الواحد من هؤلاء يسع قلبه أهل السموات و الأرض، يصير قلبه كعصا موسى عليه السلام، كانت عصا موسى في ابتداء أمرها حكمة ثم صارت قدرة، كانت تحمل زاده إذا لم يقدر على حمله، ويركبها إذا عجز عن المشي، وتدفع عنه الأذى وهو قاعد ونائم، وتثمر له ثماراً من كل جنس، وتظل عليه إذا قعد، أراه الله عزّ وجلّ قدرته فيها فاستأنس بالقدرة بواسطة العصا، فلما جعله نبيا وقربه وكلمه وكلفه قال له:

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝ ﴾[2].

فقال له ألقها يا موسى، فألقاها فصارت حية عظيمة فهرب منها، فقال له الحق عزّ وجلّ:

﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴾[3].

فكان المقصود من ذلك أن يطلعه على القدرة حتى يهون في عينه ملك فرعون، ويعلمه الحرب لفرعون وقومه، هيأه لقتالهم وأطلعه على خرق العادات، كان في ابتداء

---

(١) سورة الشورى آية: ١١.

(٢) سورة طه آية: ١٧- ١٨.

(٣) سورة طه آية: ٢١.

الأمر ضيق القلب والصدر، ثم وسع قلبه وأعطاه الحكم والنبوة والعلم.

يا جاهل: من هذه قدرته ينسى ويعصي؟ لا تنس من لا ينساك ولا تغفل عمن لا يغفل عنك، اذكر الموت فإن ملك الموت موكل بأرواحهم، لا يغرك شبابك ومالك وجميع ما أنت فيه عن قريب يؤخذ منك ما أنت فيه وتذكر تفريطك وتضييعك لهذه الأيام في البطالات فتندم ولا ينفعك الندم، عن قريب تموت وتذكر كلامي ونصحي لك، وتتمنى في قبرك أن تكون عندي وتسمع مني.

اجتهد أن تقبل قولي وتعمل به حتى تكون معي دنيا وآخرة، أحسن ظنك بي حتى تنتفع بقولي، أحسن ظنك بغيرك وأسئ ظنك بنفسك، إن فعلت هذا انتفعت وانتفع غيرك بك ما دمت مع غير الله عزّ وجلّ فأنت في همّ وغمّ وشرك وثقل، أخرج من الخلق بقلبك واتصل بالحق عزّ وجلّ وقد رأيت ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هذا الذي أنت فيه لا يصح ولا يتم، لأن أساسه واه ما هو محكم، هو مزبلة وقد بنيت على ربوة، تب إلى الحق عزّ وجلّ واسأله تغيير ما أنت عليه وفيه من طلب الدنيا والإعراض عن الآخرة.

(ويحك) قد اختار الله عزّ وجلّ لك الفقر وأنت تريد الغنى، أما علمت أنه يختار لك وأنت كاره؟ إنما تكره اختيار الله عزّ وجلّ نفسك وهواك وطبعك وشيطانك وأقرانك السوء، جميع هؤلاء يكرهون اختيار الله عزّ وجلّ فلا توافقهم، ولا تلتفت إليهم وإلى اعتراضهم وتسخطهم على ربك عزّ وجلّ.

اسمع ما يأمر به القلب والسر، فإنهم يأمران بالخير وينهيان عن الشر، ارض بفقرك، فإن رضاك به هو الغنى بعينه، من العصمة أن لا تقدر لأنه إذا أقدرك الغالب وإلا ظهر أنك تهلك بمعاصيه، وإذا أفقرك وأعجزك الغالب وإلا ظهر أنه يعصمك من المعاصي، فإذا صبرت على اختياره كان لك عنده ثواب لا تقدر أن تحصيه أنت وأهل الأرض،أنت مستعجل لا يقع بيده شيء من الذي يريد.

العجلة من الشيطان والتؤدة من الرحمن، إذا استعجلت كنت من جند الشيطان ومعه، وإذا توقفت وثبت وتأدبت وصبرت كنت من جند الرحمن ومعه، حقيقة التقوى فعل ما أمرك الله عزّ وجلّ بفعله وترك ما أمرك الله بتركه، والصبر على أفعاله ومقدوراته وسائر بلاياه وآفاته.

أنتم خلق كلي، نفس كلي، هوى كلي غيبة كلية، طبع كلي، ما عندكم من الله عزّ وجلّ ولا من العارفين به خبر، أنتم مجانين بالإضافة إليهم هم العقلاء، إذا تمّ جنون مجنون الحق عزّ وجلّ حان خروجه من الجنون، الحركة بداية والسكون نهاية، يزول المرض ويتبعه حكمة.

(يا غلام) انت فارغ من الآخرة ملآن بالدنيا، وغمني حالك، ويغمني فراقك للصالحين والأولياء، وترك مجالستهم واستغناؤك برأيك، أما علمت أن من استغنى برأيه ضلّ؟ ما من عالم إلا ويحتاج إلى زيادة علم، ما من عالم إلا وغيره أعلم منه، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

عليك بالجمهور، عليك بالسواد الأعظم، عليك بالجادة، عليك بالمتابعة وترك المفارقة لأداء الطريق.

(اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم).

هذه الطريق لا تسلك مع النفس والهوى، بل مع الحكم والعمل به، وترك الحول والقوة والجلادة، وأخذ الاستسلام والاستطراح، وترك العجلة وأخذ التؤدة، هذا شيء لا يجيء بعجلتك، يحتاج إلى حبال.

ورجال وصبر ومعاناة ومجاهدة، وان تصحب بعض ملوك المعرفة حتى يدلك ويعرفك ويحمل عنك ثقلك، تمشي في ركابه فإذا تعبت أمر بحملك أو أردفك خلفه، إن كنت محباً أردفك خلفه، وإن كنت محبوباً أركبك في سرجه وركب هو خلفك، من ذاق هذا فقد عرفه.

القعود مع أهل الأهلية نعمة، ومع الأغيار المكذبين المنافقين نقمة، عليك بالمراقبة لله عزّ وجلّ والمطالبة لنفسك بما عليها من حقوق الحق عزّ وجلّ وحقوق خلقه، إن أردت الخير دنيا وآخرة فراقب علم الله عزّ وجلّ فيك، وطالب نفسك بالعمل تطالبها بأمر الله عزّ وجلّ، وتنهاها عن ارتكاب معاصيه، وتلزمها بالصبر عند مجيء الآفات، والرضا عند مجيء الأقضية والأقدار، وبالشكر عند مجيء النعم، فإذا فعلت هذا

---

(١) سورة الإسراء آية: ٨٥.

زالت عنك الموانع واستقامت لك الصحبة مع الله عزّ وجلّ، ووقعت بالرفيق في الطريق، ووقعت بالمعين، ولحقت بالكنز الذي يتبعك أينما توجهت. لا تبال أين كنت وأين حللت، لأنك أينما سقطت لقطت، يخدمك الحكم والعلم والقدر والإنس والجن والملك.

يخاف منك كل شيء لخوفك من الله عزّ وجلّ، ويعطيك كل شيء لطاعتك الله عزّ وجلّ، من خاف الله عزّ وجلّ خاف منه كل شيء، ومن لم يخف منه أخافه من كل شيء، من خدم الله عزّ وجلّ أخدم له كل شيء، لأنه لا يضيع من عمل أحد من عباده ذرة.

(كما تدين تدان — كما تكونوا يولّ عليكم).

اللهم عاملنا بكرمك وإحسانك وتجاوزك ولطفك بنا في الدنيا والآخرة.

و ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

(١) سورة البقرة آية: ٢٠١.

المجلس السادس والخمسون

[المراقبة في الله]

وقال رضي الله عنه بكرة الأحد في الرباط تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة:

(يا غلام) إني أرى تصاريفك غير تصاريف المراقبين لله عزّ وجلّ، الخائفين منه، تواصل أهل الشرّ والفساد، وتفارق الأولياء والأصفياء، قد فرغت قلبك من الحق عزّ وجلّ وملأته من الفرح بالدنيا وأهلها وحطامها، أما علمت أن الخوف شحنة في القلب ومنور له ومبين ومفسر؟ إن دمت على هذا فقد ودعت السلامة دنيا وآخرة، لو ذكرت الموت قلّ فرحك بالدنيا وكثر زهدك فيها. من آخره الموت كيف يفرح بشيء؟ قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(لكلّ ساعٍ غايةٌ وغايةُ كلّ حيٍّ الموت).

آخر الأحزان والأفراح والغنى و الفقر والشدة والرخاء والأمراض والأوجاع الموت، من مات قامت قيامته وقرب البعيد في حقه، جميع ما أنت فيه هوس، تفرد عما أنت فيه جميعه بقلبك وسرّك وباطنك. الدنيا إلى أمد معلوم، و الآخرة إلى أبد غير معلوم.

حياتك في الدنيا إلى أمد معلوم، وحياتك في الآخرة إلى أبد غير معلوم، اجهد أن يكون كلك طاعة، فإذا فعلت ذلك صرت بجملتك لربك عزّ وجلّ، المعصية وجود النفس، والطاعة فقدانها، تناول الشهوات وجود النفس، والامتناع عنها فقدانها، امتنع عن الشهوات ولا تتناولها إلا موافقة لقدر الله عزّ وجلّ لا باختيارك وشهواتك.

تناول الشهوات بيد الزهد فيها قهراً وجبراً تجرك يد الزهد فتتناول الشهوة فتبلغها إلى النفس الزهد لا بد منه يحتاج إليه قبل العلم بحالتك، الزهد في الظلمة والتناول والرغبة في الضياء ذلك ظلمة، فإذا خرج عنك فقد رأيت الضياء.

القدرة ظلمة ووقوفك مع المقدر ضياء، أول أمرك ظلمة، فإذا جاء الكشف من الله عزّ وجلّ وثبت بين يديه صار أمرك ضياء، إذا جاء نور قمر المعرفة كشف ظلمة ليلة القدر، فإذا طلعت شمس العلم بالله عزّ وجلّ زالت الأقدار والظلمة.

في الجملة يتبين لك ما حولك وما هو بعيد عنك، يبين لك ويتضح ما كان مشكلا

عليك من قبل، يميز لك بين الخبيث والطيب، ما لغيرك ومالك، تفرق بين مراد الخلق ومراد الحق عزّ وجلّ، ترى باب الخلق وباب الحق عزّ وجلّ، فترى هنالك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيأكل قلبك من طعام المشاهدة، ويشرب من شراب الأنس، ويخلع عليه خلع القبول، ثم يردّ إلى الخلق لمصالحهم وردهم من ضلالهم وهجرهم لربهم عزّ وجلّ وعصيانهم له، يرد مع الحصن الحصين والحفظ الدائم والسلامة الدائمة. يا من لا يعقل هذا أو لا يؤمن بهذا، أنت قشر بلا لب، خشبة مسندة، خشبة نخرة تصلح للنار، إلا أن تتوب وتؤمن وتصدّق.

(ويحك) إن تبت وآمنت وصدقت ففي فتيتك تجد الخير والسلامة والحلاوة، وإن لم تفعل تجد فيه الزجاج يقطع لسانك ولهواتك وكبدك، اقبل قولي فإني في حبالك أفتل، اقبل لا تعاديني فايش بيني وبينك من العداوة؟ أنا مسجد لصلاتك ولإزالة نجاستك وأوساخك، أطرق لك الطريق وأهدف لك فيها الطعام والشراب، أفعل ذلك معك ولا أريد منك جزاء على ذلك، جامكيتي على غيرك، شغلي خدمة الطالبين للحق عزّ وجلّ. إذا صح طلبك للحق عزّ وجلّ سخرت لخدمتك، إذا تمّ قصد العبد وطلبه للحق عزّ وجلّ كانت الأشياء كلها مسخرة له.

(يا غلام) كن أنت واعظ نفسك ولا تحتج إلى غيري، وعظي على ظاهرك ووعظك على باطنك، عظ نفسك بدوام ذكر الموت وقطع العلائق والأسباب، تعلق بربّ الخلاق العظيم العليم، تعلق بذيل رحمته وتعلق رأفته، لا تشتغل بغيره عنه فإنه يحجبك عنه إذا أفلح واحد منكم على يدي فرحت له، وإذا قلت له ولم يقبل حزنت عليه. المؤمن يدنو مني والمنافق يهرب مني. يا منافقون أنا موافق الحق عزّ وجلّ في غضبه عليكم، قد جعلني ناراً موقدة عليكم، فإن تبتم وقبلتم ما أقول لكم وصبرتم على خشونة كلامي كنت علكيم برداً وسلاماً.

ويلكم، ما تستحون؟ طاعتكم ظاهرة ومعاصيكم باطنة، أنتم عن قريب مأخوذون بيد الموت والسقم، ثم تسجنون في سجن نار الله عزّ وجلّ، وأنتم يا مقصرون في الأعمال ما تستحون؟ قد رضيتم بالبطالة في نهاركم وليلكم تريدون ما عند الله عزّ وجلّ مع التقصير.

اهجموا على الأعمال وقد تعوّدتها نفوسكم، لكل داخل دهشة وفي الآخر تصفون وتزول الأكدار. إذا تبتم لا بد من بداية ونهاية، يا اباقا عن خدمة سيدهم، يا

مستغنين بآرائهم عن رأي الأصفياء الأنبياء والمرسلين والصالحين، يا واثقين بالخلق دون الحق عزّ وجلّ، أما سمعتم أن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم قال:

(ملعونٌ ملعونٌ مَنْ كانَتْ ثِقَتُهُ بِمَخْلوقٍ مِثْلِهِ).

لا تطلب الدنيا ولا تغضب لشيء منها، فإن ذلك يفسد قلبك كما يفسد الخلّ العسل.

(ويحك) قد جعلت بين حبّ الدنيا وبين التكبر، وهاتان خصلتان لا يفلح صاحبهما إن لم يتب منهما، كن عاقلاً، من أنت وما أنت؟ ومن أي شيء خلقت ولأي شيء خلقت؟ لا تتكبر، فما يتكبر إلا جاهل بالله عزّ وجلّ وبرسوله والصالحين من عباده، يا قليل العقل تطلب الرفعة بالتكبر، اعكس تصب، فإن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم قال:

(مَنْ تواضَعَ لِلّهِ رفَعَهُ اللهُ عزّ وَجلّ، وَمَنْ تكَبّرَ وَضَعَهُ اللهُ).

من رضي بالآخرة صار في الأولى، من رضي بالقليل جاءه الكثير، من رضي جاءه العزّ، ارض بالدون حتى ينقلب الأمر في حقك، من ذلّ للقدر ورضي به رفعه الله عزّ وجلّ القادر على جميع الأشياء. التواضع وحسن الأدب يقرّبك، والتكبر وسوء الأدب يبعدك، الطاعة تصلحك وتقرّبك، والمعصية تفسدك وتبعدك.

(يا غلام) لا تبع الدين بالتين، لا تبع دينك بتين السلاطين والملوك والأغنياء وأكله الحرام، إذا أكلت بدينك اسودّ قلبك، وكيف لا يسودّ وأنت تعبد الخلق؟ يا مخذول، لو كان في قلبك نور لفرّقت بين الحرام والشبهة والمباح، وبين ما يسوّد قلبك وينوّره، وبين ما يقرّب قلبك ويبعده.

يا جاهل ما أعرف إلا الكسب أو التوكل على الحق عزّ وجلّ، الأخذ بالكسب في بداية ثم عند قوّة الإيمان، الأخذ من الله عزّ وجلّ بعد ارتفاع الوسائط بينك وبينه، إذا قوى القلب أخذ من الحق عزّ وجلّ على أيدي الخلق بأمر الحق عزّ وجلّ. ومعنى قولي ارتفاع الوسائط: يعني ارتفاع وقوف القلب مع الوسائط والشرك بما يمتثل أمر الله عزّ وجلّ، فيأخذ منهم ويتطارش عن حمدهم وذمهم وقبولهم وردّهم.

إن أعطوا رأوا فعل الله عزّ وجلّ فيهم، وإن منعوا كذلك، القوم صمّ بكم عمي عن غير الله عزّ وجلّ، ما عندهم إلا هو، ناصرهم وخاذلهم، معطيهم ومانعهم، ضارّهم ونافعهم، عندهم لبّ بلا قشر، صفاء على صفاء، طيب على طيب، فذلك الذي يخرج

جميع الخلائق من قلوبهم، لا يبقى فيها سوى الله عزّ وجلّ، يبقى فيها الذكر الخفيّ له لغيره، اللهم ارزقنا العلم بك.

(ويحك) إنك تظن أنك تقدر تبهرج نفسك، لولا الحكم لنزلت إليك يا منافق فضحتك، لا تخاطر برأسك معي، فإني لا أستحي إلا من الله عزّ وجلّ ومن عباده الصالحين.

العبد إذا عرف الله عزّ وجلّ سقط الخلق من قلبه، وتناثروا عنه كما يتناثر الورق اليابس من الشجر، فيبقى بلا خلق. في الجملة يعمى عن رؤيتهم ويصمّ عن سماع كلامهم من حيث قلبه وسرّه، إذا صارت النفس مطمئنة سلم إليها حفظ الجوارح، ثم يسافر القلب إلى حج يطلب ما عنده، ثم تأتي الدنيا فتصبر سائسة للنفس قائمة بمصالحها، هذا دأب الله عزّ وجلّ وصنعه في حق الطالبين له، تأتيهمالدنيا وقت استيفاء الأقسام في صورة عجوز شمطاء شوهاء فتوفيهم أقسامهم، تكون خادمة لا سرية، يأخذون منها مالهم عندنا ولا يلتفتون إليها.

(يا غلام) فرّغ قلبك لربك عزّ وجلّ، واشغل جوارحك ونفسك بالكدّ على العيال، فتعمل بأمره وتكتسب بين الحق عزّ وجلّ وترك السؤال له مع الصبر والرضا أولى من الدعاء والسؤال والإلحاح.

امح علمك لعلمه، ونحّ تدبيرك لتدبيره، واقطع إرادتك لإرادته، واعزل عقلك عند مجيء أقضيته وأقداره، افعل ذلك معه إن أردته رباً ومعيناً ومسلماً. عليك بالسكون بين يديه إن أردت الوصول إليه.

المؤمن اتحدت خواطره وهممه، لم يبق له سوى خاطر يخطر من الحق عزّ وجلّ إلى قلبه وهو واقف على باب قربه من ربه عزّ وجلّ، فإذا تمكنت معرفته له فتح الباب في وجهه، فحصل من ورائه فرأى مالا يقدر على وصفه الخاطر للقلب والإشارة كلام خفي للسرّ الفاني عن نفسه وهواه وأخلاقه المذمومة وعن سائر الخلق في عافية وطيبة ونعمة، هو مقلب مصرّف فيه كأصحاب الكهف، قال الله عزّ وجلّ في حقهم:

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾(١).

(يا غلام) اسمع بهذا وآمن بهذا ولا تكذبه، لا تحرم نفسك الخير من كل وجه.

---

(١) سورة الكهف آية: ١٨.

المجلس السابع والخمسون

[الصدق]

وقال رضي الله عنه بكرة الجمعة في المدرسة الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

يا غلمان، تصدقوا عليّ بذرة من الصدق، أنتم في حلّ من أموالكم ومما في بيوتكم، ما أريد منكم إلا الصدق والإخلاص ونفع ذلك لكم، أريدكم لكم لا لي، قيدوا ألفاظ ألسنتكم الظاهرة والباطنة، فإن عليكم رقباء الملائكة يراقبون ظواهركم، و الحق عزّ وجلّ يراقب بواطنكم.

يا من يبني القصور والدور ويذهب عمره في عمارة الدنيا، لا تبن شيئاً بغير نية صالحة، فأساس البناء في الدنيا النية الصالحة، لا يكون بناؤك بنفسك وهواك. الجاهل يبني في الدنيا بنفسه وهواه وطبعه وعادته من غير أمر الحكم وموافقة قضاء الله عزّ وجلّ وفعله، فلا جرم لا تصح له قرينة صالحة ولا يتهنأ بما بناه ويسكنه غيره، ويقال له يوم القيامة لم بنيت ومن أين أنفقت ولم أنفقت؟ يحاسب على الجميع، اطلب الرضا والموافقة، واقنع بقسمك ولا تطلب ما لم يقسم لك، عن النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال:

(أشدّ عقوبات الله عزّ وجلّ لعبده طلبه ما لم يقسم له).

قال رضي الله تعالى عنه: تجيء إلي، وما عندك حسن ظن في فما تفلح بكلامي.

(ويحك) تدعي أنك مسلم وأنت معترض على الله عزّ وجلّ وعلى الصالحين من عباده، كذبت في دعواك، الإسلام مشتق من الاستسلام لقضاء الله عزّ وجلّ وقدره والرضا بأفعاله، مع حفظ حدود كتابه وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فحينئذ يصح لك الإسلام. شؤم طول الأمل هو الذي يوقعك في معاصي الله عزّ وجلّ ومخالفته، متى ما قصرت أملك جاءك الخير فتمسك به إن أردت الفلاح أيّ شيء جاء به القدر أخذه من يده ورضي به مع موافقة الشرع ورضاه عنه.

لا نفس له ولا هوى ولا طبع له ولا شيطان؛ أعني أنه قد أعين عليهم، لا أنهم قد انعدموا من كل وجه، ليس معصوم بعد ذهاب الأنبياء عليهم السلام،نفسه مطمئنة

وهواه مغلوب ونائرة طبعه مخمودة وشيطانه حابس، ما يقع بيده منه شيء يطوف عليه لا يجده، التوكل ليس فيه وقوف مع سبب، والتوحيد ليس فيه رؤية الضرّ والنفع من أحد.

أنت نفس كلية، هوى كلي، عادة كلية، ما عندك من التوكل والتوحيد خبر، مرارة ثم حلاوة ثم كسر ثم جبر ثم موت ثم حياة دائمة، ذل ثم عز، فقر ثم غنى، انعدام ثم إيجاد به لا بك، إن صبرت على هذا صح لك ما تريد من الحق عزّ وجل، وإلا فما يصح لك شيء. كل ما أشغلك عن الله عزّ وجلّ فهو عليك ميشوم، وإن كان الصوم والصلاة بعد أداء الفرائض والسنة.

إذا أديت لفرض من الصوم ثم أشغلك بعد ذلك الجوع والعطش في صوم النافلة عن حضور قلبك بين يدي الحق عزّ وجلّ والمراقبة له وطيبة العيش به ومعه الدائرة على صحبته والقرب منه. أنت عبد الحجاب، عبد الخلق ونفسك وهواك.

العارف قائم مع الله عزّ وجلّ تحت لواء قربه مع علمه وسرّه، ويدور مع قضائه وقدره، وإذا عجز دور بلا تدوير منه، حرك بلا تحريك منه، سكن بلا تسكين منه، يصير من جملة الذين قال له في حقهم:

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾[1].

لما جاء العجز منهم حركوا الحركة مع القدرة والسكون والتسليم عند العجز، الحركة عند وجودك والسكون عند فقدك، الحركة في الحكم والسكون في العلم، إنما تصح نفسك بعد خروجك من النفس والهوى والطبع والخلق. في الجملة لا تتقيد بالخلق، فما يملك ضرك ولا نفعك ولا رزقك غير ربك عزّ وجلّ، كن أبداً في طاعته وأمره ونهيه، لا يبقى بيدك شيء سوى الله عزّ وجلّ، فتصير أغنى الخلق وأعزّهم، فتصير كآدم عليه السلام يأمر بالسجود له، وهذا من وراء عقول الخلق العوام منهم وكثير من الخواص، فهو ذرّة آدم ومن جملة لبه.

يا قليل العلم نفعه ثم اعتزل. القوم تفقهوا ثم اعتزلوا عن الخلق بقلوبهم، ظواهرهم مع الخلق لإصلاحهم وبواطنهم مع الحق عزّ وجلّ في خدمته وصحبته، فهم كاتبون تائبون كائنون مع الخلق في الحكم وناءون عنهم بقلوبهم.

---

(١) سورة الكهف آية: ١٨.

قلوبهم نائية معتزلة عن الأشياء جميعاً، شغلهم في الظاهر أحكام الحكم، كلما تدنس ثوبهم غسلوه وطيبوه وبخروه، كلما تخرق منه شيء رقعوه وخيطوه، هم رؤوس الخلق، ذرة منهم كالجبال الرواسي، قلوبهم مع ربهم عزّ وجلّ مستطرحون بين يديه مراقبون له غائصون في علمه.

اللهم اجعل غذاءنا ذكرك وغنانا قربك آمين.

أنت ميت القلب وصحبتك أيضاً لموتى القلوب، عليك بالأحياء النجباء البدلاء أنت قبر أ مثلك، ميت تأتي ميتاً مثلك، أنت زمن يقودك زمن مثلك، أعمى يقودك أعمى مثلك، اصحب المؤمنين الموقنين الصالحين واصبر على كلامهم واقبله واعمل به وقد افلحت، اسمع قول الشيوخ واعمل به، واحترمهم إن أردت الفلاح كان لي شيوخ كلما اشكل عليّ وخطر بقلبي يحدثني به ولا يحوجني إلى الكلام، فكان ذلك لاحترامي وحسن أدبي معه، ما صحبت قط الشيوخ إلا بالاحترام وحسن الأدب.

الصوفي لا يكون بخيلاً، لأنه ما بقي له شيء يبخل به وقد ادعى ترك الكل، إن أعطى شيئاً أخذه لغيره لا له قد صفا قلبه عن الموجودات والمصورات، إنما يبخل من له مال. والصوفي قد صارت الأشياء لغيره، فكيف يبخل بمال غيره؟ لا عدو له ولا صديق، ولا التفات له إلى سماع الحمد والذم لا يرى العطاء والمنع والضرّ والنفع من غير الله عزّ وجلّ لا يفرح بالحياة ولا يغتم بالموت، موته سخط ربه عزّ وجلّ عليه، وحياته رضاه عنه، وحشته في الجلوة وأنسه في الخلوة طعامه ذكر ربه عزّ وجلّ وشرابه من شراب الأنس به، لا جرم لا يكون بخيلاً بحطام الدنيا وما فيها لأنه عنده غني عن الجميع.

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٠١.

المجلس الثامن والخمسون

[العمل مع الإخلاص]

وقال رضي الله عنه بكرة الجمعة في المدرسة مستهل شوال سنة خمس وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

كم تتعلم ولا تعمل، اطو ديوان العلم ثم اشتغل بنشر ديوان العمل مع الإخلاص وإلا فلا فلاح لك، تتعلم العلم فحسب، أنت مجترٍ على الحق عزّ وجلّ بأفعالك، قد ألقيت جلباب الحياء من عينيك وقد جعلته أهون الناظرين إليك أنت آخذ بهواك ومانع بهواك ومتحرك بهواك فلا جرم يهلكك هواك، استح من الله عزّ وجلّ في جميع أحوالك واعمل بحكمه، إذا علمت بظاهر الحكم أدناك العمل إلى العلم بالله عزّ وجلّ.

اللهم نبهنا من رقدة الغافلين آمين.

إذا ارتكبت الذنوب جاءت الآفات ووقعت عليك، فإن تبت واستغفرت ربك عزّ وجلّ واستعنت به وقعت حواليك، لا بد لك من بلية فاسأل الله عزّ وجلّ أن يأتيك معها بالصبر والموافقة حتى يسلم ما بينك وبينه، فيكون الخدش في القالب لا في القلب، في الظاهر لا في الباطن، في المال لا في الدين، فحينئذ تكون البلية نعمة لا نقمة.

يا منافق قد قنعت من اتباعك لله عزّ وجلّ ولرسوله بالاسم لا بالمعنى، ذلك كذب ظاهرك وباطنك، فلا جرم أنت ذليل في الدنيا والآخرة. العاصي ذليل في نفسه، والكذاب ذليل في نفسه. يا عالماً لا تدنس علمك عند أبناء الدنيا، لا تبع عزيزاً بذليل.

العزيز العلم، والذليل هو الذي في أيديهم من الدنيا، الخلق لا يقدرون أن يعطوك ما ليس لك مقسوم، إنما قسمك يجري على أيديهم، فإذا صبرت جاء قسمك على أيديهم وأنت عزيز.

(ويحك) من يرزق لا يرزق، من يعطي لا يعطى، اشتغل بطاعة الله عزّ وجلّ واترك الطلب منه، فما يحتاج تعلمه وتعرفه بمصلحتك، قال الله عزّ وجلّ في بعض كلامه:

(مَن شغلَهُ ذِكري عن مسألتي أعطيتهُ أفضلَ ما أُعطي السائلين).

ذكر اللسان بلا قلب لا كرامة ولا عزازة لك به، الذكر هو ذكر القلب والسرّ ثم

ذكر اللسان، إذا صح ذكر الحق عزّ وجلّ:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾[1].

اذكره حتى يذكرك، اذكره حتى يحط الذكر عنك أوزارك، تبقى خالياً عن وزر تصير طاعة بلا معصية، فحينئذ يذكرك فيمن يذكر، فتشتغل به عن خلقه ويشغلك ذكره عن مسئلته، يصير كل مقصودك هو فتشتغل عن جميع مقاصدك. إذا صار هو كل مقصودك جعل مفاتيح خزائن الملك في يد قلبك. من أحب الله عزّ وجلّ لا يحب غيره، يزيل من قلبك حبّ ما سواه، إذا تمكن حبّ الحق عزّ وجلّ من قلب عبد خرج من قلبه حبّ غيره، يشربه أعضاءه، ويشتغل به ظاهره وباطنه، صورته ومعناه، فيهينه ويخرجه عن العادة ويخرجه عن العمران، فإذا تمّ له هذا أحبه الله عزّ وجلّ.

اما لك عقل تنظر به؟ اما حضرت منزولاً به قط؟ ستأتيك نوبتك ويفرغ منك ملك الموت، يأتي حياتك فيقلعها من مكانها، ويفرق بينك وبين أهلك ومحابك، اجتهد أن لا تقبض وأنت كاره للقاء الله عزّ وجلّ، قدم مالك إلى الآخرة، انتظر الموت فإنك ترى عند الله عزّ وجلّ خيراً مما تراه في الدنيا.

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[2].

---

(١) سورة البقرة آية: ١٥٢.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٠١.

المجلس التاسع والخمسون

[عدم المداهنة]

وقال رضي الله عنه يوم الجمعة، تاسع رجب من سنة ست وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

كلام الطامع لا يخلو من رجة ومداهنة، لا يمكنه المحاققة، يكون كلامه قشراً فارغاً لا لب فيه، صورة بلا معنى. الطامع فارغ كالطمع، لأن حروف الطمع كلها فارغة: الطاء والميم والعين: يا عباد الله عزّ وجلّ، اصدقوا وقد أفلحتم.

الصادق همته عالية في السماء لا يضرّه قول قائل. إن الله عزّ وجلّ غالب على أمره، إذا أرادك لأمر هيأك له، كلام جرى من سيء الأدب، وهذا جوابه: صدق أحوالكم تنطقني وكذبكم يسكتني، على قدر ما تشترون أبيعكم.

(يا غلام) لو كان عندك ثمرة العلم وبركته لما سعيت إلى أبواب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها، العالم لا رجلين يسعى بهما إلى أبواب الخلق، والزاهد لا يدين له يأخذ بهما أموال الناس، والمحبّ لله عزّ وجلّ لا عينين له ينظر بهما إلى غيره.

المحب الصادق في محبته لو لقي الخلق كلهم ما حلا له النظر إليهم، لا ينظر إلى غير محبوبه، لا تكبر في عيني رأسه الدنيا، ولا تكبر في عيني قلبه الأخرى، ولا يكبر في عيني سرّه غير المولى.

كونوا عقلاء، ما أنتم على شيء، الأكثر منكم يتبعون كل زاعق وناعق، الأكثر من المتكلمين كلامهم من ألسنتهم لا من قلوبهم، زعقات المنافق من لسانه ورأسه، وزعقات الصادق من قلبه وسرّه، قلبه على باب ربه عزّ وجلّ، وسرّه داخل عليه، لا يزال يصرخ على الباب حتى يدخل الدار، أنت كذّاب والله في جميع أحوالك ما تعرف، الطريق إلى باب الله عزّ وجلّ، كيف تدل عليه وأنت أعمى؟ كيف تقود غيرك؟ قد أعماك هواك وطبعك ومتابعتك لنفسك ومحبتك لدنياك ورياستك وشهواتك، تقدم إليّ ما دام المعاصي على ظاهرك قبل أن تصل إلى قلبك فتصير مصراً، ثم ينتقل الإصرار فيصير كفراً. من تحققت طاعته لله عزّ وجلّ وعبوديته له قدر على سماع كلامه. وذكر السبعين المختارين من قوم موسى لسماع الكلام وقال: فخاطبهم الحق عزّ وجلّ

فصعقوا كلهم وبقي موسى عليه السلام وحده، ولما أحياهم الله عزّ وجلّ قالوا: لا طاقة لنا على سماع كلام الله عزّ وجلّ فكن أنت الواسطة بيننا وبينه، فكلم الله عزّ وجلّ موسى وهو يسمعهم ويعيد عليهم قوله.

إنما قدر على سماع كلامه لقوة إيمانه وتحقيق طاعته وعبوديته، ولم يقدروا أن يسمعوا منه لضعف إيمانهم، فلو قبلوا منه ما جاءهم به في التوراة وأطاعوه في الأمر والنهي وتأدبوا ولم يتجرءوا على ما قالوا لقدروا على سماع كلام الله عزّ وجلّ.

وقال رضي الله عنه: إني مسلط على كل كذاب منافق دجال، مسلط على كل عاص لله عزّ وجلّ، أكبرهم إبليس وأصغرهم الفاسق. إني محارب لكل ضال مضل، داع إلى الباطن، مستعين على ذلك بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، النفاق قد ثبت على قلبك، تحتاج إلى الإسلام والتوبة وقطع الرياء.

وإن كان هذا الذي أنا فيه من الله عزّ وجلّ فسيكبر ويكثر ويعظم، وعلى رجليه يقوم، وبأجنحته يطير على سطوح الخلق، ويدخل دورهم ويرونه بعيونهم وقلوبهم.

وإن كان من نفسي وهواي وطبعي وشيطاني وباطني فسحقاً وبعداً، وعن قريب يصغر ويذوب وينقلب ويتفرق وينقطع، لأن الحق عزّ وجلّ لا يؤيد كذابا ولا ينصر منافقاً ولا يعطي جاحداً ولا يزيد تاركاً للشكر، كل من يحدث نفسه بشيء من النفاق لا يجيء منه شيء، بل يكون نفاقه سبب احتراق دينه.

يا مريدون قد نطقت ولكن أنتم تهربون ولا تعملون، اسمي في سائر البلاد أخرس، كنت أتجانن وأتخارس وأتعاجم، ولكن ما صح لي، أخرجني القدر إليكم، كنت في المطامير أخرجني وأقعدني على الكرسي، لا تكذب فما لك قلبان بل هو قلب واحد بأي شيء امتلأ فما يسع شيئاً آخر، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾[1].

قلب يحب الخالق والخلق لا يصح، قلب يكون فيه الدنيا والآخرة لا يصح. إذا كان القلب للخالق والوجه إلى الخلق، يجوز لفته إلى الخلق نظراً في مصالحهم رحمة لهم، يجوز للجاهل بالله عزّ وجلّ أن يرائي وينافق والعالم به لا يفعل ذلك.

---

(١) سورة الأحزاب آية: ٤.

الأحمق يعصي الله عزّ وجلّ والعاقل يطيعه، الحريص على جمع الدنيا يرائي وينافق، والقصير الأمل لا يفعل ذلك. المؤمن يتقرّب إلى الله عزّ وجلّ بأداء الفرائض ويتحبب إليه بالنوافل.

ولله عباد لا نوافل لهم بل يأتون بالفرائض ثم يفعلون النوافل ويقولون هذه فرائض علينا لأجل إقدارنا عليها اشتغالنا بالعبادة أبد الدهر فرض علينا. لا يعدّون لأنفسهم نافلة. في الجملة أولياء الله عزّ وجلّ لهم منبه ينبههم ومعلم يعلمهم، يهيء الحق عزّ وجلّ لهم أسباب التعلم، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(لو أنّ المؤمنَ على قُلةِ جبلٍ لقيّضَ اللهُ له عالماً يعلّمهُ).

لا تستعر كلمات الصالحين وتتكلم بها وتدعيها لنفسك، العارية لا تخفى، اكبش من مالك لا من العارية، ازرع القطن بيديك، واسقه بيدك، وربه بجهدك، ثم انسجه وخيطه والبسه، لا تفرح بمال غيرك وثيابك غيرك، إذا أخذت كلام غيرك وتكلمت به وادعيته مقتتك قلوب الصالحين، إذا لم يكن لك فعل فلا قول، كل الأمر معلق على العمل، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

اجتهدوا في تحصيل معرفة الحق عزّ وجلّ فإنها غيبة معه وقيام مع قدره وقدرته وعلمه، هي فناء كلي في أفعاله وقضاياه، كلامك يدل على ما في قلبك، اللسان ترجمان القلب، فإذا كان القلب مختلطاً فتارة يصح الكلام وتارة يبطل، لا تقدر تغير الشيء عما هو وأخرى تغير.

وإذا زال تخليطه صح اللسان، إذا زال الشرك منه صح اللسان، وإذا أشرك يقتدي بالخلق تغير وتبذل وتعثر وكذب، من المتكلمين من يتكلم عن قلبه، ومنهم من يتكلم عن سرّه، ومنهم من يتكلم عن نفسه وهواه وشيطانه وعادته.

اللهم اجعلنا مؤمنين ولا تجعلنا منافقين.

إذا وقع حب رجل وبغض آخر فلا تحبّ هذا وتبغض هذا بنفسك وبطبعك، بل حكمهما كليهما على الكتاب والسنة، فإن وافقا الذي أحببته قدم على محبته، وإن خالفا

---

(١) سورة النحل آية: ٣٢.

فارجع عن محبته، وإن وافقا الذي أبغضته فارجع عن بغضه، وإن خالفا قدم على بغضه، وإن لم ينفعك ذلك ولم يبن لك فارجع إلى قلوب الصديقين وسلهم عنهما، ارجع إلى قلوبهم فهي الصحيحة، لأن القلب إذا صح كان أقرب الأشياء إلى الله عزّ وجلّ. القلب إذا عمل بالكتاب والسنة قرب،وإذا قرب علم وأبصر ما له وما عليه، وما لله عزّ وجلّ وما لغيره، وما للحق وما للباطل. إذا كان المؤمن له نور ينظر به فكيف لا يكون للصديق والمقرّب؟ المؤمن له نور ينظر به، ولهذا حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من نظره فقال:

(اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عزّ وجلّ).

والعارف المقرّب يعطي أيضاً نوراً يرى به قربه من ربه عزّ وجلّ ويرى قرب ربه عزّ وجلّ من قلبه، يرى أرواح الملائكة والنبيين وقلوب الصديقين وأرواحهم، يرى أحوالهم ومقاماتهم، كل هذا في سويداء قلبه وصفاء سرّه.

هو أبدا في فرحه مع ربه عزّ وجلّ، هو واسطة يأخذ منه ويفرق على الخلق، منهم من يكون عليم اللسان والقلب، ومنهم من يكون عليم القلب ألسن اللسان. وأما المنافق فهو عليم اللسان ألكن القلب، كل علمه في لسانه، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(أخوف ما أخاف على أمتي من منافق عليم اللسان).

لا تغترّ بشيء فإن الله فعّال لما يريد، ولهذا حكى عن بعض الصالحين أنه زار أخاه في الله تعالى فقال له: يا أخي تعال حتى نبكي على علم الله فينا، ما أحسن ما قال هذا الصالح، قد كان عارفاً بالله عزّ وجلّ، وقد سمع قول النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(يعمل أحدكم بعمل أهل الجنة حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع أو باع فتتركه الشقاوة فيصير من أهل النار. ويعمل أحدكم بعمل أهل النار حتى لا يبقى بينه وبينها إلا ذراع أو باع فتتركه السعادة فيصير من أهل الجنة).

قيل لبعض الصالحين: هل رأيت ربك؟ فقال: لو لم أره لتقطعت مكاني. إن قال قائل كيف تراه فأقول:إذا خرج الخلق من قلب العبد ولم يبق فيه سوى الحق عزّ وجلّ يريه ويقربه كما يشاء، يريه باطنا كما ارى غيره ظاهراً، يريه كما أرى نبينا محمداً صلى الله تعالى عليه وسلم نفسه ليلة المعراج، كما يرى هذا العبد نفسه، ويقربه

ويحدثه مناماً قد يحدث قلبه غليه يقظة، يغمض عيني وجوده فيراه بعينيه كما هو عليه من حيث الظاهر، ويعطيه معنى آخر فيراه به، يرى قربه، يرى صفاته، يرى كراماته وفضله وإحسانه واللطف به، يرى برّه وكنفه. من تحققت عبوديته ومعرفته لا يقول أرني ولا لا ترني، لا أعطني ولا لا تعطني، فيصير فانياً مستغرقاً، ولهذا كان يقول بعض من وصل إلى هذا المقام: إيش عليّ مني، ما أحسن ما قال، أنا عبده، وليس للعبد مع سيده اختيار ولا إرادة [1].

اشترى رجل مملوكاً، وكان ذلك المملوك من أهل الدين والصلاح، فقال له: يا مملوك إيش تريد تأكل؟ فقال: ما تطعمني، فقال له: ما الذي تريد تلبس؟ فقال: ما تلبسني، فقال له: أين تريد تقعد من دراي؟ فقال: موضع ما تقعدني، فقال له: ما الذي تحب أن تعمل من الأشغال؟ فقال: ما تأمرني.

فبكى الرجل فقال: طوبى لي، لو كنت مع ربي عزّ وجلّ كما أنت معي؟ فقال المملوك: يا سيدي وهل للعبد مع سيده إرادة أو اختيار؟ فقال له: أنت حرّ لوجه الله، وأريد أن تقعد عندي حتى أخدمك بنفسي ومالي. كل من عرف الله عزّ وجلّ لا يبقى له إرادة ولا اختيار ويقول: إيش عليّ مني؟

لا تزاحم القدر في أموره ولا في أمور غيره، آحاد أفراد من عباد الله عزّ وجلّ يزهدون في الخلق ويستأنسون بالخلوات، يستأنسون بقراءة القرآن وبقراءة كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا جرم تصير لهم قلوب مستأنسة بالخلق قريبة منه، يرون بها نفوسهم ونفوس غيرهم، تصح قلوبهم فلا يخفى عليهم شيء مما أنتم عليه، يتكلمون على خواطركم ويخبرونكم بما في بيوتكم.

(ويحك) كن عاقلاً، لا تزاحم القوم بجهلك بعد ما خرجت من الكتاب، صعدت تتكلم على الناس، هذا أمر يحتاج إلى إحكام الظاهر وإحكام الباطن ثم الغنى عن الكل، ثم يحتاج أن تقع في ضرورتين: الأولى أن لا يبقى في بلدتك غيرك فتتكلم على الناس ضرورة، والأخرى أنك تؤمر بالكلام من حيث قلبك فحينئذ ترقى إلى هذا المقام لترد الخلق إلى الخالق.

---

(١) هذا تفسير طيب للرؤية عند الصوفية، فقد أخطأ البعض في ذلك بما يخالف العقل والنقل، ومعنى شرح الجيلاني رحمه الله أن الإنسان يرى ربه بنور قلبه وليس بعيني إحساسه وقد يكون ذلك برؤية فضله وبره وإحسانه كما قال الشيخ رحمه الله.

(ويلك) تدعي أنك صوفي وأنت كدر، الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله، فكلما ازداد صفاؤه خرج من بحر وجوده، ويترك إرادته واختياره ومشيئته من صفاء قلبه. أساس الخير متابعة النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم في قوله وفعله. كلما صفا قلب العبد رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم في منامه يأمر بشيء وينهاه عن شيء، يصير كله قلباً وتنعزل بنيته، يصير سرّاً بلا جهر، صفاء بلا كدر، يتنحى عنه قشر ظاهره إلى ناحية ويبقى لباً بلا قشر.

يصير مع النبيّ صلى الله عليه وسلم من حيث معناه، يتربى قلبه معه وبين يديه يصير يده في يده، يكون النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم هو المخاطب عنه الحاجب بين يديه، إخراج الكل من القلب. قلع الجبال الرواسي يحتاج إلى معاول المجاهدات والصبر على المكابدات ونزول الآفات، لا تطلبوا ما لا يقع بأيديكم، طوبى لكم إن عملتم بهذا السواد على البياض وكنتم مسلمين، طوبى لكم تكونون يوم القيامة في زمرة المسلمين ولا تكونون في زمرة الكافرين، طوبى بالعقود في أرض الجنة أو على بابها ولا تكونون من أصحاب الدركات، تواضعوا ولا تتكبروا، التواضع يرفع والتكبر يضع، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(مَنْ تواضعَ لله رفَعَهُ اللهُ).

إذا دام القلب على ذكر الحق عزّ وجلّ جاءت إليه المعرفة والعلم والتوحيد والتوكل والإعراض عما سواه. في الجملة دوام الذكر سبب لدوام الخير في الدنيا والآخرة، إذا صح القلب صار دائماً فيه، يكتب في جوانبه وعلى جملته، فتنام عيناه وقلبه ذاكر لربه عزّ وجلّ، يرث ذلك عن نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم.

كان بعض الصالحين يتكلف النوم في بعض الليل ويتهيأ له من غير حاجة إليه، فسئل عن ذلك فقال: يرى قلبي ربي عزّ وجلّ. صدق في قوله لأن المنام الصادق وحي من الله عزّ وجلّ، كانت قرّة عينه في نومه.

المجلس الستون

[ترك الإنسان ما لا يعنيه]

وقال رضي الله عنه في عشية الثلاثاء، ثالث عشر رجب من سنة ست وأربعين وخمسمائة في المدرسة:

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(منْ حُسْنِ إسْلامِ المرْءِ تركُهُ مالا يَعْنيه).

كل من حسن إسلامه وتحقق أقبل على ما يعنيه وأعرض عما لا يعنيه، الاشتغال بما لا يعني شغل الباطلين المهووسين. المحروم رضا مولاه، من لم يعمل بما أمر واشتغل بما لم يؤمر به، هذا هو الحرمان بعينه والموت بعينه والطرد بعينه، اشتغالك بالدنيا يحتاج إلى نية صالحة وإلا فأنت ممقوت.

اشتغل بطهارة قلبك أولاً فإنه فريضة، ثم تعرّض للمعرفة، إذا ضيعت الأصل لا يقبل منك الاشتغال بالفرع، لا تنفع طهارة الجوارح مع نجاسة القلب، طهر جوارحك بالسنة وقلبك بالعمل بالقرآن،احفظ قلبك حتى تنحفظ جوارحك، كل إناء ينضح بما فيه، أيّ شيء كان في قلبك منك على جوارحك.

كن عاقلاً ما هذا عمل من يؤمن بالموت ويوقن به، ما هذا عمل من يرتقب لقاء الله عزّ وجلّ ويخاف من محاسبته ومناقشته، القلب الصحيح ممتلئ توحيداً وتوكلاً ويقيناً وتوفيقاً وعلماً وإيماناً ومن الله عزّ وجلّ قرباً، يرى الخلق كلهم بعين العجز والذل والفقر، ومع ذلك لا يتكبر على طفل صغير منهم، يصير كالسبع وقت لقاء الكفار والمنافقين والعصاة، غيرة لله عزّ وجلّ يصيرون بين يديه قطعة لحم ملقاة، ويتواضع ويذل للصالحين المتقين الورعين، وقد وصف الله عزّ وجلّ القوم الذين هذه صفاتهم فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾(١).

ويلك يا مبتدع، ما يقدر أن يقول إني أنا الله إلا الله ربنا عزّ وجلّ، متكلم ليس

---

(١) سورة الفتح الآية: ٢٩.

بأخرس، ولهذا أكد الله عزّ وجلّ الأمر في كلامه لموسى فقال:

﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[1].

له كلام يسمع ويفهم، قال لموسى:

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

يعني بقوله أنا الله: إني لست بملك ولا جني ولا إنسي. ربّ العالمين: أي كذب فرعون في قوله:

﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[3].

وفي ادعائه الإلهية دوني، أنا الله ما فرعون وغيره من الخلق؟ لما وقع موسى في ذلك الكرب والضيق برز إيمانه وإيقانه، لما وقع في ظلمة الليل وظلمة الغمّ على الزوجة لأجل الكرب الذي هي فيه أظهر الله عزّ وجلّ له نوراته فقال لعادته وحيله وقوة أسبابه:

﴿ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾[4].

إني قد رأيت نوراً، قد رأى سري وقلبي ومعناي ولبي نوراً قد جاءتني سابقتي وهدايتي، وجاءني الغنى عن الخلق، جاءتني الولاية والخلافة، جاءني الأصل وذهب عني الفرع، جاءني الملك وذهب عني الملكية، ذهب عني الخوف من فرعون وانتقل الخوف إليه، ودّع أهله وسلمهم إلى ربه عزّ وجلّ وسار فلا جرم خلفه فيهم.

هكذا المؤمن إذا قرّبه الله عزّ وجلّ ودعاه إلى باب قربه ينظر قلبه يميناً وشمالاً ووراء وأمام، فيرى الجهات كلها مسدودة غير جهة الحق عزّ وجلّ، فيخاطب نفسه وهواه وجوارحه وعادته وأهله وجميع ما كان عليه: إني آنست نور القلب من ربي عزّ وجلّ، فأنا سائر إليه، وإن كان لي عودة رجعت إليكم.

يودّع الدنيا وما فيها والأسباب والشهوات، يودّع الخلق كلهم، يودع كل محدث وكل

---

(١) سورة النساء آية: ١٦٤.

(٢) سورة القصص آية: ٣٠.

(٣) سورة النازعات آية: ٢٤.

(٤) سورة طه آية: ١٠.

مصنوع ويسير إلى الصانع، فلا جرم يتولى الحق عزّ وجلّ أهله وولده وجميع أسبابه من الحلال ما يكتم عن البعداء لا عن القرباء، عن المبغضين لا عن المحبين، يكتم عن الأغلب لا عن النادر، هذا القلب إذا صح وصفا سمع مناداة الحق عزّ وجلّ من جهاته الست، يسمع مناداة كل نبيّ ورسول وصديق ووليّ، فحينئذ يقرب منه فيصير حياته القرب منه وموته البعد عنه، يصير رضاه في مناجاته له، يقنع بذلك عن كل شيء، لا يبالي بذهاب الدنيا عنه، لا يبالي بالجوع والعطش والعرى وكسر الأعراض، رضا المريد في الطاعات ورضا العارف المراد في القرب من الله عزّ وجلّ.

يا متصنعاً ما هذا؟ ما أنت عليه؟ ما يتم هذا الأمر بصيام النهار وقيام الليل والتخشن في المطعم والملبس مع وجود النفس والهوى والطبع والجهل ورؤية الخلق، لا يجيء بهذا شيء. ويلك أخلص وتخلص صدق وقد وصلت وقربت همتك وقد علوت، سلم وقد سلمت، وافق وقد وفقت، ارض وقد رضي عنك، أسرع أنت وقد تمم الحق عزّ وجلّ لك.

اللهم تولّ أمورنا في الدنيا والآخرة، لا تكلنا إلى نفوسنا ولا إلى أحد من خلقك، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(يقول الله عزّ وجلّ لجبريل: يا جبريل أنم فلاناً وأقم فلاناً).

هذا على وجهين:

أقم فلاناً المحب وأنم فلاناً المحبوب، هذا قد ادعى محبتي لابد أن أناقشه وأقيمه مقامه حتى يتساقط عنه أوراق وجوده مع غيري، أقمه حتى يتبين برهان دعواه حتى تتحقق محبته، وأنم فلاناً لأنه محبوب طال ما تعب، ما بقيت عنده بقية من غيري، اتحدت محبته لي، وتحققت دعواه وبرهانه ووفاؤه بعهدي، جاءت النوبة إلى ووفائي بعهده، هو ضيف والضيف لا يستخدم ويتعب، أنومه في حجر لطفي، وأقعده على مائدة فضلي، أونسه بقربي، وأغيبه عن غيري، قد صحت مودته، فإذا صحت المودة زال التكليف.

الوجه الآخر: أنم فلاناً فإني أكره صوته، وأقم فلاناً فإني أحب سماع صوته، إنما يصير المحب محبوباً إذا طهر قلبه عما سوى مولاه عزّ وجلّ، إذا تم توحيده وتوكله وإيمانه وإيقانه ومعرفته صار حينئذ محبوباً يذهب الشقاء وتجيئه الراحة.

من أحبّ بعض الملوك وبينه وبينه مسافة بعيدة غلب عليه الحبّ وخرج هائماً على وجهه قاصداً إلى بلده، يواصل الضياء بالظلام في السير، يتحمل المشاقّ والمخاوف، لا يهنأ بأكل ولا شرب حتى يصل إلى باب دراه وعند الملك خبر بحاله.

. فيخرج له غلمانه فيرحبون به، ويحملونه إلى الحمام فيزيلون وسخه ويلبسونه أحسن الثياب، ويطيبونه ويحضرونه بين يديه، فيؤانسه ويكلمه ويسأله عن حاله، ويزوّجه بأحسن جواريه، وينعم عليه من ملكه، ويصير محبوبه، فهل يبقى بعد ذلك خوف أو تعب أو تمني العودة إلى بلده؟ كيف يتمنى فراقه وقد صار عنده مكيناً أميناً؟

هذا القلب إذا وصل إلى الحق عزّ وجلّ صار ممكناً من قربه ومناجاته، آمناً عنده فلا يتمنى الرجوع عنه إلى غيره، ووصول القلب إلى هذا المقام بأداء الفرائض والصبر على الحرام والشهوات وتناول المباح والحلال، لا بالهوى والشهوة والوجود واستعمال الورع الشافي والزهد الكامل وهو ترك ما سوى الله عزّ وجلّ ومخالفة النفس والهوى والشيطان وطهارة القلب من الخلق في الجملة، واستواء الحمد والذم والعطاء والمنع والحجر والمدر.

أول هذا الأمر شهادة أن لا إله إلا الله، وانتهاؤه استواء الحجر والمدر؛ من صح قلبه واتصل بربه عزّ وجلّ استوى عنده الحجر والمدر والحمد والذم والسقم والعافية، الغنى والفقر، إقبال الدنيا وإدبارها، من صح له هذا ماتت نفسه وهواه، وانخمدت نائرة طبعه، وذلّ شيطانه له، تحتقر الدنيا وأربابها عند قلبه، وتعظم الآخرة وأربابها عنده، ثم يعرض عنهما ويقبل على مولاه عزّ وجلّ.

يصير لقلبه درب في وسط الخلق يجوز فيه إلى الحق، ينفردون له يميناً وشمالاً، يتنحون ويخلون الطريق له، يفرّون من نار صدقه وهيبة سرّه. من صح له هذا لا يردّه رادّ ولا يصدّه صادّ عن باب الحق عزّ وجلّ.

لا تردّ رايته ولا يهزم جيشه، ولا يسكت طيره، ولا يكل سيف توحيده، ولا تعيا خطوات إخلاصه، ولا يعسر عليه أمره، ولا يثبت بين يديه باب ولا غلق، تطير الأبواب والأغلاق وتنفتح الجهات، لا يقف بين يديه شيء حتى يقف بين يدي الرب، فهذا يلطف إليه وينومه في حجره، فيطعمه الفضل ويسقيه الأنس، فحينئذ يرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. رجوع هذا العبد إلى الخلق سبب هدايتهم

وملكهم، ويعمهم ملك هذا العبد الذي وصل إليه، والذي رآه وما سواه شغل الخلق يصير مطرقاً للخلق جهبذا سفيراً دالاً على باب الحق عزّ وجلّ، فحينئذ يدعي في الملكوت عظيماً يكون الخلق كلهم تحت أقدام قلبه ويستظلون بظله. لا تهذ، أنت تدعي ما ليس لك وما ليس عندك، أنت نفسك مستولية عليك والخلق والدنيا كلها في قلبك، هما في قلبك أكبر من الله عزّ وجلّ، أنت خارج عن حدّ القوم وعدهم.

إن أردت الوصول إلى ما أشرت إليه فاشتغل بطهارة قلبك عن الأشياء كلها، امتثل الأوامر وانته عن النواهي، واصبر مع القدر، وأخرج الدنيا من قلبك، وبعد هذا تعال إليّ حتى أتكلم معك وأخبرك بما وراء ذلك، إن فعلت هذا حصل لك الذي تريد، وقبل هذا فالكلام هذيان.

(ويحك) أنت تعوزك لقمة، تضيع منك حبة أو ينكسر لا إله إلا الله عرض تقوم قيامتك وتعترض على الله عزّ وجلّ، وتخرج غيظك في ضرب زوجتك وولدك، وتسب دينك ونبيك، لو كنت عاقلاً من أهل اليقظة والمراقبة لخرست بين يدي الله عزّ وجلّ، ولرأيت جميع أفعاله نعمة في حقك ونظراً لك، إذا وقفت ولم تنازع وشكرت ولم تفكر ورضيت ولم تسخط وسكت ولم تشك يقال لك:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[1].

يا مستعجل اصبر وقد أكلت طيباً هنيئاً، أنت ما تعرف الله عزّ وجلّ، لو عرفته ما شكوت منه إلى غيره، لو عرفته لخرست بين يديه ولم تطلب منه ولم تلح عليه بدعائك بل كنت توافقه وتصبر معه.

كن عاقلاً ما تحتاج إلى تزكية، كل فعلة ومصلحة يبتليك لينظر كيف تعمل، يختبرك هل أنت واثق بوعده؟ هل أنت عالم بأنه ناظر إليك وعليم بك؟ أما تعلم أن الزوكاري إذا كان في دار الملك وطلب البذل كان سفاهة منه وشرها يخرج في الحال من الدار ويقال له هذا يحتاج إلى الطلب.

لا يكمل إيمان المؤمن وفي قلبه حرص ولا شره ولا طلب، ولا من يخافه ويرجوه من الخلق، هذا يصح له بالفكر الدائم والنظر إلى الأصول والفروع بالتفكير في أحوال

---

(١) سورة الزمر آية: ٣٦.

النبيين والمرسلين والصالحين، وكيف استنقذهم الحق عزّ وجلّ من أيدي الأعداء ونصرهم عليهم وجعل لهم من أمورهم فرجاً ومخرجاً. بالفكر الصحيح يصح التوكل، وتغيب عن القلب، وينسى الجن والإنس والملك وجميع الخلق، ويذكر الحق عزّ وجلّ.

يصير صاحب هذا القلب، كأنه لم يخلق غيره، يصير كأنه المأمور دون الخلق، كأنه المنهي دونهم، هو المنعم عليه دونهم، كأن التكاليف كلها على عنق سرّه وقلبه، يرى جبال التكاليف على اختلاف أجناسهم أنها رسالة من المكلف فيحملها تحقيقاً للعبودية والطواعية.

يصير حاملاً للخلق والخالق يحمله، يصير طبيباً لهم، وربه عزّ وجلّ طبيبه، يصير باب الخلق إلى الحق عزّ وجلّ وسفيراً بينهم وبينه، يصير شمساً يستضيئون به في طريقهم إليه، يصير طعام الخلق وشرابهم فلا يغيب عنهم، يصير كل نعمه مصالحهم وينسى نفسه، يصير كأن لا نفس له ولا طبع ولا هوى، ينسى طعامه وشرابه ولباسه، يصير ناسياً لنفسه ذاكراً الخلق ربه عزّ وجلّ، يخرج بقلبه عن نفسه والخلق ويبقى بربه عزّ وجلّ، كل طلبه نفع الخلق، قد سلم نفسه إلى يد قضاء ربه عزّ وجلّ، هو ناحية عنه بكليته، هذه صفة من يريد الوقوف في استجلاب الخلق إلى باب الحق عزّ وجلّ.

أنت مهووس جاهل بالله عزّ وجلّ وبرسله وأوليائه وخواصه من خلقه، تدعي الزهد وأنت راغب، زهدك زمن لا أقدام له، كل رغبتك في الدنيا والخلق، لا رغبة لك في ربك عزّ وجلّ.

دونك والقيام بين يدي، قدّم حسن الظن والأدب حتى أدلك على ربك عزّ وجلّ وأعرفك الطريق إليه، انزع عنك لباس الكبر والبس لباس التواضع، ذلّ حتى تعزّ، وتواضع حتى ترتفع، جميع ما أنت فيه وعليه كله هوس لا ينظر الله عزّ وجلّ إليه، هذا الأمر لا يجيء بأعمال الجسد وإنما يجيء بأعمال القلوب ثم أعمال الجسد، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يقول:

(الزهد هنا التقوى هنا الإخلاص هنا ويشير إلى صدره).

من أراد الفلاح فليصر أرضاً تحت أقدام الشيوخ، ما صفة هؤلاء الشيوخ؟ هم التاركون للدنيا والخلق، المودعون لهما، المودعون لما تحت العرش إلى الثرى، الذين تركوا

الأشياء وودعوها وداع من لا يعود إليها قط، وذعوا الخلق كلهم ونفوسهم من جملتهم، وجودهم مع ربهم عزّ وجلّ في جميع أحوالهم.

كل من يطلب محبة الحق عزّ وجلّ مع وجود نفسه فهو في هوس وهذيان. الأكثر من المتزهدين المتعبدين عبيد الخلق مشركون بهم، لا تتكلموا على الأسباب وتشركوا بها وتعتمدوا عليها فيغضب عليكم الحق عزّ وجلّ الذي هو مسبب الأسباب الخالق لها المتصرف فيها، اعتقاد المتبعين لكتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن السيف لا يقطع بطبعه، بل الله عزّ وجلّ يقطع به، وإن النار لا تحرق بطبعها بل الله عزّ وجلّ المحرق بها، وإن الطعام لا يشبع بطبعه به الله عزّ وجلّ يشبع به، وإن الماء لا يروي بطبعه بل الله عزّ وجلّ المروي به، وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها الله عزّ وجلّ المتصرّف فيها وبها، وهي له بين يديه يفعل بها ما يشاء.

إذا كان هو الفاعل على الحقيقة فلم لا ترجعون إليه في جميع أموركم وتتركون حوائجكم وتلزمون التوحيد له في جميع أحوالكم؟ أمره ظاهر لا يخفى على كل عاقل:

العَبْدُ يُضرَبُ بالعَصا والحُرُّ تكفيهِ الإشارَة

أطيعوه فإنه يعزّ من أطاعه، لا تعصوه فإنه يذلّ من عصاه، النصر والخذلان بيده، يعزّ بالنصر من يشاء ويذلّ بالخذلان من يشاء، يعزّ بالعلم من يشاء ويذلّ بالجهل من يشاء، يعزّ بالقرب من يشاء ويذلّ بالبعد من يشاء.

المجلس الحادي والستون

[خواطر الإنسان]

وقال رضي الله عنه في المدرسة في عشرين من شهر رجب سنة ست وأربعين وخمسمائة بعد كلام:

سأله سائل عن الخواطر، فقال: ما يدريك ما الخواطر؟ خواطرك من الشيطان والطبع والهوى والدنيا، همك ما أهمك، خواطرك من جنس همك، ما يعمل خاطر الحق عزّ وجلّ، لا يجيء إلا قلب خال عما سواه كما قال:

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾[1].

إذا كان الله عزّ وجلّ وذكره عندك، فلا جرم يمتلئ قلبك من قربه وتهرب خواطر الشيطان والهوى والدنيا من عندك، للدنيا خاطر وللآخرة خاطر، للملك خاطر وللنفس خاطر، وللقلب خاطر وللحق عزّ وجلّ خاطر.

فتحتاج أيها الصادق إلى دفع جميع الخواطر والسكون إلى خاطر الحق عزّ وجلّ، إذا أعرضت عن خاطر النفس وخاطر الهوى وخاطر الشيطان وخاطر الدنيا جاءك خاطر الآخرة ثم جاءك خاطر الملك ثم خاطر الحق عزّ وجلّ أخيراً وهو الغاية.

إذا صح قلبك وقف عندالخاطر وقال له: أيّ خاطر أنت وممّ أنت؟ فيقول له: أنا خاطر كذا وكذا، أنا خاطر حقّ من الحقّ، أنا ناصح محب، الحق عزّ وجلّ يحبك فأنا أحبك، أنا السفير، أنا حظك من حال النبوّة.

(يا غلام) تعرّض لمعرفة الله عزّ وجلّ فإنها أصل كل خير، إذا أكثرت من طاعته أعطاك معرفته، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(إذا أطاع العبد ربه عزّ وجلّ أعطاه معرفته، فإذا ترك طاعته لم يسلبها منه، بل يبقيها في قلبه ليحتج بها عليه يوم القيامة، يقول له: ميزتك بمعرفتي، وتفضلت عليك بها، لم لم تعمل بما علمت؟).

(يا غلام) ما يقع بيدك من الحق عزّ وجلّ شيء بنفاقك وفصاحتك وبلاغتك

---

(١) سورة يوسف آية: ٧٩.

وتصفير وجهك وترقيع مرقعتك وجمع أكنافك وتوكيلك، كل ذلك من نفسك وشيطانك وشركك بالخلق وطلب الدنيا منهم.

وبعد كلام: أحقر نفسك واكتم أمرك، وكن على ذلك إلى أن يقال لك تحدث بنعمة ربك.

كان ابن شمعون رحمة الله عليه إذا جاءته الكرامة يقول: هذه خدعة، هذه من الشيطان، ودام على ذلك حتى قيل له: من أنت ومن أبوك؟ تحدث بنعمتنا عليك.

وقال موسى عليه السلام في مناجاته لربه عزّ وجل: يا رب أوصني، فقال له: أوصيك بي ويطلبي، وكرر ذلك عليه أربع مرات، في كل مرة يقول له ذلك ويجيبه مثل الأول. ما قال له اطلب الدنيا ولا اطلب الآخرة، كأنه يقول له: أوصيك بطاعتي وترك معصيتي، أوصيك بطلب قربي، أوصيك بتوحيدي والعمل لي، أوصيك بالإعراض عما سواي، إذا صح القلب وعرف الحق عزّ وجلّ أنكر غيره واستأنس به واستوحش من غيره واستراح معه وتعب مع غيره.

اللهم اشهد لي أني مبالغ في مواعظ عبادك مجتهد في صلاحهم، أنا ناحية عن جميع ما أنا فيه، أنا خارج عنه كخروجكم عنه من حيث المعنى والسرّ، لا كرامة لي أن أكون معه في شيء من تدبيره وتصاريفه.

يا أصحاب الصوامع والزوايا تعالوا ذوقوا من كلامي ولو حرفاً واحداً، اصحبوني يوما أو أسبوعاً لعلكم تتعلمون شيئاً ينفعكم، ويحكم الأكثر منكم هوس في هوس، تعبدون الخلق في صوامعكم،هذا الأمر لا يجيء بمجرد القعود في الخلوات مع الجهل.

ويلك امش في طلب العلم والعلماء العمال حتى لا يبقى مشي، امش حتى لا تطاوعك ساقاك، فإذا عجزت فاقعد، سر بظاهرك ثم بقلبك ومعناك، إذا عييت ظاهراً وباطناً ووقفت جاءك القرب من الله عزّ وجلّ والوصول إليه، إذا انقطعت خطوات قلبك وذهب قواك في السير إليه كان ذلك علامة قربك منه، فحينئذ سلم واستطرح، إما يبنى لك صومعة في البرية، أو يقعدك في الخراب، أو يردك إلى العمران ويوقف الدنيا والآخرة والجن والإنس والملك والأرواح في خدمتك؟ إذا صح القرب لعبد أتته الولاية والنيابة وعرض عليه جميع ما في الخزائن وتشفع له الأرض والسماء ومن فيهما لمكانه من الملك ولصفاء باطنه وسرّه ونور قلبه، لا يكون الإسلام والإيمان عندك عارية، بهذا

يكثر خوفك وصومك وصلواتك وسهرك، بهذا هام القوم على وجوههم والتحقوا بالوحش وزاحموهم في حشائش الأرض وماء الغدران، وصار ظلامهم الشمس ومصباحهم القمر والكواكب، دعوا أكثر الهذيان والقال والقيل وإضاعة المال.

لا كثروا من القعود مع الجيران والأصدقاء والمعارف لغير سبب فإن ذلك هوس، أكثر ما يجري الكذب والغيبة بين اثنين، والمعصية إنما تتم بين اثنين.

لا يخرج أحد منكم من بيته إلا إلى ما لا بد له منه من مصالحه ومصالح أهله، اجتهد أن لا تبدأ بالكلام، بل يكون كلامك جواباً، إذا سألك سائل عن شيء فإن كان جوابه مصلحة لك وله، وإلا فلا تجبه، القوم يخافون ربهم عزّ وجلّ في جميع الأحوال: ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[1].

يخافون أن يؤخذوا على غرة، يخافون أن يكون الإيمان عندهم عارية.أحاد أفراد منهم يأتيهم من الله مننه ونعمه فتدخل قلوبهم في باب قربه، يؤذن لهم بالدخول عليه، يوليهم ويتولاهم، يصيرهم من أوليائه وأبدال أنبيائه وأعيان خلقه، يصيرهم من شيوخ عباده وسلاطينهم، يستنيبهم في الأرض، يستخلفهم فيها ويجعلهم من مفرديه، يعلمهم من علمه وينطقهم بحكمه ويكرمهم بكرامته ويمدهم بإمداده، يعرفهم ما لهم وعليهم، يرسخ قدم الإيمان في قلوبهم، ويجعل تاج المعرفة على رأس إيمانهم.

القدر يخدمهم، والإنس والجن والملائكة قيام بين أيديهم، التواقيع تأتي قلوبهم وأسرارهم، كل واحد منهم ملك في نفسه، قاعد على سرير سدة مملكته، ويبث جنده في الأرض لإصلاح الخلق مناقضة لفعل إبليس.

(يا قوم) اتبعوا آثار القوم، لا يكن همكم الأكل والشرب واللبس والنكاح وجمع الدنيا، فالأنبياء عليهم السلام همهم العبادة وترك العادة، اطلبوا بابه وخيموا هناك، لا تهربوا من باب الحق عزّ وجلّ لأجل الآفات، فإنه ينبهكم بالبلاء والآفات والأمراض والأوجاع لتطلبوه ولا تبرحوا بابه، لا تكونوا من الذين يتخبطون ولا يدرون ما يريد الحق عزّ وجلّ منهم، اعبدوه ثم أخلصوا في عبادته، أما سمعتموه كيف قال:

---

(١) سورة المؤمنون آية: ٦٠.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

قد تحققتم هذا وعلمتموه، فلم تتركون عبادته وتتخبطون في الطريق إليه؟ كل من لا يعبد الله عزّ وجلّ فهو من الذين لا يدرون لم خلقوا؟ الذين هم على قدم التحقيق والحقيقة، قد علموا أنهم خلقوا للعبادة وأنهم يموتون ثم يحيون فهم يحققون العبودية.

(يا غلام) ثم أمور باطنه لا تنكشف إلا بعد الوصول إلى الحق عزّ وجلّ والقيام على بابه ولقاء المفردين والنواب الوقوف هناك، أما صرت إلى باب الحق عزّ وجلّ وأدمت الوقوف مع حسن الأدب والإطراق؟ فتح الباب في وجه قلبك، وجذبه من جذب، وقربه من قرب، ونوّمه من نوم، وزفه من زف، وكحله من كحل، وحلاه من حلى، وفرّحه من فرح، وآمنه من آمن، وحدثه من حدث، وكلمه من كلم. يا غافلين عن النعيم أين أنتم؟ ما أبعد قلوبكم عن الأمر الذي أشير إليه، تظنون أن الأمر سهل حتى يحصل لكم بالتصنع والتكلف والنفاق، يحتاج هذا الأمر إلى الصدق والصبر على مطارق القدر، إذا كنت غنياً معافى مشغولاً بمعصية الحق عزّ وجلّ فتبت عن جميع المعاصي والزلات ما ظهر منها وما بطن وصرت في الصحاري والبراري وطلبت وجه الله عزّ وجلّ جاءك الاختبار، جاءتك البلايا فتطلب نفسك ما كانت فيه من الدنيا والعافية، فلا تقبل منها وتعطيها ذلك، فإن صبرت حصل لك ملك الدنيا والآخرة، وإن لم تصبر فاتها ذلك. يا تائب وأخلص وقرّر مع نفسك انقلاب الأمر ومجيء البلايا، قرّر معها أن الحق عزّ وجلّ يسهر ليلها ويظمئ نهارها ويوقع بينها وبين الأهل والجيران والأصدقاء والمعارف، وأنه يوقع في قلوبهم المقت لها، وأنه لا يقربها أحد منهم ولا يدنو منها.

أما سمعت قصة أيوب عليه السلام لما أراد الله عزّ وجلّ تحقيق محبته واصطفائه وأن لا يبقى لغيره فيه حظ؟ كيف أفرده من ماله وأهله وولده وأتباعه، وأقعده في كوخ على مزبلة خارجاً عن العمران، ولم يبق عنده من أهله سوى زوجته تخدم الناس وتأتيه بقوته، ثم أذهب لحمه وجلده وقوته وأبقى عليه سمعه وبصره وقلبه؟ أرى عجائب قدرته فيه، فكان يذكره بلسانه ويناجيه بقلبه، ويرى عجائب قدرته ببصره وروحه تتردد في جسده.

---

(١) سورة الذاريات آية: ٥٦.

وكانت الملائكة تصلي عليه وتزوره، وانقطع عن الإنس واتصل به الأنس، انقطعت عنه الأسباب والحول والقوى، وبقي أسير محبته وقدره وإرادته وسابقته، كان أمره صبراً ثم صار في الانتهاء عياناً، كان الأول مراً وصار الثاني حلواً، طاب العيش في بلائه كما عيش إبراهيم عليه السلام في ناره.

القوم يتعودون الصبر على البلاء ولا ينزعجون مثل انزعاجكم، البلايا تختلف: منها في البنية، ومنها في القلب، ومنها مع الخلق، ومنها مع الخالق، لا خير فيمن لم يؤذ. البلايا خطاطيف الحق عزّ وجلّ. نهمة العابد الزاهد في الدنيا الكرامات، وفي الآخرة الجنات، ونمهة العارف بقاء الإيمان عليه في الدنيا، والخلاص مع نار الله عزّ وجلّ في الآخرة.

لا يزال نهمته وشهوته في هذا حتى يقال لقلبه ما هذا؟ اسكن واثبت، الإيمان ثابت عندك، ومنك يقتبس المؤمنون نوراً لإيمانهم، وأنت غداً مشفع مقبول القول، تكون سبباً لخلاص خلق كثير من النار، تكون بين يدي نبيك الذي هو سيد الشافعين، اشتغل بغير هذا.

هذا توقيع ببقاء الإيمان والمعرفة والسلامة في العاقبة والمشي مع النبيين والمرسلين والصديقين الذين هم الخواص من الخلق، فكلما كرر عليه الأمن ازداد خوفاً وحسن أدب وزيادة من الشكر، القوم عقلوا معنى قوله عزّ وجلّ:

﴿ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[1] وقوله: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾[2]. وقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[3].

عقلوا أنه فعال لما يريد لا لما يريد الخلق، وأنه كل يوم هو في شأن، يقدم ويؤخر ويرفع ويضع ويعزّ ويذل، ويعزل ويولي ويميت ويحيي ويغني ويفقر ويعطي ويمنع، لا قرار لقلوب القوم مع الله عزّ وجلّ، يغربهم ويبدلهم، يقربهم ويبعدهم، يقيمهم ويقعدهم، يعزّهم ويذلهم، يعطيهم ويمنعهم، الأحوال تغير على القوم وهم على قدم تحقيق العبودية وحسن الأدب والإطراق.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٣.

(٢) سورة الأنبياء آية: ٢٣.

(٣) سورة التكوير آية: ٢٩.

اللهم ارزقنا الأدب معك ومع خواصك من خلقك، لا تبتلينا بالتعلق بالأسباب والاعتماد عليها، ثبت علينا توحيدنا لك وتوكلنا عليك وتغنينا بك، ورد الحوائج إليك، لا تبتلنا بأقوالنا وأعمالنا ولا تؤاخذنا بها، عاملنا بكرمك وتجاوزك ومسامحتك آمين.

طريق الحق ليس فيها خلق، ليس فيها سبب، ليس فيها معلوم، ليس فيها جهة وباب، ليس فيها وجود الخلق، البنية مع الدنيا والقلب مع الأخرى، والسرّ مع المولى. السرّ حاكم على القلب، والقلب حاكم على النفس المطمئنة، والنفس المطمئنة حاكمة على البنية، والجوارح حاكمة على الخلق، إذا صح هذا وتمّ للعبد صار الجنّ والإنس والملك تحت أقدامه، فيصير الكلّ قياماً وهو قاعد في دست القرب.

يا منافق ما يقع هذا بيدك بنفاقك وتصنعك، أنت تربي ناموسك، تربي قبولك في قلوب الخلق، تربي قبلة يدك، أنت مشئوم على نفسك في الدنيا والآخرة وعلى من تربيه وتأمره باتباعك، أنت مراء دجال ونصاب على أموال الناس، لا جرم لا تكون لك دعوة مجابة ولا موضع في قلوب الصديقين، قد أضلك الله على علم. سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار؟ إذا انجلى الغبار ترى رجال الحق عزّ وجلّ على الخيول والنجب وأنت على حمار مكسر من ورائهم يأخذك دعار الشياطين والأبالسة.

اجتهدوا أن لا يغلق عن قلوبكم باب قربه، كونوا عقلاء ما أنتم على شيء، اصحبوا شيخاً عالماً بحكم الله عزّ وجلّ وعلمه يدلكم عليه، من لا يرى المفلح لا يفلح، من لا يصحب العلماء العمال فهو من نبض التراب لا دليل له، لا أم له، اصحبوا من له مع الحق عزّ وجلّ، كل واحد منكم إذا جنه الليل ونام الخلق وسكنت أصواتهم فليقم وليتوضأ وليصلّ ركعتين ويقول: يا رب دلني على عبد من عبادك الصالحين المقربين حتى يدلني عليك ويعرفني طريقك.

السبب لا بد منه، كان الله عزّ وجلّ قادراً على أن يهدي إليه بلا أنبياء، كونوا عقلاء، ما أنتم على شيء، تنبهوا من غفلاتكم، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(من استغنى برأيه ضلّ).

فتش على من يكون مرآة لوجه دينك، كما تنظر في المرآة وتسوى وجه ظاهرك وعمامتك وشعرك، كن عاقلاً، إيش هذا الهوس؟ تقول ما أحتاج إلى من يعلمني، وقد

قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(المؤمن مرآة المؤمن).

إذا صح إيمان المؤمن صار مرآة للخلق جميعهم، يبصرون وجوه أديانهم في مرآة كلامه وقت رؤيته والقرب منه، إيش هذا الهوس؟ كل ساعة تسألون الله عزّ وجلّ أن يزيدكم في ماكولكم ومشروبكم وملبوسكم ومنكوحكم وارزاقكم، هذا شيء لا يزيد ولا ينقص، ولو دعا معكم كل داع مجاب الدعوة ما يزيد الرزق ذرة ولا ينقص منه ذرة، هذا شيء مفروغ منه.

اشتغلوا بما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه، لا تشغلوا بما لا بد من مجيئه لأنه يضمن لكم مجيئه، الأقسام تجيء في أوقاتها المؤرّخة، الحلو منها والمرّ، ما تحبون وما تكرهون، القوم يصلون إلى حالة لا يبقى لهم فيها دعاء ولا سؤال، لا يسألون في جلب المصالح ولا دفع المضارّ، يصير دعاؤهم يأمر من حيث قلوبهم، تارة لأجلهم وتارة لأجل الخلق، فينطقون بالدعاء وهم في غيبة عنه.

اللهم ارزقنا حسن الأدب معك في جميع الأحوال، يصير الصوم والصلاة والذكر وجميع الطاعات جبلته، مختلطة بلحمه ودمه، ثم يجيئه الحفظ من الله عزّ وجلّ في جميع أحواله، لا يفارقه قيد الحكم ولا لحظة، وهو من وراء ذلك، يصير الحكم كالمركب وهو قاعد فيه، يسير في بحر قدرة ربه عزّ وجلّ، ولا يزال يسير فيه حتى يصل إلى ساحل الآخرة، إلى ساحل بحر اللطف ويد القرب فهو تارة مع الخلق وتارات مع الخالق، شغله وتعبه مع الخلق وراحته مع الخالق.

(ويلك) يا منافق ما عندك من هذا خبر؟

(ويلك) ليس في أمرك من هذا شيء، يا قعوداً في الصوامع والخلق ملء قلوبهم، ما تسمعون صراخي عليكم واليكم، أبكم صم؟ قوموا تعالوا، لا بأس ما أعلمكم وآخاطبكم بسوء أدبكم وأفعالكم، بل آرفق بكم برفق الله عزّ وجلّ بإذنه، ولا تهربوا من خشونة كلامي فما ذلك مني، إني أنطق بما أنطق به.

(يا غلام) القوم يواصلون الضياء بالظلام في عبادة الحق عزّ وجلّ وهم على قدم الخوف والحذر يخافون من سوء العاقبة، جهلوا علم الله عزّ وجلّ فيهم وعاقبة أمرهم، فواصلوا الضياء بالظلام حزناً وبكاء، مع دوام الصلاة والصيام والحج وجميع الطاعات،

ذكروا ربهم عزّ وجلّ بقلوبهم وألسنتهم، فلما وصلوا إلى الآخرة دخلوا الجنة، رأوا وجه الحق عزّ وجلّ وكرامته لهم، حمدوه على ذلك وقالوا:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾[١].

ولله عزّ وجلّ عباد وهم أساتذة وهؤلاء وشيوخهم ورؤساءهم وأمراؤهم وملوكهم يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن في الدنيا قبل الآخرة، إذا وصلت قلوبهم إلى باب ربهم عزّ وجلّ فصادفوه مفتوحاً والمواكب مزدحمة لهم قيام مصطفون منتظرون لمجيئهم، يسلمون عليهم ويطرقون بين أيديهم، فيدخلون إلى دار القرب فيرون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا حزن البعد، حزن الحجاب، الحمد لله كيفما أشغلنا بالدنيا والآخرة والخلق، الحمد لله الذي أصطفانا لنفسه واختارنا لقربه وأذهب عنا حزن الانقطاع عنه، حزن الاشتغال بغيره، الحمد لله الذي رزقنا الانقطاع إليه.

﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[٢].

(يا غلام) إذا أحكمت الإيمان وصلت إلى دار المعرفة، ثم إلى وادي العلم، ثم إلى وادي الفناء عنك وعن الخلق، ثم إلى الوجود به لا بك ولا بهم، فحينئذ يزول حزنك، فالحفظ يخدمك، والحمية تحوطك، والتوفيق يطرق بين يديك، والملائكة تمشي حولك، والأرواح تأتيك تسلم عليك، والحق عزّ وجلّ يباهي بك الخلق، ونظراته ترعاك وتجذبك إلى دار قربه والأنس به والمناجاة له.

خاب من قعد عني من غير عذر. ويلك تزاحمني في مقامي الذي قد أقمت فيه، ما تقدر، ما يقع بيدك شيء بمزاحمتك، هذا شيء ينزل من السماء إلى الأرض، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[٣].

الغيث ينزل من السماء إلى الأرض ثم يظهر منها النبات، هذا الأمر ينزل من

---

(١) سورة فاطر آية: ٣٤.

(٢) سورة فاطر آية: ٣٤.

(٣) سورة الحجر آية: ٢١.

السماء إلى أرض القلوب فتهتز وتنبت من كل خير، تنبت الأسرار والحكم والتوحيد والتوكل والمناجاة والقرب من الله عزّ وجل، يصير هذا القلب فيه أشجار وأثمار، يصير فيه فيافي وقفار وبحار وأنهار وجبال، يصير مجمع الإنس والجن والملائكة والأرواح، هذا من وراء العقول، قدرة محضة وإرادة وعلم يستأثره الله عزّ وجل، وهو لآحاد أفراد من خلقه.

اجتهدوا في أن تقعوا في شبكة كلامي، فعودي وكلامي شبكة أنتظر وقوع واحد منكم فيها، إنما السماط للحق عزّ وجلّ لا سماطي.

أجيبوني رحمكم الله، اتبعوني حتى أحملكم إلى باب الحق عزّ وجل. الصدق داعي الحق عزّ وجلّ والكذب داعي الشيطان، الحق شيء والباطل شيء، وكلاهما ظاهران عند كل مؤمن ينظر بنور إيمانه. تدعون الذكاء يا أهل العراق وأنتم يخفى عليكم الصادق من الكاذب، المحق من المبطل. ضرر تكذيبكم عائد عليكم وأنا لا أبالي بذلك، المريد للحق عزّ وجلّ لا يريد جنته ولا يخاف من ناره، بل يريد وجهه فحسب، يرجو قربه منه ويخاف من بعده عنه، أنت أسير الشيطان والهوى والنفس الدنيا والشهوات وما عندك خبر، قلبك في قيد وما عندك خبر.

اللهم خلصه من أسره وخلصنا آمين.

عليكم بالعزيمة والإعراض عن الرخصة، من لزم الرخصة وترك العزيمة خيف عليه من هلاك دينه، العزيمة للرجال لأنها ركوب الخطر والأشقّ والأمر، والرخصة للصبيان والنسوان لأنها الأسهل.

(يا غلام) عليك بالصف الأول لأنه صف الرجال الشجعان، وفارق الصف الأخير فإنه صف الأجبان، استخدم هذه النفس وعودها العزيمة فإنها ما حملتها تتحمل، لا ترفع العصا فإنها تنام وتلقى الأحمال عنها، لا ترها بياض أسنانك وبياض عينيك، هي عبد سوء لا يعمل الأشغال إلا بالعصا، لا تشبعها إلا إذا علمت أن الشبع لا يطغيها وأنها تعمل في مقابلة شبعها.

كان سفيان الثوري رحمة الله عليه كثير الطاعة كثير الأكل، وكان يمثل إذا شبع أشبع الزنجي وكده، إنما الزنجي حمار، ثم يقوم إلى العبادة فيأخذ منها حظاً وافراً.

عن بعضهم أنه قال: رأيت سفيان الثوري أكل حتى مقته، ثم صلى وبكى حتى

رحمته، لا تقتد بسفيان في كثرة الأكل واقتد به في كثرة عبادته فلست سفيان، لا تشبع نفسك كما كان يشبعها فلست تملكها كما كان هو يملك نفسه.

اجتهد في هجر الحرام والتقلل من الحلال، ازهد في الكل عند قوة إيمانك وإيقانك فتصير من عباد الله عزّ وجلّ، إذا تحقق زهدك أعطاك وأنعم عليك، إما بواسطة أو يجعل التكوين في يد قلبك.

لا كلام حتى تصير من عباد الله عزّ وجلّ، لا من عباد الخلق والأسباب، لا من عبيد الدنيا والحظوظ والشهوات والشياطين، لا من عبيد حبّ الجاه عند الخلق والتقييد بإقبالهم وإدبارهم وحمدهم وذمهم، هذا شيء لا يصلح.

ما يمشي قلبك إلى باب الحق عزّ وجلّ خطوة واحدة وأنت مع نفسك في بيت طبعك وهواك، إني أراك أبد الدهر مقيداً بالخلق والأسباب، هذا إلى متى؟ تعلم مني الخلاص من قيودهم.

يا جاهلاً كيف يرى قلبك الحق عزّ وجلّ وهو ملآن بالخلق، كيف ترى باب الجامع وأنت قاعد في بيتك؟ إذا خرجت من دارك، وأهلك وولدك رأيت باب الجامع، لما استخلفت الكلّ وراء ظهرك رأيت هكذا، ما دمت مع الخلق لا ترى الخالق، ما دمت مع الدنيا لا ترى الآخرة، ما دمت مع الآخرة لا ترى ربّ الدنيا والآخرة، إذا خرجت عن الكلّ لقي سرّك ربك عزّ وجلّ، لا من حيث الصورة، بل من حيث المعنى، العمل للقلوب والمعاني للأسرار، القوم أعرضوا عن أعمالهم نسوا جميع حسناتهم ولم يطلبوا العوض عليها، فلا جرم أحلهم دار المقامة من فضله، لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب، ولا انقطاع ولا ضعف، ليس فيها كسب ولا مؤنة.

قال بعض المفسرين في قوله تعالى:

﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾[1].

يعني هم الخبز وتحصيله ومؤنة العيال، الجنة فضل كلي، خير كلي، راحة كلية، عطاء بلا حساب، كل الدائرة على حضور قلبك لله لا لعلة في الدنيا ولا في الآخرة ولا لخلقه، حضور قلبك لله عزّ وجلّ لا يصح إلا بعد الموت والتحقيق لذكره، إن نظرت

---

(١) سورة فاطر آية: ٣٥.

نظرت إلى الموت، وإن سمعت سمعت الموت، ذكر الموت على الحقيقة باليقظة التامة، تبغض كل شهوة وتقف في وجه كل فرحة، اذكروا الموت فليس لكم عنه فوت.

إذا صح القلب نسي ما سوى الحق عزّ وجلّ، القديم الأزلي الدائم الأبدي كل ما سواه محدث. إذا صح القلب صار الكلام الذي يخرج منه صواباً حقاً لا يرده راد، يخاطب القلب القلب، السرّ السرّ، الجلوة الجلوة، المعنى المعنى، اللبّ اللبّ، الصواب الصواب، فحينئذ يكون الكلام منه إلى القلوب كالبذر في أرض لينة طيبة غير سبخة ينبت.

إذا صح القلب صار شجرة لها أغصان وأوراق وثمار، يصير فيه منافع للخلق، إذا لم يكن للقلب صحة فهو كقلوب الحيوانات صورة بلا معنى، آنية بلا ملء. الإنس والجن والملك شجرة بلا ثمر، قفص بلا طائر، دار بلا ساكن، كنز مجموع فيه دراهم ودنانير وجواهر بلا منفق، جسد بلا روح كالأجساد التي مسخت أحجاراً، فهي صورة بلا معنى.

القلب المعرض عن الله عزّ وجلّ الكافر به ممسوخ، ولهذا شبه الله عزّ وجلّ بالحجر فقال:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[1].

لما لم يعمل بنو إسرائيل بالتوراة مسخ الله عزّ وجلّ قلوبهم حجارة وطردهم من بابه، هكذا أنتم يا محمديين، إذا لم تعملوا بالقرآن وتحكموا أحكامه يمسخ قلوبكم ويطردها من بابه، لا تكونوا ممن أضله الله عزّ وجلّ على علم. إذا تعلمت للخلق عملت للخلق، وإذا تعلمت لله عزّ وجلّ عملت له، إذا تعلمت للدنيا عملت للدنيا، وإذا تعلمت للآخرة عملت للآخرة، الفروع تبنى على الأصول (كما تدين تدان) . كل إناء ينضح بما فيه. تضع في إنائك نفطاً وتريد أن ينضح منه ماء الورد؟ لا كرامة لك، تعمل في الدنيا للدنيا ولأبنائها وتريد أن تكون لك الآخرة، غداً لا كرامة لك، عملت للخلق وتريد أن يكون لك الخالق غداً والقرب منه إليه لا كرامة لك.

هذا هو الظاهر والأغلب، وإن أعطاك هو تفضلاً بغير عمل فذاك إليه. الطاعة عمل الجنة. والمعصية عمل النار، وبعد ذلك الأمر إليه، إن شاء أثاب واحداً منا بغير عمل، أو عاقب واحداً منا بغير عمل، فذاك إليه:

---

(١) سورة البقرة آية: ٧٤.

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾(١) ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾(٢).

لو أدخل واحداً من الأنبياء والصالحين النار كان عادلاً، وكان ذلك الحجة البالغة، يجب علينا أن نقول صدق الأمير ولا نقول: لم وكيف؟ هذا يجوز أن يكون، ولو كان كان عن عدل وحق، وهو شيء لا يكون ولا يفعل شيء من ذلك.

اسمعوا مني واعقلوا ما أقول، فإني غلام من تقدم، أقف بين أيديهم وأنشر أمتعتهم وأنادي عليها ولا أخونهم فيها، ولا أدعيها ملكاً أبداً بكلامهم، وأنني من عندهم والبركة من الله عزّ وجلّ، أهلني الله عزّ وجلّ ببركات متابعتي للرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وبرّي بوالدي ووالدتي رحمهما الله عزّ وجلّ.

والدي زهد في الدنيا مع قدرته عليها، ووالدتي وافقته على ذلك ورضيت بفعله، كانا من أهل الصلاح والديانة والشفقة على الخلق وما على منهما ولا من الخلق، أتيت إلى الرسول والمرسل بهما أنتجح، كل خيري ونعمتي معهما وعندهما، ما أريد من الخلق سوى محمد صلى الله عليه وسلم، ومن الأرباب غير ربي عزّ وجلّ.

يا عالم كلامك من لسانك لا من قلبك، من صورتك لا من معناك. القلب الصحيح يهرب من الكلام الذي يخرج من اللسان دون القلب، فيصير وقت سماعه كالطير في القفص وكالمنافق في المسجد.

إذا اتفق واحد من الصديقين في مجلس واحد من العلماء المنافقين كانت كل أمنيته الخروج منه، للقوم علامات في وجه المرائين الدجالين المبتعدين أعداء الله عزّ وجلّ وأعداء رسوله، علامتهم في وجوههم وفي كلامهم، يفرّون من الصدّيقين كفرارهم من الأسد، يخافون أن يحترقوا بنار قلوبهم، الملائكة ترفعهم من الصدّيقين والصالحين، أحدهم عند العوام كبير، وعند الصدّيقين حقير، عند العوام آدمي، وعند الصديقين سنور لا وزن له عندهم.

الصدّيق ينظر بنور الله عزّ وجلّ لا بنور عينيه ولا بنور الشمس والقمر، هذا نور الله العام وله نور خاص أعطاه الله عزّ وجلّ، هذا النور بعد إحكام الحكم وإتقانه وهو الكتاب والسنة، عمل بهما فأعطى نور العلم.

---

(١) سورة هود آية: ١٠٧.

(٢) سورة الأنبياء آية: ٢٣.

اللهم ارزقنا حلمك وعلمك وقربك آمين.

لا بارك الله فيكم يا منافقون، فما أكثرهم، كل شغلكم في عمارة ما بينكم وبين الخلق، وتخريب ما بينكم وبين الحق عزّ وجلّ.

اللهم سلطني على رؤوسهم حتى أطهر الأرض منهم، علامة نفاق المنافق في هذا الزمان أن لا يدخل عندي ولا يسلم عليّ إذا لقيني، فإن فعل ذلك كان تكلفاً منه، هذا الدين أودى تتواقع حيطانه.

اللهم ارزقني أعواناً علة بنائه، ما يبني على أيديكم، يا منافقون لا كرامة لكم حتى يبنى على أيديكم، كيف تبنون وليست لكم صنعة البناء ولا آلته؟

يا جهال ابنوا حيطان أديانكم ثم تفرّغوا لبناء غيركم. إذا عاديتموني فقد عاديتكم في الله عزّ وجلّ ورسوله لأنني قائم بنصرتهما، لا تبغوا فإن الله غالب على أمره.

اجتهد إخوة يوسف عليه السلام على قتله فلم يقدروا، كيف كانوا يقدرون وهو ملك عند الله عزّ وجلّ ونبيّ من أنبيائه وصدّيق من صدّيقيه، وقد سبق عليه أن يجري مصالح الخلق على يديه؟

هكذا أنتم يا منافقي هذا الزمان، تريدون أن تهلكوني، لا كرامة لكم، أيديكم تقصر عن ذلك، لولا الحكم لعتبت عليكم واحداً واحداً. الحكم هو أساس الأمر في حالة القيام مع الحكم وفي حالة القيام مع العلم. القوم لا يخافون من الخلق لأنهم في جنب أمن الله عزّ وجلّ وتوليه وحفظه.

لا يبالون بأعدائهم لأنهم عن قريب يرونهم مقطعين الأيدي والأرجل والألسن، علموا وتحققوا أن الخلق عجز عدم، لا هلك بأيديهم ولا ملك، لا غنى بأيديهم ولا فقر، لا ضرّ بأيديهم ولا نفع، ولا ملك عندهم، إلا الله عزّ وجلّ، لا قادر غيره، ولا معطي ولا مانع، ولا ضارّ ولا نافع غيره، ولا محي ومميت غيره، هم في راحة من ثقل الشرك، هم في اصطفاء واجتباء في أنس بالله عزّ وجلّ، وفي راحة معه متلذذون بروحه ولطفه ومناجاته، لا يبالون كانت الدنيا أو لم تكن، كانت الآخرة أو لم تكن، كان الخير والشرّ أو لم يكن، في بداية أمرهم تكلفوا الزهد في الدنيا والخلق والشهوات.

فلما داموا على ذلك جعل الله عزّ وجلّ تكلفهم طبعاً وموهبة، صار الزهد زهداً والطبع طبعاً، تعلموا منهم، تكلفوا الطاعات واتركوا المعاصي والمنكرات، وقد صار التكلف طبعاً، تفهموا كلام ربكم عزّ وجلّ واعملوا به وأخلصوا في أعمالكم.

(يا غلام) أنت نفس وطبع وهوى، تقعد مع النسوان الأجانب والصبيان ثم تقول لا أبالي بهم، كذبت لا يوافقك الشرع ولا العقل، تضيف ناراً إلى نار، حطباً إلى حطب، فلا جرم يشتعل دار دينك وإيمانك.

إنكار الشرع لهذا عام لم يستثن فيه أحداً، حصل الإيمان والمعرفة بالله عزّ وجلّ وقوة القرب ثم أصبح طبيباً للخلق نيابة عن الحق عزّ وجلّ.

(ويلك) كيف تمسّ الحيات وتقلبها وأنت ما تعرف صنعة الحواء ولا أكلت الترياق؟ أعمى كيف تداوي أعين الناس؟ أخرس كيف تعلم الناس؟ جاهل كيف تقيم الدين؟ من ليس بحاجب كيف يقدم الناس إلى باب الملك؟ أنت جاهل بالله عزّ وجلّ وبقدرته وقربه وسياسته لخلقه، ما لا يعقل لي، وما يعقل لكم، ملا لا يضبط لي وما يضبط لكم، ما يعلم تأويله إلا الله عزّ وجلّ.

اسمعوا واقبلوا فإني داعي الملك نائب رسوله فيكم، أوقح الخلق في الدين، لا أستحي منكم في جانب الله عزّ وجلّ وجانب رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، أنا عاملهما زوكاري بين أيديهما، منتسب إليهما.

هذه الدنيا فانية ذاهبة، هي دار الآفات والبلايا، ما يصفو لأحد فيها عيش لا سيما إذا كان حكيماً، كما قيل: الدنيا لا تقرّ فيها عين حكيم، عين ذاكر الموت. من كان بحذائه فاتحاً فمه قريباً إليه كيف قراره وتنام عينه؟

يا غافلون القبر فاتح فمه، سبع الموت وثعبان فاتحان فمهما، سيّاف سلطان القدر بيده السيف وهو منتظر الأمر، من كل ألف ألف واحد يكون على هذه الحكمة، مستيقظ بلا غفلة، لا بد في بداية أمرك من صنعة تكتسب بها وتأكل منها حتى يقوى إيمانك، فإذا دمت على ذلك وثبت أخرجك الحق عزّ وجلّ إلى التوكل، فيطعمك من غير سبب.

يا مشركاً بسببه، لو ذقت الأكل بالتوكل لما أشركت ولقعدت على بابه متوكلاً عليه واثقاً به، ما أعرف الأكل والشرب إلا من شيئين:

إما بالكسب مع ملازمة الشرع.

أو بالتوكل.

ويلك ما تستحي من الله عزّ وجلّ، تترك كسبك وتكدى من الناس، الكسب بداية والتوكل نهاية، فما أرى لك بداية ولا نهاية، إني أقول لك الحق ولا أستحي منك، اسمع واقبل ولا تنازع منازعة الحق عزّ وجلّ.

إني أزهد الخلق فيكم وفيما في أيديكم وفي حمدكم وذمكم، إن أخذت منكم، أخذت لغيري لا لي، كلامي عليكم ضربة لا زب أمرت به بطريق أعرفها أقطع بصحبتها، ليس لحكم الله عزّ وجلّ ناسخ ينسخه ولا مانع يمنعه.

(ويحك) لا يغرك مقالات الناس، أنت تعرف ما أنت فيه وعليه، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾[1].

ما أحسنك عند العوام، وما أقبحك عند الخواص، يا راغبين في الدنيا فرحين بها وهم يدعون العقل والضبط، أما سمعتم قول ربكم عزّ وجلّ:

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ﴾[2].

اللعب واللهو والزينة للصبيان الجهال لا الرجال العقلاء، قد أعلمكم أنها للجهال الناقصي العقول، قد أعلمكم أنه لم يخلقكم للعب المشتغل بالدنيا، لاعب المقتنع بها دون الآخرة قد قنع بغير شيء، جميع ما تعطيكم الدنيا حيات وعقارب وسموم إذا أخذتموه بأيدي النفوس والأهوية والشهوة.

اشتغلوا بالآخرة وارجعوا بقلوبكم إلى ربكم عزّ وجلّ واشتغلوا به، ثم خذوا ما يأتيكم به من يد فضله، تفكروا في الدنيا والأخرى ورجحوا بينهما، لو تعلمت أيّ شيء تعلمت كان عندي أكثر منه، زرعي قد بلغ وتجمل وزرعك كلما نبت أحرق.

كن عاقلاً، دع رياستك وتعال اقعد ههنا كواحد من الجماعة حتى ينزع كلامي في أرض قلبك، لو كان لك عقل لقعدت في صحبتي وقنعت مني في كل يوم بلقمة وصبرت على خشونة كلامي، كل من كان له إيمان يثبت وينبت، ومن ليس له إيمان يهرب مني.

---

(١) سورة القيامة آية: ١٤.

(٢) سورة الحديد آية: ٢٠.

المجلس الثاني والستون

[التوحيد]

وقال رضي الله عنه بكرة الجمعة في المدرسة سلخ شهر رجب سنة ست وأربعين وخمسمائة:

وحد الحق عزّ وجلّ حتى لا يبقى في قلبك من جميع الخلق ذرة، لا ترى داراً ولا دياراً، التوحيد يقتل الكل، كل الدواء في التوحيد للحق عزّ وجلّ، وفي الإعراض عن حية الدنيا، اهرب عن هذه الحية إلى أن يجيئك الحواء، فقلع أضراسها وينزل سمها ويقرّبك إليه ويعرفك صنعته ويسلمها إليك وما بقي فيها أذية، فتنصرف فيها وهي لا تقدر تلسعك، إذا أحببت الحق عزّ وجلّ وأحبك كفاك شرّ الدنيا والشهوات واللذات والنفس والهوى والشياطين، فتأخذ أقسامك من غير ضرر ولا كدر.

يا مدّعياً بغير بينة كم تدعي التوحيد وأنت مشرك، تقدر أن تخرج معي بالليل تمشي في المواضع الفزعة، أنا بلا سلاح وأنت بسلاحك، ثم تنظر من يفزع؟ أنا أو أنت؟ من يدخل تحت ثياب الآخرة ؟ أنا أو أنت؟ تربيت في النفاق وأنا تربيت في الإيمان.

(يا قوم) أنتم تعدون خلف الدنيا حتى تعطيكم وهي تعدو خلف أولياء الله حتى تعطيهم، تقف بين أيديهم ورأسها مطأطيء، اضرب نفسك بصمامة التوحيد، والبس لها خوذة التوفيق، وخذه لها رمح المجاهدة وترس التقوى وسيف اليقين،فتارة مطاعنة وأخرى مضاربة، لا زال كذلك حتى تذلّ لك وتصير راكباً لها، لجامها بيدك، تسافر بها براً وبحراً.

فحينئذ يباهي بك ربك عزّ وجلّ، ثم تقدم الذين بقوا مع نفوسهم ولم يتخلصوا منها، من عرف نفسه وغلبها صارت راحلة له تحمل أثقاله ولا تخالفه في أمره. لا خير فيك حتى تعرف نفسك وتمنعها حظها وتعطيها حقها، فحينئذ تطمئن إلى القلب، ويطمئن القلب إلى السر، ويطمئن السرّ إلى الحق عزّ وجلّ.

لا ترفعوا عصا المجاهدة عن نفوسكم، لا تغترّوا بدواهيها، لا تغترّوا بتناومها، لا تغترّوا بتناوم السبع فإنه يريكم أنه نائم وهو منتظر الفريسة يفترسها، هذه النفس تظهر الطمأنينة والذلّ والتواضع والموافقة في الخير وهي تبطن بخلاف ذلك.

كن على حذر مما يتم منها بعد ذلك.

القوم عندهم شغل عن الخلق، لكن يكلفون النظر إليهم والقعود معهم لأمرهم ونهيهم، مثل القوم مع الخلق، مثل قوم أرادوا أن يعبروا بحراً ويمضوا إلى ملك فعرف بعضهم طريقاً فعبروا.

فلما حصلوا عنده رأى الملك بقية القوم يتخبطون ويكادون يغرقون ولم يعرفوا الطريق التي سلكها الأوائل، فأمر من وصل إليه أن يعودوا إليهم ليعرّفوهم الطريق التي جاءوا منها، فجاءوا فوقفوا على المشرعة ونادوهم: الطريق هاهنا فجعلوا يدلونهم، فلما قربوا منهم أخذوا بأيديهم، أصل هذا قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[1].

فالعاقل منكم لا يفرح بالدنيا ولا بالأولاد والأهل والأموال والمأكولات والملابس والمراكب والمناكح، كل هذا هوس. فرح المؤمن بقوة إيمانه ويقينه ووصول قلبه إلى باب قرب ربه عزّ وجل، ألا إن ملوك الدنيا والآخرة هم العارفون بالله عزّ وجل والعاملون له.

(يا غلام) متى يصفو قلبك ويصفو سرك وأنت مشرك بالخلق؟ وكيف تفلح وأنت في كل ليلة تعين[2] من تمضي إليه وتشكو إليه وتكدي منه، كيف يصفو قلبك وهو فارغ من التوحيد ما فيه ذرة منه؟

التوحيد نور والشرك بالخلق ظلمة، كيف تفلح وقلبك فارغ من التقوى ما فيه ذرة؟ أنت محجوب عن الخالق بالخلق، محجوب بالأسباب عن المسبب، محجوب بالتوكل على الخلق والثقة بهم، أنت دعوى مجردة، باقة بقل، ما تعطي بالدعوى بلا بينة.

هذا الأمر إنما يصح بوجهين اثنين:

الأول: هو المجاهدة والمكابدة وحمل الأشقّ والأتعب، وهو الغالب المعروف بين الصالحين.

والثاني: موهبة من غير تعب، وهو نادر لآحاد الخلق، يهب لواحد معرفته

---

(١) سورة غافر الآية: ٨.

(٢) كذا في الأصل.

والمحبة له، يأخذه من بين أهله وصنيعته ويظهر فيه قدرته، يأخذه من قطع الطريق ويرقيه إلى الصومعة، ويخرج الخلق من قلبه، ويفتح إليه باب قربه.

ويأخذه من الهذيان حتى يكفيه أدنى شيء يرزقه فهماً وحكماً وعزاً، يصير كل ما يراه يتعظ به، كل ما يسمعه يتعظ به، ولا يعمل إلا بما يقربه إليه، يأمر الهداية والعناية والكفاية، لا ينقطعون عنه، يصير كما قال الله عزّ وجلّ في حق يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾[1].

يزيح عنه السوء والفحشاء ويجعل التوفيق في خدمته. المحبّ لله عزّ وجلّ العارف به يعظ الخلق بكل فن، يعظهم تارة بقوله وتارة بفعله وتارة بهمته، يعظهم من حيث لا يدركون ومن حيث يدركون.

(يا غلام) عليك بخويصة نفسك عند ضعف إيمانك، ما عليك من أهلك وجارك وجارتك وأهل بلدك وإقليمك،فإذا قوي إيمانك فابرز إلى أهلك وولدك ثم إلى الخلق، لا تبرز إليهم إلا بعد أن تتدرع بدرع التقوى، وتترك على رأس قلبك خوذة الإيمان، وبيدك سيف التوحيد، وفي جعبتك سهام إجابة الدعاء، وتركب حصان التوفيق، وتتعلم الكرّ والفرّ والضرب والطعان، ثم تحمل على أعداء الحق عزّ وجلّ.

فحينئذ تجيئك النصرة والمعونة من جهاتك الست، وتأخذ الخلق من أيدي الشيطان، وتحملهم إلى باب الحق عزّ وجلّ، تأمرهم بعمل أهل الجنة، وتحذرهم من عمل أهل النار، كيف لا يكون كذلك وقد عرفت الجنة والنار وعرفت أعمالهما؟

من وصل إلى هذا المقام كشف الحجب عن عين قلبه، كيف التفت من جهاته الست؟ أخرق نظره ولم يحجب عنه، يرفع رأس قلبه فيرى العرش والسموات، وإذا أطرق يرى أطباق الأرض ومساكنها من الجن، كل هذا سببه الإيمان والمعرفة للحق عزّ وجلّ مع العلم بالحكم.

إذا وصلت إلى هذا المقام فادع الخلق إلى باب الحق عزّ وجلّ، وقبل هذا لا يجيء منك شيء، إذا دعوت الخلق ولست على باب الحق عزّ وجلّ كان دعواك لهم وبالاً عليك،

---

(١) سورة يوسف آية: ٢٤.

كلما تحركت بركت، كلما طلبت الرفعة اتضعت، ما عندك من الصالحين خبر، أنت لقلقة، أنت لسان بلا جنان، أنت ظاهر بلا باطن، جلوة بلا خلوة، حولة بلا صولة، سيفك من خشب، وسهامك من كبريت، أنت جبان لا شجاعة لك، أدنى سهم يقتلك، بقة تقيم عليك قيامتك.

اللهم قوّ أدياننا وإيماننا وأبداننا بقربك.

و ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

وقال رضي الله تعالى عنه: ما كنت أقعد مع أحد، ثم إن قعدت كنت أقعد مع اثنين أو ثلاثة من الموافقين لي، اصحب القوم فإن من صفاتهم أنهم إذا نظروا إلى الشخص وجعلوا همتهم إليه أحبوه، وإن كان ذلك المنظور إليه يهوديا أو نصرانيا أو مجوسياً، فإن كان مسلماً ازداد إيماناً ويقيناً وتثبيتاً.

إذا صح القلب صح النظر. إذا صح القلب فقد قرب من الحق عزّ وجلّ، وإذا نظر بعين القرب والمعرفة، يصير نظره من الله عزّ وجلّ، ويصير القرب سحاباً في قلبه والنظر برقه والوعظ مطره، يعبر لسانه عما في قلبه، يصير لسانه قلماً يستمد من دواة المعرفة وبحر العلم. يصير كلامه ونظره برق ما في قلبه كلاهما يظهران عن أصل قوي من جانب الله عزّ وجلّ.

من تحقق في امتثال الأوامر والانتهاء عن النهي والإرضاء للرسول صلى الله عليه وسلم صح له ذلك، بقيت فيه بقاياه، يهيم على وجهه في طلب الأمر المرسل الأصل حتى يذهب بقاياه، ويزيد علمه وقربه الصدق في طلب الحق عزّ وجلّ ثمره الأعمال الصالحة العمل الصالح.

ما صلح لله عزّ وجلّ ولم يكن فيه شريك. العمل الصالح يوقفك على جادة مراده منك، فتسير فيها لا يميناً ولا شمالاً، بخطوات قلبك وسرّك ومعناك، تنفرد عن الكل، لا مع الخلق ولا مع الدنيا ولا مع الأخرى، تصير من الذين يريدون وجهه وتقول كما قال موسى:

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٠١.

من طلب رضا الله عزّ وجلّ ووجهه صار كما قال الله عزّ وجلّ في حق موسى عليه السلام:

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾[٢].

يحرم عل قلب هذا الصادق مرضع كل محدث مخلوق بعد أن لم يكن ينصب لبن جميع المراضع في حلقه للغيرة الإلهية، انصب الجميع أزيل الكل عن قلبه حتى لا يتقيد بشيء عن محبوبه، ما يزال هذا المؤمن العارف يرضي الرسول بالعمل معه حتى يستأذن لقلبه على ربه عزّ وجلّ ويكون كالغلام بين يديه، فإذا طالت خدمته قال: يا أستاذ أرني باب الملك، أشغلني معه، أوقفني موضعاً أراه اترك يدي في حلقة باب قربه، فأخذه معه وقربه من الباب.

قيل له: ما معك يا محمد؟ ما معك يا سفيرًا يا دليلاً يا معلماً؟ فيقول: إنك تعلم، فريخ قد ربيته ورضيته لخدمة هذا الباب: ثم تقول لقلبه: ها أنت وربك كما قال جبرائيل عليه السلام له لما رقى به إلى السماء وأدناه من ربه عزّ وجلّ: ها أنت وربك.

(يا غلام) هات العمل الصالح وخذ القرب من ربّ العالمين.

(يا غلام) قصر أملك وقلل حرصك، صلّ صلاة مودع، لا ينبغي لمؤمن أن ينام إلا ووصيته مكتوبة تحت رأسه، فإن أيقظه الحق عزّ وجلّ في عافية كان مباركاً، وإلا فيجد أهله وصيته ينتفعون بها بعد موته ويترحمون عليه، يكون أكلك أكل مودع ووجودك بين أهلك وجود مودع ولقاؤك لإخوانك لقاء مودع،فأوجد في قلبك أنا مودع، كيف لا يكون كذلك من أمره في يد غيره؟ إنما آحاد أفراد من الخلق يطلعون على ما يكون لهم ومنهم هذه الشمس، لا تعبر عنه ألسنتهم.

أول ما يطلع على ذلك السرّ ويطلع السرّ القلب ويطلع القلب النفس المطمئنة ويستكتم ذلك، تطلع على هذا الأمر بعد تأدبها وخدمتها للقلب وقيامها معه، يؤهل لذلك بعد المجاهدات والمكابدات.

من وصل إلى هذا المقام فهو نائب الحق عزّ وجلّ في الأرض وخليفته فيها، هو باب

---

(١) سورة طه الآية: ٨٤.

(٢) سورة القصص آية: ١٢.

الأسرار، عنده مفاتيح خزائن القلوب التي هي خزائن الحق عزّ وجلّ، هذا شيء من وراء معقول الخالق، جميع ما يظهر فيه فهو ذرّة من جبلة، وقطرة من بحره، ومصباح من شمسه.

اللهم إني أعتذر إليك من الكلام في هذه الأسرار، وأنت تعلم أني مغلوب، وقد قال بعضهم: إياك وما يعتذر منه، ولكني إذا صعدت إلى هذا الكرسي أغيب عنكم ولا يبقى بحذا قلبي من أعتذر إليه وأتحفظ منه من الكلام عليكم. هربت منكم مرة وفيكم وقعت، عزمت أني أبيت كل ليلة في موضع وأسير من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية وأكون متغرباً متخفياً إلى أن أموت، هذا ما أردت، وأراد الله عزّ وجلّ بخلافه، فوقعت في وسط ما هربت منه.

هذا القلب إذا صح وثبت أقدامه على باب الحق عزّ وجلّ وقع في تيه التكوين وفي أوديته وفي بحره، يكون تارة بكلامه وتارة بهمته وتارة بنظره، يصير فعل الله عزّ وجلّ وينعزل هو، يفنى وهو يبقى، القليل منكم من يؤمن بهذا والأكثر منكم من يكذب به، الإيمان بهذا والعمل به نهايته، ما يجحد أحوال الصالحين إلا منافق دجال راكب لهواه، هذا الأمر مبني على الاعتقاد الصحيح ثم العمل.

من عمل بظاهر الحكم أورثه العمل المعرفة بالله عزّ وجلّ، والعمل به يصير الحكم بينه وبين الخلق والعلم بينه وبين ربه عزّ وجلّ، تصير أعماله الظاهرة ذرّة بالإضافة إلى أعماله الباطنة، تسكن جوارحه وقلبه لا يسكن، عينا رأسه تنام وعينا قلبه لا تنام، يعمل قلبه ويذكر وهو نائم.

حكى عن بعضهم أنه كان في يده سبحة يسبح بها، فنام ثم انتبه فرأى السبحة تدور بيده ولسانه يذكر ربه عزّ وجلّ، يؤمن هذا القلب فيعمل ويؤمر هذا السرّ فيعمل أعمالاً باطنة.

﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾[1].

الأعمال الظاهرة للعباد من حيث الجوارح، والأعمال الباطنة للخواصّ من حيث القلوب والأسرار سرّ السرّ بينهم على قدم الخوف مع قربهم، يخافون تقليب الأغيار في

---

(١) سورة المؤمنون آية: ٦٣.

تغير الأحوال والزوال عن المقام، يخافون مسخ القلوب، يخافون أن تمسخ قلوبهم وأن تنكسف شموسهم وأقمارهم وأن تزل أقدامهم.

يتعلقون أبداً بحلقة باب قربه ويتمسكون بذيل رحمته، يناشدونه: ربنا لا نريد منك الدنيا والآخرة بل نريد العفو والعافية في الدين، نريد بقاء الإيمان والمعرفة، تصدق علينا بذلك، قد تمسكنا بذيل رحمتك فلا تخيب ظننا فيك، كون لنا ذلك فإنك إذا أردت أمراً قلت له كن فيكون.

(يا قوم) اتبعوا القوم في أقوالهم وأفعالهم، اخدموهم، تقربوا إليهم بأموالكم وأنفسكم، جميع ما تعطونهم هو لكم محفوظ عندهم، غداً يسلمون ذلك إليكم، تتمنى سعة الرزق وقد سبق القلم بضيقه فأنت معاقب ممقوت، فإنك تطلب ما لم يقسم لك.

كم تسعى في طلب الدنيا وتحرص وليس لك منها إلا ما قسم لك؟ القوم على قدم الطاعة وقلوبهم وجلة، وأنتم على قدم المعصية وقلوبكم آمنة، هذا هو عين الإغترار احذروا أن يأخذكم على غرة.

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(استعينوا على كلّ صنعةٍ بصالح أهلها).

هذه العبادة صنعة، وصالحو أهلها المخلصون في الأعمال العالمون بالحكم العاملون به المودعون للخلق بعد معرفتهم به، الهاربون من أنفسهم ومن أموالهم وأولادهم وجميع ما سوى ربهم عزّ وجلّ بإهدام قلوبهم وأسرارهم، مبانيهم في العمران بين الخلق وقلوبهم في البراري والقفار، لا يزالون على ذلك حتى تربى قلوبهم وتقوى أجنحتهم وتطير إلى السماء، علت هممهم وطارت قلوبهم وصارت عند الحق عزّ وجلّ، فصاروا من الذين قال الله في حقهم:

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾[1].

إذا صار الإيمان يقيناً واليقين معرفة والمعرفة علماً حينئذ تصير جهبذ الله عزّ وجلّ، تأخذ من يد الأغنياء وتعيد إلى الفقراء، تصير صاحب المطبخ، تجري الأرزاق على يد قلبك وسرّك، لا كرامة لك يا منافق حتى تكون كذلك. ويلك ما تهذبت على يد

---

(١) سورة ص آية: ٤٧.

شيخ متورّع زاهد عالم بحكم الله عزّ وجلّ و ويلك تريد شيئاً بلا شيء منا يقع بيدك، إذا كانت الدنيا لا تحصل إلا بتعب فكيف ما عند الله عزّ وجلّ؟ أين أنت من الذين وصفهم الله عزّ وجلّ في محكم كتابه بكثرة عبادته فقال:

﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1].

لما علم منهم الصدق في عبادته أقام لهم من ينبههم ويقيمهم من فرشهم. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(يقول الله عزّ وجلّ: يا جبريل أقم فلاناً وأنم فلاناً).

هذا له وجهان:

الأول: أقم فلاناً صادق في عبادته هارب من ذنوبه، ادفع عنه، الغناء والنوم-وأنم فلاناً فإنه كذاب منافق باطل في باطل لعنة في لعنة، ألق عليه الكرى حتى لا أرى وجهه في القائمين.

الوجه الآخر: أقم فلاناً فإنه محب طالب، ومن شرط المحب التعب، وأنم فلاناً لأنه محبوب، ومن شرط المحبوب الراحة. ينوم ويراح لأنه واصل الضياء بالظلام حتى وفي بالعهد وتحقق في محبته، فلما صح له ذلك جاء وقت وفاء عهد الله عزّ وجلّ لأنه ضمن لكل متعوب فيه الراحة معه.

القوم إذا انتمت حظوى قلوبهم إلى ربهم عزّ وجلّ رأوا في المنام ما لم يروه في اليقظة، يرى قلوبهم وأسرارهم، شيء لا يرونه في اليقظة وصاموا وجاهدوا أنفسهم بالجوع وكسر الأعراض، وواصلوا الضياء بالظلام في أنواع العبادات حتى حصلت لهم الجنة.

فلما حصلت لهم قيل لهم الطريق غير هذا وهو طلب الحق عزّ وجلّ فتصير أعمالهم من حيث القلوب، فإذا وصلت إليه تثبتت عنده.

من علم ما يطلب هان عليه ما يبذل من قواه وجهده في طاعة ربه عزّ وجلّ، ما يزال المؤمن في تعب حتى يلقى ربه عزّ وجلّ. ويلك تدّعي ارادتي وتخبأ مالك عني؟ كذبت في دعواك، المريد ليس له قميص ولا عمامة ولا ذهب ولا مال بالإضافة إلى

---

(١) سورة السجد الآيتان: ١٧- ١٨.

شيخه، إنما يأكل على طبقه ما يأمره بأكله.

هو فان عنه ينتظر أمره ونهيه لعلمه أن ذلك من الله عزّ وجلّ، مصالحه على يد شيخه، وفتل في حباله، إن اتهمت شيخك فلا تصحبه فإنه لا يصح لك صحبته ولا إرادته، المريض إذا اتهم الطبيب لم يبرأ بمداواته.

وقال رضي الله عنه بعد كلام:

من صح زهده في الخلق صحت رغبتهم فيه وانتفعوا بكلامه والنظر إليه، إذا علمت الخلق بعلم الله عزّ وجلّ وعرّفتهم بمعرفته غاب عنك صفاتهم، تنعدم عنك الجن والإنس والملك، يصف قلبك بصفة أخرى.

وكذلك سرّك ينحى عنه قشر وجودك، فقشر عادة بني آدم عليه السلام، يأتي الحكم فيصير قميصاً عليك فتكون في الأرض ملبساً بأمر نفسك وخلق ربك عزّ وجلّ بأمره، ويأتي العلم الرباني الإلهي فيصير قميصاً على قلبك وسرّك. الزم ما جاء به الرسول وهو الكتاب والسنة، فإن من تركهما تزندق ومن ربقة الإسلام مرق، فيكون النار والعقاب موئلة آجلاً والمقت له عاجلاً- يكون لقلب العارف شيء آخر فيما بينه وبين الحق عزّ وجلّ وبعد إحكام الحكم وتحقيق الوقوف على باب الحق عزّ وجلّ فذلك الذي يستحق به أن يتبع ويسمع قوله.

ولهذا منع من اتباع الذين لا يحكمون الحكم لأنه شيء لا بد منه وهو أساس هذا الأمر، هو أن الأمر من أحكمه بالعمل والإخلاص وعلمه الخلق فهو عظيم عند الله عزّ وجلّ و ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(مَنْ تعلّمَ وَعَمِلَ دُعِيَ في الملكوت عظيما).

لا تنعزل في صومعتك مع الجهل، فإن الاعتزال مع الخلق مع الجهل فساد كبير كلي، ولهذا قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(تفقّه ثمّ اعتزل).

لا ينبغي لك أن تقعد في الصومعة وعلى وجه الأرض أحد تخافه وترجوه، لا يبقى لك سوى مخوف واحد ومرجو واحد وهو الله عزّ وجلّ، ما أعرف إلا الله عزّ وجلّ والقيام بدينه تقرّباً إليه، أقم دينه وانصره لوجهه لا لوجه غيره.

الصديق سمع صراخ الدين، نادى قلبه وسرّه. إذا خرق العوام حدوده، إذا تركوا مناهيه وتركوا أوامره ورفضوه وراء ظهورهم، يسمعه كيف يصرخ ويستغيث إلى الله عزّ وجلّ فيتشمر ويقف في وجهه، يعينه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينصحه ويذبّ عنه، يفعل ذلك بقوّة ربه عزّ وجلّ لا بقوّة نفسه وهواه وطبعه ورعونته وجهالته ونفاقه.

العبادة ترك العادة، لا كانت العادة حتى تصير موضع العبادة، أبطلوا التعلق بالدنيا والآخرة والخلق وتعلقوا بالحق عزّ وجلّ، لا تبهرجوا فإن الناقد بصير، ما يأخذ منكم لا يمحك، البهرج الذي معكم ارموا به، لا تعدوه شيئًا ما يؤخذ منكم لا ما يدخل الكير ويصفى من الدغل، فلا تحسبوا أن الأمر سهل، الأكثر منكم يدعون الإخلاص وهم منافقون، لولا الامتحان لكثرت الدعاوي.

من ادّعى الحلم نمتحنه بالأغضاب، ومن ادعى الكرم نمتحنه بالطلب منه، وكل من ادّعى شيئاً نمتحنه بضده. دعوا عنكم الهوس والزموا التقوى في جميع أحوالكم، المتقون لهم الربّ، اتقوا الشرك في الأصل والمعاصي في الفرع، ثم تعلقوا بحبلي الكتاب والسنة ولا تخلوهما من أيديكم. الحق عزّ وجلّ كريم لا يجمع على عبد خوفين قد تقدم خوف القوم في الدنيا عند أكلهم وشربهم ولبسهم ونكاحهم وجميع تصرفهم تركوا الحرام والشبهة وكثيراً من الحلال خوفاً من حساب ربهم عزّ وجلّ وسوء عذابهم، تورّعوا في مأكولهم ومشروبهم وجميع أحوالهم.

تركوا الأشياء زهداً فيها، فلما تمكن الزهد صار معرفة، فلما تمكنت المعرفة جاء العلم بالله عزّ وجلّ فصار تاجاً على رؤوسهم، فلا جرم انزوى عنهم الحرام والشبه والمباح وبقي عندهم الحلال المطلق الذي هو حلال الصديقين الذي لا يهتمون به ولا يخطر ببالهم.

إذا ترك العبد الدنيا والآخرة وخرج مما سوى الحق عزّ وجلّ وحصل قلبه في دار قربه ومننه ولطفه لا يكلفه تحصيل الطعام والشراب واللباس أو شيء من مصالحه، ينزّه قلبه عن الاشتغال بذلك [وكذلك] قلوب المقرّبين، ما تزال في كتاب القرب والعلم الخاص، يعلم قلوبهم وأسرارهم الفناء عن الإرادة والاستطراح بين يدي الحق عزّ وجلّ، فيتولاهم ولا يكلهم إلى غيره من وراء معقول الخلق، من وراء هذا الظاهر، يفنيهم ثم

إذا شاء أنشرهم وردهم، بتأيد العلم الأول بالعلم الثاني، جهل ثم علم ثم عمل وإخلاص، ثم علم ثان وعمل ثان، سكوت ثم نطق فناء عنك، ثم وجود به يا موتى القلوب. ما قعودكم عندي يا عباد الدنيا والسلاطين، يا عباد الأغنياء ويا عباد الغلاء والرخص، ويحكم لو بلغ ثمن حبة من الحنطة ديناراً ما بالى المؤمن ولا أهمه رزقه لقوة يقينه واتكاله على ربه عزّ وجلّ لا تعدّ نفسك من المؤمنين، انعزل كل الأشياء جند الله عزّ وجلّ وسياطه، الإعراض عن الخلق حق، والاشتغال بخالقهم أحق، ما أراكم تفقهون ما أقول.

عليكم بدلالات التوحيد والإصغاء إلى كلمات الصديقين والأولياء، كلامهم كالوحي من الله عزّ وجلّ، ينطقون عنه وبأمره من وراء مأمور العوام الطغام، أنت هوس تؤلف كلامك من الكتب وتتكلم به، إن ضاع كتابك ما تصنع؟ أو وقع الحريق في كتبك، أو انطفأ مصباحك الذي تبصر به. إذا انكسرت جرتك وتبدد الماء الذي فيها، أين مقدحتك وحراقك وكبريتك ومعينك؟

من تعلم العلم وعمل وأخلص صارت المقدحة والمعين في قلبه نوراً من نور الله عزّ وجلّ فيضيء هو وغيره. تنحوا يا أبناء اللقلقة يا أبناء الصحف المؤلفة بأيدي النفوس والأهوية، ويلكم تنازعون المخصوص تنقضمون وتهلكون ولا تبلغون حظكم، كيف تتغير السابقة والعلم بجهدكم؟ كونوا مؤمنين مسلمين و أما سمعتم قوله عزّ وجلّ:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[1].

حقيقة الإسلام الإستسلام،القوم استطرحوا بين يدي الحق عزّ وجلّ، ونسوا لم وكيف، وافعل ولا تفعل، يعملون أنواع الطاعات، وهم وقوف على قدم الخوف ولهذا وصفهم الحق عزّ وجلّ فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[2].

يمتثلون أوامر الله عزّ وجلّ وينتهون عن مناهيه، ويصبرون على بلائي ويشكرون على عطائي، ويسلمون أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأعراضهم إلى يد سابقتي وقلوبهم وجلة خائفة مني. العارف إذا زهد في الآخرة يقول لها: تنحي عني فإني طالب

---

(١) سورة الزخرف آية: ٦٩.

(٢) سورة المؤمنون آية: ٦٠.

باب الحق عزّ وجلّ، أنت و الدنيا عندي واحد، الدنيا كانت تحجبني عنك وأنت تحجبني عن ربي عزّ وجلّ و لا كرامة لكل من يحجبني عنه.

اسمعوا هذا الكلام فإنه لبّ علم الله عزّ وجلّو لبّ إرادته من خلقه وفي خلقه، وهو حال الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين. يا عبّاد الدنيا ويا عباد الآخرة، أنتم جهال بالله عزّ وجلّ وبدنياه وآخرته، أنتم حيطان، أنت صنمك الدنيا، وأنت صنمك الآخرة، وأنت صنمك الخلق، وأنت صنمك الشهوات واللذات، وأنت صنمك الحمد والثناء وقبول الخلق لك، ما سوى الله عزّ وجلّ صنم.

القوم يريدون وجه الدنيا والآخرة، يوكلان على باب الحق عزّ وجلّ، يوكلان في دار الطبيب يأخذ منها ما يريد ويطعم المريض.

يا منافقون ما عندكم من هذا خبر، المنافق لا يقدر يسمع حرفاً من هذا، تقوم القيامة عليه، لأنه لا يقدر على سماع الحق، كلامي حق وأنا على الحق، كلامي من الله عزّ وجلّ لا مني، من الشرع لا من الهوس، ولكن آفة فهمك السقيم.

(ويحك) تعلمت وما عملت بعلمك، فكيف ينفعك علمك؟ ما خدمت الشيوخ في حال شبابك كيف تخدم في حال كبرك؟ ما من مؤمن إلا عند الموت يكشف عن بصره فيرى مناله في الجنة، يشير إليه الحور العين والولدان، ويصل إليه من طيب الجنة فيطيب له الموت والسكرات، يفعل الحق عزّ وجلّ بهم كما فعل بأسية عليها السلام، ومنهم من يعلم بذلك قبل الموت، وهم المقرّبون المفردون المرادون.

ويلك يا معترضاً على الحق عزّ وجلّ، لا تهذي هذياناً فارغاً، القضاء لا يرده رادّ ولا يصده صادّ، سلم وقد استرحت، هذا الليل وهذا النهار يمكنك ردهما!؟ إذا جاء الليل يقبل وأنت كاره أو رادّ، والنهار كذلك، كلاهما يجيئان على رغمك، هكذا قضى الله عزّ وجلّ وقدره لك أو عليك. إذا جاء ليل الفقر فسلم وودع نهار الغنى، إذا جاء ليل المرض فسلم وودع نهار العافية، وإذا جاء ليل ما تكره فسلم وودع نهار ما تحب، استقبل ليل الأمراض والأسقام والفقر وكسر الأعراض بقلب مستريح، لا ترد شيئاً من قضاء الله عزّ وجلّ وقدره فتهلك ويذهب إيمانك ويتكدر قلبك ويموت سرك، قال الله عزّ وجلّ في بعض كتبه:

(أنا الله الذي لا إله إلا أنا، من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، وشكر نعمائي كتبته عندي صديقاً. ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليطلب رباً سوائي).

إذا لم ترض بالقضاء ولم تصبر على البلاء ولم تشكر النعماء فلا ربّ لك، التمس رباً غيره ولا ربّ غيره، إن أردت فارض بالقضاء وآمن بالقدر، خيره وشرّه، حلوه ومرّه، وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك بالتحذير، وما أخطأك لم يكن ليصيبك بالجدّ والطلب.

إذا تحقق لك الإيمان قدمت إلى باب الولاية، فحينئذ تصير من عباد الله المحققين لعبوديته. علامة الوليّ أن يكون موافقاً لربه عزّ وجلّ في جميع أحواله، يصير كله موافقة من غير لم وكيف، مع أداء الأوامر والانتهاء عن المناهي. لا جرم تدوم صحبته له، يصير في صحبة قربه لا يميناً ولا شمالاً ولا وراء، بل أماماً فحسب، يصير صدر بلا ظهر، قرباً بلا بعد، صفاء بلا كدر، خيراً بلا شرّ.

أنت رجاؤك الخلق وخوفك منهم، وهذا شرك بربك عزّ وجلّ، حمدك للخلق عند العطاء وذمك لهم عند المنعم، وهذا شرك بربك عزّ وجلّ.

(ويحك) ما إليهم شيء من ذلك، ما عندك خير، ما عندك توحيد، جميع الأشياء توجد وتؤخذ من الله عزّ وجلّ لا من خلقه، تؤخذ من الرجوع إلى بابه بعد قطع الطريق إليه، السبب في البداية والمسبب في النهاية، المبتدى يطلب من السبب كالفرخ يطلب أباه وأمه حتى يزّق، فإذا كبر وتعلم الطيران استغنى عنهما عند قوّة جناحه وطلب الرزق منفرداً بنفسه.

هل أكل أحدكم قد لقمة من يد توكله على ربه عزّ وجلّ من غير حوله وقوته والخلق والاتكال عليهم؟ ويحكم تدعون ما ليس فيكم، كيف تدعي الإسلام والإيمان والإيقان والتوحيد وأنت معتمد على حولك وقوتك وأسبابك؟ كن عاقلاً، هذا الأمر لا يجيء بالدعوى.

(ويحك) تقعد في هذا المقام تعظ الناس ثم تضحك بينهم وتحكي حكايات مضحكة، لا جرم لا تفلح ولا تفلحون، الواعظ معلم ومؤدب، والسامعون كالصبيان، والصبي لا يتعلم إلا بالخشونة ولزوم الحزم والعبوس، وآحاد الفرد منهم يتعلمون بغير ذلك، موهبة من الله عزّ وجلّ، كثيراً ممن يدعي الإسلام بظاهره يقول كما قال الكفار:

﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[1].

قالوا هذا، وكثير منكم يقول ذلك ويسترونه بأفعالكم التي قصدت منهم فما لهم عندي قدر ولا وزن جناح بعوضة، تكشف عند الحق عزّ وجل، لا عقل لهم ولا تمييز عندهم يفرّقون به بين الضارّ والنافع.

قوله عزّ وجلّ في قصة يوسف عليه السلام

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾[2].

من وجد عنده متاع الولاية والتوحيد والإيمان، إذا صلح القلب لله عزّ وجل لا يدعه مع الخلق والأسباب، لا يدعه مع البيع والشراء والأخذ والعطاء بالأسباب، يميزه ويخلصه، يقيمه من سقطته وعلى بابه يقعده وفي حجر لطفه ينومه.

(ويحك) قميص إسلامك مخرّق، ثوب إيمانك نجس، أنت عريان، قلبك جاهل سرّك مكدر صدرك بالإسلام غير مشروح، باطنك خراب وظاهرك عامر، صحائفك مسودة، دنياك التي تحبها عنك راحلة، والقبر والآخرة مقبلان إليك، تنبه لأمرك وما تصير إليه عن قريب.

ربما كان موتك اليوم أو في هذه الساعة، يحال بينك وبين أمالك، ما تؤمله من الدنيا لا تجده ولا تلحقه، وما قد أنسيته من الآخرة فهو يلحقك. الاشتغال بغير الله هوس والخوف من غيره والرجاء له هوس، أحد لا يضرّنا ولا ينفعنا غير الله عزّ وجل، هو الذي جعل لكل شيء سبباً، الحكم وارد على السبب، إذا عملت بالحكم به حققت العمل به، وقعت الأسباب عنك كما تقع الأوراق عن الشجر، يظهر المسبب وتذهب الأسباب، يظهر اللبّ ويذهب القشر، اللبّ هو التعلق بالمسبب، هو الأصل، هو كالثمرة من الشجرة. الموحد ينتقل في الأحوال، ينتقل من القرية إلى الساقية، ومن الساقية إلى النهر، ومن النهر إلى البحر — ينتقل من الفرع إلى الأصل، من الولد إلى الوالد، من العبد إلى المعبود، من الصنعة إلى الصانع، من العاجز إلى القادر، من الفقر إلى الغنى من الضعف إلى القوّة، من القليل إلى الكثير. لا تطولوا عليّ.

---

(١) سورة الجاثية آية: ٢٤.

(٢) سورة يوسف آية: ٧٩.

الأكثر منكم قلوبهم فارغة من الإيمان. من كان منكم له حاجة في نفسه فيلجمها بلجام السكوت وحسن الأدب، ويدرعها بدرع التقوى، فذلك سبب طمأنينتها ووصولها إلى ربها عزّ وجلّ. الوصول وصولان: عام، وخاص.

العام: الوصول إلى الله عزّ وجلّ بعد الموت.

والخاص: وصول قلوب آحاد أفراد إلى الله عزّ وجلّ قبل الموت، وهم الذين يجاهدون أنفسهم بالمخالفات ويخرجون عن الخلق فيما يرجع إلى الضرّ والنفع، فإذا داموا على هذا وصلوا إليه كما يصل العوام بعد الموت، من صح له هذا جاءه التمكن والبسط والمحادثة والمؤانسة، حينئذ يقول هذا الواصل:

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

يوسف عليه السلام لما خرج من الجبّ والسجن وصبر على تلك الشدائد، فما تمكن وصار الكل تحت يده قال لإخوته:

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2].

لما جاءه الغنى والملك، وذهب القبض وجاء البسط قبل ذلك كان أخرس في الجبّ والسجن، فلما خرج جاءت الفصاحة.

(يا قوم) اطلبوا الكل من خالق الكل، ابذلوا لكم في جلبه، القوم بذلوا الأرواح في طلب قرب ربهم عزّ وجلّ، علموا بالذي يطلبون فهان عليهم بذل أرواحهم، من علم ما يطلب هان عليه ما يبذل.

(حكى) أن رجلاً اجتاز على حجرة نخاس، فرأى فيها جارية مستحسنة فتعلقت بقلبه، فلم يقدر أن يتجاوز الموضع، وكان تحته فرس يساوي مائة دينار، وعليه أثواب جميلة، وهو مقلد بسيف محلى بالذهب، وبين يديه مملوك أسود يحمل الغشية، فتقدم إلى صاحبها وطلب منه بيعها، فقال له: لا شك أنك قد أحببت جاريتي، والمحب يبذل كل ما يملك في طلب محبوبه، ولا أبيعها إلا بجميع ما تملك يدك في هذه الساعة، فنزل عن فرسه وخلع جميع ما عليه من الثياب واستعار قميصاً من النخاس وسلم الجميع

---

(١) سورة يوسف آية: ٩٣.

(٢) سورة يوسف آية: ٩٣.

إليه مع المملوك الذي كان بين يديه، وأخذ الجارية ومضى إلى بيته حافياً مكشوف الرأس، لما بذل الثمن أخذ المثمن، عرف ما طلب فهان عليه ما يبذل، الصادق المحبة لا يقف مع غير محبوبه، إذا قال الواحد من الخلق: قد سمعت بخبر الجنة وما فيها من النعيم بقوله عزّ وجل:

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[1].

فما ثمنها، قلنا له: قال الله عزّ وجل:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾[2].

سلم النفس والمال وقد صارت لك. وقال آخر: اريد أن أكون من الذين يريدون وجهه، قد لمح قلبي باب القرب، ورأى المحبين داخلين فيه وخارجين منه وعليهم خلع الملك، فما ثمن الدخول إليه؟

قلنا له: ابذل كلك واترك شهواتك ولذاتك وافن فيه عنك، ودع الجنة وما فيها واتركها، ودع النفس والهوى والطبع، ودع الشهوات الدنيوية والأخروية، ودع الكل واتركهم وراء ظهر قلبك، ثم ادخل فإنك ترى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

من تم له هذا وثبتت أقدام قلبه فيه كانت له الدنيا والآخرة و يكونان له نعمة مجردة بلا نقمة يصيران نزلاً له، وآخرته القرب والنظر، القرب في الدنيا بقلبه، والنظر يوم القيامة بعينيه.

(يا غلام) ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾[3]. قل ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[4].

يا زهاداً في الدنيا إذا خرج قلبك منها طالباً للآخرة فقل:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾[5].

---

(١) سورة الزخرف آية: ٧١.

(٢) سورة التوبة آية: ١١١.

(٣) سورة الأنعام آية: ٩١.

(٤) سورة الشعراء آية: ٧٨.

(٥) سورة الشعراء آية: ٧٨.

وأنت يا مريد الحق عزّ وجلّ، الراغب فيه الزاهد فيما سواه، إذا خرج قلبك من باب الجنة طالباً لمولاه فقل:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾(١).

اشتغل بهدايته من وعر الطريق، يا من أراد السلوك في هذين الطريقين استدل بمن قد سلكهما وعرف المواضع المخوفة منهما، وهم المشايخ العمال بالعلم المخلصون في أعمالهم.

(يا غلام) كن غلام الدليل، اتبعه، اترك رحلك بين يديه وسر معه، تارة عن يمينه، وتارة عن شماله، وتارة وراءه، وتارة أمامه، لا تخرج عن رأيه ولا تخالف قوله، فإنك تصل إلى مقصودك ولا تضلّ عن جادتك.

وحّد ربك عزّ وجلّ وقد كفيت المهام وزالت عنك الكروب. إبراهيم عليه السلام لما ترك في المنجنيق حتى يرمى في النار قطع الوسائط عنه ولم يلتفت إلى غير ربه عزّ وجلّ، لا جرم قال للنار:

﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾(٢).

يا نار انعزلي وتغيري وتبدلي، كفى حرك وسرك، كفي سنانك وسيفك، حرك وغضبك، انبرمي، انجعدي، كوني برداً وقراً بلا أذية، كل هذا ببركة التوحيد والإخلاص فيه. العبد إذا وحّد ربه عزّ وجلّ وأخلص له تارة يكون له فيدخل في تكوينه، وتارة إليه التكوين ويكون هو لنفسه، هذا لخواصه من خلقه.

كل من دخل إلى الجنة يقول للشيء كن فيكون، الشأن في تكوين اليوم لا غداً، ما زال إبراهيم عليه الصلاة السلام على قدم التوكل في حال صغره وكبره، إذا نأى الخلق من الجيران وغيرهم وكثرت العيال مع الفقر وضيق المعيشة وغلا السعر ورد الإخوان أبوابهم في وجوهكم ستذكرون ما أقول لكم، ستذكرون وتندمون، اسمعوا مني فإني نائب عن الرسول وعمن أرسله.

إلهي أسألك العفو والعافية في هذه النيابة، أعني على هذا الأمر الذي أنا فيه، قد

---

(١) سورة الشعراء آية: ٧٨.

(٢) سورة الأنبياء آية: ٦٩.

أخذت الأنبياء والرسل إليك، وقد أوقفتني في الصف الأول أقاسي خلقك، فاسألك العفو والعافية، اكفني شرّ شياطين الإنس والجن، وشرّ جميع المخلوقات آمين.

وقال رضي الله عنه: يا زهاد ويا عباد أخلصوا وإلا فلا تتبعوا، قد طاب لكم الصوم والصلاة والتخشن في المطعم والملبس من غير نية وإخلاص، بل مع حضور النفس ودخول الهوى. ويحكم للقوم أعمال من وراء ذلك من حيث قلوبهم، يدورون مع القدر في صحبة الحكم وحفظ حدوده في الظاهر والباطن، في السرّ والعلانية، مع الخالق والخالق، يعطون كل ذي فضل فضله، ولكل ذي حق حقه، يعطون كتاب الله عزّ وجلّ حقه، وسنة نبيه حقها، وعلم الله عزّ وجلّ الذي في قلوبهم حقه -- يعطون الأهل حقوقهم، والنفس حقها، والقلب حقه، والخلق حقوقهم.

هم في تفويض وتمكين وحبس وإطلاق وأخذ وعطاء، يقيمون الحدود على القلوب والأسرار والنفوس، يحسنون على الخلق، هذا شيء من رواء أموركم ومعلومكم.

المؤمن إذا وعظ أخاه ولم يقبل منه يقول له ستذكر ما أقول لك وأفوّض أمري إلى الله. لعارف يجاهد نفوزس الخلق بسيف توحيده ومعرفته، ومن حصل في أسراره منهم حملة إلى باب ملكه، هو بصير بعباده.

أحبّ الأشياء إلى المؤمن العبادة، أحبّ الأشياء إليه القيام إلى الصلاة وهو قاعد في بيته فقلبه ينتظر المؤذن، هو داعي الحق عزّ وجل، سمع الأذان دخل قلبه سرور ويطير إلى الجوامع والمساجد، يفرح بمجيء السائل إليه، إذا كان عنده شيء يعطيه، لأنه سمع قول النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(السائلُ هديّةُ اللهِ عزّ وجلّ إلى عبْدِهِ).

كيف لا يفرح وقد نفذ أمر ربه عزّ وجلّ يستقرض منه على يد الفقير، هذه آداب المؤمن العابد. وأما العارف فإنه يحفظ حدود الشرع، ويحفظ قلبه من دخول غير ربه عزّ وجلّ فيه، يحذر أن ينظر إلى قلبه فينظر فيه خوف غيره ورجاء غيره والاتكال على غيره، يحفظ قلبه من التدنس بالخلق والأسباب، يكره لقاء الخلق ولا بد له منهم، لأنهم مرضى وهو طبيبهم، يكره الحياة في الدنيا والحياة في الأخرى من عزّة قرب ربه عزّ وجلّ الذي هو كل أمنيته واخياره، عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال: يقولُ اللهُ عزّ وَجَلّ يَوْمَ القيامَةِ لعبادِهِ المُؤمنين:

(آثرتم آخرتكم على دنياكم، وآثرتم عبادتي على شهواتكم، وعزتي وجلالي ما خلقت الجنّة إلاّ لكم) هذا قوله لهؤلاء.

وأما قوله للمحبين له: أنتم آثرتموني على جميع خلقي، دنياي وآخرتي، عزلتم الخلق عن قلوبكم ونحيتموهم عن أسراركم، فهذا وجهي لكم وقربي لكم وأنتم عبادي حقاً. من الأولياء من يأكل في يومه من طعام الجنة ويشرب من شرابها ويرى جميع ما فيها، ومنهم من يفنى عن المأكول والمشروب ويعزل من الخلق ويحجب عنهم ويعمر في الأرض بلا موت- كإلياس والخضر .

لله عزّ وجلّ، عدد كثير منهم محجوبون في الأرض، يرون الناس ولا يرونهم، الأولياء فيهم كثرة، والأعيان منهم فيهم قلة، آحاد أفراد مفردين، والكل يأتونهم يتقرّبون إليهم، هم الذين تنبت بهم الأرض وتمطر بهم السماء ويدفع بهم البلاء عن الخلق، الملائكة طعامهم وشرابهم ذكر الحق عزّ وجلّ والتسبيح والتهليل، وآحاد أفراد من الأولياء يصير طعامهم ذلك، مالكم واستماع هذا، الأكثر منكم قرة عين إبليس وعبيده، لا كرامة لكم ولا له.

يا ديري اتركوا خدمته وفارقوه، ادخلوا على الحق عزّ وجلّ بأقدام قلوبكم وسلوه أن يدلكم على ما يرضيه عنكم، سلوه أن يستخدمكم، سلوه أن يدلكم على كنز لا ينفد أبداً، على معين لا ينضب أبداً، سلوه أن يبغض إليكم الدنيا ويحبب إليكم الأخرى، فإذا رزقكم ذلك فسلوه أن يبغض إليكم الأخرى ويرزقكم العمل له والحب له وهجر ما سواه.

أنت عبد الخلق عبد السبب، لو كنت عبد الحق عزّ وجلّ كانت أمورك كلها مفوضة إليه وحوائجك منزلة به، لم تقولون شيئاً وفعلكم يكذب قولكم؟ أما سمعتم ربكم عزّ وجلّ يقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾[1].

ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم، تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم، تتعجب من كذبكم في توحيدكم، كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوالكم السلاطين

---

(١) سورة الصف الآيتان: ٢-٣.

والأغنياء، أكل فلان، لبس فلان، تزوّج فلان، استغنى فلان، افتقر فلان، كل هذا هوس ومقت وعقوبة. توبوا واتركوا ذنوبكم وارجعوا إلى ربكم دون غيره، اذكروه وانسوا غيره.

الثبات على كلامي علامة الإيمان، والهرب منه علامة النفاق. يا من يطعن فيّ: تعال حتى نحك حالتي وحالتك على الشرع، فمن خرجت حالته شبها وفضة استحق أن يطعن فيه وأن يهجر ويموت باسم الله تعالى، ابرز ولا تختبئ وتهرب كالمخانيث، ذاك لا شيء وهوس وتوان.

(ويلك) عن قريب يتبين خبرك. اللهم تب علينا ولا تفضحنا في الدنيا ولا في الآخرة:

(يا غلام) أمرك مبني على غير أساس فلا جرم تقع حيطانك. أساسك البدع والضلالات وبناؤك الرياء والنفاق فكيف يثبت لك بناء، ذلك هوى وطبع، تأكل وتشرب وتنكح وتجمع بالهوى والطبع، ليس لك نية صالحة في شيء من ذلك.

المؤمن في كل أحواله له نية حسنة في كل أعماله، لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا ينكح إلا بأمر الله عزّ وجلّ، وهكذا في الدنيا والآخرة. في الدنيا يأمر بواسطة شرعه، وفي الآخرة بغير واسطة، يرى هذه الدنيا وسرعة فنائها فيزهد فيها ويذكر مجيء أقسامه، وأنه يتناول بشهادة الشرع وقلبه فيقول: مالي حاجة في هذا، ما أريده، ويهرب قلبه يميناً وشمالاً فيلزم ويجبر على تناولها، هذا حاله في الدنيا.

وأما في الآخرة فلا يفتح عينه في وجه الجنة حتى يلقى ربه عزّ وجلّ، فإذا تناول شيئاً منها لا يتناوله إلا بأمر حزم وتقدم وإشارة، فيقبل الأمر قضاء بحق الجنة، يقضي حق الحور والولدان وتلك الشهوات، يوافق في ذلك الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين وقتاً دون وقت، وإلا فمعظم أوقاته عند ربه عزّ وجلّ.

إذا اتقيت ربك عزّ وجلّ جاءك منه الفرج في جميع أحوالك، أما سمعته كيف قال:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ ﴿ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾[1].

---

(١) سورة الطلاق الآيتان: ٢-٣.

هذه الآية غلقت باب الاتكال على الأسباب، غلقت باب الأغنياء والملوك وفتحت باب التوكل، من يتقيه يجازيه بأن يجعل له فرجاً ومخرجاً مما ضاق على الناس، أيّ شيء أعمل بكم؟ كم أقول لكم:

لقدْ أسمعتَ لوْ ناديْتَ حيّاً ولكنْ لا حياةَ : لمَنْ تنادي؟

قلبك فارغ من الإسلام والإيمان والإيقان، لا معرفة لك ولا علم، فأنت هوس والكلام معك ضائع. يا منافقون قد قنعتم بالكلأ وفي التوكل بألسنتكم وقلوبكم مشركة بالخلق، قلبي ملئ غيظاً عليكم، غيرة لله عزّ وجلّ، إن سكتم وتركتم المزاحمة وإلا أحرقت دوركم عليكم.

يا خائنين الماء المالح والعذب، حل بيننا وبين التسخط عليك والمنازعة لك في أقدارك، حل بيننا وبين معاصيك بتروح من رحمتك آمين.

(يا غلام) إذا كنت متقياً لربك عزّ وجلّ ذاكراً له موحداً له مشيراً إليه قبل بلائك، فإذا وقعت في باب البلاء قال لها:

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا ﴾[1].

اللهم افعل بنا كذا وإن كنا لا نستحق، عاملنا بكرمك ولا تحاققنا ولا توازنا ولا توافقنا آمين.

الأدب في حق العارف فريضة كالتوبة في حق العاني، كيف لا يكون متأدباً وهو أقرب الخلق إلى الخالق؟ من عاشر الملوك بالجهل كان جهله مقرباً له إلى قتلة، وكل من ليس له أدب فهو ممقوت من الخالق والخلق، كل وقت ليس فيه أدب فهو مقت، لا بد من حسن الأدب مع الله عزّ وجلّ.

أحسنوا الأدب، أقبلوا على آخرتكم وأعرضوا عن دنياكم، ولا تقبلوا عليها كإقبال الكفار، لأنهم يقبلون عليها ويحبونها لقلة خبرهم بها.

العبد يتوب من معاصيه وزلاته وخطاياه، ويشتغل بصوم النهار وصلاة الليل، ويأكل من كسبه حلال الشرع، ثم يترقى فيصير متورعاً فيقل كسبه خوفاً من الوقوع في الحرام، ثم يترقى فيصير منزهاً، ثم يترقى فيصير زاهداً، ثم يترقى فيصير عارفاً

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٦٩.

مفتقر القلب إلى الله عزّ وجلّ فيجالسه ويحادثه.

يفرغ قلبه من الخلق، يستغني عنهم ويفتقر إليه، يجالسه مع أرواح أنبيائه وأصفيائه، يصير مستأنساً به قريباً منه، وهذا بعد كم وكم؟

(ويحك) ما تعرف الأحوال، فلم تتكلم فيها؟ ما تعرف الحق عزّ وجلّ فلم تدعو إليه؟ أنت ما تعرف إلا هذا الغنى، هذا السلطان، مالك رسول ولا مرسل، ما تأكل بالورع، وإنما تأكل بالحرام، أكل الدنيا بالدين حرام.

أنت منافق دجال، وأنا بغاض دكاك المنافقين مخرق لعقولهم، معاولي تخرب بيت هذا المنافق وتذهب إيمانه الذي يدعيه، المنافق ما معه سلاح يقاتل به، ليس له حصان يركب ويكرّ عليه، ويفرّ بين الخلق والخالق، بين الظاهر والباطن، بين السبب والمسبب، بين الحكم والعلم.

عند مجيء الآفات يتبين أثر الإيمان وعمل الإيقان وقوة التوحيد والتوكل والثقة بالله عزّ وجلّ، الإيمان هو البينة على الدعوى، المؤمنون يخالفون الله عزّ وجلّ بقلوبهم ويرجونه دون غيره، ينزلون حوائجهم به دون غيره، يرجعون إلى بابه دون باب غيره وآثاره، كيف ما تعرفون ربكم عزّ وجلّ؟

من عرف الدنيا تركها، ومن عرف الآخرة رآها مخلوقة مكونة بعد أن لم تكن، فتركها ولحق بخالقها فتصغر الدنيا و الأخرى في عيني قلبه، ويعظم الحق عزّ وجلّ في عيني سرّه فيطلبه دون غيره، يصير الخلق كالذّر بين يديه، يراهم كالصبيان يلعبون إذا لعبوا بالتراب، يرى الملوك المتولين معزّولين والأغنياء مغرورين، يرى المشتغلين بغير ربهم محجوبين، إني أراكم تلعبون بكتاب الله عزّ وجلّ وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام الصالحين، تلعبون بذلك بجهلكم، لو اتبعتم الكتاب والسنة لرأيتم عجباً، ما زالوا يصبرون معه على ما يريد حتى أعطاهم ما يريدون.

الفقر والبلاء مع عدم الصبر عقوبة، ومع وجودهم كرامة، يتنعم المؤمن في بلائه بقرب ربه عزّ وجلّ ومناجاته له ولا يحب البراح من مكانه، ما أكسد سوق كلامي لأنه لا ينفق على النفوس والأهوية هذا آخر الزمان قد قام سوق النفاق، وأنا مجتهد في إقامة الدين الذي كان عليه نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم والصحابة والتابعون له.

هذا آخر الزمان قد صار معبودأكثرهم الدينار والدرهم، قد صاروا كقوم موسى

عليه السلام الذين أشربوا في قلوبهم العجل، عجل هذا الزمان الدينار والدرهم.

(ويحك) كيف تطلب الجاه والمال من هذا الملك وتعتمد عليه في مهماتك وهو عن قريب إما معزول أو ميت، يذهب ماله وملكه وجاهه، وينقل إلى قبره الذي هو بيت الظلمة والوحشة والوحدة والغم والهم والدود، وينقل من ملك إلى هلك، إلا أن يكون له عمل صالح ونية صالحة للخلق، فيتغمده الله برحمته ويخفف حسابه.

لا تتكل على من يعزل أو يموت فيخيب رجاؤك وينقطع مددك. المؤمن ارتفعت همته عن الأرض وعن الدنيا وأبنائها وعن الآخرة وأبنائها، علم أن ربه عزّ وجلّ يحبّ العالين من الهمم، فعلى همته حتى انتهت إليه وخرّت بين يديه ساجدة، فلم يأذن لها بالرفع من سجود حتى استدعى بالقلب والسرّ، فأعطاهما النيابة والرياسة والإمارة والتمكن في الخلق، فعاش في الدنيا رئيساً وفي الآخرة رئيساً، في الدنيا ملكاً وفي الآخرة ملكاً.

(يا قوم) اشكروا ربكم عزّ وجلّ على نعمه ولا تضيفوها إلى غيره، أما سمعتموه يقول:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[1].

فتش على الفقراء فأعطهم، واجتهد أن لا تمرّ عليك حيلة منافق متنمس كذاب يتفاقر وهو غنيّ، يزاحم الفقراء بجلواته وتباكيه وذله، إذا طلب منك واحد من هذا الجنس فتوقف ساعة واستفت قلبك فلعله غنيّ وهو يتفاقر، انظر ما يخطر لك. استفت نفسك وإن أفتاك المفتون.

المؤمن يعرف صفتة، له فيهم علامات، قلبه حساس، ينظر بنور الله عزّ وجلّ الذي أسكنه في قلبه.

(ويحك) أنت كسلان فلا جرم لا يقع بيدك شيء، جيرانك وإخوانك وأقاربك قد سافروا، فتشوا وحفروا فوقعوا في الكنوز، ربح الدرهم عشرة وعشرين، ورجعوا غانمين وأنت قاعد مكانك، عن قريب يذهب هذا القدراليسير الذي بيدك وتطلب بعد ذلك من الناس.

---

(١) سورة النحل الآية: ٥٣.

(ويحك) جاهد في طريق الحق عزّ وجلّ ولا تتكل على قدره. أما سمعته كيف قال:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾(١) .

اشرع وقد جاءك غيرك وتمم شغلك، كل شيء بيد الله عزّ وجلّ فلا تطلب شيئاً من غيره، أما سمعته يقول:

﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴾(٢).

ما بقي بعد هذه الآية كلام، يا طالب الدينار والدرهم هما شيء وهما بيد الله عزّ وجلّ، فلا تطلبهما من الخلق ولا تطلبهما بلسان شركك بهم واعتمادك على الأسباب.

اللهم يا خالق الخلق ويا مسبب الأسباب خلصنا من قيد الشرك بخلقك وأسبابك.

و﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(٣).

وقال رضي الله عنه: يا عباد الله أنتم في دار الحكمة، لا بد من الواسطة، اطلبوا من معبودكم طبيباً يطب أمراض قلوبكم، مداوياً يداويكم، دليلاً يدلكم ويأخذ بأيديكم، تقرّبوا إلى مقربيه ومؤدبيه وحجاب قربه وبوابي بابه.

قد رضيتم بخدمة نفوسكم ومتابعة أهوائكم وطباعكم، أنا أحسن أخلاقكم وأوقحكم في دين الله عزّ وجلّ، لا تسمعوا من هؤلاء الذين يفرحون نفوسكم، يذلون للملوك ويصيرون بين أيديهم كالذر، لا يأمرونهم بأمره ولا ينهونهم عن نهيه، وإن فعلوا ذلك فعلوه نفاقاً تكلفاً، طهر الله الأرض منهم ومن كل منافق، أو يتوب عليهم ويهديهم إلى بابه.

إني أغار إذا سمعت واحداً يقول: الله الله وهو يرى غيره، يا ذاكراً اذكر الله عزّ وجلّ وأنت عنده، ولا تذكره بلسانك وقلبك عند غيره، المعادي لي والمحبّ لي عندي سواء، ما بقي على وجه الأرض لي صديق ولا عدوّ، هذا فيما يلي صحة التوحيد ورؤية الخلق بعين العجز، وأما من اتقى الله عزّ وجلّ فهو صديقي، ومن عصاه فهو عدوّي،

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٦٩.

(٢) سورة الحجر آية: ٢١.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٠١.

ذلك صديق إيماني وهذا عدوّ له.

اللهم حقق لي هذا وبينه وثبتني عليه، اجعله موهبة لا عارية، هذا شيء لا يجيء بالدعوى والتحلي والتمني والأسامي والألقاب ولقلقة اللسان، إنما يجيء بالصدق والإخلاص وترك الرياء ومعادات النفس والهوى والشيطان. كونوا عقلاء، ما أرى لكم قلوباً ولا معرفة بالمقلّب، نفوسكم غير مروضة، غير معلمة، هي ملأى من الكبر والعظمة، طريق الحق عزّ وجلّ ليس فيها: أنا ولي ومعي كل هذه الطريق محو وفناء.

في البداية عند ضعف الإيمان لا إله إلا الله، وفي النهاية عند قوّة الإيمان لا إله إلا أنت، لأنه مخاطب حاضر مشاهد. كل من طلب من الخلق فقد عمى عن باب الخالق، ما خدمة ولا صحبة، لو خدمة في حال شبابه لأغناه في كبره، هو يعطى من لا يخدمه فكيف لا يعطي من يخدمه؟

المؤمن كلما شاخ قوى إيمانه واستغنى عن الخلق لقربه من الحق عزّ وجلّ، ستغني عنهم وإن كان لا يملك ذرّة ولا لقمة ولا خرقة، تنبهوا لما أقول ولا ترفضوه وراء ظهوركم، إني أحق حقاً في حق أقول عن تجربة، إني أرى الأكثر منكم محجوبين يدعون الإسلام وما عندهم من حقيقته شيء.

ويحكم اسم الإسلام عليكم فحسب لا ينفعكم، تعلمون بشرائطه ظاهراً لا باطناً، لا يسوى عملكم شيئاً، ليلة القدر لها علامة عند الصالحين من عباد الله عزّ وجلّ، من يكشف عن أبصارهم فيرون الألوية التي بأيدي الملائكة ونور وجوههم، ونور أبواب السموات، ونور وجه الحق عزّ وجلّ، لأنه في تلك الليلة يتجلى لأهل الأرض، العبد إذا عرف الحق عزّ وجلّ قرّب قلبه كل القرب، وأعطاه كل العطاء وآنسه كل الأنس، وأعزّه كل العزّ. فإذا سكن إلى ذلك أزاله عنه، يفقر يده ويردّه إلى نفسه ويجعل بينه وبينه حجاباً، يختبره لينظر كيف يعمل؟ يهرب أو يثبت، فإذا رفع الحجب عنه ورده إلى ما كان عليه.

كان الجنيد رحمة الله عليه يقول في معظم أوقاته: أي شيء عليّ منيّ، العبد وما يملك لمولاه، كان قد سلم نفسه إلى ربه عزّ وجلّ وأزال اختياره ومزاحمته، ورضى بتولي قدره له، صلح قلبه واطمأنت نفسه فعمل بقوله:

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(١).

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٩٦.

كان الفضيل بن عياض رحمة الله عليه إذا لقي سفيان الثوري يقول له: تعال حتى نبكي في علم الله عزّ وجلّ فينا. ما أحسن هذا الكلام، هذا كلام عارف بالله عزّ وجلّ عالم به وبتصاريفه. ما علم الله الذي أشار إليه؟ هو قوله(هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي) وخلط الكل موضعاً واحداً فلا يدري من أي القبيلين هو؟ القوم لم يغترّوا بما ظهر من أعمالهم، لأن الأعمال بخواتيمها، قد صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة، قد صارت الدنيا والغنى والعافية والحول والقوى آلهة، ويحكم جعلتم الفرع أصلاً، المرزوق رازقاً، المملوك مالكاً، الفقير غنياً، العاجز قوياً، الميت حياً. لا كرامة لكم، لا نتبعكم ولا نتخذ مذهبكم، بل نكون ناحية منك على تل السلامة، على تل السنة وترك البدعة، على تل التوحيد والإخلاص وترك الرياء والنفاق ورؤية الخلق بعين العجز والضعف والقهر.

إذا عظمت جبابرة الدنيا وفراعنتها وملوكها وأغنياءها ونسيت الله عزّ وجلّ ولم تعظمه فحكمك حكم من عبد الأصنام، تصير ممن عظمت صنمك.

(ويلك) اعبد خالق الأصنام وقد ذلت لك الأصنام، تقرب إلى الله عزّ وجلّ وقد تقرب الخلق إليك، على قدر تعظيمك لله عزّ وجلّ يعظمك خلقة. على قدر حبك له يحبك خلقة، على قدر خوفك منه يخافك خلقه، على قدر احترامك لأوامره ونواهيه يحترمك خلقه، على تقريبك منه يقترب إليك خلقه، على قدر خدمتك له يخدمك خلقه.

ذكر الموت دواء لأمراض النفوس ومقمقة على رأسها، بقيت سنين أكثر من ذكر الموت ليلاً ونهاراً، وأفلحت بذكري له، وقهرت نفسي بذكرى له. ففي بعض الليالي ذكرت الموت وبكيت من أول الليل إلى السحر، فكنت في تلك الليلة أبكي وأقول:

إلهي أسألك أن لا يقبض ملك الموت روحي وتتولى قبضها أنت، فغضيت عيني فرأيت رجلاً شيخاً بهياً له سمت حسن، فدخل من الباب فقلت له: من تكون؟ فقال: أنا ملك الموت، فقلت له: إني قد سألت الله عزّ وجلّ أنه يتولى قبض روحي ولا تقبضها أنت، فقال: ولم سألته ذلك؟ أي ذنب لي أنا؟ إن أنا إلا عبد مأمور، أومر بالرفق بقوم، وبالفظاظة على قوم، وعانقني وبكى وبكيت معه، ثم انتبهت وأنا أبكي.

كان أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول: عزيز على قلوب أحرقها حب الدنيا

وقد جمعت صدورها القرآن، أكثر من الإخوة الصالحين القائمين الراكعين الساجدين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، الذين قيد الورع أيديهم عن الاكتساب وهمتهم طلب ربهم عزّ وجلّ، أنفقوا أموالكم عليهم، فإن لهم عند الله عزّ وجلّ غداً دولة.

سأله سائل: أيما أشد؟ نار الخوف أو نار الشوق؟ فقال: نار الخوف للمريد، ونار الشوق للمراد، هذا شيء، أيّ النارين عندك يا سائل؟ يا معتمدين على الأسباب نافعكم واحد، وضاركم واحد، ملككم واحد، سلطانكم واحد — وإلهكم واحد، أما سمعتموه يقول:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1].

بينك وبين ربك أنت، فارق إياك وقد رأيته، قال: كيف أفارق إياي؟ قلت له: فارق نفسك بالمخافة والمجاهدة والتطارش عن إجابتها، لا تجبها إلى شهواتها ولذاتها ورعوناتها، فحينئذ تذلّ وتنتحي عن وجه قلبك، تصير قطعة لحم ملقاة بلا حركة، فتدبّ فيها روح الطمأنينة، إذا خرجت روح وجودها دبت فيها روح طمأنينتها، فحينئذ ترى هي والقلب ربها عزّ وجلّ، إذا صارت مطمئنة مساعدة نفخ فيها روح غير الروح الأولى، روح الربوبية، ورح العقل، روح الزهد في الخلق، روح الوجود بالحق عزّ وجلّ، روح الطمأنينة إليه والنفور عن غيره. الصادق في عمله يودع الشيوخ ويجوزهم، يشير إليهم اقعدوا مكانكم حتى أمضي إلى الموضع الذي دللتموني عليه، الشيوخ باب فهمك، يحسن أن تلزم الباب ولا تدخل الدار:

﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ﴾[2].

آمنوا بالله ورسوله، صدقوا الله ورسوله فيما أخبر، أساس الوصول إلى الله عزّ وجلّ الإيمان، أساس الخير كله الإيمان، والإخلاص أساس النبوّة، والنبوّة أساس الرسالة، وهو أساس الولاية والبدلية والغيبية والقطبية.

لما مات عليّ بن الفضيل بن عياض رآه أبوه في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: يا أبت ما رأيت للعبد خيراً له من ربه. يا بنيّ عليك بالله لا تشتغل بغيره، الدار داره، والأرزاق خلقه (وقدر فيها أقواتها) الملائكة يوكلون بأرزاقك، الخير منه والشرّ منه،

---

(١) سورة الكهف آية: ١١٠.

(٢) سورة النور آية: ٣٥.

يرمي العبد بسهام الآفات، حتى إذا غمض العبد عينيه عن الرمي جاء طبيب القرب داوى جرحه وطبيب الخير رفعه، وطبيب الشوق ضمه، البداية بالمكاره.

إذا كانت الجنة محفوفة بالمكاره فكيف يكون قرب الحق عزّ وجلّ؟ المؤمن عامل الملك في قربه الدنيا، إذا صار السرّ و القلب أرضاً يطعم القلب من سور سماء السرّ، إذا شاء جمع بينهما ثم رأى رحمة الله عليه قريباً ومدّ يده كأنه يعانق شيئاً ثم قال: يا أهل المجلس اعذرونا أنا في قيد الحال، في قيد من يوم ٧ أنا أخرس، أنا أصم.

رأيت أبي آدم عليه السلام فقال: يا بنيّ صححت نسبي، الوحشة لا بد منها، إذا نزل بك الموت قطعك كل مواصل، وهجرك كل قريب، فاهجرهم قبل هجرهم واقطعهم، فيكون القبر طريقاً، إلى الحق دهليزاً، مت قبل أن تموت، مت عنك وعنهم وقد حييت به، تصير كالميت ويد السابقة تلقمه وتقلبه، يأخذ قسمه من غير همة، إذا تم هذا جاءت الحياة بقرب الله عزّ وجلّ والعلم به، يتنحى هذا الطائر، لا يبالي قامت القيامة أو لم تقم، خلق الموت أو لم يخلق، عنده شغل وصل إلى الحق. وأما الأحكام فهي محفوظة محروسة، سبحان من سيركم بالحكم وفصحكم بالعلم، يتلبس أحدكم بزي الصالحين: زرقة صوف وهو عندنا كافر، قد يأكل العبد من كسبه ويقوى إيمانه فيحرم عليه أن يأكل من كسبه، يقال له افتح خزانة التكوين، خذ من خزائن العلم، قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(تفرّغوا من هموم الدّنيا ما استطعتم).

أكثر من ذكر الموت وما وراءه، والصراط وما وراءه، اذكر الآخرة بنعيمها وعذابها، تفرّغوا من الدنيا بالشغل مع الله عزّ وجلّ بطهارة القلوب والأسرار وجاهدة النفوس ومحاربة الشياطين، تحرّروا لله تعالى وانقطعوا إليه، التوحيد إعدام الخلائق والخروج من انقلاب طبعك إلى طبع الملائكة، ثم فناؤك عن طبع الملائكة ولحوق بربك عزّ وجلّ يسقيك ما يسقيك، وتخص بأعمال عنده زيادة على عمل الظاهر.

الإسلام ظاهر والإيمان قوته، ثم المعرفة بالله عزّ وجلّ بعد ذلك، ثم الوجود بالله تعالى، فإذا كان وجودك به كان ذلك له. المؤمن يأكل من كسبه وسببه، ويعلم أنه من الله عزّ وجلّ، فإذا قوى أكل من توكله ويراه من الله عزّ وجلّ، ولا يتغير عليه من النظر الأول، لو قعد في دجلة ألف عام كان قلبه متعلقاً بالله عزّ وجلّ.

اتعظ رحمك الله بأيّ وجه تلقاه وأنت تعارضه في قضائه وقدره، لا تعارض ولا تجادل. عزير عارض ربه عزّ وجلّ في الخلق يخلق خلقاً ثم يعذبه، محاه من ديوان النبوّة، أماته مائة عام معزولاً ثم أحياه ورد عليه.

اجعل الاستغفار دأب لسانك، والاعتراف دأب قلبك، والسكون دأب سرّك. الذكر أولاً باللسان ثم يتعدى إلى القلب جاء الحب والشوق تعدى إلى اللسان.

صحبت مشايخ ما رأيت بياض سن واحد منهم، يأكلون من الطيبات ولا يمطعوا في لقمة، تأدبوا: دع غيرك يشبع وجع أنت، يعزّ غيرك وتذلّ أنت -- يستغني غيرك وتفتقر أنت، إنما أربيكم أو أهذبكم وأعلمكم لذلك اليوم، قطعت بأنكم لا تنفعونني ولا تضرّونني ولا تزيدون في رزقي ولا تنقصون منه ذرة، بعد ذلك تكلمت عليكم، أحكمت هذا وأنا في الصحاري والقفار.

أكل الشهوات يقسي القلب، ويقيد السرّ ويزيل الفطنة، ويكثر النوم والغفلة، ويقوّي الحرص، ويطول الأمل. يا مسجوناً في سجن هواه، يا عبد الخلق، يا جاهلاً بعاقبة أمره، يا جاهلاً بالخلق والحق عزّ وجلّ وما عليه وله، إن لم تعقل فاعقل ذكر الموت، فإن ذكره مفتاح كل خير وسلامة، إذا ذكرت الموت انقطع عنك الفضول، إذا ضعف حرصك وقلّ أملك استرجعت، فوّضت أمورك كلها إلى الله عزّ وجلّ.

(يا غلام) لا فلاح لك حتى تعترف بنعمه، والنعم تغرقك في توحيده، ثم تفنى في توحيده عن رؤية غيره، كيف يحبّ من يشكو منه ويناظره ويجادله؟ الحبّ والشوق والقرب منه لا يثبت مع هذا. إذا صحت المحبة فلا ألم عند مجيء الأقدار، إذا تمكنت المحبة ارتفعت المعارضة والتهمة، كل خطوة تخطو فإلى القبر، أنت في سفر إلى القبر.

قال بعضهم: العارف يشغله معروفه عن القبول والردّ والحمد والذم، إذا زالت النفس صار مكانها أمر الله، وإذا زالت الدنيا صار مكانها الآخرة، وإذا زالت الآخرة صار مكانها قرب الله عزّ وجلّ، يستأنس بقربه ويرتاح إليه .

والصلاة تقطع بك نصف الطريق، والصوم يقيمك على الباب، والصدقة تدخلك إلى الدار، هكذا قال بعض المشايخ. واستعينوا على قطع الطريق إلى الله بالصبر والصلاة سالك ليس وا وحدتاه وا غربتاه، لولا حفظ الحكم لنطق صاع يوسف عليه السلام بأسراركم وأعمالكم، ولكن الحكم بذيل العلم مستجير به لئلا يبدي، قد يزهد بالنعمة

شغلاً بالمنعم، ويقطع النعمة عنه لئلا يشتغل بها، فإذا دام شغله به قرّبه إليه ووضع في يده التكوين.

كلامي من ورائكم بعد عدم رؤيتي إياكم، ولذلك جاوزت دنياكم وجاوزت الآخرة، نظرت إليكم فرأيت لا ضرّ بأيديكم ولا نفع ولا عطاء ولا منع، والله المتصرف فيكم، لا تضرّون إلا بعد إضرار الله عزّ وجلّ فرجعت إلى الله عزّ وجلّ.

وأما الدنيا فرأيتها فانية زائلة ذاهبة قاتلة خادعة، فأنت من السكون إليها والوقوف معها لسرعة ذهابها. وأما الآخرة فوقفت عندها ساعة، نظرت في أمرها، فظهر عندي عيبها، وهو كونها محدثة مشتركة، ورأيت أن الله قد أعدّ فيها شهوة النفس وما تلذ به الأعين، وهو قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾[1].

قلت: فأين شهوة القلب؟ فأعرضت عنها إلى مولاها وبارئها وخالقها والمحدث لها. إذا اتقى العبد الله عزّ وجلّ جعل له من الجهل علماً، ومن البعد قرباً، ومن الصمت ذكراً، ومن الوحشة أنساً، ومن الظلام نوراً. إن قنعتم مني يا نفس ويا هوى ويا طبع ويا إرادة بالتوحيد وقطع الخلائق والسكون إلى الله عزّ وجلّ وترك رؤية الخلق، لا آخذ منهم لقمة إلا بعد رؤية الحق، وإلا حلفت أن لا آكل ولا أشرب، فإذا متم طرت بسري إلى الحق عزّ وجلّ.

حيطان دين نبينا قد تواقعت تستغيث بمن يبنيه، نهره قد نضب ماؤه والرب لا يعبد، وإذا عبد عبد رياء ونفاقاً، من يعاون في إقامة الحيطان وتنجيل النهر وكسر أهل النفاق؟ أتكلم عن علم، لا يمكننا أن نفصح به ولا نعلم به ملكاً، لا يفشى به لأحد. الطور قليل لا يراه شيطان فيفسده ولا سلطان فيقهره، أقسم الله تعالى بالطور لمناجاة حبيبه وكليمه عليه وتجليه له. إذا عرف القلب الحق عزّ وجلّ وسعه حتى يسع الجن والإنس والملك، حتى إذا لم يبق شيء يعوقه ولا ينظر إليه قرب وأدنى، أما سمعت بعصا موسى كيف ابتلعت كذا وكذا أحمال عصى وحبال ولم تتغير؟

(سؤال) قال له كامل الملاح: قال الحسن البصري: إذا لم يكن العالم زاهداً كان

---

(١) سورة الزخرف آية: ٧١.

عقوبة على أهل زمانه، لم كان عقوبة عليهم؟ قال رضي الله عنه: لأنه يتكلم بغير إخلاص ولا عمل، فلا يقع في قلوبهم ولا يثبت، فيستمعون ولا يعملون.

القلب إذا صح ونوّر بالعلم أطفأ بنوره نار معاصي الخلق كما يطفئ النار نورُ المؤمن عند جوازه عليها. قيل الزاوية مخالفة النفس والشهوات، والخلق والظفر بالرفيق ثم القعود. الخلوة طريق الآخرة، النفس لا تصلح أن تكون رفيقه في الطريق، وكذا الهوى فيضل، والشيطان عدوّ لا يصلح للصحبة، والشهوات آفات تعمي عين فطنتك في طريقك، والخلق قطاع الطريق.

اترك هواك على باب خلوتك، ثم ادخل وحدك تر مؤنسك في خلوتك. قال الحواريون لعيسى عليه السلام: علمنا العلم الأكبر، فقال: الخوف من الله عزّ وجلّ، والرضا بقضاء الله، والحب لله.

أنت زنديق تخلو بمعاصيه، ثم تظهر العبادة والزهادة: أمنت العاقبة؟

(ويلك) الأقسام مع الله عزّ وجلّ كرجل بخراسان مات له نسيب بالعراق له أموال لا وارث له سواه، أليس يصل له الذي في ملكه وهو لا يعلم؟ أنتم قوم عوام يصلح لكم الكلام في الأكل والشرب واللبس، يغلب علينا الأمر فنتكلم بغير ذلك.

القلب ينفي مادية النفس لترجع إلى الله عزّ وجلّ بطريقها، إذا وقع بقلبك حبّ رجل وبغض آخر أيّ شيء تعمل؟ تحب بطبعك وتبغض بطبعك، لا كرامة، حك الجميع على الكتاب والسنة وإن وافقها وإلا ارجع عنه، فإن أفتاك بالصحة ارجع إلى قلبك. إذا عمل القلب بالكتاب والسنة قرب، وإذا قرب علم، وإذا علم أبصر ماله وعليه، ما للحق وما للباطل، وما للشيطان وما للرحمن.

يرى قربه من ربه عزّ وجلّ وقرب الربّ منه، ابداً يكون في فرحة مع الرحمن عزّ وجلّ، يكون بياع الملك يشتري فيفرقه على الخلق، إذا دخلت ههنا فاخلع علمك وادخل عرياناً، وكذلك اخلع زهدك وورعك وأحوالك، فإنك إذا دخلت عليّ متلبساً ربما يحجبك ربما عني ما ههنا، اخلع عنك ذلك وادخل، خذ ما هاهنا، وذلك لا يفوتك.

دخلت على بعض الشيوخ وكان يتكلم على الخواطر فقال: تحب هذا الذي أنا عليه؟ قلت: نعم، قال: أنا أصوم الدهر، وأفطر وقت كل سحر، وطعام هذه البلدة ليس بطيب تورع عنه.

كان سري السقطيّ يشير على الجنيد بالكلام على الناس، فرأى النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره بذلك، فلما لقيه قال له: ما قبلت منا حتى أمرت.

(ويلك) أنت تتكلم على الناس وبعد عملك سخام، ليس على وجه الأرض أحد أخاف منه ولا أرجوه ولا في السماء ولا في الدنيا ولا في الآخرة سوى الحق عزّ وجلّ قيل لبعض الصالحين: هل ترى ربك؟ فقال: لو لم أره لتقطعت مكاني، قال: كيف تراه؟ قال: يغمض عيني وجوده فيرى ربه كما أراهم نفسه في الجنة كما يشاء، يرى قلبه، يرى صفاته، يرى إحسانه، يرى برّه، يرى كنفه.

كان أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه يقول: إيش عليّ مني؟ الصوفي من صفا عن وجوده، يكون قلبه سفيراً بينه وبين ربه عزّ وجلّ، لا يكون صوفياً حتى يرى نبيه صلى الله عليه وسلم في المنام يؤذنه، يأمره وينهاه، يترقى قلبه ويصفو سرّه على باب الملك ويده في يدى النبيّ صلى الله عليه وسلم.

أول ما تكلم آدم عليه السلام بالسريانية، ويحاسب الناس يوم القيامة بالسريانية، فإذا دخلوا الجنة تكلموا بالعربية بلغة محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال بعضهم: إذا أطاع العبد الله تعالى أعطاه المعرفة، فإذا عصى لم يسلبها منه ليحتج بها عليه يوم القيامة، يأتي خاطر الملك فيخطر في قلب المؤمن فيقف عنده يقول له: من أنت؟ ومن أين أنت؟ فيقول: أنا حظك من النبوّة، من الحق، أنا الحق، أنا من الحبيب، أنا من الرقيب، يملأ ذلك الخاطر باطنه وسمعه وبصره، يراه يحب الخلوة. يهاجر من وطنه، ثم يأتيه أمر آخر فيزعجه بعض الانزعاج، ثم يأتيه أمر آخر فيزعجه أيضاً حتى يأتي السكوت، فإذا جاء السكوت كان الحديث دائماً، تراه كأنه يصغي بأذنه إلى أحد بجانبه، محدثاً يحدثه.

قام رجل يطلب شيئاً من الدنيا فأقعده وقال: أنا آمرك بالزهد في الدنيا ثم في الأخرى ثم تسأل الله تعالى، ازهد حتى يعطيك الحق عزّ وجلّ فلا تأخذ.

أوحى الله عزّ وجلّ إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: يا عيسى احذر أن أفوتك.

وقال موسى عليه الصلاة والسلام لربه عزّ وجلّ: يا ربّ أوصني، قال: أوصيك بي، ثم قال: أوصني، قال: أوصيك بي، هكذا أربع مرات في كل مرة يقول أوصيك بي، لا كلام حتى تنفقس عنك بيضة وجودك ويضمك جناح الشرع، ويفعل فيك الصياح حينئذ،

وتلقط حبات الفضل وتؤثر به.

يريد بهذا ترك الكلام على الناس ودعاءهم إلى الله عزّ وجلّ حتى يكون له من الله جاذب، وفيه أهلية الكلام على الناس والدعاء إلى الله عزّ وجلّ. احكموا هذا الحكم الظاهر بالعمل به، ثم انظروا ماذا ترون من طيب قربه ومناجاته العوام، للطعام عشاق، أتكلم وأنت عندي عدم، والسماء والأرض عندي عدم، وليس ينفعني ولا يضرني إلا الله عزّ وجلّ:

(سؤال) ما معنى قول بعض المشايخ: أخذ المريد قبل أن يفطن؟ قال رضي الله عنه: أي أخذه في العبادة والاجتهاد، في الصلاة والصيام قبل أن يفطن لقربه ولطفه، فإذا قربه وألطفه فتر عن علمه قبل أن يفطن بشركك ومرادك، تطلب ذلك الطريق وندعك، كل منهم قد اشتغل، هذا عبد جاهه ودرهمه، وهذا عبد سلطانه، وهذا عبد نفسه وثوبه، كل منهم قد اشتغل، هذا بصيامه، وهذا بصلاته، وهذا بروايته، وهذا بخوفه من النار، وهذا بحبه للجنة.

قام شخص قلبه لله عزّ وجلّ ومع الله، متعلق بالله زاهد في الخلق، قام لنصرة دينه، فتشوا الأرض فإن وجدتم هذا فتعلقوا به. بشر المؤمن في وجهه وحزنه في قلبه، ثم ينعكس ذلك يصير حزنه في وجهه وبشره في قلبه، الحزن في وجهه لتأديب الخلق، والبشر في قلبه، في وجهه القضاء والقدر: يضحك إليهما، يستبشر بهما.

(الدنيا سجن المؤمن).

سجنه ما دام مؤمناً، فإذا دام تقواه أخرج منها، أبرز من سجنه، من ضيقته. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[1].

تنفقس عنه بيضة وجوده، يلقط حب الحكم، يحضنه جناح القرب، يضمه إليه، هو صاحب الأطباق وهو صاحب السماط. يا أحمق معك برق لا ثبات له، معك عرض كما يأتي يذهب، تحتاج تنفي وتموت ألف مرة، ثم أخيراً تثبت كما جاء الليل والنهار تستمر ولا تحول، تتمنى وتسمح بظلك بعد أن تصير وتدأ للأراضي السبعة لا هذه، لا تدعي، أنت تقرصك بقة تقوم قيامتك، يعوزك من عشائك لقمة تقوم قيامتك، دع الحالة تدخل فيك وتتزوج بقلبك ويكون لك فراخ تطير وتقف على مراقاة سرك، تأتي

---

(١) سورة الطلاق آية:٢، ٣.

شرقاً وغرباً، براً وبحراً، أنت نائم. قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا).

بئس الرجل ينتبه بعد الموت. ينبغي للفقير أن يتزر بالقناعة ويتردى بالعفة حتى يصل إلى الحق عزّ وجل، ويسعى بقدم الصدق طالباً لباب القرب، مهرولاً عن الدنيا والآخرة، مهرولاً عن الخلق والوجود، تستقبله عناية الحق ورأفته ورحمته وشوقه إليه، وجذباته ونظراته ومباهاته، ومواكب أرواح أنبيائه وملائكته، تصحبه الملائكة وأرواح النبيين والمراسلين، تزفه إلى الحق زفاً.

يا موتى القلوب، طلبكم للجنة قيدكم عن الحق، انزعوا انزعوا، ارجعوا ارجعوا، عليك بقصر الأمل حتى يقرب قلبك ويصفو عن الخلق سرّك ويدنو إلى الحق وتقرأ سابقتك، فتقصف سطراً سطراً، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً على أوقاتك وأزمانك وساعاتك ولحظاتك، ويتبين لك ما تئول إليه.

كلما جذبك الخوف إليه جذبه القرب عندك، حينئذ الثبات، لا تبال طال عمرك أم قصر، قامت القيامة أو لم تقم، أحبك الخلق أم بغضوك، أعطوك أم حرموك، ثم قام صارخاً وغطى وجهه ثم كشفه ثم قال:

﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[1].

اللهم لا تبد أخبارنا، ثم قعد.

وقال سفيان الثوري للفضيل بن عياض رضي الله عنهما: تعال حتى نبكي على علم الله فينا، فكانوا خائفين حذرين:

﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[2].

خافوا أن لا تقبل أعمالهم، خافوا سوء الخاتمة.

كان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول: إنما هو لباس دون لباس، وطعام دون طعام، وأيام قلائل.

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٦٩.

(٢) سورة المؤمنون آية: ٦٠.

(يا غلام) أغلق باب منة الخلق وقد فتح لك باب منة الحق، ثم قام وجعل يميل تارة يميناً وتارة شمالاً واضعاً يده على صدره قابضاً على ثدييه ثم قعد وقال: يا أعمى ادخل هذا الباب المفتوح، إنما هو بابان: مغلق ومفتوح، ادخل هذا المفتوح، اصحب السبب بالسنة إحياء لشرع نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم تقدم إلى المسبب باتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم في حاله، الكسب سنته والتوكل حالته، ثم إن قدرت أن تفنى عنك فافعل، لا مع السبب ولا مع الحال، مفوّضاً للحق يكفيك، يرفعك ويقربك، بل يعطيك ما لا تعرف.

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾(١).

مسلماً لأمواج قدره، أينما سقطت لقطت فضل الله عزّ وجل، أينما توجهت فثم وجه الله، رايت قربه وأنسه ورأفته ورحمته. مثل الغنى مثل رجل أعمى يأتيه طعامه على أطباق، تأتيه ولا يعلم جهتها، حتى إذا علم أصلها طلب تلك الجهة وسدّ جميع جهاته، هكذا هذا العبد إذا عرف أن الله هو المسهل هو المعطي هو الموجه إليه ذلك يعلق قلبه بالله تعالى. نفسك معشوقتك، لو علمت أنها عدوتك وقاتلتك لخالفتها، مانعتها الطعام والشراب إلا ما لا بد لها منه فذلك حقها.

أنت لا تصلح لك الزاوية بل تصلح لك الأسواق، لا يصلح لك أن تطلع على أسرار الله تعالى، المطلع على أسرار الله تعالى يكون أخرس، من لا يملك سرّه فليخل عن الخلق ليكن مأواه الكهوف والسواحل والبراري والقفار، من لا يتمكن أن يجمع بين الحكم والعلم ٧(٢) الغلاء سياط الملك يؤدب به، [قال ذلك في زمان شدة وفاقة].

(ويحك) تطلب الدنيا والآخرة وأنت تدعي المحبة، يا أحمق ادعيت محبته وتطلب منه دفع الضرر وجلب النفع، تنح ما أنت من القوم، أنت عبد الخلق، عبد النفس والهوى والشهوات، عندنا محاككم، عندنا صيارفة، عندنا نقاد. يا مدعياً ما هذا؟ تقوم الشيء في غير موضعه، الدعاء له موضع، ووقت الكلام له حال، والسكوت له أخرى، والنظر له حال، والغضّ له أخرى، أين العامل حتى نصحبه؟

الصديقون تزيد جميع الزمان عليهم العبادة فيه واجبة شكراً للمنعم، يقابلون

---

(١) سورة النور آية: ١٩.
(٢) كذا في الأصل.

النعم بالطاعة والشكر، يأمرك بالقليل من الحلال، أقصر من هذا الحلال، إن أكثرت أداك أخذه إلى أخذ المباح المشترك بين المسلمين، وإن أخذت ذلك أدراك أخذه إلى أخذ الشبهة، والشبهة إلى الحرام، والحرام إلى النار.

الزاهد من زهد في الحلال. وأما الزهد في الحرام فذلك واجب، قد يرد وارد إلى القلب فيعجز عن حمله، كالأم إذا جاء نعي ولدها تصرخ وتخرق ثيابها، يعجز العقل عن حمله، يغني به السماع والوجد، نخالط الناس بالدعاء ونوافقهم ونعاشرهم بالدعاء وقلوبنا باردة ناظرة إلى وعد الله إلى طعام الفضل إلى أن يثبت.

ازهد في مشيئتك لتظفر بمشيئة الحق عزّ وجلّ. من شرط المحبة ترك المشيئة والإرادة، بينما أنت كذلك إذ نطق لسانك واستمعت أذناك وفتحت عيناك، جاءت الألطاف والإكرام وجاء صفاء الأسرار ثماراً وجواهر، جاءتك الخدم والخدم، خدمك الكل وحمدك الكل وباهى بك الحق الكل، قال الله عزّ وجلّ:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[١].

امتثلوا أمر الله وأمر رسوله، اعملوا بهما، ما في هذه الطريق أنا ولا نحن إلا أنت أنت، ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾[٢].

وقال رضي الله عنه في قوله عزّ وجلّ:

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ ﴾[٣].

أقسم الله عزّ وجلّ بالسماء، ومن طرقها طرقها محمد صلى الله عليه وسلم، طرقتها همته ثم بنيته، نبينا صلى الله عليه وسلم عرج به إلى السماء السابعة، وكلمه ربه ورآه بعيني رأسه وبعيني قلبه، وهكذا كل من صح قلبه يرى قلبه ربه، ويقطع الحجب بينه وبين السماء، والأسرار والهمم تطرق، والأسرار تسير. صدور الصديقين بأنوار أسرار ربّ العالمين صدور مضيئة (اتقوا فراسة المؤمن).

القلب إذا قرب صير سماء فيها نجوم العلم وشمس المعرفة، تستضيء الملائكة بهذه الأنوار، ما من نفس إلا وعليها حافظ من الله تعالى، يحفظها من أن يختطفها الشياطين،

---

(١) سورة الحشر آية: ٧.
(٢) سورة الحديد آية: ٣.
(٣) سورة الطارق آية: ١.

وآحاد أفراد حفظتهم يقومون صفوفاً تحفظهم:

﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾[1].

أين الفصاحة والبلاغة؟ خربت بيتك، تدور بدور من مكانك، لا تبرح كأنك جمل الطاحون، لعلك دعا عليك بعض أولياء الله تعالى، قد عميت عينا بصيرتك، ضيعت الله فيضعك الله في الطريق، ثبتت في عين قصدك السبل، كثرت همومك وانقطعت أجنحة قصدك.

بقيت قطعة لحم بين الدنيا والآخرة، تحتاج إلى صديق يدعو لك بعد الإقرار بالإفلاس، استأنس القوم بالحق ثم بالملائكة، فإذا أنست بهؤلاء فتح لك باب آخر، إذا أنست بالخلق من الإنس ثم سددت ذلك فتح لك باب الأنس بالجن، فإذا سددته فتح لك باب الأنس بالملك.

الأشياء لا تفعل بأنفسها، النار لا تحرق بطبعها، ولا الماء يروي بطبعه، نار نمروذ ما أحرقت إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

أبو الخولاني رحمة الله عليه لما ألقي في النار لم يحترق، السمندل لا تحرقه النار، أخلصت في أعمالك خلصت من الخلق أخرجت من بينهم، إنما تصل إلى الحق عزّ وجلّ بالخروج من بينهم، وتطلبه عزّ وجلّ كرجل غريب دخل درباً يطوف على صديقه ينتهي إلى أقصاه ويعود إلى أوله وهو لا يعرف بابه والصديق ينظر إليه، حتى إذا رأى حيرته استحبه الحب فخرج إليه وعانقه وضمه إليه، كما فعل يوسف ببنيامين فقال له:

﴿ أَنَا۠ أَخُوكَ ﴾[2].

جعل الله أرض القلب قرار المعرفة والعلم لله عزّ وجلّ ثلثمائة وستون نظرة إليه بين الليل والنهار، لولا أن جعله قراراً لتقطع وتمزّق القلب، إذا صح واستقرب لقرب الحق عزّ وجلّ أجرى خلاله أنهاراً من الحكم لا نتفاع الخلق بها.

جعلهم للدين رواسي، الكبير منهم موضع النبيّ صلى الله عليه وسلم، والصغير موضع الصحابة، ودون ذلك موضع التابعين، عملوا بما قالوا امتثالاً، قولاً وفعلاً، سرّاً وعلانية، قرّت بهم أعين النبيين، وباهى الله عزّ وجلّ بهم الملائكة.

---

(١) سورة البروج آية: ٢٠.

(٢) سورة يوسف آية: ٦٩.

يا طوبى لمن اتبعهم وخفف عنهم أثقال الدنيا والعيال، قوم عندهم شغل شاغل عن الاكتساب قيام لمصالح الخلق، الخلق عندهم كالأولاد، لا يعلقون بالدنيا، والدنيا تعرض نفسها عليهم ويعرضون عنها، هذا الذي في يدك ليس لك، بل هو مشترك، الجيران شركاؤك، كسبك جعل في يدك للمؤاخذة والأخذ.

﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾(١) ﴿ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾(٢).

واس جيرانك، أطعم الفقراء، فإن دار الصديق ضيق وداخلها واسع، أين من غلق باب الخلق ووقف على باب الحق وأنزل حوائجه بربه؟ اقطع الأسباب واخلع الأرباب ثم انظر ما ترى.

قف على بابه وتوسد الصبر على الآلام، قدره وقضاؤه يقطع فلا تتألم، حينئذ ترى عجباً، ترى التكوين كيف يجمل حالك والرحمة كيف تربيك، والمحبة كيف ترقيك.

الدائرة كل الدائرة على السكوت بعد الحاجة، وهي حالة مباهاة الحق عزّ وجلّ للعبد، يحرم عليه مراضع الخلق والأسباب، يرده إلى قربه، الحق إذا حصل في حجر لطفه الرائحة تكفيه، رائحة الآلام، تكفيه الرحمة.

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾(٣).

يضطرك حتى تدعوه، يحب الإلحاح في الدعاء، يسدّ الأبواب في وجهك حتى تقف على بابه، والأحباب رأوا باب القرب مفتوحاً، كالأم تغلق بابها دون ولدها وتوصي الجيران أن لا يفتحوا باباً لغرض تريده، خرج قعد باكياً نادماً، كل باب يتوجه إليه يراه مغلقاً سيعود إلى باب أمه، الحق يضيق على عبده ليردّه إليه ولا يعلق قلبه بالخلق، ينبغي للفقير الصادق أن لا يطلب رفق نفسه، فإن كان ولابد طالباً فليطلب قدر كفايته.

إذا قربك وابتلاك تنعم ببلائه وإلا شغلك ببلائك، الرغبة في الأشياء تشوش عليك قربك من الله عزّ وجلّ والصبر على البلاء، من لا يخاف الله تعالى لا عقل له، بلدة بلا سبخة خراب، غنم بلا راع مأكولة، الدين الخوف، من خاف أدلج لا يستقرّ مكاناً

---

(١) سورة الحديد آية: ٧.
(٢) سورة الأعراف آية: ١٢٩.
(٣) سورة النمل آية: ٦٢.

واحداً بل يسير، غاية أسفار القوم قرب الحق، السير سير القلوب، سير الأسرار، إذا وصولوا إلى الباب استأذن السرّ فيؤذن له، ثم يستأذن بعد الأنس للقلب، صار نجم قلب النبيّ صلى الله عليه وسلم قمراً، والقمر شمساً، والخلوة جلوة، والباطن ظاهراً. العبد في حالتي المدّ والجزر أخذ رأسه في زيقه وخيمة سرّه على جملته، يرى ما تحت البحر من الجواهر وما يمدّ يده عليها يشير إلى حاضر عنده، أنت يا فلان خذ كذا وأنت خذ كذا، هم الملوك، ملوك الأرض والسماء بين يدي الحق عزّ وجلّ على وجه النيابة والخلافة.

أنا على باب الملك أنتظرهم، ناظر إليكم يقظة ومناماً، لكم أقاسي أذى هذه البلدة أصبر تحت آفاتهم، أواصل الضياء بالظلام غماً وهماً، وفكراً وترويا، كلما تقدمت قدماً رددت.

إبراهيم بن أدهم تحير في دعائه فغمضت عيناه، سمع الله عزّ وجلّ يقول: يا إبراهيم قل اللهمّ رضني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك، وأسألك تمام نعمتك، ودوام عافيتك، والثبات على محبتك. نبينا صلى الله عليه وسلم ألقى على قلبه طنيناً، نبا قلبه عن أهله، خرج إلى حراء وهي قطعة من طور سيناء[1]، جاء نسيم رائحة الوحي، كان فيه كهف، كان فيه عابد يقال له أبو كبشة جاء مكانه يعبد ربه.

بينما هو كذلك يرى الرؤيا تكون مفلق الصبح، إذا نودي يا محمد يا محمد، هرب من الصوت، جاء إلى بيته فقال: زملوني دثروني، إني أسمع صوتاً، قيل يا محمد، هذا لا يتدبر بالتزميل والتدثير.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾[2].

هذا هو القلب، مثله مثل نواة في صحن، دار لا سقف لها، لها أربع حيطان واقفة، غيث الشتاء وشمس الصيف ينزلان عليها، تنبت وأحد لا يراها، إذا ظهر سغفها وشمخت وأثرت وأينعت التقطوا منها ولا سبيل لهم عليها، هكذا القلب.

﴿ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾[1].

---

(١) أي تماثلها فهذا جبل وذاك جبل وفي كل منهما نزلت رسالة السماء فكلم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام على جبل سيناء، ونزل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم على جبل حراء.

(٢) سورة يوسف آية: ٢١.

الولاية باطنة مكنونة، الولاية، مثلها مثل ما مره الملك فراش مباطن لا يزال معه إلا إذا ركب. لا تسأل من الله عزّ وجلّ غير أمن الطعام والشراب واللباس، لا تهرب منه، لا تعبده لطلب هذه الأشياء، أيّ شيء تعمل بالرحمة؟

ثم قال: أغننا عن غيرك، لا تشغلنا بغيرك.

إيش هذا؟ يقول ذلك بوجه مغضب مقطب، ثم غطى وجهه وقام صارخاً ثم قعد وقام وقال:

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[٢].

قوم يكرهون الطلب من الله عزّ وجلّ لئلا يضاف إليهم الشره وترك التفويض والتسليم، الشوق يسرع خطواتهم، إذا زهدت في الدنيا سهل عليك بذلها لأولياء الله عزّ وجلّ، أحوال تخصهم، لا يصير البدل حتى تصير أثقال الخلق على ظهره، والرب عزّ وجلّ يحمل عنه لأنه بين يديه لا يبرح، ظاهر الحمل عليه وباطنه على يدي رحمته، عليكم بالتصديق وإزالة التهم من القلوب.

وقال رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[٣].

هي بعد النوم ونوم الخلق والنفس والطبع والهوى والإرادة، يبقى القلب طعامه وشرابه، المناجاة لله عزّ وجلّ والقيام والركوع والسجود بين يديه، ألا ترى من زهد في الدنيا لئلا يشتغل بها عن طلب الحق عزّ وجلّ، هذا يزهد في الآخرة لئلا تشغله عن الله عزّ وجلّ؟ يتمنى أن لا توجد الآخرة لأنها حلوة ظاهره رحمة، يصير القلب والسرّ وجها، يبدو على ظاهره ما في قلبه.

يحب دوام الدنيا لأنه يعبد الله سراً، يعامله سراً. أنت في وحشة من الحق عزّ وجلّ، متى يستوحش قلبك من الخلق ويستأنس بالحق من باب إلى باب حتى لا يبقى باب، من بلدة إلى بلدة، من سماء إلى سماء حتى لا يبقى سماء، يقيم القيامة على نفسه.

يقوم بين يدي الحق عزّ وجلّ يقرأ صحائفه الحسنات والسيئات، توقع له بالنار

---

(١) سورة عبس آية: ٢٢.
(٢) سورة ص آية: ٨٨.
(٣) سورة المزمل آية: ٦.

هو بين خوف ورجاء، بين سقوط في النار وعبور، تداركه الله تعالى بلطفه، أطفأ النار بماء رحمته ونادت النار (جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي) يقرب عليه العبور مسيرة ثلاثة آلاف سنة في لحظة، حتى إذا قرب من دار الملك رجع إلى عقله وأرادته ومحبته لمولاه وشوقه، قال: لا أدخل إلا مع المحبوب. أما ترى السقط يقف على باب الجنة يقول: لا أدخل حتى يدخل أبواي؟ أين الجار أين الشاهد؟

لا يدخل حتى تستلمه يد النبي صلى الله عليه وسلم ويدخل إلى المحبوب، حتى إذا تم له هذا رد إلى الدنيا لاستيفاء الأقسام لئلا يتبدل العلم وينسخ ويمحى، فرغ ربك من الخلق (لا تخرج نفس من الدنيا حتى تستوفي قسمها، فاتقوا الله عز وجل وأجملوا في الطلب) من الحق لا من الخلق، الأسباب حجاب. أبواب الملك مغلقة إذا أعرضت عنها فتح باباً تعرفه، باب السر سار إلى سد فينفتح من غير حولك وقوتك.

المؤمن يخرج من طبعه قاصداً إلى ربه، بينما هو كذلك إذ هو بيد في الطريق، في نفسه وماله، يرجع إلى ذنوبه وإلى سوء أدبه وإلى خرق حدود شرع ربه، لا يستعين بالدعاء ولا يستعين بغير ربه، بل يذكر ذنوبه ويعود على نفسه بالملامة، حتى إذا فرغ من ذلك رجع إلى القدر والتسليم والتفويض من حيث القلب، بينما هو كذلك إذا رأى باباً مفتوحاً.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾(١).

ابتلى لينظر كيف يعمل؟

﴿ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾(٢).

إنما يستقيم قلب ابن آدم بالخير والشر، بالعز والذل والغنى والفقر، حتى إذا اعترف بالنعم لله عز وجل وهو الشكر، والشكر طاعة لا يتحرك اللسان والجوارح، وعند البلاء الصبر اعترف بالذنوب والجرائم، حتى انتهت خطوة الحسنة وخطوة السيئة إذ هو بباب الملك، خطا خطوة الشكر وخطوة الصبر، والقائد التوفيق.

رأى باب الملك، رأى هنالك ما لا عين رات ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، تنقطع نوبة الحسنات والسيئات، تأتي المحادثة والمكالمة والمجالسة، أتعقل هذا يا

---

(١) سورة الطلاق آية٢، ٣.
(٢) سورة الأعراف آية، ١٦٨.

عراقي؟ يا جمل الطاحون يا أحمق؟ أنت في قيام وقعود بلا إخلاص، تصلي للناس وتصوم وعيناك إلى أطباق الناس وإلى ما في بيوتهم.

يا خارجاً عن الأنام يا منفرداً عن صف الصديقين والربانيين، أما تعلم أني كبيركم مستاركم محنككم، اجهد جهدك اقطع طبقك عني، جرد سيفك علي، ما أنت على شيء، يا جويهل في حبالك أفتل، لك أنصح وأرحم، إني أخاف أن تموت زنديقاً مرائياً دجالاً تعاقب في قبرك عقوبة المنافقين، فقصر مما أنت عليه.

تعرّ اللبس لباس التقوى، أنت عن قريب ميت، لا عداوة بيني وبينك، ستذكر ما أقول لك: الصالح تنبئ رؤيته عن حاله. من عرف الله كلّ لسانه، نطق به، استغنى به وافتقر إليه. كنت أسمع في صغري وأنا في بلدي قائلاً يقول لي: يا مبارك، فأهرب من ذلك الصوت، وإني لأسمع في الخلوة قائلاً يقول لي: إني أراك بخير.

إن أردت الفلاح فعليك بملازمتي، إذا رأيت إنساناً يهرب مني فاعلم أنه منافق. المؤمن من إذا غمض عيني رأسه انفتحت عينا قلبه، رأى ما هنالك، وإذا غمض عيني قلبه انفتحت عينا رأسه، رأى موضع الله وتصاريفه في خلقه، فيما خاطب الله به موسى عليه السلام:

﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾[1].

وقربتك إلي، كنت يوماً ترعى غنماً فشردت منهم واحدة فتبعتها إلي أن أدركتها وقد عييت وأعيت، فضممتها إليك وقلت: لقد أتعبت نفسك وأتعبتني. دواء المحجوب النظر في سبب حجابه، والتوبة عنه والإذعان لديه. المعصومون المحفوظون من كل وجه ليس لهم تكوين، التكوين في الطريق، لا كلام حتى تقطع الفيافي والقفار والبرين والبحرين، برّ الخلق وبرّ النفس، بحر الحكم وبحر العلم والساحل.

القوم لا ليل لهم ولا نهار، أكلهم أكل المرضى ونومهم نوم الغرقى، كلامهم عن ضرورة، من عرف الله كلّ لسانه، لكن إذا شاء أنشره، ينطلق بلا أدوات، بلا آلات، بلا ترتيب، بلا مهلة، بلا علة، لا فرق بين لسانه وأصبعه، إذن لا حجاب ولا قيود، ولا باب ولا بواب، ولا إذن ولا استئذان، ولا تولية ولا عزل، ولا شيطان ولا سلطان، لا جنان ولا بنان.

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٤٤.

ثم قال: خاب من غاب، اليوم لا تجيء أول خطوة والثانية لا تجيء، الأولى الخروج من بيت وجودك والثانية هي نعمته:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾[1].

والوقوف على الباب ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾[2].

عند رؤيته ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[3].

بعد رؤيته لا تضف النعم إلى غيره، أنت مشرك، أنت مغيّر نعم الله، غيّرالله ما بنفسك من نعمة، اقطع زنارك وارجع، لا عبرة بظاهرك حتى يتوب باطنك، وتخلص سريرتك بربك.

يا غلام يا غليم، النبيّ صلى الله عليه وسلم جاءته النبوّة، كتمها سنين، أكل بعضها بعضاً حتى قيل له:

﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾[4].

وأنت ترى شيئاً تظهره ولا تكتمه، وقعت عليك رزمة ثياب من دارك فتحت بابك وقلت اشترِ مني لعلها للجيران عارية وديعة. أربعة أشياء منها صلاح القلب:

الأول: النظر في اللقمة.

الثاني: الفراغ للطاعة.

الثالث: صيانة الكرامة.

الرابع: ترك ما يشغلك عن الله.

أما النظر في اللقمة فما عندك منه خبر، إنما يصح هذا الأمر بالورع الشاق والوقوف بين يديه والمناشدة له لحفظ الدين. المؤمن يقف في أكله وشربه، يطلب الإذن من الكتاب والسنة، حتى إذ قرب من مولاه عزّ وجلّ ثم أمر بأمره ونهى بنهيه يعلم بعلمه، ينصر بنصره، جددوا العهد به قبل الموت، سوف ترى إذا انجلى الغبار يا بطالين يا جاهلين يا غافلين.

---

(١) سورة الفاتحة آية: ٢.
(٢) سورة الفاتحة آية: ٥.
(٣) سورة العلق آية: ١٩.
(٤) سورة المائدة آية: ٦٧.

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[1].

سؤال النفس الخائنة كيف أقنع بفتواها؟ فأجاب جاهدها: حتى تموت ثم تحييها نشأ آخر فقيهة عالمة مطمئنة، تغلق باب شهواتها ولذاتها، احبسها عن شهواتها حتى إذا ذبلت رجعت شهواتها إلى سرك، تصير قلباً بالمجاهدة، القوم يتمنون مجيء الليل ونوم العيال لأنهم مكلفون يحملون أثقال العيال والأسباب مع سكون قلوبهم إلى ربهم عزّ وجلّ، جوارحهم تتحرك في الأسباب. إذا كنت متقياً قبل البلاء لم ترجع حين البلاء إلا إليه، لم تر له كاشفاً إلا هو، ترى الخير والشرّ يخرجان من عنده، والضرّ والنفع، والعزّ والذل، والغنى والفقر.

(سؤال) ما معنى قول بعضهم: إن لم ينفعك لحظة لم ينفعك وعظة؟ قال رضي الله عنه: قوم غابت الدنيا والآخرة عن عيونهم وعن قلوبهم ورأوا ربهم فإن لحظوك نفعوك. إذا نظر الوليّ إلى أرض يابسة أحياها الله وأنبتها، أو يهودي أو نصراني هداهما الله.

قال له قائل: لم نراك تعانق هذه الخشبة وهي رمانة الكرسي؟ فقال: لأنها قريبة مني، وترى أشياء ولا تخبر ولا تنم فلذلك أعانقها، فقال له: فنحن أقرب إلى قلبك، قال: يا ابن دايتي، إنما تكونون كذلك إذا اتقيتم الله تعالى وراقبتموه وخفتموه وطلبتموه، كنت أكون لكم خادما محبا.

إذا زهد العبد وتراجع وتجاعد فتح الله له وقرّبه وأدناه، أغمض عن الاطلاع على العلم، أراه العلم وأطلعه الانخمال والذبول والتجاعد من حسن الأدب، القوم ينطلقون بجوارحهم وقلوبهم وسرائرهم وخلواتهم من مكاره ربهم، صاروا أتقياء، صاروا كرماء عنده.

معبود أحدكم درهمه وديناره، إذا ذهب عنه قامت قيامته ويفوته صلاة جمعة أو جماعة لا يبالي، أو يموت له ولد فاسق فاجر يكثر جزعه ويطلب الاستئناس بأحد الخلق والملائكة معه لا يستأنس بهم.

العبد إذا صفا قلبه استأنس بالملائكة وقد تحدثه في خلوته. يا غائبا عن الحق، يا غائبا عن الشرع والدين، يا قائما مع الدنيا والنفس والطبع، يا عابد الخلق، يا ناسي الحق لابد من لقاء الله تعالى، ألقه الآن، أترك الخلق والنفس وقد أمنت الحق، سوى ذكره باطل، سوى العلم به باطل، كل معاملة لغيره خاسرة.

---

(١) سورة ص آية: ٨٨.

طالب الدنيا كثير وطالب الآخرة قليل، وطالب الحق عزّ وجلّ قليل، قليل أنت مع دنياك، ليلاً ونهاراً تستخدمك وتقطعك، نحن نستخدمها وما يتقلب فيها فكيف أنت؟

يا مدبر لابد فيها من يد الشرع والعلم، ما يفتيك به خذ وما لم يفتيك به فامتنع، ما تحسن تناجي ربك، توقف عند بيعك وشرائك ولقمتك وأخذك وعطائك وكلمتك.

ما كان لله فانتزه وما كان لغيره فاتته عنه، إذا غلبت المحبة سقط التمييز بين الدنيا والآخرة، بين العطاء والمنع، بين القول والرد، امتلأ قلبه بحبه، اتحد خير محبوبه وشرّه، اتحدت أبوابه وجهاته، الحبّ جمع بين ذلك، اتحد الخبر والعيان، الضرّ والنفع، أبداً قلبه في وجد، تارة يجد بذكره الله تعالى جلالاً وأخرى بذكر الله جمالاً، نهاره داهش كلما قرب إليه بعد، كنار موسى عليه السلام، كلما قرب منها بعدت حتى انتهى إلى:

﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾(١).

هكذا القلب يرى أنوار القرب كلما تقدم بعدت:

﴿ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ ﴾(٢).

انقطاع الخطوات أجله، ينقلب الأمر يصير الطالب مطلوباً والقاصد مقصوداً والمريد مراداً، جذبه من جذبات الحق خير من عمل الثقلين، يرى عبده خارجاً من بيت طبعه وشهواته وهواه، مودعاً للخلق وتاركاً للشهوات طالباً له متغيراً.

يقوم ويقعد لا زاد ولا راحة ولا رفيق، يواصل الضياء بالظلام صياماً وصلاة ومجاهدة، بينما هو على ذلك فإذا هو على باب قربه، في حجر لطفه، على مائدة فضله ناظر إلى سابقته، تحبّ العالي وأنت في التخوم، تحب الجنة ولا تعمل عملها.

قال بعضهم: احبس نفسك عن المألوفات، لا تأكل ولا تتناول لقمة إلا بتوقيع من الله تعالى، ولا تتناول دواء إلا بأمره، ينقلب مزاجه بما يخرج من كتب الطب وفتواهم:

﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(١).

---

(١) سورة طه آية: ١٤.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٣٥.

طبيبه المحبوب في بيته، هو يتولى أغذيته ومشروباته.

ثم صرخ صرخة عظيمة وقام يميل تارة عن يمينه وتارة عن شماله، ورفع يديه إلى السماء مشيراً بالتسليم، وكذلك إلى آخر مجلسه ثم قال: وا حريقاه، وا مصيبتاه عليكم، ثم مدّ يديه للدعاء وقعد للدعاء ولم يتكلم، ثم عاد وقام يتلوّن وجهه، تارة صفرة وتارة حمرة.

القلب إذا ارتفع عن الدنيا وصار ضيف قرب الحق عزّ وجلّ يأبى العصمة من الخلق في الجملة من العرش إلى الثرى، كأن الخلق لم يخلقوا، كأن الله ما أحدث شيئاً، كأن لا خلق غيره، يعني صاحب هذا القلب الموصوف واحداً لواحد، محبّ ومحبوب، وطالب ومطلوب، ذاكر ومذكور، لا يرى غيره.

وقال رضي الله تعالى عنه: جاءني خبر ما يكون من بلاء يأتي هذه البلدة، ثم دعا لأهل البلدة بالدفع عنهم.

ثم قال كالمذل: لعمري إن في هذه من يستحق القتل والصلب، ولكن لعين تكرم ألف عين، تهلكنا بهم، تأخذنا بذنوبهم، إيش عملنا نحن؟ يقول ذلك بكلام مغضب، جعلت الصديق والعدو في كير القدر، ذابا صارا سبيطة واحدة.

لا تطلب شيئاً من الكرامات والمعجزات، أنت لا تزاحم الأنبياء في المعجزات ولا الأولياء في الكرامات، إن أردت قرب الحق وصحبته، إذا دامت الصحبة لقمك شيئاً أكلت، كساك شيئاً لبست، تمنى هذه الأشياء حجاب وردها بعد مجيئها حجاب الأولياء، إذا سلك بهم إلى الحق عزّ وجلّ تخدمهم الجن والإنس والملك.

أينما سقطوا لقطوا حتى يذهب عنهم وهج الدنيا والوجود، يخدمهم اللطف هنالك والدلال، حتى إذا أذن لهم بالدخول إلى باب القرب صدمتهم الآفات، آفات الجلال لتذوب نفوسهم وبقايا من وجودهم، يحبس عنه فتوح الظاهر طعام الظاهر ولباسه وعافيته، يبقى القلب مجرّداً مع السرّ الصافي، يقدم لهم طعام الفضل وشراب الأنس تاج الكرامة لباس المنة، يقلم العلم اللدني والحكمة، ثم يعرّفهم الملك أسماءهم، يعرّفهم نعمه السالفة والآنفة، ويسكنهم جميع ذلك ويردهم إلى الوجود لإصلاحهم وهدايتهم ودلالتهم وسفارتهم، ثم يمكن قلوبهم من التكوين وألسنتهم من السؤال والدعاء مع

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٩٦.

الإجابة. هذا آخر الزمان، زمان النفاق، عجب دائم وكفر دائم وحجاب.

العجب يسقطك من عين الرب عزّ وجلّ، كلاهما ضدان عن الطريق حاجبان. إن قال قائل: ما النفاق لنجتنبه؟ قل له: قال النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلم:

(المنافق إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان).

المؤمن لا لباس له ولا طعام له ولا نكاح له ولا سرور ولا أمن له ولا قرار له حتى يرى موضعه ويسمع قلبه، حتى يرى سابقته واسمه في خلوته، يتناول في الصحاري والبراري على القدر والملائكة ترى حالته وتسمع لقبه، والملائكة تقول: من هذا؟ فيقول بعضها لبعض: هذا فلان المحبوب الصديق، واحد من أربعين، أو من سبعة، أو من ثلاثة، له كذا له كذا، والقدر يقلبه ذات اليمين وذات الشمال، القدر يقلبه ويلقمه.

﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾[1].

يأتيه الحديث من قبل قلبه، يقال له ارجع إلى بيتك، احفظ كنزك، اكتم نفسك، اجعله كأنه كان مناماً، يسمو قلبك وسرك إليه. اقعد في كتاب الحكم ثم نم في كتاب العلم حتى تبلغ ويزول صباك، حينئذ يكسوك ويطعمك، تريد هذا وأنت ممتلئ طبعاً وهوى وشهوة، أنت قمت إلى الصلاة بعت واشتريت وأكلت وشربت ونكحت بقلبك بوسوستك.

قيل له: ما دواء ذلك؟

قال: تصفية لقمتك من الحرام والشبهة. والدواء الثاني مخالفة النفس فيما تأمرك به من ارتكاب المناهي.

إذا انزعج العبد من كلمة تلقى في قلبه وقلق أضيف إليها أخرى، يقلّ قلقة ويفتر انزعاجه، ويضاف إليها أخرى يأتي السكون والهدوء ويذهب قلقه، يخاطبه الحجر والمدر في طريقه تثبيتاً له وتسكيناً، يقول له: يا وليّ الله، يا مراد الله، يا حبيبه، يا مقربه.

وقال له رجل: ادع لي، فقال: اللهم أغنني عن الخلق بك، وأغنه بذكرك عن السؤال، فإذا استغنى عن الخلق لزم باب الحق عزّ وجلّ فيغنيه بقربه، فإذا أغناه بقربه اشتغل بذكره وشكره عن السؤال له. إذا امتنعت من الطعام والشراب في البراري نبعت

---

(١) سورة البروج آية: ٢٠.

لك عين في دارك، أقوى سلاح الشيطان عليك الخلق، حسن قلبك ثم ظاهرك، الشغل كل الشغل في دار الخلق وثباتهم محبّ مستحسن خرج في طلب محبوبه، يوسف عليه السلام خرج في طلب يعقوب، كان من رآه أحبه وعشقه، تبرقع وسجن مقصوده يعقوب لا الأغيار.

وَليتَ الذي بيني وَبَينكَ عامرٌ وَبَيني وَبَينَ العالمينَ خَرابُ

جاء منادي الحق: اقطعوا بناء الخلق عنكم.

﴿ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ﴾[1].

لا كلام حتى ينضب الماء عن ضفدعك، حتى يخلو البرّ لعبادته، سرك عنده في سفينة قدرته، لقنه:

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ ﴾[2].

في بحر العلم، صحبة عباد الله كصحبة الأسد مع الخوف والوجل، الذي شبع بغيرك لا يشتغل بك لاشتغاله بغيرك، فإن التفت إليه بعد رجوعك افترسك، صحبة الصديق كذلك لأنهم في صحبة الملك كذلك.

كان رجل من أصحاب الجنيد يتهم على الخاطر، فأعلم بذلك الجنيد فقال له: ماذا يقول عنك؟ هو أحمق؟ قال: نعم، تكلم بقلبك؟ فقال: نعم تكلمت، ما هو؟ قال: تكلمت بكذا وكذا، قال: لا، ثم تكلم مرة أخرى وأخبره فقال: لا، ثم تكلم مرة أخرى بقلبه وأخبره فقال: لا.

فقال: يا شيخ ما معي حق فأنظر ما معك، قال: صدقت في الجميع، إنما أردت أن أختبر صفاء قلبك وثباته. قلوبهم مجاري إرادته، خزائن علمه صدر سره، خزائن القدر في وادي القدر، كلما دارت أسرارهم في مناكب دار القدر التقت العلوم والأسرار، ما يصنع بخشب مسندة، ما يصنع بالسور بلا معنى.

﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾[3].

وبعض الناس كتب ثلثمائة وستين قصة، يوصل كل يوم قصة إلى أمير البلد لم

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٣٥.

(٢) سورة هود آية: ٤١.

(٣) سورة البقرة آية: ١٨.

يسأم، حتى خرج أخيراً توقيع مراده، وأنت تسأل الله تعالى يويمات أو لويلات تسأم وترجع إلى الخلق، هلا ذكرت صاحب القصص؟

ما دمت مع الخلق لا تفلح تب عن الخلق إلى الحق، وليكن وقوفك على عتبة باب قربه تجذبك يد المحبة والقرب تصير جليس ذلك البيت، حتى إذا رأيت تلك المرافق والأمكنة جاءك البسط من كل جانب، قوى جناحك، طرت إلى شرفات ذلك البيت، صارت تلك الشرفات برجك، إن سقطت سقطت في صحن الدار، تتقلب بين يدي صاحب الدار، تكون داعياً مجاباً، إن أردت نفع الخلق هكذا فافعل، ولا تهذ هذياناً فارغاً.

كان رضي الله عنه يريد الكلام الذي يتلى على الناس من الوعظ، الصلاة صلة بالله تعالى بعد الانفصال عن غيره، الجسم لا يتجزأ في مكانين، انفصال من الخلق واتصال بالحق، هذه صلاة القوم.

أما صلاة العباد فإن يجعلوا الجنة عن يمين القلب والنار عن شماله والصراط بين يديه والرب مطلعاً عليه.

وأما صلاة المحبين فهي الانفصال عن الخلق والاتصال به. علامة صدق طلب نفسك الطعام أن تسمع صارخاً من باطنك كصيام الفروج، عند ذلك أوصل إليها ما يقوم به أودها، قال الله تعالى:

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾(١) و﴿ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾(٢)

لا تعمل بهاتين الآيتين إلا بعد دخول القلب على ملكه، عند ذلك يأتي الفعل والإيهام، وقبل الدخول يفرق بين وارد يرد في باطنك إلهام شيطان وإلهام طبع وإلهام نفس وإلهام ملك.

إذا أردت أن تصحب أحداً في الله عزّ وجلّ فأسبغ وضوءك عند سكون الهمم ونوم العيون، ثم أقبل على صلاتك تفتح باب الصلاة بطهورك وباب ربك بصلاتك ثم اسأله بعد فراغك، من أصحب من الدليل؟ من المخبر عنك؟ من المفرد؟ من الخليفة؟ من النائب؟ هو كريم لا يخيب ظنك، لا شك يلهم قلبك، يوحي إلى سرك، يبين لك، يفتح الأبواب، تضيء لك الطريق، من طلب وجدّ وجد:

---

(١) سورة الشمس آية: ٨.
(٢) سورة النجم آية: ٤٣.

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾[1].

العلة فيك لا في كلامه، فإذا اتحدت الجهات عند قلبك وغلب الأمر على تعيين واحد دونك وقصده صحبتك له كصحبة السباع والحيات، لا تنظر إلى فقره ونقصان نسبه وإخلال حاله ورثاثته وقصور عبارته، فإن المعنى في باطنه لا في ظاهره، لا بنيته، لا على وجهه، ولا تبده بكلام، ولا تبد له حالاً، انتظر فائدته من ربه.

هو الكاتب والأمر لغيره، هو سفير، هو المشار والطبق لغيره، هو المعبر والعبارة لغيره فتقبل ما يفتح الله على لسانه، لا تجاوز لحظه، لا تخرق حده أبداً مطرقاً خائفاً وجلاً، لا تتهمه في حاله ولا مقاله ولا أفعاله، فضله على كل من يعقل، وليكن بقلبك من عنده إلى ربه لا إلى غيره، متفكه لا تطعمه، متكلم لا تجيبه، طبعنا على ما طبعت عليه البهائم.

لكن العقل يميز، والشرع يميز، والعلم يميز، والقرب يميز، والمعرفة والطاعة تميز، والأصل واحد، إذا عملوا بالعلم ومرّوا على ميت أحيوه[2]، أو عاص ذكروه، تأتيه أطباق في بيته، لغيره يسعى في تحصيل الخراج، فإذا حصله سلمه إلى الملك وله جامكية يأخذ من الخلق لا له، إذا أراد الله بك خيراً نبهك، وبعيوب نفسك عرّفك، عالمكم جاهل، جاهلكم مفتر، زاهدكم راغب، لا تأكل بدينك إنما يؤكل بالدين الآخرة.

وقال رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى:

﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾[3].

حلمها على ظاهرها أن المعتدى الطالب من غيره السائل لسواه.

عبد الله بن مسعود، كان يقول لأصحابه: أنتم جلاء قلبي، من كان يسمع لله والانتفاع بكلامي فيكون جلاء، وإلا فلا يحضر عندي فيكون مكدراً.

لما خرج إبراهيم عليه السلام من النار وكثرت مواشيه وغلمانه عمل داراً في الشام كثيرة الأبواب، انزوى هنالك بعد فراغه من الثمن ودواء قومه، أشروا التربية خلفه، ما الخلة؟ الصحبة، والمحبة الوصلة.

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٦٩.

(٢) قد لا يقصد الموت الحقيقي، ولكن موت القلب.

(٣) سورة الأعراف آية: ٥٥.

(سؤال) القال يقتدي به أم الحال؟

قال رضي الله عنه: القال يقتدي به العوام، والحال يقتدى به الخواص، من أهل من أنت؟ أرني نبضك أقعدك على حالك وأريك شدة مرضك وأبرئه.

كان من دأبه صلى الله عليه وسلم عيادة المرضى ونحن قد منعنا من ذلك، ولكن نعود الأصحاء بهمتنا، منعت أرجلنا عن المشي إلى بيوتكم وأيدينا عن تناول أموالك، أمرنا من حيث الحال والقدر.

وقال رضي الله عنه: يجوز أن يموت رجل ويخلف عشرة من الأولاد بارّون به في درجة واحدة، تقاسموا تركته على السواء، وفيهم واحد كان والده إليه وكان يتمنى أن يرث جميع تركته، فجاء القدر إلى واحد بالموت فبقي ذلك الواحد حاز جميع تركته، فجاء القضاء والقدر أفي هذا عيب؟ إلى ههنا والسلام.

اللهم كف الخلق عنا، اللهم كف النفس عنا والأهوية والطباع، قلت: أخاف هذا البحر وأنت تسبح فيه، والخوف بضد ذلك.

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[1].

لما علموا خافوا، علمت بمضرة الشيء فاحذره واجتنبه، الموت لا بد لك منه فاعمل له، يا من ليس لداره سقف ولا لعياله دقيق ولا شعار ولا دثار، جاء الشتاء فتأهب، جاء الأمير فترجل، جاء السبع فاحذر سبع الموت، ما معنى قولك في صلاتك:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2].

إياك نطيع وإياك نوحد متى وحدت الحق عزّ وجل؟ متى أخلصت العمل؟ متى زهدت في الخلق والرياء والنفاق والصحب؟ متى تذللت للحق؟ الذلة من حيث القلب من حيث الخلوة، إذا ازدحمت شهوة النفس مع رؤية الحق استحياء من رؤيته فترك شهوة نفسه. متى ترى يعقوب عليه السلام عاضا على أنامله في خلوتك عند شدة شبقك، متى ترى عصمتك، تلك عصمة غيرة الله عزّ وجل، لما اجتمع يوسف عليه السلام بتلك المرأة جاءت الغيرة ولى هاربا:

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[3].

---

(١) سورة فاطر آية: ٢٨.

(٢) سورة الفاتحة آية: ٥.

(٣) سورة يوسف آية: ٢٤.

متى تنقلب حالتك حال يوسف عليه السلام؟ لما تكلف يوسف عليه السلام العصمة في بيت الله وحجره وافق ربه في حبسه رزقه عصمة عند خلوته، كونوا كذلك عباد الله، يا مريدين استعيروا حالة الصديق، اطلبوا من الله. التوكل قطع الأسباب، ترك الكل القلب، إذا انقلب صار ملكاً، يسمع الملك، يعرف ما يعرف الملك، ثم يزيد فيصير ملكاً عليه.

وقال رضي الله عنه في قصة موسى عليه السلام: السرّ سرّ السرّ، ترك أهله حين آنس من جانب الطور ناراً، إيش رأى؟ رأت عين الرأس ناراً، وعين القلب نوراً، رأت عين الرأس خلقاً، وعين القلب حقاً:

﴿ فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا ﴾(١).

بقلبه جذبت، وللزهد من يده في زوجته وولده زهدت، قال لأهله امكثوا، جاءت نداءات عالياً، جاءت خطاطيف القدر سلبت القوم من أهاليهم وأولادهم، يا حكم اثبت، يا علم بسرّ الله تقدم، يا نفس اثبتي، يا قلب ويا سرّ أجيبا، ي خيبة من لا يدرك هذا ولا يحب هذا ولا يؤمن بهذا، يا خيبته يا خيبته يا حجابه يا مقته:

﴿ سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ ﴾(٢).

اثبتوا مكانكم حتى آتيكم بخبر الطريق لأنه كان قد ضل عن الطريق، غابت عنه دلائله، حضر عنده نقيب النقباء ولم يكن حضر قبل ذلك فقال مشيراً إليه: ليتك لم تخلق، وإذا خلقت علمت لم خلقت له؟ يا نائماً انتبه، فإن السيل قد أحاط بك: من أمامك؟ يوم القيامة تدعي ما كتابك؟ من معلمك؟ من داعيك؟ من نبيك؟ لا نسب لك، صحيح النسب عند الله وعند نبيه صلى الله عليه وسلم أهل التقوى، قيل يا رسول الله من آلك؟ قال:

(كلُّ تقيٍّ آلُ محمّد).

اسكت أنت لا عقل لك بيتك على الدجلة وتموت عطشاناً، خطوتان وقد وصلت إلى الرحمن النفس والخلق، وأنت يا مريد خطوتان وقد وصلت في الدنيا والآخرة، إن أردت الفلاح فاصبر على مطارق كلامي، إني إذا أخذني جنوني لا أراك، إذا ثار طبع

---

(١) سورة طه آية: ١٠.
(٢) سورة النمل آية: ٧.

سري طبع إخلاصي، لا أرى وجهك وأريد الصلاح وإزالة الخبث عن القلب وأطفئ الحريق عن بيتك وأصون حريمك.

افتح عينيك وانظر ما أمامك، أتتك جنود العذاب والمؤاخذات. ويلك يا أحمق أنت بعد قليل ميت، كل ما أنت فيه زائل متفرق، هذا يفارق ولده وداره وزوجته، ويرافق التراب والقبر والزبانية أو ملائكة الرحمة.

يا راحل يا زائل يا منتقل يا عارية، سبحان من من عليكم يا ملتهين ولا ترون، يا مدبراً لا تأتيني في كل سنة مرة، أو في كل شهر مرة، أو في كل أسبوع مرة، بلا ذرة ولا حبة، خذ شيئاً بلا شيء، وغداً ألف ألف شيء، أنا حامل أثقالك، تخاف أن أكلفك حمل أثقالي، إنما يكفينيها الله عزّ وجل، سافر ألف عام لتسمع مني كلمة فكيف وبيني وبينك خطوات، أنت كسلان أنت جويهل أليكع، عندك أنك أعطيت شيئاً، كم سمنت الدنيا مثلك وأكلته؟ سمنته بالجاه والكثرة ثم أكلته، لو رأينا فيها خيراً ما سبقتنا إليها:

﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[1].

ما نحن فيه كله من الله، لما نزل عن الكرسي قال له لبعض تلامذته: لقد بالغت في العظة وخشنت القول له، فقال: إن عمل معه كلامي فسيعود، فلم يزل بعد ذلك يحضر مجلسه ويأتيه في غير وقت المجلس فيقعد بين يديه متواضعاً متصاغراً رحمه الله تعالى.

اللهم صبراً وعفواً، اللهم أعنا. إذا وقفت بين يدي أحد من الخلق لطلب ما عنده مقتك الله.

(من تضعضع لغني لأجل ما في يديه ذهب ثلثا دينه).

أنت تعوّدت الطلب من الخلق، تلقى الله تعالى وأنت على ذلك، رأيت في الرحبة رجلان، كان يطلب من الناس وقد باع جبة ديباج بخمسة وعشرين ديناراً، فتبعته فوقف على رجل يأكل هريسة، فلم يبرح حتى أعطاه لقمة، قلت له: ألم تبع جبة بكذا وكذا؟ قال: أترك صنعتي لأجلك؟ من بلغ غاية الولاية يصير قطباً، يحمل أثقال الخلق جميعاً ولكن يعطي كإيمان الخلق جميعاً ليستقوي به على حمل ما حمل، لا ينظر

---

(١) سورة الشورى آية: ٥٣.

قميصي وطريحتي هذا اللباس بعد الموت، هذا كفن وكفن الميت يجمل، هذا بعد لبسي الصوف وأكلي الخشن والجوع عندي شغل شاغل مع غيركم، يا أهل بغداد كونوا عقلاء، يا أهل الأرض ويا أهل السماء.

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١).

ليس بالتحلي، هذا ظاهر بصدقة باطن، وباطن بصدقة ظاهر، لا كلام حتى تصير أربابك رباً واحداً، وجهاتك واحدة، ومحبوبك واحداً، يتحد قلبك. متى يخيم قرب الحق في قلبك؟ متى يصير قلبك مجذوباً وسرك مقرباً وتلقى ربك بعد الخروج من الخلق؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(مَن انقطعَ إلى اللهِ عزّ وجلّ كفاهُ مؤنتَهُ، ومَن انقطعَ إلى الدُّنيا وكَلَهُ اللهُ إليها).

تخرق العادات فيه، لا ينال ما عند الله إلا بعد الانقطاع إليه بقلبه وكليته، الله تعالى يقول:

(مَن عمِلَ عملاً يُريدُ بهِ غيري فأنا أغنى الشريكَينِ هوَ لشريكي دوني).

الإخلاص أرض المؤمن، والأعمال حيطانها، والحيطان تتبدل وتتغير، وأما الأرض فلا، إنما تأسيس البنيان على التقوى. فإن قيل: قد انقطعت إلى الله عزّ وجلّ فلن يكفني مؤنتي. فالجواب: إن الخلل فيك لا في الرسول:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾(٢).

هل عندكم خير من الله تعالى، لا والله، بل أنتم عشاق الدّنيا وزينتها، لو كنت صادقاً فيما تدعيه لم تحتل في طلب ذرّة، ارم نفسك في وادي حتى إذا نيل أمرها اتصل رأس درجتك بباب القرب، استقبلك وجه أحسن من زينة الدنيا والآخرة، تمت المودة بينكما، ارتفعت الحجب والوسائط، سمعت استغاثتها من وادي قدره.

تسلم ودائعك واستوف خدمتي لك، أنا محبوسة ههنا عليك ولك، يشفع إجابتها قربك، حينئذ امتدت يد العلم إليها وساعديها يد الحكم، أما غوصك فيها في بدء أمرك قبل مخالفة طبعك وهواك وإرادتك مع زعمك أنك من المقرّبين المحبوبين فذلك تحسر

---

(١) سورة النحل آية: ٨.
(٢) سورة النجم آية: ٣.

يلازمك، وحرمان يخدعك، لو علمت أن الدنيا تقطعك لما سألتها، إذا تهذب باطنك لله عزّ وجلّ تهذبت الدنيا لك، شرابها سم، هي تبدو بحلاوة وتثنى بمرارة، حتى إذا صارت في قلبك وجعلت تحت جناحها انقلبت سما وذبحتك، كان من تقدم يميزون بين الخواطر قبل الانقطاع إلى الزاوية، يا من لم يميز بين خاطر النفس والشيطان والقلب كيف ينقطع خاطر الشيطان بالمعاصي والزلات وبالفكر في الأصل وبالمعاصي في الفرع وخاطر الملك بالطاعات والأعمال الصالحة؟ قيل للذي صلب: يعني الحلاج: أوصني، قال: هي نفسك إن ركبتها وإلا ركبتك، إذا أردت أن تشرب مع الملوك فعليك بالخرابات والفيافي والقفار إلى أن يأتي الصحو من سكرك لكيلا تفشي أسرارهم فيهلكوك، ولهذا ظعنهم خير من إقامتهم. هذه الدنيا جعلت راحلة.

إن شئت أن تلقي ربك الخلوة بعد أحكام الشرع، باب الله عزّ وجلّ لا بد من استعانة وعزم على شيء سببه يأتي باب العلم بطريق الحكم، الحكم هو الأوامر والنواهي فنقبل ما يأمرنا الحكم ونسمع ونطيع، حينئذ تأتينا الآفات فههنا يحتاج أن يكون العبد عالماً.

يقول أحدنا: ما بالي ابتليت مع قيامي في الطاعة؟ يقال له: تحتاج إلى قليل من العلم. صاحب الحكم يدخر، وصاحب العلم يخرج، الحكم مع الزهاد، والعمل مع الصديقين المحبوبين المؤنسين، الزهد مع الحكم، والحب مع العلم، هذا شريكه وهذا وزيره، المتزهد محمود، والزاهد مسلول، والعارف حتى بعد الموت، هذا المتزهد ترك الشهوات وصام فحمت نفسه والزاهد دام تركه فدام مرضه أورثه السل، ماتت الدنيا بالإضافة إليه، بينما هو كذلك على فراش لطف الله عزّ وجلّ، إذ أقام على باب زهده طعام قد فتن، لباس على الأوتاد قد تغيرت، لا يخرج من الدنيا حتى يستوفي ماله الكفار والعصاة، ما أجملوا في الطلب، أخذوا الحرام.

أحيا الله تعالى ذلك العبد ثم أنشأه خلقاً آخر، لحم قد تلاشى، عظم قد ضعف، جلد قد رق، نفس قد ذابت عذابها، والهوى قد عزل، والطبع قد غلب، والقلب فيه الروح والمعنى والمعرفة والتوحيد، ما تمّ ملك إلا القلب والحق يتولاه يحييه بعد موته، شهواته ولذاته ماتت موتاً معنوياً موت علمي لدى موت صديقي.

أحياه الله بعد ما أراه ما هنالك، من تركه على بابه ميتاً يريه وفور الحكم والأسرار، وفور الجند والرعايات، فلما اراه ملكه وأطلعه على سرّه جمع بين روحه

وجسده وظاهره وباطنه لإستيفاء أقسامه قبل ذلك، لو عرضت عليه أقسام الشرق والغرب لم يتناول منها ذرّة واحدة، قدرة خفية، إرادة باطنة من الله عزّ وجلّ.

أنبياؤه وأولياؤه والخواص من خلقه يحول بينهم وبين شهواتهم، لا يبقى فيهم شهوة ولا إرادة ذرّة حتى تصفوا بواطنهم له، فإذا أراد أن يوفيهم أقسامهم أوجد فيهم حياة الوجود لاستيفاء الأقسام، عيسى عليه السلام ما نكح، ما ملك.

آخر الزمان، ينزله الله تعالى على الأرض فيزوّجه بجارية من قريش ويولد له منها ولد[1]، العارف يتناول بعد إحكام العلم والزهد فيتناول أقسامه معكم، يتناول الشهوات بعد أن زهد عند الشك، فإذا علم طاب له الماء البارد، والطعام السنى عند الزّهاد كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

كم من زاهد محجوب بزهده عن الحق؟ وكم من عارف محجوب بنظره إلى معرفته؟ وهذا نادر والغالب أن يكون سالماً. وفي الجملة فقربك إلى أبناء الدنيا يبعدك عن الله عزّ وجلّ.

والصواب لك أن تقبل على الآخرة وعلى الطاعة لعلك تنجو، وأقسامك تأتيك وهي كارهة. يأمرك أن تخرج من طبعك وتجعل مكانه رخص الشرع، ثم يأمرك أن تترك من الرخص شيئاً فشيئاً إلى أن تصير كل أفعالك عزيمة، فإذا صبرت على العزيمة جاء الحبّ لله عزّ وجلّ في قلبك، فإذا ثبت جاء الحب، جاءت الولاية من الله عزّ وجلّ لك.

إن كنت عاقلاً عد نفسك من أهل النار ليحملك ذلك على إحساس العمل، فإن كنت من أهل الجنة فقد أديت شكره، إذا خرجت من بيتك كأنك خارج إلى الحرب، كأنك لا ترجع إلى منزلك. واعمل أنك مبتلى بكسبك وتيقن أن الله تعالى قادر ان يرزقك من غير سعي وبطش.

المؤمن كالجبل مرّة وكالريشة أخرى، تقلبه رياح قدره عند مجيء البلايا كالجبل وعند صحبة الحق عزّ وجلّ كالريشة، تقلبه أرياح قدره. يا قومنا فاتتكم الرسالة والنبوّة لا تفوتكم الولاية.

لا صحبة للملك مع الوجود، كأنك أعمى لا تبصر، كأنك ريان لا تشرب، كأنك ميت لا حركة بك ويل للمحجوبين الذين لا يعلمون أنهم محجوبون، لا تعمل خيراً ولا

---

(١) هذه أمور غيبية لا يعلمها إلا الله.

تعين أهل الخير على الخير، أنت شرّ تحب دنيا بلا آخرة، ظاهراً بلا باطن، ما ينفعك ولايتك وغناؤك، وصاحبك عن قريب تموت وتذلّ بعده.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾[1].

وللأولياء والصديقين. البحر الدنيا، والمركب الشرع، والملاح لطف الله عزّ وجلّ، فمن شذّ عن متابعة الشرع غرق في الدنيا ومن آوى إلى مركب الشرع وأقام هنالك استنابه الملاح وسلم المركب بما فيه إليه وصاهره، وهكذا من ترك الدنيا واشتغل بالعلم وصبر على الأذى صار محبوب الشرع، بينما هو كذلك إذ جاء الله عزّ وجلّ بلطفه، جاءه بمعرفته وخلع تخصه، ولاية فوق ولاية، لك في الله مندوحة عن فوات غيره.

إذا فاتك شيء فلا تحزن عليه فإن الملك يتصرّف في ماله، العبد وما يملك لمولاه، ما يأخذه منك تجده غداً، تقول له النار: يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي، هكذا الدنيا إذا قوى الإيمان واتصل الباطن بقرب الحق عزّ وجلّ جاءت نار الآفات فوقعت على طريق القلوب.

تأتي نار المجاهدات تقف في طريق المريدين، فالمريد تأخذه لما بقي عليه من بقية الدنيا ورؤية الخلق وكامل الإيمان تقول له (جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي) فلا يضرّهم في الدنيا سهام تقع في جدار القلعة، اعملوا عملاً لا يضركم، نار الدنيا والآخرة لله عزّ وجلّ، عباد يسميهم أطباء يحييهم في عافية ويميتهم في عافية ويدخلهم الجنة في عافية، من عرف الله عزّ وجلّ انقطع عن الشهوات واللذات، وإنما يجبر على استيفاء الأقسام، الجار قبل الدار، حصل له الجار، ظفر هذا المبارك بالدار يمكن من الملك، قال الملك:

﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ ﴾[2].

من عرف الله وأدخل عليه لا يمدّ عينيه إلى شيء من ملكه، ولا يديه لعروس زفت إلى الملك، طعامها وشرابها قرب الملك، جميع شهواتها تجدها في قربه، إذا طاعت النفس ذابت مع القلب، صار سجانها وأخرج القلب من السجن:

---

(١) سورة فاطر آية: ١٠.

(٢) سورة يوسف آية: ٥٤.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾[١].

بعد ظهور نجابته وحسن أخلاقه وأدبه جيء به، استقبله بالكرامة وقربه وأدناه واحسن إليه وخلع عليه وخاطبه من غير واسطة.

﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝﴾[٢].

لا يشغله بغيره ثم صرخ رضي الله عنه وقال: يا الله يا الله يا الله، حبيب غائب قدم يشغل حتى لا يشغل، إذا طالت صحبته وذهب عنه عناء سفره نبت لحمه وشد عظمه وطاب عيشه وسكنت روعته صار بطانة الملك، حينئذ ولاه وأمره على رعيته وأصحابه وأقليمه، وأرسله إلى البحر لينقذ الغرقى، وإلى البرّ ليأخذ الرجال والأطفال من أفواه السباع.

لما خرج من بيت طبعه أهله للنيابة والأمانة، يخلع على قلوبهم كما خلع على قلوب النبيين والمرسلين، وألقابهم ألقاب الأولياء والأبدال. يا سوقة ههنا بطائن الملوك أصحاب الأخبار، يشير بذلك إلى من يحضر مجلسه من الأولياء والملائكة، وهم أخفياء لا يعلمهم من حضر.

(سؤال) متى يصير البسط قبضاً والهزل جداً؟ إذا باسطك انبسط، انقلبت رخصتك عزيمة وعزيمتك دلالاً، حتى إذا صرت كلك عزيمة أدخلك دار الفضل والأنس تبقى بلا رخصة ولا عزيمة فعلاً مجرّداً، يكون مثلك مثل من بين يديه طبق أكل فيه بعض الأكل، قيل له ادخل بيتاً آخر، كل ما هنأ لك. الرخص لناقض الأجل، والعزائم لكامل الإيمان، والملك للفانين. ما قعدت على الأرض إلا في خلوة فيما تقدم، والآن بخلاف ذلك.

أنا في جملة من لا يستحي من ذكر حاله لأني لا أرى أحداً. حسن الأدب في موضعين: في ترك الدنيا، وفي أخذها. لا تأتي الخلوة ومعك جهل، لا تتخذه قبل أن تتهذب، تفقه ثم اعتزل، كم تحضر المجالس ولا تعمل بكلمة؟ كم من رأى ولياً واحداً فاستوصاه خيراً فوصاه فعمل بها وجعلها زاده؟ أنت تطلع على الأخبار وتنظر الآثار وتحضر مجالس الأذكار ولا يتقدم لك قدم، فليتك ثبت قدمك مكانها، بل كلما جئت

---

(١) سورة يوسف آية: ٥٤.
(٢) سورة يوسف آية: ٥٤.

تأخرت. من استوى يوماه فهو مغبون، انتبه رحمك الله. الدنيا بلغة ساعة فلا تركن إليها، قوم أضعفتهم الهيبة وتقيدت جوارحهم، استولت على قلوبهم الدهشة عن الخلق فصار ما في أحوالهم اللزوم والقعود، إذا جاء وقت استيفاء الأقسام بعث الله من يلقمهم، ليس لمن تقدم ولا لمن تأخر اعتراض على هذا العبد، يعني نفسه.

احفظ رأس دينك وإلا أقطع نسبتي وطريقي، لا تكن جاهلاً تقعد في بيتك وتهذي هذيانك، أدوية شربناها ونجحت معنا، ندلكم على شيء مجرب معنا، اتقوا يوماً لا ينفع فيه مال ولا بنون، أي شيء مال؟ مال جمعته من حله واكتسابه واكتسبه من وجهه وادعيت أنه غداً نافعك مع مالك من البنين كما زعمت العرب السالفة، قال الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

لم ينظر بقلبه إلى أمواله وبنيه ولم يسكنها قلبه، بل يرى أنه وكل فيهما، يصحبهما موافقة لربه فيسلم قلبه من آفات المال والولد، كمثل رجل أخبر أن الملك يريد أن يزوجه جارية ويريد قتله على يدها، قال في نفسه: إن هربت أدركني بجنوده، وإن خالفته أهلكني سلطانه، وإن وافقته أهلكني بجارته، أمره الملك بتزوج جارية من جواريه وأمرها أن تسمه أو إذا نام تذبحه، يا خيبة من تخلف اليوم عني، يا خيبة له، ولكن الأولى حسن الأدب وإظهار موافقته مع حذر قلبه، قال: السمع والطاعة، دخل فقبل النكاح والهدية، جاء الزفاف، لبس درع الحذر، كحل عيني قلبه كحل السهر لينظر إلى حركاتها وسكونها وعملها، انقلبت فرحته والحواشي والخدم يظنون أنه مغبوط فيما وصل إليه، جاء النهار ولم تهلكه بسمها:

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2].

الدنيا هي الزوجة، لا نام معها ولا خلا بها في عمره، وجاء إلى الآخرة ولم يكن سلبت تقواه ولا غيرت دينه فتلك السلامة، هكذا العارف بالله الزاهد في هذه الدنيا الراغب في الآخرة، إذا جاء رسول العلم عند صفاء سرّه بأن الله يريد أن يضيف إليك طائفة من الدنيا لتكون حياة لقلوب الصديقين وهي نوع مشغلة وتبع وكدر والتفات، انظر كيف تعمل، تسلم قلبك وسرك فينتبه السرّ لذلك، يقوم السرّ والقلب يصطحبان

---

(١) سورة الشعراء آيتان: ٨٨، ٨٩.
(٢) سورة الشعراء آيتان: ٨٨، ٨٩.

إلى باب الملك، يقولان: ما تريد أن تفعل بنا؟ أتريد أن تحجبنا عنك؟ تقطعنا عن بابك؟ تنغص عيشنا؟ لا نبرح إلا بالمواثيق والعهود؟ لا يبرحان حتى يقول لهما:

﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾(١).

فيرجعان إلى الدنيا مع حراس وحفظة:

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٢).

من الآفات والرياء والنفاق ورؤية الخلق. أيها المريد المتحير، أيها التائه في تيه القدر، تحتاج أن تنظف مخدعك، لا تدع فيه لادرهماً ولا ديناراً وجواهر فحسب والمفتاح في جيبك، تحتاج أن تفرغ قلبك من الدنيا والشهوات واللذات وجميع الترّهات، تترك فيه الذكر والفكر وذكر الموت وذكر ما وراء الموت، تعمل فيه كيمياء قصر الأمل.

تقول: إني ميت الآن، لأن الأعمال تصفو بقصر الأمل، وأما إذا طوّلت الأمل رايت هذا ونافقت هذا، صاحب قصر الأمل مهجور الكل، قاطع الكل، يلبس لباس الزهد ثم لباس الفناء ثم لباس المعرفة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(اكفلوا لي بستّ أكفل لكم بالجنّة: إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف، كفّوا أيديكم وغضّوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم).

هذا الحديث رواه الطبراني.

(اكفلوا لي بستّ أكفل لكم الجنّة، إذا تحدثتم فلا تكذبوا، وإذا اؤتمنتم فلا تخونوا، وإذا وعدتم فلا تخلفوا، احفظوا أيديكم وأبصاركم وفروجكم).

إذا صفا سرّك واتحد سمعت دعاء ربك من غير واسطة، إذا اتحد خوفك ورجاؤك جاء خطاب ربك ومولاك، يا بنيّ استطرح بين يدي حوافر فرس قدره، إما أن تسحق تحوزك. من كان في الله تلفه كان على الله خلفه، وإن جاوزتك فتعلق بها تهدف لسهام قدره، إذا تهدفت لسهام قدره كان وقوعها خدشاً لا قتلاً.

يا عارياً من هذا كله تهذب وتقدم واستأنف العمل، اضرب على الكل، تب عن قعودك في بيتك عند قعودي للكلام، ههنا الولايات، ههنا الدرجات. يا مبتلي بالعيال

---

(١) سورة طه آية: ٤٦.
(٢) سورة الشعراء آيتان: ٨٨، ٨٩.

ليكن كسبك لعيالك وقلبك لفضل ربك، قوم حلالهم في اكتسابهم، وقوم حالهم فيما يأتي من دعائهم، وقوم حلالهم ما يأتي من غيرهم بلا سؤال، وقوم حلالهم ما يطلبون من أيدي الناس وذلك حالة الرياضة وتلك لا تدوم.

الأول: وهو الكسب سنة.

والثاني: وهو السؤال ضعف.

والثالث العزيمة والكدية رخصة فيما بينهما، وقد يكدي من لا يأكل وهو فتنة للمسئول ابتلاء له، وسؤال هذا العبد كسؤال الليل، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(لا تردُّوا سؤالَ الليلِ فإنهُ قد يأتيكُمْ مَنْ ليسَ بجنٍّ ولا إنسٍ لينظرَ ما تصنعونَ فيما خوَّلكُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ).

وكذلك هذا العبد يؤمر بالسؤال لينظر الحق ما تصنع فيما خولك الله به من نعمة، استكثر من مجالس العلماء وزيارة القبور والصالحين، فلعلك يحيا قلبك، إذا أحكموا امتثال الأوامر والانتهاء عن النواهي ساعدتهم الأقدار.

عبد الله بن الزبير كان يأكل في كل أسبوع أكلة. لا يستقيم حالك حتى تكون كإناء متثلم لا يثبت فيه مائع، كسفينة المساكين التي كان فيها الخضر، عابها ثم حال: حالة فيها جمع، وحالة فيها تفرقة، وحالة فيها قلة، وحالة فيها كثرة، من خرج من بين يدي إلى النار لا رحمه الله.

اللهم عفواً، اللهم ستراً، اللهم ثباتاً، اللهم رضا. إذا وصلت إلى الحق عزّ وجلّ اقتنع منك بأداء الفرائض، شاخ طباخ الملك، نفى العقل والنظر والسمع والإشارة، أجرى عليه ما كان له في حالة علمه.

بالله عليك أيها المريد الصادق على زعمك متى آثرت بقوتك جارك؟ متى آثرت بقميصك وعمامتك ومصلاك؟ متى آثرت بمالك؟ هؤلاء القوم أذابوا نفوسهم وطباعهم وأهويتهم وشرابهم حتى ماتوا معنى، فنوا معنى، تولتهم يد القدرة، غاسل القدر يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال.

﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ﴾[1].

---

(١) سورة الكهف آية: ١٨.

بقايا النفس باسطة تحت عتبة القدر، دواء الجوارح الكف عن المآثم وهي ارتكاب الفواحش والمعاصي والزلات، تكف يدك عن السرقة والضرب، والرجل عن المشي في المعاصي والمشي إلى السلطان أو لأحد من ولد آدم، وهذه العين تكفها عن المستحسنات، نامت النفس أم الحكم، طار القلب في صحبة المحبوب.

وليّ الله تعالى إذا أحسن الأدب اتصف بصفات النبوّة، الحكيم يتحير بين الطبع والعلم، تارة يرد الطبع وتارة يرد العلم ويقول:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (١).

يقول الحكم للقلب: ما يكفيك أني قائم كالخادم لك، راع لك وأنت مع الملك؟ الليل سرير ملكهم، الخلوة منصة عروسهم، النهار يغريهم لشيء من الأسباب، المصائب تكتم:

﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ (٢).

تعرّز بينهم، تحارسوا، تساعدوا إلى أن يبلغ الكتاب أجله، اسأل عني منكراً ونكيراً عند مجيئهما إلى قبرك فإنهما يخبرانك عني، اسمك مذنب، اسمك غداً محاسب ومناقش، أنت في القبر مذموم لا تدري أمن أهل النار أنت أم من أهل الجنة؟ عاقبتك مبهمة فلا تغترّ بصفاء حالك، ما تدري ما اسمك غداً.

يا بنيّ إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، ذهب أمس بما فيه شاهد لك وعليك، وغداً لا تدري، تلحقه أولاً، إنما أنت ابن يومك ما أغفلك، علامة غفلتك مصاحبتك الغفلة. يا أحمق من لا يظهر عليه أمارة الحق لماذا تصحبه؟ لم تصحب من أساسه واه ظاهره نفس باطنه، تجلد وتواقح على الحق عزّ وجل.

هذا شيء لا يجني بجمع الأكناف، وكحل الأعين بالكحل لا بالسهر، جميع الخلق لا عبرة به، جيمع التكلف لا عبرة به. يا أحمق تأتي باب هذا وباب هذا تسأله حتى يكثر جمعك، كيف يرجى لك الفلاح؟ هلا كنت على باب الملك كالحاجب؟ من جاء أخبرت الملك بمكانه، أخذت قصته، آنست وحدته.

---

(١) سورة الحشر آية: ٧.
(٢) سورة يوسف آية: ٥.

هلا جعلت الخلق عيالك وانزويت عنهم؟ اشتغلت بصنعتك في بيتك حتى إذا أتوا بابك رأوا عندك ما يصلحهم، بيتك خلوتك، بيتك قلبك، بيتك سرك، بيتك باطنك، صحبتك لربك بالقيام بأمره والانتهاء عن نهيه والموافقة له في مقدوره، أرزاق الخلق في دعائك، لعين تكرم ألف عين.

إذا أكرمت الكرام البررة في خلوتك أطعت مولاك ولم تعصه، أكرمت القوم ولم تفضح نفسك عندهم سميت كريماً، فإذا صرت كريماً أكرم لأجلك ألف عين، يدفع البلاء عن أهلك وجارك وأهل بلدك أبد الدهر، تكدي أبد الدهر، تأتي الأبواب.

متى يكدي منك؟ متى يستطعم منك؟ متى يؤتى بابك؟ متى تفرغ من شأنك؟ متى تضرب حولك خيمة؟ متى تعرس في قرب الملك؟ متى تظهر نجابتك وأهليتك وصلاحيتك لقرب الملك وتخرج ألقابك وتظهر مباهاتك وتكون أنجب أولاد محمد صلى الله عليه وسلم حتى يسلم إليك بركته؟

(العلماء ورثة الأنبياء).

قولاً وفعلاً، حالاً ومقالاً، لا اسماً ولقباً، النبوة اسم والرسالة لقب. يا جاهل فاتتك النبوة والرسالة، لم تفتك الولاية الغيبية البدلية:

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[1].

حياة الدنيا نفسك وهواك وطبعك، هذه الدنيا لا ما يزول من الشهوات فتلك أقسام لك، للدنيا ما تأخذها بهمتك وجوارحك ما يلزمك، الملك ليس من الدنيا ما لا بد منه، ليس من الدنيا بيت يكنك ولباس يسترك وخبز يشبعك وزوجة تسكن إليها، الحياة الدنيا الإقبال على الخلق والإدبار عن الحق، الهوى ضد الكفر. الهوى ضد العبادة، السبب ضد المسبب، الظاهر ضد الباطن. إذا أحكمت الظاهر أمرت بإحكام الباطن، إذا أحكمت الحكم بالعمل به كنت غلامه، كنت تابعه، كنت صاحبه، كنت فاني البنية عن طبعك، يلجمك العلم فيعشقك، كنت كروح بين روحين، كنت كحاجب بين الملك ووزيره، كنت محبوب الدنيا والآخرة والخلق والحق عزّ وجلّ الأولياء والملائكة، فرحة للقلوب لنا حالة عن حضوركم.

---

(١) سورة التوبة آية: ٣٨.

(قال) داود لإبنه سليمان عليهما السلام وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقرّبين والأولياء والصالحين: يا بنيّ ما أقبح الخطيئة بعد المسكنة، وأقبح من ذلك رجل كان عابداً فترك عبادة ربه:

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾(1).

الحياة الدنيا وجودك والآخرة فناؤك، للهمم تغير، وللأسرار تغير، وللعوام تغير، وللخواص تغير. الدنيا ما تراه، والأخرى ما يفتح لك، يأتيك ما لا تعقل فتتحير فيتبين لك، ما يأتيك بعقل مشترك فهو من الدنيا، وما يأتيك من حيث العقل الذي هو عقل العقول فهو من الأخرى، سرّك أخرى وظاهرك دنيا، حالات الدنيا ما سوى الحق عزّ وجلّ، والأخرى التعلق بالمولى والإعراض عن قيل وقال، وعن المدح والثناء والذم والسير مع الهم، همك ما أهمك.

إذا صدقت في إرادتك أخذ الحق عزّ وجلّ بيدك، مشاك في صحبة قدره وكان وسع ما بين خطوتيك أوسع من خطوات آدم عليه الصلاة والسلام لصدق إرادتك وحسن أدبك وتطارشك عن قول جيرانك.

تبا لك جاهلاً جهل الحق وما عنده من فضله وما عنده من عباده، سمعوا فأطاعوا، يرى العبد أقسامه في اللوح المحفوظ ثم يتعدى إلى رؤية أقسام أهله وأولاده، حتى إذا تعجب نودي في باطنه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾(2)، ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾(3).

هذا شيء يجيء بالسابقة، ثم يصفو بمتابعة أقدام المشايخ.

وكان رضي الله عنه في سماعه ووجده أتته رقعة فيها مسئلة فقيهة فقال: حتى استأذن في الكلام وأخاطر، ثم قال: النكاح هل هو واجب أم لا؟ وهذه مسئلة فيها خلاف، منهم من قال: هو سنة، ومنهم من قال: الاشتغال بالعبادة إذا لم تتق نفسه أولى عند الشافعي وأحمد، وعند أبي حنيفة الاشتغال بالنكاح أفضل.

أنت متى كنت مريداً فالاشتغال بعبادتك أفضل، وإن كنت مراداً فلا تدبير لك في

---

(1) سورة التوبة آية: ٣٨.
(2) سورة الزخرف آية: ٥٩.
(3) سورة ص آية: ٤٧.

نفسك، إن شاء هو زوّجك وإن شاء شغلك بسواها، وإن كان ثمة قسم أدركته يأخذ القسم بذيلك ويقول للحق: خذ بحقي من هذا، هو هارب مني وأنت قسمتني له، ما أصنع وهو متلفت عني يلفتك إليه.

أما المريد فإن التزويج حرام عليه[١] من حيث الباطن، أو يكون له زيادة قميص، أو يكون له أربع اصابع من الأرض، هذا سياح ما له ثياب ولا ثياب ولا أثاث، بل يكون متعرياً عن جميع أثوابه، فإذا وصل إلى مقصوده وانقطعت سياحته هنالك إن أراد ملكه أن يزوّجه يملكه يوجده يفقده. من صاحب أحمق فهو أحمق، الأحمق من لم يعرف الله عزّ وجلّ رضي بالحياة الدنيا من الآخرة.

(يا غلام) قسمك لا يأكله غيرك، لا تأكل بطبعك وهواك من يد شيطان، بل توقع ساعة حتى تصل إلى دار جنتك أو قرب ربك.

قال له رجل: كان لي ورد من صغري إلى الآن، الآن أقوم أركع ركعتين أنصرع من وقتي. قال رضي الله عنه: لا يكون به نظرة لمحة السابقة، لمحتك عين صديق في جوازه إلى الحق عزّ وجلّ فاستحسنك فقال لإخوانه: خذوه معكم.

(إنّ لله في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرّضوا لنفحاته).

لا يكون قد شاخ قلبك، أقعده ملكه على باب قربه، لا يكون ضعف الظاهر وقوى الباطن، لا يكون ضعف العظيم من قلبك رق جلده، اختطف الغيرة والمنة سرّه، يرى قلبك باب ربك، غشيته هيبة القرب فصرعته، إن في حفظ القلب لشغلاً شاغلاً، ذرة من أعمال القلب خير من أعمال الظاهر ألف مرة ما دامت الفرائض والسنة مبقاة عليك لا ضير.

قيل للجنيد: إن الحضري قائم على رحى يدور به وهو لا يأكل ولا يشرب، فقال: انظروا حاله في وقت الصلوات، فقيل له: إذا أذن المؤذن سكن، قال: لا ضير، منهم من يقوى على الأعمال من حين صغره إلى حين الموت، ومنهم من يعمل إلى أن يضعف.

إن كان هذا من حيث قرب من حييث علم من حيث مشاهدة فلا بأس، وإن كان غير ذلك فهو شيطان يغويك ونفس تؤذيك. صحبة الحكم تنتج العلم، تنتج لهم السرّ

---

(١) موضوع الزواج فيه تفاصيل كثيرة يرجع إليها في مظانها بكتب الفقه.

أعندك من هذا خبر؟ انقطع ثم اتصل واتصل ثم أوصل، يا خيبة القاعدين على دكاكين الخرص والأمل والعزّة، لا جرم يموت سرّك ويسود قلبك.

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(إنّ القلوب لتصدأ وإنّ جلاءها قراءة القرآن).

اللهم اهدنا واهد بنا وارحمنا وارحم بنا وعرّفنا وعرّف بنا، اجعلني أينما كنت، اتصل ثم انفصل ثم أوصل، تفقه ثم اعتزل. من عبد الله على جهل كان ما أفسده أكثر مما أصلحه، خذ معك مصباح شرع ربك بالحكم تدخل على العلم، اقطع الأسباب، فارق الإخوان والجيران.

الأقسام الزهد فيها لا يصلح، أعط ظهرك زوجتك، أعط الأقسام ظهرك، تزهد ثم تكلف الزهد، تكلف الإعراض، اترك شرهك، حسن أدبك، كن مقاطعاً لما سواه، منفصلاً عن الأغيار والأسباب خائفاً من انطفاء مصباحك على دوام ظلمتك، فبينما هو على ذلك إذ جاء الحق بدهن إمداده إلى مصباحك، نورك في علمك.

(مَنْ عمل بما يَعْلمْ أورثهُ الله علمَ ما لم يَعْلم).

(من أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه).

بينما هو كذلك إذ رأى نار الحق عزّ وجلّ كموسى عليه السلام حين رأى ناراً.

﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾(1).

ناداه الحق بطريق ناره، جعل النار قربه، وجعل رؤيته لها دليله، يرى نار من شجرة قلبه لنفسه وهواه وأسبابه ووجوده.

(امكثوا) مكانكم (إني آنست ناراً) نادى السر القلب (إنّي أنا ربُّكَ).

(أنا الله – فاعبُدني).

لا تذلّ لغيري، اعرفني واجهل غيري، اتصل بي وانقطع عن غيري، اطلبني وأعرض عن غيري، إلى علمي، إلى قربي، إلى ملكي، إلى سلطاني، حتى إذا تم هذا لك تم اللقاء، جرى ما جرى.

---

(1) سورة طه آية: ١٠.

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[1].

زالت الحجب، زالت الكدورة، سكنت النفس، جاء السكون، جاءت الألطاف.

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾[2].

يا قلب ارجع إلى الشيطان والنفس والهوى، طرقهم إليّ، اهدهم إلي، قل لهم:

﴿ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾[3].

اتصل ثم انقطع، ثم اتصل ثم أوصل، أما أنت يا مسكين سوف تنقطع قواك وتخونك ويهجرنك خلانك، ويجمع لك بين فقر الدنيا وعذاب الآخرة، تأتي القبر يضيق عليك حتى تختلف أضلاعك ويخرسك عن مجاوبة منكر ونكير، تعذب في قبرك ويفتح لك باب من النار، يأتيك عذابها وسمومها.

يا قومنا أحسنوا الأدب في هذه الدار. يسلم دينكم وظاهركم وباطنكم، حتى تقام بين يديه حينئذ يزال الحجاب عن عينيك وعن فيك وعن أذنيك، ويلقمك ويزودك قوة إلى قوة، وبصيرة إلى بصيرة، عمراً إلى عمر، بقاء إلى بقاء، رزقاً إلى رزق، يشكر سعيك، ويحمد حسن أدبك، يسميك شاكراً بعد أن سماك صابراً، عاقلاً ديناً يغير عليك:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[4].

أخلاق السوء يغيرونها بمتابعة الشرع ثم العلم ثم القدر، كأنهم بنجوا لقطع أيديهم وأرجلهم، لقطع أعضائهم الخبيثة، ألقى فيها أكلة لا حركة ولا لم ولا كيف؟ ذهبت العقول، عقول البشرية، حتى إذا ذهبت أيام التبنج وعاد العقل إليهم جاءت ألطاف ربهم بالتغيير والتغيير، طعام بعد الجوع، شراب بعد الظمأ، كسوة بعد العرى، ما دمت في الطريق يأمرك بالتقليل حتى تنطفئ شهوتك، تعطي هذا الحكم حقه، تأخذ بأوامر الشرع وتنتهي عن نواهيه، هذه الأيام تنقضي وخطواتك تقرب إلى الحق عزّ وجلّ مع مضيّ الليل ومجيء النهار. هم على أقسام: منهم من ينتهي سفره في يوم وشهر وسنين.

---

(١) سورة النجم آية: ١٠.
(٢) سورة طه آية: ٢٤.
(٣) سورة غافر آية: ٣٨.
(٤) سورة الرعد آية: ١١.

لا تذهب زمانك بلم وكيف وسوف بل شد وسطك، اعمل لعلك إذا عملت في داره اتخذك قنية، لعل جارية من جواريه تعشقك فتزوج بها، تغير صورتك ويباع زنبيلك وفأسك، تجعل سائساً أو ملكاً نائباً أو وزيراً، من عرف الله لا يستكثر له تلك.

إذا وصلت عليه يشهيك الزهد والترك قبل المعرفة، قبل أن تصل إلى الملك، قبل أن تعرف من أنت وما لقبك وما اسمك، يودع العبد حظوظه، ثيابه وقماشه، داره، أهله، أولاده، جيرانه، امرأته، خلانه، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، يأتي بخطوتين رجاء وخوف. على ماذا تقدم جاهل بالكلي؟ فترك الكل جاهلاً بما له وعليه.

فإذا ترك الكل يأتي باب الملك يقف مع غلمانه، مع دوابه، خائفاً راجياً لا يدري ما يراد به، والملك ناظر إليه وخبره عنده، يقول للغلمان: آثروه على الكل ثم لا يزال يقلب من شغل إلى شغل حتى يجعل حاجباً بين يديه مفرداً بين يديه مطلعاً على أسراره بخلعة وطرق ومنطقة وتاج يكاتب أهله:

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾(١).

بعد أن أشهد الملك على نفسه إني لا أتغير عليك، يوقع له بصحبة دائمة وولاية، إذ لا يبقى زهد مع المعرفة، وهذا من كل ألف ألف واحد، هذا شيء ينتجه القدر والسابقة والعلم، لا تكن أنت ممن قال الله في حقه:

﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾(٢).

المؤمن يقول: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بخطوتي؟ ما أردت بأكلتي؟ محسباً لنفسه مؤدياً، لم فعلت لم صنعت؟ هل يوافق الكتاب والسنة؟ عليكم باليقين بعد المحاسبة فإنه لب الإيمان، ما أديت الفرائض إلا باليقين، ما زهد في الدنيا إلا باليقين، عند إجابة الدعاء سكون ودعة، فإن لم تجب دعوتك تعترض.

من علامات الصديقين الرجوع على الله في كل شيء فإذا أرادوا كتمان أحوالهم رجعوا إلى الخلق في الأخذ والعطاء، قلوبهم معه وأبدانهم مع خلقه، يحتاج ابن آدم أن يعمل في هذه الدنيا حتى يغير طبعه، يجاهد نفسه وشيطانه وهواه حتى ينقل من صفات البهائم إلى الأخلاق الإنسانية: أكفرت بهذا الرب؟

---

(١) سورة يوسف آية: ٩٣.
(٢) سورة القيامة آية: ٢.

﴿بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧﴾[1].

أجزاؤه أن تكفره وتجحده وتستحي من أعين الناس؟ أن يراك ولا تستحي منه وهو يراك؟ يا مدعي الولاية في الظاهر ويجاهر الحق بالمعاصي ما تستحي منه وهو مطلع على سرك وسريرتك؟ وأنت يا من يظهر الفقر ويكتم الغنى ما تستحي، تبيع دينك بدنياك؟

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[2].

أين شكرك؟

(يا غلام) لا تتهم أحداً في خالقك لعلك تخطئ وتصيب، لا تقبح على غيرك حتى يستحسن عملك، التحسين والتقبيح إلى الشرع لا إلى العقول، هذا من حيث الظاهر، وفوق الأحوال بأن يكون التقبيح والتحسين إلى الباطن. فتوى القلب تقضي على فتوى الفقيه، لأن الفقيه يفتي بنوع اجتهاده والقلب لا يفتي إلا بالعزيمة، ما يرضي الحق وما يوافق هذا قضاء العلم على الحكم.

كونوا عبيد الحكم ثم عبيد العلم مع عبودية الحكم، بمعنى كونوا موافقين له متذللين، تدخلوا مع العلم في صحبة الحكم، كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، إذا دخلت على أهل الحق عزّ وجلّ أقمت فيما فيه أقاموا وأكلت مما أكلوا، اشكروا الله على السرّ والخلوة.

يا أهل هذه البلدة جميع ما أنتم فيه منكر عندي، وجميع ما أنا فيه منكر عندكم، نحن ضدان لا نتفق، نعيش بينكم بقوّة صاحب السموات، لا قرار لحبور قلوبنا، شبابك قد ذهب في سخط الخالق عزّ وجلّ، ترضي زوجتك وولدك وجارك وسلطانك وتسخط الملائكة والحق عزّ وجلّ وإليه المصير.

لا بد لك من الإجابة إلى الموت، تلقى الأباء والأمهات والإخوان والأصحاب والسلاطين، لا يقولن أحدكم متى تقوم القيامة؟ فإنه إذا مات قامت قيامته.

أولياء الله عزّ وجلّ ثم بقرب الحق عزّ وجلّ عاشوا، بالإضافة إلى الحق ماتوا موتات:

---

(١) سورة الكهف آية: ٣٧.
(٢) سورة النحل آية: ٥٣.

أولى عن الحرام.

وثانية عن الشبهة.

والثالثة عن المباح.

ورابعة عن الحلال الطلق.

وخامسة عن كل شيء سوى الله عزّ وجلّ، موتى عن هذه الأشياء لا يطلبونها ولا يقربونها، كأنهم مسخوا معاني بلا صور ثم أحياهم الله تعالى.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِنٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾(١).

إذا جرت القلوب على بحار القدر مرساها على باب علمه وقربه. اليقظة خدمة والنوم وصلة، إذا نام العبد في صلاة باهى الله به ملائكته. البنية قفص والروح طائر. الخلق عند أهل المعرفة كالذباب والزنابير وكدود القزّ أحوالهم لا تنضبط لكم.

كونوا عقلاء، ما يهلك على الله إلا الأحمق، وما يهلك على الله إلا هالك. من أمرك بالبذل والعطاء فهو صديقك، من استغنى بمال الفقراء فقربه بمجرّد الإسلام لا يقتنع منك متى تعمل الحق وتفعل الحق.

إذا تحركت أعضائي فاعلموا أني قد احترق قلبي (يا دنيا تمرّري على أوليائي في بدء الأمر لكيلا يحبوك، واخدميهم في آخر الأمر لكيلا يشتغلوا بك).

كان عيسى ابن مريم عليه السلام إذا ذكرت عنده الساعة يصيح كما تصيح المرأة الثكلى ويقول: لا ينبغي لابن آدم إذا ذكرت عنده الساعة أن يسكن. أنت عدم لا حسن فيك، ما عشقت قط ولا عشقت حزن لطول مقامه في الدنيا لأن خوفه من تقلب الأعيان والحاجة إلى الخلق والحجاب عن الرحمن لغلبة الهوى والنفس والطبع والشيطان، من أمن في هذه الدنيا فقد جهل جهلاً عظيماً.

(يا غلام) آمن ما يكون أخوف ما يكون، لعمري يقربك ويدنيك ويحدثك ويلقمك ويطعمك ويشاهدك ويفتح لك الأبواب ويقعدك على مائدة فضله وقربه ويباسطك ولكن يطلب منك الحزن.

---

(١) سورة هود آية: ٤١.

قام إليه رجل ليسأله فلم يسمع منه وقال:

هذا موضع الحزن، البرق لمعة وسيتفرع غيث ومطر، يقرب العبد إلى الحق عزّ وجلّ، والقرب إنما يكون بعد الأحكام، الحكم بعد وضع كتاب اليقين في يده والاطلاع على أسراره وما سيكون منه. أخو ابن عقيل كان صاحب قراءات وفقه، تنصر ورؤى في بلاد الكفار وفي عنقه صليب، قيل له: ما فعلت بتلك القراءات والتنسك؟ فقال: لا أدري من القرآن شيئاً سوى آية واحدة.

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٖ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[1].

أول ما يريد السرّ ثم القلب ثم النفس ثم الجوارح، إذا ارتد السرّ لا بد من ظهوره، المنافق في المسجد كالطير في القفص، ظاهر الشرع قفصه، لو خلينا وظاهر العلم لبينا لك ذنوبك وقلنا يا كافر يا فاسق، لكن الشرع قبض أيدينا عن ذلك.

اخدموا الحكم واطلبوا العلم، لأن العلم يكشف لكم تعلم الشرع ثم اعتزل، فإن كنت من خواصه أطلعك على علمه. إذا انتهت بك النفس إلى مولاها وقفت على الباب ودخلت دخول الملوك، إذا رأيت الباب مفتوحاً قيل لك لا تدخل كما أنت لأهلك عليك حق:

﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾[2].

يا سرّ اثبت قلبك وجوارحك وكليتك، حينئذ لا بيع ولا شراء ولا معارضة، كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب، لما صبرت البئر على الحفر والمعاول ظهر منها المعين، صار مأوى الشارد والوارد، إذا لم تصبر على آلام المجاهدات والبلايا متى تكون عارفاً؟ يا فقير صابر عن قريب ينظر وليك الحق، فيرفعك ويتوجك ويلبسك لباس العظمة والملك والجلال.

اللهم عنهم بعداً وإليك قرباً، اللهم عنهم غنى وإليك فقراً، احفظ الله بالغنى عما سواه، إذا قلبك بباب القرب وهو في ظلمة الوجود طبع عليه فجر العلم، وكحل بصر قلبك بكحل السرّ واقرئت فهرس الأقدار، حينئذ دونك والأكل والشرب بعد دخول الجنة منقودة لملوك خلقه والنجباء من أوليائه، تأكل وتشرب وتنام طولاً وتصبو سراً.

---

(١) سورة الفرقان آية: ٢٣.

(٢) سورة يوسف آية: ٩٣.

تقول: أنا من أولياء الله، أنا من الأبدال، ليس هذا بالتمني. نجباء خلق الله ناظرون إلى مراد الله عندكم، من هذا خير يا أهل المجالس يا أبناء قيل وقال، ونفخ في يده وأدار وجهه إلى جميع الجهات. من ادعى حبّ الله عزّ وجلّ من غير ورع في خلوته فهو كذاب، من ادعى حبّ الجنة من غير بذل المال والملك فهو كذاب، من ادعى حبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم من غير حب الفقر والفقراء فهو كذاب.

بعين الرأس تشاهد الدنيا، وبعين القلب تشاهد الآخرة، وبعين السرّ تشاهد المولى، تتأدب مع الخلق بحيث لا ترفع صوتك على صوت أحدهم حفظاً لأدبك، وتبارز الحق عزّ وجلّ بالمعاصي، وتعارضه في أفعاله قبيح بك، لا تطلع الشمس إلا على جاهل، إلا من آثر الله على هواه وطبعه ونفسه، هذا شيء من وراء العقول، تؤاخذ الروح والطبع بالمواطأة والموافقة، وأما بالإكراه فلا.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾[1].

المريد الصادق كل وارد إليه يعرض أعماله الظاهرة على مرآة الحكم، ويعرض أعماله الباطنة على مرآة العلم، فإن وافق أعماله المرآتين أدخله على الملك عزّ وجلّ، وإن وافق عمل مرآة دون مرآة لا يدخل، يقعد على الباب ويقال له: أحكم أمرك حتى يشكر سعيك ويحمد أمرك، فإنه باب لا يدخل إليه إلا من باب الحكم والعلم، فإذا كان كذلك يفتح لك أعمال تميز تلك الأعمال، هي باطنة بينك وبين ربك عزّ وجلّ، لا يطلع على ذلك العمل، لا ملك مقرب ولا نبيّ مرسل، ذهبت عنهم العقول الشرعية، وهب لهم عقل العقول، حتى إذا ذهبت عنهم أيام التبنج ردوا إلى طعام بعد الجوع وشراب بعد الظمأ ونوم بعد السهر وراحة بعد التعب، ثم يرد إلى شغل شاغل، لأنه يطلع على خزائن الأسرار، ثم يطلع ذلك العبد على ما يريد أن يكون من أهل البلدة والإقليم.

وإذا كان القطب اطلع على أعمال أهل الدنيا وأقسامهم وما تئول أمورهم إليه ويطلع على خزائن الأسرار ولا يخفى عليه شيء في الدنيا من خير وشرّ لأنه مفرد الملك بطانته نائب أنبيائه ورسله أمين المملكة، فهذا هو العين القطب في زمانه. القلب مورد الملائكة، والسرّ ينظر الحق عزّ وجل.

---

(١) سورة النحل آية: ١٠٦.

إذا أراد الله انقطاع عبد إليه أول ما يوحشه من بني آدم ثم يؤنسه بالسباع والوحش والجن، حتى إذا ذهبت الوحشة الآدمية بالتأنس بالجن والسباع آنسه بالملائكة على اختلاف صورها، يسمع كلامهم في البراري والقفار والبحار.

يا من عزم على الانقطاع اسمع، يا طالب الحق عزّ وجلّ كلاماً ثم رؤية، حتى إذا أنس إلى كلامهم واشتاق إلى رؤية صورهم رفع الحجاب بينه وبينهم، ليس في خلق الله ألذ حديثاً من الملائكة، أحسن الخليقة صوراً وألذهم كلاماً، ثم يحجب وصيره على بابه، ثم جاء بأنس قربه، ثم يكون ما يكون فيما بعد السكوت، يوحي إلى القلب كما أوحي إلى أم موسى عليه السلام حين خافت عليه.

يا قلب إذا خفت على السر الذي فيك الق البنية في بحر البراري والقفار وفارق الأهل والأصحاب، تكون امرأة خيراً منك تلقي ولدها في اليم، وأنت تخرج خطوتين تخاف؟ وذلك لنقصان إيمانك:

﴿ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ﴾[1].

هكذا إذا خفت في بريتك عند انقطاع مرادك ومألفك حتى تكاد ترجع إلى الخلق، السبب ربط حينئذ على قلبك. يا نقص التوحيد والعلم والتقوى، أين أنتم والتوبة في كل حالة مدبر. الأكل بالدين نفاق، والأكل بالصنعة سنة.

اقعد مع هذه السنة حتى يأتي الإيمان، تأخذ الصنعة في يدك وتغلق أبواب الخلق من قلبك، حينئذ اخرج أو اقعد بقلب في دار علمه أعمى أصمّ.

لا تسمع غير الحق، ولا ترى غير فضل الحق، ثم السياحة تأتي أكناف الأرض مع الشحنة.يا عوام، ليس أحدكم إذا لحق شيئاً أخذه وتغرّب وسافر، حالة الأخذ من الخلق وحالة الأخذ من الحق عزّ وجلّ حقيقة، وأما إذا ترقت درجته وتحققت ولايته لا يخطر بقلبه أخذ ولا عطاء، تأتيه الأشياء وهو غالب عنها، يقسم له تناوله.

يا أم موسى إذا خفت عليه فألقيه في اليم.

وأنت إذا خفت على دينك ألق قلبك إلى الله، سلم قلبك إليه، سلم أهلك إليه، قل (أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والولد) معرفتك بالله عزّ وجلّ ومحبتك له

---

(١) سورة القصص آية: ١٠.

كمثل هميان فس وسطك، أينما توجهت هو معك، فتنام مع القدر، وتسمع من القدرة والقادر.

والله ثم، والله إن أحوال الأولياء كأحوال الأنبياء لكن لقبهم غير القابهم، الأنبياء والمرسلون لا ينزل عليهم منكر ونكير لأنهم شفعاء الخلق، هكذا هؤلاء لا يحاسبون لأنهم خواصّ الخلق. يا عبد الهوى الطبع، يا عبد الثناء والحمد، ما جفّ به القلم وسبق به العلم من الأقسام لا بد من استيفائهما، لكن الشأن هل يأخذها بك أو به؟ يوجدك ويقعدك مع التوحيد سرّ من أسرار الحق عزّ وجلّ في قلب عبده لا يطلع عليه الشيطان ولا العقول ولا الملك.

اطلب القرب من باب فتائك، إذا رضيت أحبك، فإذا أحبك أطلعك، أصحبك، كنت أبداً في صحبته مع علمك، والعابد تصحبه بعبادته، لا يعلم أن المريد هذا إلا العارف، أنت مسخر له، فإن وافقت الله في ذلك وإلا فانت مطرود، كنا نمشي خلفهم ونحن كالذرة لنستفيد منهم كلمات الدخول، من استغنى برأيه ضلّ.

وبعد كلام قال:

ويكون نائب الرسول في المتابعة يترك، ثم يترك يؤخذ، ثم يؤخذ يترك المتروك ويأخذ المأخوذ، يضيء لك الأمر كفلق الصبح، يجدّد على البعد توبي الوجود تارة والفناء تارة، تارة يفتقد فيقبل الحق عليه، وتارة يوجد فيخبر عن الحق.

روى قلبي عن ربي. اجعل لخلوتك بابين: باب إلى الخلق، وباب إلى الحق. تؤدي حقوق الحق، اصحب الخلق للحق فتكفي شرّ الخلق ويدوم لك قرب الخلق، الخلق ما سوى الحق، وهذا معنى يعم جميع الأحوال، معنى صحبتك الخلق نصيحتك لهم بعد صحبة الحق، اصحب الخلق، فإذا صحبت الخلق بعد صحبة الحق فأنت مع الحق لا مع الخلق.

علامة صحبتك للخلق أنك لا ترى النفع والضرّ من جانب الخلق، بل الكل مسلطون عليك مسخرون، قلوب أكلت من طعام فضله وسمعت حديثه ورأت فرحة قربه، خاطب الله قلوبهم في الدنيا قبل الموت، مخاطبون في القيامة، وآحاد أفراد يخاطبون في الدنيا.

أبو القاسم الجنيد قال: ما تكلمت إلا بعد شهادة أربعين من الأبدال من جملتهم

السري السقطي، ولم يفعل بقولهم حتى رأى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول: يا جنيد تكلم على الناس، فإنه قد آن لك أن تتكلم الآن. إن أردت الحق والزيادة والثبات فافعل ما نقول، وإلا فالويل لك.

عند الصلاة تستقبل القبلة، وعند البلاء أيضاً تستقبل قبلة، وهو أن تستقبل بوجه قلبك الحق عزّ وجلّ كما استقبلت بوجهك الكعبة، فإن استقبلت بوجهك الخلق عند الآفات كان إيمانك باطلاً، لأن البلاء عند الإيمان منكسر. انكسار القلوب فيه كبيرة.

لكن انكسار قلوب العوام للدنيا.

والخواص لحظ الأخرى.

وخواص الخواص تنكسر قلوبهم لفوات المولى أو الحجاب وقع بعد الكشف.

لكل أحد انكسار يخصه، إلا آحاد أفراد انكسارهم لأجل الحق عزّ وجلّ.

(سئل) عن قول النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(لا يقبلُ اللهُ دعاءَ ملحونا).

قال: لا يقبل الله دعاء متصنعاً مسجعاً فيه.

(أنا والأتقياءُ من أمتي برآءُ من التكلّف).

قد يطلب المؤمن الرجاء ينظر إلى ديوان معاصيه فلا يجد فيه معصية، لقن الرشد من حال صغره من كتاب إلى مقرئ إلى محراب، قد يكون هذا هو نادر فلا يرى له معصية، وفي ديوان الأوامر فلا يرى له امراً متروكاً، فيقضي عليه بنوع معصية لكيلا يهلك، ثم يتدارك فيتوب، فتكون تلك المعصية سابقته كالمعقة على راسه.

هذا الذنب في حق هذا المؤمن الصديق كذنب آدم عليه السلام، وهذا نادر شاذ لا يلتفت إليه ولا يعبأ به. الإرادة في النفس إرادتان وهما ضدان: إدارة ما سوى الحق، وإرادة الحق، فهما يصطلحان ويقتتلان إلى أن يتم أربعون سنة، وهو معنى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(مَن بلغ أربعين سنةً فلم يغلب خيرُه شرَّه فليتجهز إلى النار).

إشارة إلى هذا الأصل، يا آبياً ببيان الطرق الظاهر، طمع رؤية الباطن الفطام، ما

دمت تعرف ما سواه ويعرفونك فأنت هوس تتبعهم، وتارة تذل لهم. هذه الدار إليها طريقان، علامة الوليّ الاستغناء بالله عزّ وجلّ في كل شيء، والقناعة بالله عن كل شيء، والرجوع إليه في كل شيء، فإن أبت نفسك إلا ادعاء الولاية فحدها بهذه الخصال، فإن لم تقف فلست بولي.

لا ينبغي للعالم أن يدخل على الملوك إلا بعد إتقان إيمانه واتقائه وقوّة علمه بالله وزهده وتمكنه من المعرفة والأنس بالله، فيدخلون إليهم بقوى ويخرجون عنهم بقوى.

كنت أصحب بعض الناس يحدثني بكل ما قد جرى لي ويجري لي، وكان يمشي معه صبيّ مستحسن ويدخل إلى السلاطين، فيخطر بقلبي من ذلك شيء، فقال: يا ولدي، هذا الصبيّ هو رباط، وأخاف إن تركته هناك هلكوا به، وأما دخولي على السلاطين فليس لي إليهم حاجة، وإنما أدخل إليهم أعظهم وأكشف لهم طرق العدل، أنتم في صحبتكم خلل، ونحن نصحبهم بالأدب.

(سأل سائل) إذا كان الطعام مختلطاً كيف يصح الصيام والصلاة؟ فقال (الحلال بين والحرام بين) الشرع بين لك والتوقف أيضاً.

إذا قال لك القلب لا فهو حرام، وإن سكت فلم يقل نعم ولا لا فهو شبهة. إن عدمت المألوفات وصبرت نفسك فهو القناعة، تدري كم عنده من الطاعات والصوم والصلاة لا يعبأ بها؟ إنما مراده منك قلب صاف من الأقذار والأغيار.

الزاهد المنافق ظاهره وباطنه مكدر، الصفار في خديه، والخشوع في كتفيه، وجبة الصوف عليه، وزهده كف يديه وباطنه، يكدي نفسه راغبة إلى الحمد والذم، عينه طامحة إلى ما بأيدي الناس.

أما العارف فظاهره متلطخ بشيء من الأقسام، أقسام نفسه وأقسام تتعلق به، جهبذ ملك كأنه أستاذ داره، عازم جيشه مع سلامة سرّه مع صفاء قلبه مع رؤية حضرته، أمواج العلم تتلاطم به، بحار الدنيا لا تملأ قلبه. جميع ما في السموات السبع والأرضين وسائر الموجودات بالإضافة إلى قلبه متلاشية.

هذه صورة العارف وتلك صورة الزاهد، ما عندك من هذا خبر، فلم لا تقطع لسانك عن الطعن في الخلق؟ يا سلابين الدنيا بطريق الآخرة من أيدي أربابها، يا جهالاً بالحق أنتم أحق بالتوبة من هؤلاء العوام، أنتم أحق بالاعتراف بالذنوب من هؤلاء، لا

خير عنكم لا ربح ولا روح ولا نجاة ولا نور ولا دين عندكم، وأما دنياكم فلا تبقى، تأخذون بطباعكم وأهويتكم، تأخذون الدنيا لها للآخرة، شغلي معكم كلامي عليكم.

يشير بذلك كله إلى وعاظ زمانه وبلده، تطارشوا وتعلموا، لا يتكلم أحد كأن الكلام لغيركم، استعير لساني اليوم، أستعير قالبي اليوم، الاستئناس بالغربة والخلوة مفتاح القرب. يا من صمت في خلوته الشأن في صمت جلوتك، يا نبيّ خلوة ثم جلوة، خرس ثم نطق، إقبال على الملك ثم إقبال على الملوك.

قال بعض الصديقين: الحلال الطلق في الريحانيين، تريد أن تكون من الروحانيين حتى يكون حالك في الروحانيين، تميز بين الخبيث والطيب، مصباح سرّك شمس معرفتك، قمر قربك من ربك، الحرام عند وجود نفسك، والشبهة عند وجود القلب، والحلال الطلق عند صفاء السرّ، هذا من وراء العقول، ما دام ثمة نفس فأنت تأكل حراماً، وما دام ثمة قلب فتأكل شبهة، وإن كان ثمة صفاء فأنت تأكل الحلال الطلق، قال: لم؟ قيل:

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾(١).

لا تبالي من أين أكلت، كالزوجة السوء تقول لزوجها: اسرق وأطعمني؟ فهي لا تميز بين الحلال والحرام، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم:

(عليكَ بذاتِ الدّينِ تربتْ يداكَ).

ذات الدين تعينك على أمور آخرتك، النفس كهذه الزوجة باطناً تريد أن تميز بين الحلال والحرام، وإذا حضر الطلق بين يديك وإن كان من كسبك توقف، احسب أن ما خبز وما طبخ فتوسل قلبك إلى سرّك وتوسل سرك إلى ربك عزّ وجلّ يوجه الحق عزّ وجلّ إلى قلبك ملكاً إن كان حلالاً قال لك:

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾(٢).

يتلو هذه الآية على قلبك، عند ذلك كل، وإن كان حراماً وشبهة قال لك:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾(١).

---

(١) سورة يوسف آية: ٥٣.

(٢) سورة البقرة آية: ٥٧.

فذلك هون الحرام فلا تقربه، فإن الله يعوضك ما هو خير منـه، اقعد بـين يـدي قضائه وقدره مستسلماً حتى تأتي يد فضله تمدّ يدك إلى استيفاء حظوظك. الزهد عمل ساعة، وللورع عمل ساعتين، والمعرفة عمل الأبد، إذا قاسينا أحوالك بأحوال من تقدم لم نجدك في شيء منها، أطعمت نفسك فناظرتك بلغتها شهواتها فاستطالت عليك ولو أنك قطعت مواردها اشتغلت بكسرها بل بلغتها شهواتها وفتحت باباً لشيطانك لأنه يلقنها التمني، ما لها لسان بل يلقى إليها شيطان الجن، لا يقدر عليك، إلا شيطان الإنس، إذا شبقت بالفضول، إن احتمت المادة وقطمتها عن الحـرام والشبهات المشتبهات سكنت نائرتها، لو قللت من المباح ذابت عدة فضولها، انقلعت الشهوات منها، نبت أشجار الخوف والرجاء فيها، استضاءت ظلمة باطنها، اطمأنت إلى قلبها، نوديت:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾[٢].

العامي ينادي عند الموت، أين أنت من سماط القرب من مخدع الحضرة.

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾[٣].

لا يصفو قلبك حتى تصير ككلب أصحاب الكهف تابعة يربض بباب عتبته لقـرب القلب في الحضرة وهي منتظرة لخروجه عليك بظاهر الشرع عند ضعف إيمانك، تأخذ الرخصة بالكتاب والسنة، حتى إذا قوي إيمانك عليك بركوب العزيمة والأشد، إن ركبت سرت مع القدر وموافقته.

قيل للحلاج حين صلب: أوصني، قال: نفسك إن لم تشغلها وإلا شغلتك.

كان لي قميص في بدء أمري، كان ناعماً أخرجته إلى السوق مـراراً عـدة لم يشتره أحد، فمضيت إلى إنسان فرهنته عنده على دينـار، إلى أن جاءت أيام العيـد فـإذا بـذلك الرجل قد جاء بالقميص، قال: خذ البسه وأنـت في حلّ مـن الـدينار، فامتنعـت، فقـال: خذه وإلا أحرقته، فألزمني بلبسه، عند ذلك علمت أنه قسمي لا زهد لي فيه.

(سئل) عن قول بعض العلماء: تعلمنا العلـم لغير الله فـأبى أن يكون إلا لله، فقـال: هذا القول ثبور في حق أولياء الله، لأن التعلم لغير الله شرك، وتحمله على وجه آخر: أن

(١) سورة الأنعام آية: ١٢١.

(٢) سورة الفجر آيتان: ٢٧، ٢٨.

(٣) سورة ص آية: ٤٧.

يكون يريد به الآخرة وهو نقص أيضاً، فلم يزالوا يعملون به حتى أتي بهم إلى الله عزّ وجلّ وقربه، أخذوا ظاهراً من باطن، فرعاً من أصل، اقعدوا على مائدة العوام ثم خصوا بطعام الفضل، أكلوا أكلتين في حالة واحدة، شاركوا العوام فيما أعطوا، إذا أرادك لأمر هيأت له.

من عرف بدوّ أمري وقصد عني فهو مذنب على الحقيقة، كان أحدهم إذا رآه على خرق عادة من الكرامات يقول له: رايت هذه، هات يدك فيشهد الله عليه لا يحدث به حتى الممات.

ورجل مسكين يعمل اياماً لله حتى يأتيه سرّ من الله ليلاً يحدث بها نهاراً، سلب والله الرجل واحد.

والعلم والكرامة شيء واحد، يؤمر صاحبها بالكتمان حتى يأتي القضاء والقدر بإظهار ذلك مع حفظ قلبه وسره مع الحق عزّ وجلّ، إذا كان وقع بقلبك حسن الدنيا وزينتها هرول منها فلا شك أنها تتبعك.

(سئل) قيل له الفطام صعب، قال: عليك، لأنه ما يصعب الفطام إلا على طفل لا يعرف إلا أمه فحسب، أما من عقل وعرف الأكل والشرب زهد في ذلك اللبن الخارج من ضرع كأنه خرم إبرة.

بالله هرول واقصد الباب لعلك أن تكون من أوليائه وأصفيائه، ويحبسها عنك حتى يصفو قلبك عنها، ويتنحى من قلبك ذكرها وتدوم على فوتك حسرتها، ويقام حبك للملك مقام حبها، حتى إذا امتلأ قلبك بحب ربك والأنس به وانقطعت الآلات جيء بها خادمة مع درع عليك وحراس مع حفظة، وهي منزوعة السموم تأتي بلسان محب تقول: قسمك في الموضع الفلاني، والموضع الفلاني بنت فلان قسمك، كل لحظة في زيادة.

تملوا يا أهل العراق، يا أهل مملكة الدنيا وملوكها وملابسها وولاتها، عندي ثياب معلقة في بيت أيها شئت، لبست عليكم بالسلامة في أوآتيكم بجنود لا قبل لكم بها والسلام.

الترك زهد والأخذ معرفة. دع أقاويل من تقدم، كل واحد شيخ زمانه، والزهد غلام العارف ما دام ثمة نوع خير من الدنيا وما فيها، والآخرة نوع بقايا طبع وهوى،

أعندك ذلك الترك؟ فإن أخذ قلبه ما يأخذه حتى ذهب الكل عن القلب وانقطع بعروقه، انتهى الزهد، جاءت المعرفة، جاء الصفاء، ذهب الكدر، جاء القرب، جاء الحق، جاء المسبب، انقطع السبب.

حينئذ يرجع الثبات إليه ويقعد على باب داره، يأمر الخلق وينهاهم، تتعلق بك معاصيك، الأعداء يشتفون إن أردت أن ترغم الأعداء، فتب الآن واشتغل بآخرتك، الله عليك شاهد وهو معك أينما توجهت.

كان ابن عطاء يدعو: اللهم ارحم غربتي في دنياي.

الموت موتان:

موت العوام هو الموت المعهود.

وموت الخواص هو موت الأهوية والنفوس والطباع والعادات، فيحيا القلب، فإذا حيي القلب جاء القرب، فإذا جاء القرب جاءت الحياة الدائمة، حينئذ يحال بينه وبين ذكر الموت، في باطنه شيء يخصه، وظاهره يذكر الناس بالموت ويذكر هو معهم حكما ظاهراً.

أرى ظواهركم تشهد بالوحدانية وبواطنكم بالعكس من ذلك، أرى وجوهكم إلى الكعبة وقلوبكم إلى الدرهم والدينار (من خاف أدلج) أين الخوف؟ اللهم خلاصا. يأتي شيطان القلب المفرد في الخلق في أرض الله تعالى طائعاً مكتوفاً يديه.

متى ذكرته[1] فأنت محب، فإذا سمعت ذكره لك فأنت محبوب، متى ذكرته بلسانك فأنت نائب، فإذا ذكرته بقلبك فأنت سالك، فإذا ذكرته بسرك فأنت عارف، يتعين عليك أن لا تصحب الصالحين إلا بعد تهذيب أخلاقك السوء، وإلا ما دمت تغيرك لقمة وخرقة فلا تصحبهم، فإن فسادك في صحبتهم يغلب على صلاحك.

دع عنك هذه الرعونات ولا توادد غيره[2]، ولا تصحب غيره، ولا تصاف غيره، شوه عليك يا أخبث يا أحمق، يهودي أو نصراني أحب إليك مني؟ دجال يأتي من خراسان ينخلف ظاهره ويتفقه عليك أحب إليك مني؟ يا عباد الله، ألا إلى حياة دائمة، إلى معين

---

(١) يعني الله سبحانه وتعالى.

(٢) يعني الله سبحانه وتعالى.

لا ينضب أبداً، إلى باب لا يغلق أبداً، هلموا إلى ظل لا يزول، إلى ثمرة لا تنقص.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

يا تربية الشهوات واللذات، يا تربية الهوس، الخير فيما وراءك، احترق بنار صدق إرادتنا الحجب والأبواب فلا يبقى بيننا وبينك حجاب، تراه كما ترانا. حينئذ التلبس بالأقسام. يا مدعي الولاية لا تدع، لأنه علم ينشر على رأسك، مناد ينادى عليك. الولاية أفعال لا أقوال، بناء باطن وعمارته اتصال القلب، مفاتيحها الإيمان، وحقيقتها ليس عندك منها خبر.

تعلق بذيل نفوس عباده المطمئنين، ولا تطلب منهم لقمة ليمكنوك من لبس أثوابهم والوقوف بين أيديهم، حتى إذا دمت على ذلك لعله يقربك ويلبسك بعض خلقان كلماته ويطلعك على بعض أحواله ويثبت جأشك ويطيب مقامك، حتى إذا رأيت موارد الحق إلى قلبك غمض عينيك وأخبت، لا تفش إلى الغير سرّه، وارد الحق يأتي قلوبهم، على اختلاف أحوالهم ومقاماتهم تتغير ظواهرهم لتغير بواطنهم، ويحتاج المريد المطلع على أسرارهم أن يكون أعمى أصم سكراناً، حتى إذا ظهرت نجابته عنده وتحقق أدبه يكتم سره لعله يكسو قلبه ببعض ثيابه، يدعوا الله بظاهره، قلبه كيوشع بن نون مع موسى صلوات الله عليهما.

(يا غلام) ما ليس في ملكك فهو خارج عن مملكتك، لا يخلو: إما أن يكون لك أو لغيرك، معناه إما أن يكون قسمك أو قسم غيرك، فإن كان لك فسوف يأتيك وأنت نائم، فهذا التعب الذي ينقص فيك دينك لماذا؟[2]

لو أنك دمت على سماع العلم ومصاحبة أهل الدين والمعرفة والتفكر فيما هو آت لسهل عليك ترك الأسباب والأرباب، ترك العمل للخلق بعد الإخلاص رياء، أما إذا ترك رؤية الخلق ليظفر بالإخلاص فيرجى له، ما دمت مريداً فعليك بملازمة هذا الحكم، لعل عملك يوصلك إلى العلم يستعمل قلبك وجوارحك وسرّك، يأمرك العلم وينهاك.

اللهم ما منا إلا من يريدك، ولكن الآفات تمنعنا عنك.

---

(١) سورة آل عمران آية: ٧.

(٢) الإسلام يطلب من الإنسان السعي من أجل الرزق بجانب العبادة، فلا ينقطع للعبادة ويترك السعي فكلاهما مكمل للآخر. فلا يجلس الإنسان عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.

أوامر الله عزّ وجلّ دين عليك، فإن أخرّت مع قدرتك ظلمت، وإن تركت كفرت، خذ من الدنيا بقدر حاجتك لا للعب والاستنكار، إذا تحقق إسلامك بالتسليم سلمت نفسك إلى يد قدرة، كسا قلبك ثم كسا ظاهرك وباطنك، وتموت في اليوم كذا وكذا ثم يحييك، ثم يخرج منك الخبائث والكدورات، كلما رأى الخلق مات، وكلما رأى الحق عاش.

إذا رأى الخلق افتقر وذلّ وهان، ابتلعه العادة، فإذا رأى الحق عاش وانتعش وارتفع، غاب عن الخلق وعن نفسه وعن وجوده، عاش مع الحق ومات عن الخلق، كتاب المريدين الصادقين كلما جاءهم مريد يأمرونه بالمحو، يمحو الخلق والنفس، ثم يمحو الدنيا والآخرة، فإذا تم هذا فقلب الحق يقلبه كيف يشاء.

إذا رمت الترقي إلى هذا المقام فعليك بترك الحرام والشبهة، حتى إذا تم ذلك فعليك بترك الحلال المشترك، ثم عليك بترك المباح، ثم عليك بالحلال المطلق، وهو إجماع الحكم والعلم، إجماع الظاهر والباطن، هو ما لا يدخل في يد الملكة كما في البراري والصحاري والسواحل، يأتيك وأنت غائب عن انتظاره واهتمامه بلقم تأتيك وانت نائم، تفتح عيني قلبك ترى حولك الملائكة وأرواح النبيين، والعلم يفتيك بتناوله، يضمن لك سلامة القرب.

قم فارغاً عن الخلق لا رجاءهم ولا مدحهم ولا ذمهم، لا صورهم ولا معناهم، تأتيك منة الله بالانتعاش، ثم يأتيك القرب والغنى دوام الصحبة، والبعد عن الخليقة والفناء عن الوجود. اطلبوا المحو بعد الإثبات، والعدم بعد الوجود، والقرب بعد البعد، والصفاء بعد الكدر، والوصل بعد القطع، واللقاء بعد الفقد، صحة القلب بلا لسان، صحة السرّ بلا قلب، صحة السرّ بلا وجود:

﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ﴾(١)، ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾(٢).

إلى الخلق وبه العباد أصلح وبه قرب. يا باطل يا هوس، اقطع الأسباب واخلع الأرباب، وقد وصلت ما تركت يستقبلك هنالك كل طعام على طبق، الطبيب في دار المحبوب في دار القرب.

قام رجل يسأله مسألة قال له: أمسك، أرى سؤالك يخرج من طبعك ونفسك، لا

---

(١) سورة الكهف آية: ٤٤.

(٢) سورة عبس آية: ٢٢.

تخاطر معي أنا سياف، أنا قتال.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[1].

أما أنت يا عامي فيحذرك الله عذابه، وأنت يا خاص فيحذرك الله نفسه، ويا خاص الخاص يحذرك الله به تقليباته.

يحذرك يا عامي أن يأخذ سمعك وبصرك وقواك ومالك وأهلك، ثم ينقلك إلى الآخرة فتؤاخذ.

ويا خاص الخاص يحذرك منه فكن على قدم الحذر حتى لا تغفل يسار والحق سرك يقول له: إني أنا الله.

لا تخف ولا تحذر، إذا تم هذا، كلما تقدمت إلى الخوف يمنعك، كلما تكدر أمنك بالخوف صفاه. إذا تمت صحة القلب لا يضره ملك ما بين السماء والأرض، وليس هذا يجيء بالتحلي والتمني والتكلف، هذا بأهلية تأتي من السماء، يرقيك الفعل مع قيام الزهد في قلبك، الرحمة تنزل عليك وعلى أهل مجلسك، المباهاة والزوائد تترادف.

جاء مريد إلى حكيم فعد بين يديه فقال له: إني أتمنى بقعة من الجنة لا أطلب غيرها، فقال له الحكيم: ليتك قنعت من الدنيا كقناعتك من الآخرة، إن كان الموت حقاً لا بد منه فمت الساعة، الميت لا مخالطة له، لا عطاء له ولا منع له، لا رجاء له، لا معاداة ولا مصادقة، سكون سكوت.

كن كالميت في جلب النفع ودفع الضرر، الميت لا يتكلم، ثم إذا شاء أنطقك وأنت ميت، إذا مت عن الخلق وعنك نطقت بكلام كان صدقاً وحقاً، لأن الميت إلا بالحق والصدق.

كتبت إليه رقعة رجل صوفي يريد شيئاً قال: هذا باطل، الصوفي يصفو عن الخلق لا يراهم، الصوفي يُطلب ولا يَطلب.

قال له رجل: إذا اتسع الخرق على الراقع ما يصنع؟ قال: يقعد ساكناً موافقاً حتى يضع القدر في يده خرقة بقدر المكان أو يسد غيره عنه. إذا ضاع المفتاح منك نم على الباب، على العتبة، أنت عبد الخلق، سمنك إذا أقبلوا، هزالك إذ أدبروا، أنت هالك،

---

(١) سورة آل عمران آية: ٢٨.

أنت مشرك، قلبك فارغ من التوحيد، أنت عبد الخلق، أنت فارغ من الخيرات.

أنت خارج عن العد، لا تعدّ مع العلماء ولا المريدين ولا المرادين ولا الصالحين، لولا حيائي منه لأتيت باب كل واحد منكم واستضفته، وكنت أعرك أذنه وأهذبه وأؤدبه، يا حبّ هذا الدانق لما يقود الناظر إليه، الملتبس به.

(ويحك) تطلب مني الدنيا وهي بالمشرق وأنا بالمغرب، خذ أقسامي منها بالتوحيد، اطلب مني الآخرة وقرب الحق عزّ وجلّ دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تتواقع حيطانه ويتناثر أساسه، هلموا يا أهل الأرض نشيد ما تهدم ونقيم ما وقع، هذا شيء ما يتم، يا شمس ويا قمر ويا نهار، قالوا: نعم من الحلال ما يكتم، تتناول لمجيء القدر بسم الله.

ثم اتكأ إلى الكرسي وترك يده تحت رأسه وغمض عينيه ومكث هنالك هنية ثم قعد وقال: أنتم بله ومجانين، قعودكم عني خسارة في رأس المال لا عن عذر، لا تهوس ولا يغلب عليك شرك الأشر والبطر، أنت عن قريب ميت.

وحضر مجلسه أستاذ دار الإمام عزّ الدين ابن رئيس الرؤساء، معه خدم وغلمان كرة لوم يكن حضر مجلسه قبل ذلك ولا اجتمع به، فعند دخوله قال رضي الله عنه: كلكم يخدم بعضكم بعضاً، الله من يخدمه؟[1] كلكم خلق ذلك وجود، يا ميت يا تراب، تصير تراباً يداس قبرك، من تراب إلى تراب، من المهد إلى اللحد، ما عندك حبر حال السبب، أنت أصمّ بك خبل، بك جنون، انتبه قبل أن ينبهك الموت، كن واعظاً نفسك ووطها فرق مالك، أنت مسافر على رغم.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[2].

كل ما تملك عليك، كل من يعظمك عليك، كل من يفخمك عليك، صديقك من حذرك، وعدوك من أغراك.

اللهم نبهنا من رقدة الغافلين، وانفع بعضنا ببعض، اشغلنا بنا وبك حتى تصلح نفوسنا وتهدينا لك وتشتغل بقية العمر.

---

(١) الله غني عن العالمين، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٢) سورة الأعراف آية: ٣٤.

من شرط وعظك لغيرك أن تكون مؤمناً، لا ينبغي أن يدعو العبد الخلق إلى الحق إلا بعد الوصال إليه، لا تقلد. ويل للخائن، خان نفسه وربه ونبيه، يأمر ولا يمتثل، وينهي ولا ينتهي، ويقول ولا يعمل به، لا عبرة بجمع أكتافك وحف سباليك وصفارة وجهك، الإيمان ههنا، أشار إلى قوم كانوا يغشون أستاذ الدار هذه صفتهم، أهل الله كل منهم على قلبه شحنة، يحاربون النفس والطبع والهوى وقطاع الطريق عن الله. نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال:

(رأيت أقواماً تقرض شفاههم بالمقاريض فقلت من هؤلاء؟ قال: علماء أمتك).

اللهم أصلح الكل، اللهم اجعلنا صالحين وأصلح بنا، اجعل حوائجنا إليك،وإقبالنا عليك.

قم وضع يدك على يدي، يشير بذلك إلى أستاذ دار حتى نهرول إلى ربنا من هذه الدار الخراب ومالك وولدك، وانزو إلى الله إلى العمل، عن قريب ترد إلى الحق يسألك عن أعمالك، خلقك لتوحيده، ما خلقت للدنيا ولا للآخرة، الدنيا لا تشبعك ولا ترويك، غدارة مكراة، داهيتك رؤيتك لنفسك، نظرك إلى وجه الدنيا من تدبير نفسك وجعلك لها وزيراً.

المؤمن مدبر لا مدبر، إذا خلوت عن نفسك كلمك قلبك ثم خالطكما السرّ ثم تولاكما الحق عزّ وجلّ فتكون شحنة العباد والبلاد وهذه النفس أعزلها بماذا؟

إذا رأيت شيخاً قلت: هذا عبد الله قبلي وعبده الصالح والفاسق والشاب والصغير، بهذا تنعزل النفس وتتجعد الدنيا عن قلبك، تأخذ الآخرة عين قلبك فترميك بباب قربه، باب سلطانه، باب كبريائه وجلاله، تصغر الآخرة من عيني قلبك، تشتاق إليه وتحب لقاءه.

تنظر إلى الدنيا فتراها أوحش خلق الله، فتخرج من قلبك فتصير كالمطلقة بعد ظهور العيوب، تعزف النفس عنها ثم تأتي الآخرة مزينة فتظهر السابقة إلى عيوبها وأنها محدثة مخلوقة يشاركك فيها اليهود والنصارى، إذا اسلموا في الجنة المنقودة الصافية قرب الحق عزّ وجلّ الاستئناس والوصول إليه، لا تشتغل بهؤلاء المهوسين جهلوا الدنيا فطلبوها، جهلوا الآخرة فطلبوها، جهلوا الخلق فسكنوا إليهم، يا قومنا احذروا.

أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: احذر لا آخذك على غرة. يعقوب عليه السلام كان يبكي في الأول على يوسف، ثم عاد يبكي على نفسه، توسم فيه كونه نبينا، خاف على عصمته لما كان فيه من الحسن والجمال: (صم بكم عمي) آذان الرءوس لكم، ولا آذان بالقلوب، يا حطب النار، يا عوام، يا طغام أنتم في هوس:

﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[1].

ألا إني راع لكم، ساق لكم، ناطور لكم، ما ترقيت ههنا وأرى لكم وجود إلى الضر والنفع بعد ما قطعت الكل بسيف التوحيد، ألزمت هذا المقام حمدكم وذمكم وإقبالكم وإدباركم، عندي سواءكم ممن يذمني كثيراً ثم ينقلب ذمه حمداً، كلاهما من الله لا منه.

إقبالي عليكم لله، أخذي منكم لله، لو أمكنني دخلت مع كل واحد منكم القبر وجاوبت عنه منكراً ونكيراً رحمة وشفقة عليكم، إذا أحب الله عبداً من عباده ألقى في قلبه وجداً وشوقاً إليه.

بقي أبو يزيد البسطامي سبع مرات لما سمع منه من الكلام العجيب يفتح إلى قلوبهم أبواب القرب، لا يجمعهم مع الخلق سوى الصلوات الخمس ولقب الآدمية البشرية، وصورتهم صور الإنس وقلوبهم مع القدر وأسرارهم مع الملك. أنت طاعتك على وجهك وثيابك وظاهرك، وزندقتك في خلوتك، وكفرك على باطنك، قلبك مشحون بالنفاق والعجب وسوء الظن بالخلق، ما يظهرك إلا السيف إلا أن تتوب.

الشرع أمرنا بالسكوت والكتمان والسر، وإلا كنت أشرب إليك بأخذك وأخذت بكلمك وأخرجتك. كلامنا يعمل في ظاهركم، وقلوبنا تعمل في بواطنكم، من يتهمني ويكذبني كذبه الله، فرق الله بينه وبين عياله وماله وبلده إلا أن يتوب، ما من صلاة إلا وأعزم أن أستخلف من يصلي بالناس. حتى إذا جاء وقت الصلاة أعدت إلى الصلاة، وكذلك في وقت كل مجلس.

﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[2].

---

(١) سورة الشورى آية: ٥٣.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٨٦.

لا تفرح مع من يفرح بل احزن مع من يحزن، لا تضحك مع من يضحك بل ابك مع من يبكي، سيروا مع الهمم العالية، كلوا أقسامكم على بابه، على عتبة قربه عقل ليس عندك، أعرض عن الدنيا فيم يحصل، وإن علق عليك عيالي خذ منها لهم لا لك.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأخذ الصدقات يفرّقها على الفقراء والمساكين والمجاهدين، ثم يأتي بيوت أزواجه يقول:

(هل فتح شيء؟ جاءنا شيء؟ فإذا قيل لا يقول: إني إذاً صائم).

معلم باحتباسه أنه يريد منه الصيام، هكذا أولياء الله قد يريد أن يصعد إلى سطح بيته لينام من شدة الحر، يرى على الدرجة باباً يعلم أنه يراد منه النوم في داره، يرى باب داره مفتوحاً يعلم أنه يراد منه الخروج إلى الصحراء والبرية فيخرج.

هذه النبوّة باقية في الخلق آثارها، فائدتها معناها، منقسمة على قلوب الأولياء، النبوّة كانت طعاماً وشراباً يفي سؤر القوم. اخرجوا من عندي يا أكلة الحرام والربا لست بقاض، أنا مربي التوحيد والإخلاص، إيش أعمل بكثرتكم؟ لا منفعة فيكم، أعمالكم تنادي عليكم في وجوهكم خيراً كان أو شراً، السكوت خير لعله يمحي ذلك من وجهك، لعله تتغير خلوتك فيمحى السواد من وجهك.

قدم من الحج رجل من أهل البلدة فجاء إليّ فقلت له: تب إلى الله عزّ وجلّ، فقال: قد كنت في الحج، قلت له: قد عرفت ولكن ثم زنا وفسق وفجور فلم يتب، فلما مات رايته -حين صلاتي عليه كأنه خرج من التابوت وتعلق بذيلي، فقلت له: من هذا حذرتك.

ما أكثر كذبكم وزوركم فيما تدعون، لك شيخ ويكون لك فليكن ذلك له حتى يعطيك كتاباً يمثقل لئلا تضعف عن الطاعة والخير فيقرأ ذلك عند الموت، عند القرآن، أرجو شفاعتكم في ذلك اليوم فإنه شرك، توحيد ربيته من الصغر أضيعه اليوم، باب مفتوح عليّ أغلقه عني، نسيتكم لا حب ولا كرامة.

صرخ رجل في مجلسه وقال: الله، فقال رضي الله عنه: سوف تسأل عن هذا تحاسب عليه، لم قلت؟ رياء أو نفاقاً؟ إخلاصا أو شركاً؟ هذا اليوم فطيس، من شاء فليخرج ومن شاء فليقعد، ثم صرخ.

وقام إليه خلق كثير يتوبون صارخين باكين، إذ جاء عصفور، فقعد على رأسه، فحنى رأسه له ومكث كذلك وهو على رأسه والناس على درج الكرسي والصراخ حوله، وهو لا يبرح حتى مد يده بعض أصحابه نحوه فطار.

ثم دعا وضج الناس بالبكاء والدعاء والتوبة، فنزل وخرج على حاله إلى جامع الرصافة وتبعه خلق كثير بالبكاء والصراخ والوجد والتعري عن الثياب[1]، ثم قال رضي الله عنه: هذا آخر الزمان.

اللهم إنا نعوذ بك من شره، يلوح شيء أتمنى منه الهرب لكن وافق القضاء والقدر.

لا تذهب الدنيا دينك، احفظ ماء وجهك، اكتسب لتجمع همك، هو باب الأخذ من الله، استغن به عن الخلق، يخاطب السبب المسبب، الظاهر الباطن، التعب مفروغ منه أو في شيء مستأنف مبتدأ.

يقال له قم بنا نأتي المسبب، نأتي المعين، نأتي الأصل، نقرع مصارع القضاء والقدر، نقف على باب العلم، على رأس وادي الفضل، نمشي على النهر، الساقية نأتي أصلها، حتى إذا أتيا أصل النهر رأيا الماء يخرج من أصل جبل الفضل، قعدا هناك وخيما، جاءت الكفاية والعناية، جاءت الهداية، جاءت المعرفة، جاءت العلوم لنا أبواب شتى ندخل عليه بها، أنت تأدب.

إبراهيم الخواص رحمة الله عليه قال: بقيت في بادية أياماً لم أر فيها أحداً، فأفضى بي السير إلى مكان أخذني منه وحشة، وإذا أنا بشاب قائم هناك، فعجبت منه فقلت له: من أين؟ قال: هو، فقلت له: إلى أين؟ فقال هو: فقلت له: إن كنت صادقاً فاجعل نفسك له فداء، فصرخ صرخة ووقع.

فتقدمت إليه فإذا هو ميت، فتواريت عنه لأجمع له حصى أواريه بها، فجئت إليه فلم أجده، فإذا بهاتف يهتف: يا إبراهيم هذا الذي طلبه ملك الموت فلم يجده، طلبته الجنة فلم تجده، طلبته النار فلم تجده، فقلت: أين هذا؟ فقال الهاتف:

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝﴾[2].

---

(١) لماذا التعري من الثياب وقد أمرنا بستر العورات؟ إن سلوك البعض بتقطيع ملابسهم أو التخلي عنها ليس من الإسلام إذ لا تجوز الصلاة إلا بستر العورة.

(٢) سورة القمر آيتان: ٥٤، ٥٥.

يا هوس لا تغفل، ائتوا البيوت من أبوابها، من أبواب الشيوخ الفناء الذين فنوا في طاعة الله عزّ وجلّ، صاروا معاني، صاروا جليس بيت القرب، صاروا أضياف الملك، يغدي عليهم بطبق ويراح عليهم بآخر، وتغير أنواع الخلع.

ويطوف بهم مملكته، أراضيه وسمواته، أسراره ومعرفته، أنت من وراء حائط عرضه فرسخ، ومعك إبرة كيف لك أن تثقب القوم، إذا وصلوا إلى ذلك الحائط فتح لهم ألف باب، كل باب منها يدعوهم بالدخول فيه. خذ النعمة وفرّ إلى المنعم، لا تقيدك، دعها ومن تقيده.

انظر في وجه النعمة أهي نعمة أم هي نقمة أم رحمة؟ لا تغترّ بظاهرها، لا تنس المنعم فيها، لا تنظر يميناً وشمالاً، لا تعدل عينيك، عن المنعم، لا تأكل من يد الدنيا لعله مسموم، إذا جاءتك بطعام فانظر إلى وزيرك: الكتاب والسنة، خذ مشورتهما، فإن أفتياك توقف، لا تستعجل، لا تشر، استفت نفسك وإن أفتاك المفتون، النفس إذا جاهدتها وخالفتها انسبكت مع القلب، صارا شيئاً واحداً، خوطبت ونوديت:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾(١).

صار عندها خبر من القلب، والقلب خبر من السرّ، والسرّ خبر من الحق عزّ وجلّ، أعط الورع حقه ثم كل ولا تبال، أعط التقوى حقها ثم كل ولا تبال. وقال رضي الله عنه: نحن حاجك، قصادك، مريدوك، طلابك، محبوك، طالبوك، نأت عنا أولادنا وأهلونا وديارنا لا تخذلنا، الاشتغال بغير الله عزّ وجلّ لعب، وبالنفس معصية، وبالخلق انعراج عن بابه، من الأولياء من تسجد الملائكة له وتكتف أيديها إلى ورائها، آحاد أفراد من الأولياء ترى الملائكة. ذلك الصالح قعد في مسجد بالشام جائعاً فقال في نفسه: ليتني كنت أعلم اسم الله الأعظم، وإذا شخصان نزلا فقعدا إلى جنبه فقال أحدهما للآخر: تريد أن تلعم اسم الله الأعظم؟ قال: نعم، فقال له: قل الله، فقلت في نفسي: إني أقول ذلك، فقال: ليس كذلك، نريد أن تقول الله وليس في قلبك غيره، ثم صعدا يحذائي إلى السماء.

اجعل ظاهرك الخلق، وقلبك الآخرة، وسرّك أوقفه مع الحق خارجاً عن الدنيا والآخرة إن قدرت، وإلا فلا تعدل بالسلامة، اهرب في الفيافي والقفار، اكتسب الإيمان في

---

(١) سورة الفجر آية: ٢٧.

الخلوات والصحاري والقفار، ثم ادخل إلى الخلق، اطلب رفيقاً في خلوتك قبل الطريق إلى الخلق، وبعد كلام يأخذون، بغيرهم يفرقون، يقتسمون، هم قيام مع المعنى، يتصدقون عليك بالأخذ منك.

المريد يأخذ من الله عزّ وجلّ، والعارف يأخذ من الخلق، لأن العارف يأخذ منهم لأنه عامل جهبذ، نائب الملك يأخذ من الخلق لغيره، وطبقه مع الملك بين يديه ومن وراء الأبواب والحجب، شهواته تحت أقدامه، والخلق تحت قدمه. عصا موسى عليه السلام تبتلع الكل ولا تتغير ولا تتبدل.

إن لم تفلح على يدي، لا فلاح لك قط، لا أعلمك لطبقك، ولا ارد العصا عنك خوفاً من سلطانك وسطوتك، شغل يشغلك عني فهو ميشوم عليك، عيالك عن قريب يلحقهم شؤمك فيكدرون، الصالح يكل عياله إلى الله ويسلمهم إليه، والمنافق الفاجر يكل عياله إلى درهمه وديناره وتركته من عقاره وصنعته، لا جرم تكون عاقبتهم إلى الفقر، أنت جاهل ممقوت مبعد ملعون، قد أشرب في قلبك حبّ الدنيا، عجل الدنيا.

اللهم ارزق من طلب الدنيا لمعونته على الدين، ومن طلب الآخرة لوجهك، ومن طلب الآخرة رياء فلا ترزقه، ومن طلب الدنيا للدنيا فلا ترزقه، لأنهما حجاب عنك، ليته أفلح واحد منكم كنا نتعلق بذيله غداً.

إذا جاءني رجل صالح أقول له: إن كان لك غداً شيء فاصحبنا معك وادعنا في دعوتك، وإن كان لنا شيء فسننيلك منه، خذوا كلامي خالصاً لا لمعنى وقد أفلحتم، فإن صح هذا فقد فزت وفزتم، وإن كنت بضد ذلك فقد فزتم وخسرت:

الخلق ثلاثة: ملك، وشيطان وإنس.

فالملك خير كلي.

والشيطان شرّ كلي.

والإنس مختلط ممتزج خير وشرّ، فإذا غلب الخير لحق بالملك، وإن غلب الشرّ التحق بالشيطان.

(يا قوم) الإسلام يبكي ويستغيث، يده في رأسه من هؤلاء الفجار، من هؤلاء الفساق، من هؤلاء أهل البدع والضلال، من الظلمة، من اللابسين ثياب الزور، من

المدعين ما ليس فيهم. انظر إلى من تقدمك وإلى من كان معك آمراً ناهياً آكلاً شارباً كأن لم يكونوا، ما أقسى قلبك، الكلب ينصح صاحبه في صيده وزرعه وماشيته وحراسته، ويبصبص عند رؤيته، فإنما يطعمه عند عشائه لقمة أو لقيمات أو يطعمه شيئاً يسيراً، وأنت تأكل نعم الله وتشبع منها، لا تعطيه منها مطلوبه، لا توفيه حقه، ترد أمره، لا تحفظ حدوده.

(يا غلام) لا تعدل مع الفقر والصبر والسلامة شيئاً، استغن بالله في فقرك، فإن الغنيّ يطغى وينسى ربه، آثر الحياة الدنيا، آثر هواه على أمر الله، آثر النفس والطبع على أمر الله، آثر الفطر على الصوم، آثر الحرام على الحلال، آثر الغفلة على اليقظة، آثر المعصية على التوبة.

(ويحك) سوأتك بادية استحي، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(لأن تسمعَ برجلٍ خيرٌ من أن تأتيه، ولأن تأتيَهُ خيرٌ من أن تخبُرَهُ، فإذا خبرته مقته ومقت عمله).

هذا الزمان مؤثر أكثر الخلق الأليفة، عليك خرق ظاهر إلى باطن، قفل على خربة، خشبة مسندة، نخرة لا تصلح إلا للوقود. المؤمن في الدنيا ملك، وفي الآخرة ملك، عمل بطاعته وترك معصيته، وحده في خلوته وجلوته، مقت الدنيا، طلقها وهي وراءه مناشدة: يا بنيّ خذ طعامك وشرابك.

يقول: لا آكل حتى آتي باب الآخرة لعله مسموم، يا أماه حطي ما معك حتى تأتي قهرمانة الآخرة، فإذا جاءت وفتشت طعامك وقبلت وسميت حينئذ آكل من يدها، تأخذك الآخرة إليها تطعمك من طعامها وتسقيك شرابها، وأغلق بينك وبينها الدنيا، بينما أنت كذلك أخذت يد الغيرة في سبحة يد العزة فيك.

إيش هذا السكون إلى غيري، أما هي مخلوقة؟ أما هي مصنوعة؟ هلا أتيتنا قبل الدار حتى إذا علمت وكساك وآنسك وأطعمك الترياق ودرعك بالتوفيق والورع والحفظ خرجت إلى الدنيا في صحبته، بني لك دكة تخاطب أهل الدنيا والآخرة.

مالك ماذا تصنع به؟ يدفع عنك حمى ساعة، يأتيك الموت يدفعه عنك وربما يكون ذلك بعد ساعة، تعلق برجال الحق، عندهم مجانين غرقى في بحر الدنيا، يداوون المرضى وينجون الغرقى ويرحمون أهل العذاب، كن عنده إذا عرفته، فإن لم تعرفه

فإنك على نفسك، يبتسم القدر في وجوه الراضين بالقضاء ويأخذ بأيديهم إلى الملك ويستفتح لهم الباب ويقربهم إلى الملك، فحينئذ صاروا من حزب الله، ما هذا هوس أصل هذا كامل، وافقوا القدر تخاصموه ولا تغالبوه، المرافقة الموافقة.

قال يحيى بن معاذ: كلام المبتغين القائمين مقام الرسل أبدالهم على أسرارهم، وحي من الله، كلامهم عن الله وبالله وفي الله، اقعد بمقبرة خاطب الموتى: ما لقيتم؟ إلام صرتم؟ أين الأهل؟ أين الأولاد؟ أين الدور؟ أين الأموال؟ أين الشباب؟ أين القوة، أين الأمر؟ أين النهي؟ أين الأخذ؟ أين العطاء؟ أين المحاب؟ أين الشهوات؟ كأنهم يخاطبونك، ندمنا على ما خلفنا، فرحنا بما قدمنا هكذا. كن إذا أردت أن تزور المقابر خالياً عن الرفيق وخلوها عن النساء والرجال، كونوا عقلاء أنتم موتى عن قريب.

دخلت جنازة يوماً في مجلسه فقال: ألا ترون إلى هذا الميت؟ لما ورد عليه الموت وادهشه وغيب رشده حتى لم يعرف أحداً من اقاربه؟ فكذلك المعرفة إذا وردت على قلب المؤمن أدهشته وغيبت رشده حتى لا يعرف سوى ربه عزّ وجلّ.

ذكر وفاته رضي الله عنه

استوصى عبد الوهاب والده الشيخ رضي الله عنه في مرض موته، فقال رضي الله عنه: عليك بتقوى الله وطاعته، ولا تخف أحدًا ولا ترجه، وكل الحوائج كلها إلى الله عزّ وجلّ واطلبها منه، ولا تثق بأحد سوى الله عزّ وجلّ، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه، التوحيد التوحيد التوحيد، وجماع الكل التوحيد.

وقال في مرض موته: إذا صح القلب مع الله عزّ وجلّ لا يخلو منه شيء ولا يخرج منه شيء، أنا لبّ لا قشر. وقال لأولاده: ابعدوا من حولي، فأنا معكم بالظاهر ومع غيركم بالباطن، بيني وبينكم وبين الخلق كلهم بعد ما بين السماء والأرض، فلا تقيسوني على أحد ولا تقيسوا أحداً عليّ.

وقال رضي الله عنه: قد حضر عندي غيركم فأوسعوا لهم وتأدبوا معهم، ههنا رحمة عظيمة، ولا تضيقوا عليهم المكان. وأخبرني بعض ولده أنه كان يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، غفر الله لي ولكم، وتاب الله عليّ وعليكم، بسم الله غير مودعين. قال ذلك يوماً وليلة.

وقال: ويلكم أنا لا أبالي بشيء، لا بملك ولا بملك الموت، يا ملك الموت تنح لنا من يتولانا سواك، وصاح صيحة عظيمة، وذلك في اليوم الذي مات، في عشيته.

وسأله بعض ولده عما يجده؟ فقال: لا يسألني أحد عن شيء، أنا هو ذا أتقلب في علم الله عزّ وجلّ.

وقال لولده عبد الجبار: أنت نائم أو منتبه، موتوا في وقد انتبهتم.

ودخلت عليه وجماعة أولاد عنده وولده عبد العزيز يكتب عنه، فقال: أعط عفيفاً ليكتب، فأخذت وكتبت:

﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[1].

مروا بأخبار الصفات على ما جاءت، الحكم يتغير والعلم لا يتغير، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ، لا ينقض علم الله بحكمه.

---

(١) سورة الطلاق آية: ٧.

وأخبرني ولداه عبد الرزاق وموسى أنه كان يرفع يده ويمدها ويقول: وعليكم السلام ورحة الله وبركاته، توبوا وادخلوا في الصف، هو إذا أجيء إليكم. وكان يقول: ارفقوا ارفقوا، ثم أتاه الحق وسكرة الموت، فكان يقول: استعنت بلا إله إلا الله الحيّ القيوم، الذي لا يموت ولا يخشى الفوت، سبحان من تعزّز بالقدرة وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأخبرني ولده موسى أنه لما قال (تعزّز) لم يؤدها لسانه على الصحة، فما زال يكرّرها حتى قال (تعزّز) ومد بها صوته وشددها حتى صح لسانه بها، ثم قال: الله الله الله، ثم خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه.

ثم مات رضي الله عنه وأرضاه وجمع بيننا وبينه في مقعد صدق عند مليك مقتدر. والحمد لله رب العالمين، وصلوات الله على سيد الأنبياء ومقدم الشفعاء، محمد خير البرية، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

فهــرس